تأسيس علم الجهل لتحرير العقل

إبراهيم البليهي

حَضارَة مُعاقَة

(إمكانات هائلة تُدار بحكمة هَزيلة واستغراق في صِراعات البَقاء)



ابن النديم للنشر والتوزيع
دار الروافد الثقافية - ناشرون

تأسيس علم الجهل لتحرير العقل

إبراهيم البليهي

حَضارَة مُعاقَة

(إمكانات هائلة تُدار بحكمة هزيلة واستغراق في صِراعات البَقاء)

منشورات ابن النديم
Editions Ibn Nadim

حَضارَة مُعاقَة

(إمكانات هائلة تُدار بحكمة هزيلة واستغراق في صِراعات البَقاء)

حَضارَة مُعاقَة

إبراهيم البليهي

الطبعة الأولى، 2023
عدد الصفحات: 312
القياس: 17 × 24
الترقيم الدولي ISBN: 978-614-466-153-6
الإيداع القانوني: السداسي الأول/ 2023

ابن النديم للنشر والتوزيع
وهــــران: 51 شارع بلعيد قويدر
ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد
تلفاكس: 88 97 25 41 213+
خلــــوي: 03 76 20 661 213+
Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
الإمارات العربية المتحدة – مركز الأعمال
مدينة الشارقة للنشر – المنطقة الحرة
خلوي: 28 28 69 3 961+
Email: rw.culture@yahoo.com
info@dar-rawafed.com
www.dar-rawafed.com

توزيع: **دار الروافد الثقافية - ناشرون**
هاتف: 37 04 74 1 961+
ص.ب. 113/6058
بيروت–لبنان

المحتويات

صرحٌ طبيٌّ عظيم بالكفايات الفائقة

بعض الصروح الحكومية تحظى بنخبة من الشخصيات الاستثنائية يتميزون بكفايات عظيمة فائقة؛ وإخلاص عميق، وأداء رائع، ويحتل المستشفى العسكري بالرياض القمة في عظمة الكفايات الفائقة، والعناية القصوى، والتجهيزات الدقيقة الأكثر تطورًا...

بعض الأفراد يكون إشعاعًا باهرًا من القدرات والكفايات والإخلاص والنقاء والنبل؛ إن أروع نموذجٍ لهذه الخصال الاستثنائية الفائقة: الدكتور **عبدالله الخشيل** المدير الطبي لمركز الأمير سلطان لأمراض القلب؛ فحين لاحظتُ ورمًا في رقبتي اتصلت به وهو موضوعٌ ليس من اختصاصه ورغم أنه كان وقتها مجازًا فقد رتَّب لي لقاء مع طبيب من نفس المستوى الرفيع من الكفايات الفائقة والإخلاص والتفاني والنبل: الدكتور **محمد الدويش** الذي رتَّب إجراء عملية استئصال الورم السرطاني بواسطة الجراح الماهر الدكتور خالد الهاجري. أما الرائع الدكتور مشعل الخنين فقد غمرني باهتمامه وعميق نبله، وسخاء نفسه، وكريم أخلاقه، وغزير علمه. أما الرائع الوجيه فيصل الدويش فقد قدَّم لي في ذلك الظرف العصيب؛ خدمةً سخية دون أية معرفة سابقة وإنما جاءت مبادرة منه قدَّمها بنبله الزاخر، وكرمه الأصيل، وحسه الإنساني الرفيع...

وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ حصلتْ لي أزمةٌ قلبية؛ فاتصلت هاتفيًّا بالرجل الاستثنائي الدكتور عبدالله الخشيل وكان في مهمة فرتَّب لي مع طبيب القلب الرائع الدكتور عبدالله الصعيري تساعده الرائعة ناهد؛ فتم كل شيء

بمنتهى العناية والكمال كما أن جهد الطبيب الفائق الدكتور محمد العتيبي الذي أجرى لي عملية القسطرة؛ يستحق الثناء العميق...

إن الباهرين: الدكتور عبد الله الخشيل والدكتور محمد الدويش وزملاءهما ليسوا بحاجة إلى ثنائي فهم بكفاياتهم الفائقة، وأخلاقهم التي تفيض إخلاصاً ونقاءً ونبلاً، يعرف ذلك كل من أُتيح له أن يحتاج إليهم أو يتعامل معهم يجعل ثنائي فائضاً عن الحاجة؛ فمثل هؤلاء الرجال هم بكفاياتهم الفائقة وإخلاصهم؛ أكبر من أي ثناء، وأروع من أي تنويه، وأعظم من أي قول...

لا تربطني بالدكتور الخشيل ولا بالدكتور الدويش أية معرفة سابقة بل هي مجرد علاقة مريض بطبيب وهنا تتجلى عظمة الإخلاص والنبل والحس الإنساني الفائق. إن من واجبنا كسعوديين أن نفخر بمثل هؤلاء الرجال الفائقين، وأن نغتبط بوجود مثل هذا الصرح الطبي العظيم...

إبراهيم البليهي

المقدمة

كل فصلٍ من هذا الكتاب جاء إجمالًا لموضوعِ كتابٍ كاملٍ؛ فضمن المخطط الذي كنت وضعته لمشروع (تأسيس علم الجهل لتحرير العقل) كان المقرر أن أصدر كتابًا بتفاصيل شاملة عما تختلف به الحضارة المعاصرة عن كل الحضارات القديمة. وكان المقرر أن يكون عنوان الكتاب هو (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) وخوفًا من أن لا تُمهلني الحياة لإنجاز الكتاب المفصل؛ فقد أجملت الموضوع في الفصل الذي بعنوان (مكتسبات نوعية تميزت بها الحضارة المعاصرة) كما كنت أنوي إصدار كتاب بعنوان (العقل يحتله الأسبق إليه) لأعالج أكبر معضلة منعت بزوغ الإنسان الحديث كما تتيحه له قابلياته العظيمة؛ فأجملت الموضوع في الفصل الذي بعنوان (الجهل البنيوي يتحكم بالعقل البشري) لأني خشيت أن لا تمهلني الحياة لإنجاز كل الكتب التي وضعتها ضمن مخطط المشروع. وأرجو أن يكون في الإجمال ما يغني عن التفصيل. إن أكثر الناس يتوهمون أن الإنسان قد بلغ الغاية في تقدمه. أما الحقيقة فهي أن الإنسان ذاته رغم كل التقدم العلمي، والتطورات التقنية، والوفرة الهائلة في الأدوات والوسائل؛ لم يتجاوز متطلبات البقاء؛ أي أنه ما زال مستغرقًا في متطلبات جسده؛ فهو يتعلم للوظيفة وليس من أجل المعرفة وتظل متطلبات البقاء تستنزف اهتمامه ووقته وطاقته. وبذلك يظهر أن الإنسان ذاته ما يزال بدائيًا. إن تحضُّر الإنسان يقاس بعظمة أخلاقه وارتقاء فكره وفي تحرره من السوابق؛ فالسوابق عوائق ويكتسب الإنسان من القيمة الإنسانية المحضة بمقدار انعتاقه مما هو مكبَّل به من العداوات والتحيزات والولاءات والتصورات. إن الإنسانية كلها ما تزال تفكر بعقلية الماضي غير أنها تملك إمكانات هائلة إلا أن استغراقها في الصراعات وفي ركائز الاقتصاد وفي متطلبات البقاء؛ قد أبقاها معاقة فكرًا وأخلاقًا...

إن العالم مغمورٌ بطوفان المعلومات، لكن ذلك يبلبل العقل أكثر مما يسدِّد خطاه؛ لذلك ينبغي التركيز على إصلاح التفكير، والعناية بالتفكير العقلاني، وتوعية الإنسان بالنقائص الطبيعية للعقل البشري، والتأكيد بأن الأصل في تفكير الإنسان وسلوكه أنه محكومٌ بالنسق الثقافي الذي تَطبَّع به في طفولته، وأن أنماطه الذهنية تختلف عن الأنماط الذهنية لكل الآخرين وأن من طبيعة الإنسان أنه يتوهم المعرفة؛ فهو لا يعلم أنه لا يعلم. لذلك فإن عالم النفس المعرفي ستيفن بِنكر قد ركَّز في آخر كتبه على (العقلانية) وقد ألقاه محاضرات في جامعة هارفارد، ثم نشره في كتاب؛ وهو يُعبِّر عن عميق الأسى؛ أنه رغم وفرة الأفكار المضيئة، ورغم تقدم العلوم المعرفية، ورغم تعميم التعليم في كل العالم؛ فإن الغالب على البشر حتى في أرقى المجتمعات وأشدها ازدهارًا؛ أنهم ما زالوا غير عقلانيين؛ إنه يتساءل بمرارة: لماذا العقلانية نادرة؛ رغم أنها ضرورية. إن دراسات معمَّقة كلها تتضافر لتؤكد نفس النتيجة؛ فالناس رغم كل ما أتيح لهم من معارف، ورغم أن ساعات العمل محدَّدة، بما يُبقي فراغًا كافيًا؛ لمواصلة الاطلاع، وتوسيع الإدراك، وتعميق المعرفة. ولكن رغم ذلك ورغم المدة الطويلة التي تستغرقها مراحل التعليم؛ فإن الإنسان ظل غير مهتم بالفكر الفلسفي، ولا بالمعرفة الموضوعية خارج الإلزام التعليمي. إن التعليم يقدم العلم كمسائل وليس كرؤية فكرية ومثلما يقول غاستون باشلار في كتابه (تكوين العقل العلمي): «إن العلم الحديث في تعليمه المنتظم؛ لا يُفسح المجال إلا قليلا أمام تاريخ الأفكار العلمية» ويضيف: «العلم الباطل يَسحق العلم الصحيح» ويضيف: «إننا إذْ نوفر إشباعًا مباشرًا للفضول، وإذْ نضاعف فُرص الفضول، دون تشجيع الثقافة العلمية؛ إنما نخلق العقبات أمامها، فيجري إحلال الإعجاب محل المعرفة، ووضع الصور موضع الأفكار» ويضيف: «إن جمهورًا كهذا يظل ضائعًا» لذلك بقي الإنسان عمومًا غير عقلاني حتى في الأمور التي تهمه وتستوجب منه التفكير المتأني الفاحص. إن البشر ما يزالون في حكم القطيع؛ فالحياة البشرية عمومًا؛ تقوم على الانفعال والرغبات والاحتياجات ومختلف الدوافع التلقائية؛ إنها تأتي استجابات تلقائية للفعل ورد الفعل كما تقوم على التقليد والمحاكاة والاندماج في المجموع، والذوبان في التيار العام، أيًا كان

اتجاهه ومحتواه. إن وفرة الأفكار المضيئة، وتقدم العلوم، وتوافر المعرفة، حول كل ما يقدم للإنسان كل ما يحتاجه لتنمية أفكاره، وتعميق إدراكه، وتأصيل معارفه؛ لكن كل ذلك بقي طي الكتب لكنه لم ينتقل إلى عقول البشر. لقد توافرت الوسائل والأدوات والمناهج والمعارف التي تُيَسِّر الارتقاء بالتفكير إلى المستوى الأرفع الذي يليق بالإنسان. إلا أن الإنسان بقي ذائبًا في التيار العام أيًا كان اتجاهه ومحتواه؛ مثلما كان خلال كل العصور...

ولأن التحقُّق العلمي مضادٌّ لطبيعة الإنسان؛ فإنه قد دُفِع إليه دفعًا، أو اضطر إليه اضطرارًا. والنتيجة هي كما يقول عالم النفس إريك فروم: «إن الإنسان خضع لحاجاته المغتربة؛ فهو كائنٌ مجرَّد من إنسانيته؛ جسديًّا وذهنيًّا؛ فهو السلعة الآلية» ويقول فيلسوف العلم غاستون باشلار: «ما من معرفة تنشأ عن تجميع؛ فعلى المعرفة دائمًا أن تكون ذات قيمة تنظيمية، أو بالأصح ذات قيمة مُعيدة للتنظيم» أما جون ديوي فيُشَبِّه التعليم الوصفي اللفظي بأنه يشبه من يريد تعليم السباحة في الصحراء؛ فمثلما أن تعلُّم السباحة يتطلب وجود الماء؛ فكذلك التعليم يتطلب أن يكون مرافقًا للممارسة. أما من ناحية غياب العقلانية في التفكير البشري عمومًا فكما يقول الفيلسوف برتراند رسل في كتابه (آمال جديدة): «يوجد انقسامٌ عميق في ذواتنا بين الجزء العاقل والجزء غير العاقل» لذلك فإن العقلانية في كل العالم، لم تتأسَّس على تزكية العقل الإنساني تزكية مطلقة، والإشادة به إشادة غير مشروطة، وادعاء كماله ادعاء مفْرطا، كما يشاع وكما يجري تأكيده والترويج له وإنما تأسَّست العقلانية على الوعي الجاد بـهشاشة العقل البشري واكتشاف أنه على مر العصور يحتله الوعي الزائف في غالب الأحيان لقد كانت العقلانية وما تزال ثورة على استسلام الإنسان للزيف كما كانت احتجاجاً على سرعة تصديق العقل للتضليل لذلك فإنها لا تنشغل بتمجيد الإنسان وتأكيد قدرات عقله وإنما ترى أن مهمتها الاساسية أن تواصل تذكير الإنسان بجوانب ضعفه وأن تؤكد له أسبقية العطالة لعقله وأن توقظ وعيه ليدرك شدة قابليته للاستلاب وعطالة الفهم وسهولة الاقتناع بالزيف...

العقل المكوَّن يكون دائمًا سابقًا للعقل المكوِّن فالتكوين اللاحق يقاومه التكوين السابق يقول غاستون باشلار في كتابه (العقلانية التطبيقية): «إن الواقع كتلةٌ من

الاعتراضات على العقل المكوَّن» ويرى باشلار: «أن الانتقال من مستوى التجربة العامية، إلى مستوى التجربة العلمية؛ يصطدم بست عقبات أساسية» ويقول: «فالفكر العلمي الحالي ينفصل في عقل العالم نفسه؛ عن الفكر العامي؛ وإذا بالعالم في النهاية إنسانٌ مُنِح سلوكين؛ هذا الانقسام يبلبل جميع المناقشات» إن العالم في معمله؛ يلتزم بما تكشفه الآلات الدقيقة في المختبر. لكنه في المنزل والسوق والنادي والمقهى وفي سائر وقائع حياته يكون محكومًا بالنسق الثقافي الذي تَطبَّع به في طفولته. ويؤكد باشلار: «على ضرورة التشكيل الثوري للعقلانية» ويقول: «إن سيطرة الحسي تتعارض في صفة مميزة للعقلانية، مع الاختزال في الحسي» ويقول: «إن للتنظيم العقلي قوةٌ تنسيقية مختلفة تماما، وقيمة استدلالية مغايرة كليًّا. ومدى اتساعه إنما يحدده اختراقه» ويهتم باشلار بالعوائق المعرفية فيقول: «عند البحث في الشروط النفسية لتقدم العلم؛ نصل حينًا إلى الاعتقاد بأنه ينبغي وضع مشكلة المعرفة العلمية في صيغة عوائق. ولا يتعلق الأمر هنا بعوائق خارجية كتعقُّد الظواهر وزوالها، ولا بالطعن في ضعف الحواس والفكر الإنسانيين: ففي فعل المعرفة ذاته تبرز بكيفية صميمية، وبنوعٍ من ضرورة وظيفية، تعطلات واضطرابات؛ فهنالك سنتبين علل الركود بل والنكوص، وهناك سنكشف عن علل السكون التي سندعوها عوائق إبستمولوجية» إن باشلار يفصل فصلا كاملا بين المعرفة البديهية التلقائية وبين المعرفة العلمية فليست إحداهما استكمالا للأخرى وإنما هما ضدان...

في دراسة للدكتور محمد وقيدي عن (فلسفة المعرفة عند باشلار) يقول: «فالمعرفة العامة تجعل المسافة قصيرة بين الواقع والفكر، أما المعرفة العلمية فإنها تَفْصِل بينهما بالرجوع المستمر إلى التركيب العقلي، أي بالمحاولة المستمرة لإضفاء العقلانية على التجربة. بدون ذلك سنترك المجال للمكبوتات العقلية لكي تفعل فعلها فتعوق بلوغ الحقيقة الموضوعية للظواهر» إن العطالة الثقافية ليست كعطالة الأجسام التي أصبح ممكنا تجاوزها بالمخترعات وتسخير الطاقة فعطالة الثقافة أشد استعصاء على الزحزحة والتحريك وهي تتأبى على التغيير لأن كل ثقافة تكون راضية عن ذاتها مهما كانت متخلفة بل إن رضاها عن نفسها يشتد بمقدار إمعانها في التحجُّر وبسبب ذلك عجزت المجتمعات عن تجاوز تخلفها إن هذا هو الاعضال البشري الأفظع فالوعي الزائف يصعب عليه

أن يعترف بزيفه فيقاوم محاولات الوعي الحقيقي إن من عاش عمره وهو يتوهم أنه على الحق المطلق وأن الآخرين على الضلال المبين لا يمكن أن يستجيب لمراجعة ذاته أو ينقاد إلى التأكد من محتويات ذهنه فهو قد تشكَّل عقله على توهم امتلاك الحقيقة الناصعة المطلقة المستغنية والمتعالية فكيف يستبدل ما يعتبره باطلاً بواحاً بما يوقن أنه حق محض إنها بمثابة استبدال للذات المعشوقة بذات دميمة مغايرة ولا يمكن أن يرضى الإنسان بالتخلي عن ذاته التي يعشقها جهلاً منه بطبيعة تكوينها إلا إذا توهج وعيه بشكل استثنائي وبات قادراً على إعادة تشكيل ذاته بمقومات ذاتيه جديدة...

إن الذي يتوهم الاكتفاء ويعتقد أنه الأكمل وأن كل الآخرين تافهون وضائعون لن يحسَّ بأي نقص في معارفة ولا أي خلل في طريقة تفكيره فيُصدر الأحكام والآراء جزافاً دون تحليل ومن غير احتكام إلى الوقائع إنه يجهل أخطاء التفكير فلا يحاول أن يتجنبها لأنه يجهلها ومَن جهل شيئاً عاداه إنه لا يعرف التحيزات التلقائية للذات لذلك ينظر إلى تحيزاته وكأنها حقائق موضوعية إنه يحصر تفكيره وجهده في البحث عما يؤيد المستقر في ذهنه لأنه يتوهم أنه على الصواب المطلق فلا يطلب المزيد من المعرفة أو المهارة أو الأفكار ولا يحاول أن يتعلم أساليب التفكير السليم لأنه مقتنعٌ بسلامة تفكيره إن الذي لا يشعر بالنقص لا يسعى للكمال لأنه يتوهم إنه قد صاحبه الكمال منذ ولادته أما الذي يعتقد أنه مصيبٌ دائماً فتكثر اخطاؤه دون أن يحتاط بل يقع في أخطاء فظيعة دون أن يعلم والذي يجهل شبكة الأوهام يتخبَّط فيها وهو لا يدري ومَن لا يعرف كيف يتشكَّل العقل والوجدان منذ الطفولة بالجهالات يبقى مغتبطا بهذه الجهالات ويقاتل الناس لإلزامهم بأن يعتنقوا جهالاته إن الذي يقتنع بأن من حقه الوصاية على الناس يعاني من جهل فظيع بالطبيعة البشرية وبطبيعة ذاته وبطبيعة المعرفة وبهشاشة العقل وأخطائه و أوهامه والتباساته...

لذلك فإن العقلانية تقوم على الاقتناع بمحدودية العقل البشري واتهامه بالقصور الشديد وتلبُّسه بالأوهام الكثيفة واستمراره على الأخطاء المتراكمة وانسياقه مع الأهواء الجارفة وبرمجته بالتقاليد الخرافية وغفلته التلقائية المطْبقة عن كل هذه الآفات والعقبات والقيود والنقائص...

إن اكتشاف فلاسفة اليونان في القرن السادس قبل الميلاد أن المعضلة الإنسانية الكبرى المستعصية والأزلية في كل عصر وفي كل مصر هي عجز العقل البشري عن اكتشاف أسبقية الجهل المركَّب في حياته مما يستبقي هذا الجهل المركب مهيمنا عليه إلا إذا هو انفصل فكريا لأي سبب عن الجاذبية التلقائية للواقع لقد لاحظ الفلاسفة الأقدمون والمحدثون والمعاصرون أن الجميع يتوارثون هذا الجهل المزدوج ويغتبطون به ويبقون عليه ويستميتون في الدفاع عنه إن هذا الاكتشاف المهم والمفصلي هو الذي أدى إلى استنفار الفاعلية النقدية لإخراج الإنسان من غبطته بجهله وإيقاظ الشك في نفسه ليدرك بأن هذا الجهل المستقر والمزمن الذي يحتل ذهنه والذي يجري منه مجرى الدم ويسري فيه سريان الحياة لم يتعرَّض لأي فحص أو تحليل أو مراجعة وأن هذه الغبطة بالموروث غير الممحَّص ليست محصورة بأمة دون أخرى ولا بعصر دون غيره وإنما الناس في كل الثقافات المتباينة وفي جميع العصور يعتبرون ما هم عليه وما توارثوه هو حقائق خالدة...

إن الرضى عن الذات وتوهُّم الكمال والاقتناع بالاكتفاء بما هو موروث وتعطيل قدرات الأحياء وتجييرها لصالح تقديس الأقدمين هي الآفات التي عطلت العقل البشري آلاف السنين وما زالت تشلُّ العقل وتُنيم الأمم لذلك فإن ما يميز العقلانية هو اقتناعها بقصور العقل البشري ووثوقها من قابليته التلقائية للزلل الشديد ومشاهدتها له وهو يقيم على هذا الزلل قرونا طويلة ليس في زمان دون غيره ولا في مكان دون آخر وإنما في كل الأزمنة وفي جميع الأمكنة وهذا يستوجب اعتماد المراجعة الشاملة للثقافات السائدة وعدم التوقف عن النقد والتمحيص وتشييد ثقافات تتأسَّس على معارف علمية ممحصة وتخليص العقل الإنساني من الجهل المركَّب واستصحاب الشك في كل معرفة بشرية والاستعداد الدائم لوضع الفُهوم والرؤى والتصورات والأحكام البشرية موضع المراجعة والتحليل والغربلة...

إن العقلانية حين تدعو إلى إعادة تشييد المعرفة الإنسانية لتخليصها من عناصر العطالة فإنها تعترف بقصور العقل وتؤكد أن نشاطه لا يكون ناجعاً إلا بالتنظيم الدقيق والمنهجية الصارمة والتواصل المنفتح والتغذية المستمرة إنها تعترف بحدود العقل وتثق أن نجاعة جهده تكمن في قدرته على نقد ذاته وعلى

تغذيته من كل الآفاق من خارجه واغنائه من جميع الروافد فلم تتأسَّس العقلانية على اكتشاف قدرات خارقة للعقل وإنما بالعكس تأسست احتجاجاً على عطالته وجموده واستلابه لقد قامت على الاعتراف بضعفه والإيمان بأنه لا يكتسب القدرة إلا بالنقد والتحدي والمواجهة الحامية بين الاتجاهات المختلفة وأنه متى رضي العقل عن ذاته واكتفى بما لديه أو عاش ضمن حدود راكدة محميَّة من النقض والتفنيد ومن المنافسة والصراع مع الأفكار المغايرة فإنه لا يتطور بل يميل إلى الركود والتدهور...

إن إدراك هذا الاعضال البشري العام والمزمن والمهيمن هو الذي هيأ لظهور الفكر العقلاني الذي هو في جوهره فاعلية نقدية فالعقل إن لم يستنفره النقد ويحركه التحدي فإنه يميل تلقائياً إلى الجمود على الراهن والاستكانة للواقع والغبطة بالسائد وكما يقول المفكر الفرنسي إدقار موران: «إن الإنسان كائنٌ يمتح من أوهام وخرافات وعندما تتوقف المراقبة العقلانية يقع الخلط بين الموضوعي والذاتي، والواقعي والخيالي. وعندما تـهيمن الأوهام والتهور الجامح يُخضع الإنسانُ الجنوني الإنسانَ العاقل ويوظف مهارة العقل في خدمة أوهامه» فلا سبيل لإخراج الإنسان من غبطته بجهله ومن أوهامه وخرافاته إلا بفك قيوده وإطلاق قواه ولا مَخرج إلى ذلك إلا باستنفار عقله استنفاراً موضوعيا ينفصل به عن أهوائه الذاتية وتفضيلاته الموروثة وكما يقول موران: في كتابه (تربية المستقبل) «إن النشاط العقلاني للفكر هو ما يسمح بالتمييز بين اليقظة والحلم، والخيال والواقع، والذاتي والموضوعي» لكن العقل لا يحقق هذه الغاية ارتجالاً وإنما يجب أن ينظِّم نشاطه؛ فيراقب ما يحيط به بوعي مستنفَر، ويراقب ذاته بتجرد واهتمام وأمانة، ليستبعد جموح الخيال وعواصف الرغبة ويقارن الرؤى المتعارضة ليدرك كيف يفكر الناس ضمن الأُطر الثقافية المختلفة التي تُحدِّد طريقة تفكيرهم كما تُحدِّد اهتماماتـهم ورؤاهم عن الكون والحياة والإنسان والفرد والمجتمع وعن الممكنات والمحالات...

إن العقلانية هي التي فجَّرت طاقات العقل وألهمت الإنسان كشف الحقائق وتأسيس العلوم وإنجاز المخترعات وتدل حياة المجتمعات القائمة عليها أن من أنفع نتائج العقلانية ومن أهم مقتضياتـها البُعْد عن التعصب لأن العقلاني يدرك

أن معارفه ظنية وأن أحكامه وتصوراته قائمة على هذا الظن لذلك فإنه مهما اجتهد في البحث يضع في اعتباره احتمالات الخطأ والوهم في ما عنده واحتمالات الصواب في ما عند المخالفين له ومُقتضى ذلك أن لا يتعصب لرأيه وإنما يضع الأبواب مشْرعة للمراجعة بل للتراجع متى توفرت حقائق تستوجب ذلك فيحترم اجتهادات المخالفين مثلما ينتظر منهم أن يحترموا اجتهاده...

إن التاريخ العقلاني ليس خطًّا نمطيا متصلبا وإنما هو سلسلة من المراجعات الدائمة والفحص المستمر والتعديلات المتكررة والطفرات الفكرية والعلمية المشهودة إن المراجعة للمواقف والرؤى والتراجع عن التصورات واعتناق تصورات جديدة أملتها الكشوف المتحققة والوقائع المتجددة لا تمثل حالات استثنائية في الفكر العقلاني وإنما هي الأسلوب المعتمد فيه...

إن العقلانية تقتضي التسامح مع الجميع فهي ترى أنه ليس لدى أي طرف مهما بلغ ذكاؤه وعبقريته وعلمه وصدقه ما يبرر له أن يتوهَّم بأنه الوحيد الذي يملك الحقيقة الناصعة وبأن غيره دائماً مخطئون فالعقلانية هي في جوهرها دعوة صارخة إلى التواضع وتأكيد صارم على حق الاختلاف وهي تؤدي تلقائيا عند الملتزم بها إلى التسامح ليس فقط مع الباحثين المجتهدين وإنما حتى مع الجاهلين المتعصبين فالذي يعرف السبب يبطل عنده العجب...

وهنا تبرز المفارقة الصارخة التي لم يجر بحثها وهي أن العقلاني لا يثق ثقة تلقائية بعقلة وإنما لابد أن يعتمد في رؤاه وأحكامه ومواقفه على حقائق واضحة ووقائع ثابته ومع استخدامه لكل وسائل التحقُّق فإنه يبقى في دائرة الظن الراجح والاحتمال الغالب ويرحب بأي كشف يزيده معرفة أو يُعَدِّل رؤاه فهو ليس محكوماً بالتعصب لاتجاه معيَّن وإنما يميل مع الحقائق حيث مالت...

أمَا أعداء العقل والمحاربون للعقلانية فإنهم يدَّعون بأن عقولهم قادرة وبكل بساطة على الوثوق التام والجزم القاطع فعقولهم كما يتوهمون تملك الحقيقة المطلقة فلا يخامرهم أي شك فيما استقر في أذهانهم وهذا يعني ضمناً وبشكل تلقائي ادعاء قدرات خارقة لعقولهم فلو كانوا يؤمنون بأولوية الخطأ وأصالة الجهل والتباسات الوهم وصعوبة استخلاص الحقائق وسط ركام

التناقضات لما كانوا بهذا الوثوق الأعمى فادعاء الصواب المطلق والدائم لأحكامهم وتصوراتهم وآرائهم ومواقفهم هو ادعاءٌ للكمال وتوهُّم لقدرات عقلية خارقة تعصمهم من الزلل وهو مالا يمكن أن يدعيه العقلانيون...

إن هذا الوثوق الأعمى بما هو سائد والغبطة بما هو مألوف والاستماتة في الدفاع عن التصورات المستقرة تلقائيا في الأذهان ليست محصورة بالمتعلمين وإنما يستوي في ذلك الأميون مع المتعلمين بل إن الأميين أشد وثوقاً وأعظم غبطة بما هو مستقر في أذهانهم فيدافعون عنه كدفاعهم عن أرواحهم فالعقلانية ثورة فكرية ضد الغبطة بالجهل المركَّب الموروث...

إن عقل الإنسان عند ولادته هو في نظر العلم مجرد قابلية يجري تشكيلها بكيفيات شديدة التنوع تبعاً لتنوع الثقافات المتوارثة، كما تختلف البنية الذهنية القاعدية لكل شخص، عن البنيات الذهنية لكل الآخرين، وكذلك تتباين الأنماط الذهنية لمعارفهم المكتسبة. ولأن العلم بمعناه الحديث طارئٌ على الحياة الإنسانية فالثقافات تكوَّنت قبل ظهور العلوم وقبل الفكر الفلسفي وقبل إدراك فاعلية النقد حيث يجري توارثها كما هي دون مراجعة لذلك فإن الفرد في كل مكان لا ينمو في بيئة علمية وإنما تتلقاه وتُشَكِّله بيئة اجتماعية وثقافية جُلُّ مكوناتها تقوم على الارتجال والمشافهة والمحاكاة والتوارث التلقائي وبذلك يصاغ عقل الفرد في كل المجتمعات بثقافة لم يجر فحص معارفها ولا تحرير مسلَّماتها وهو يمتصها من البيئة امتصاصاً قبل تكوين وعيه لذلك فإن منطق العقل والعلم يقتضي إخضاع هذه البرمجة للمراجعة العميقة وإعادة التكوين من قبل الفرد إذا اشرق وعيه ولكن واقع الناس في كل الثقافات أن الناس يبقون مغتبطين بما هم عليه ويفتخرون بما ورثوه عن أسلافهم من قيم وتفضيلات وتقاليد وعقائد ورؤى ومواقف ولا يختلف في ذلك المتعلمون عن الأميين فالتعليم لا يؤثر كثيراً في البرمجة الثقافية السابقة له فالعقل يحتله الأسبق إليه أما ما يأتي بعد ذلك مخالفاً له فيجري ليُّه وتطويعه ليلائم البنية الذهنية القاعدية...

وبينما أن أعداء العقلانية يزكون عقول أنفسهم تزكية مطلقة ويثقون بما تتوصل إليه عقولهم وثوقاً تامًّا فإنهم يحكمون على عقول كل المخالفين لهم بأنها غير راغبة في معرفة الحق ولا الالتزام به وبأنها عاجزة عن اكتشاف

الحقيقة فهي في نظرهم لا تصل إلا إلى الزيف والضلال والباطل وبالمقابل فإن العقلانيين يعترفون بقصور عقولهم هم أوّلاً ويؤكدون بأن آراءهم قابلة للخطأ وبأن أحكامهم قابلة للنقض وبأن أفكارهم ليست سوى مقاربات بشرية احتمالية لذلك فهم مستعدون للعدول عنها متى اتضح لهم ما يستوجب هذا العدول...

إن اكتشاف نقائص العقل البشري وإدراك أولوية الوعي الزائف والعلم بقابلية العقل للاستلاب وقيام الشواهد الكثيرة على سهولة تضليل الناس هي التي أدَّتْ إلى نشوء الفكر العقلاني الذي هو في جوهرة فكرٌ نقديٌّ فاحص فقد توفر اقتناعٌ تام بأنه لا بد أن يدرك العقل هذه الحقائق عن طبيعته وتكوينه وقابلياته وأن يكون متأهّبًا دائمًا لفحص قناعاته وإعادة النظر في مسلماته وأن يضطلع بمهمة الإيقاظ المستمر لذاته والحفز الدائم لنفسه وأن يقتنع بأنه لا خلاص له من أغلاله إلا بنقد شديد للواقع وتشكُّك مستمر في المألوف فالإنسان لا يفطن لاستلابه ولا ينتبه لاختطاف عقله إلا إذا صُدم بنقد شديد يتحداه ويستفزه ويدفعه لمراجعة ذاته ويحمله على التأكد من محتويات ذهنه و يضطره إلى إعادة النظر في مسلَّمات ثقافته ويحفزه إلى فحص تفكيره والتعرف على آليات استجاباته والتأكد من مرجعية اهتماماته وتفضيلاته وآرائه وأحكامه وأسبقياته...

إن العقلانية بمعناها الأشمل وليس بالمعنى الفني المقابل للتجريبية قد قامت على اكتشاف نقائص الإنسان وتأكيد ضعفه وقابليته التلقائية للسُّبات الثقافي والاستغلاق العاطفي والعقم الذهني والاجترار المعرفي وليس كما أشيع من أن العقلانية قامت على تأليه العقل وادعاء كماله لقد كان اكتشاف قابلية العقل البشري للسُّبات التلقائي هو الاكتشاف الأكثر أهمية في تاريخ الحضارة فبهذا الاكتشاف تحقق الإنسان من أن عقل الفرد والجماعة والمجتمع والأمة لا ينمو ويتطور إذا هو رضي عن ذاته واكتفى بما هو عليه وإنما الشرط الأساسي والمبدئي للنمو والتطور هو الإحساس القوي بالحاجة إلى التجاوز والشعور الشديد بالقصور والاقتناع التام بقابليات الإنسان للجمود والتحجُّر والثقة التامة بأن تطوره ونماءه وتألق قدراته مرتهنٌ بإدراك الشروط الموضوعية لهذا النماء والإشراق والأخذ بجميع الأسباب التي تكفل يقظة العقل وتُحقّق فاعلية الإنسان...

ابراهيم البليهي

الفصل الأول

الجهل البنيوي يتحكَّم بالعقل البشري

الجهل البنيوي يتحكَّم بالعقل البشري

تجاهَل العلمُ أكبرَ معضلةٍ تواجه البشرية، منذ أنْ افترقتْ الأمم بأنساقها الثقافية المتضادة؛ لقد انشغل العلمُ بكشفِ الأشياء، بقصدِ تسخيرها لخدمة الإنسان، وتيسير حياته، وفي تسليحه بنزاعاته العامة، وتنافساته الفردية؛ ففهْمُ الطبيعة الذي توَصَّل إليه قِلَّةٌ من الأفراد النوابغ، قد أتاح للبشرية أن تُنتج من الوسائل ما لا مزيد عليه؛ في الوفرة، والتنوع، والفاعلية، والإبداع. لكن العلم قد جاء متأخِّرًا جدا. فلم تكن عقول البشر فارغةً لاستقبال اكتشافات العلوم، بل كانت مشحونة، بما تراكم خلال القرون دون أي تمحيص؛ لم يكن العقل البشري قبل العلوم فارغًا ينتظر التغذية، بل كان يشعر بالامتلاء والتشبع، ويتوهم الكمال ويشعر بالاكتفاء؛ لذلك عورضت بقوة كل الاكتشافات العلمية فقد عورض كوبرنيكوس، وجاليليو، وتم إحراق جوردانو برونو، وغيره، وعورض داروين بقوة، واضطر المفكرون الأوروبيون أن يهجروا أوطانهم، ويلجؤوا إلى هولاندا الأقل انغلاقا. فالإنسانية لم تشعر بنقصٍ في معارفها لتنتظر ظهور العلوم، بل كانت مكتفية إلى درجة الإغلاق، بما تتوارثه عن أسلافها من أنساق ثقافية، فجاءت الاكتشافات بواسطة أفراد نوابغ انفكُّوا من أسر الانساق الثقافية، وفكَّروا خارج المألوف، وتحركوا عكس التيار، وكلهم حوربوا. ولكن بمرور الزمن تسللت أفكار العلوم إلى أعداد أكبر ثم أكبر ثم اتسعت الدائرة؛ وجاءت مغامرة كولومبس، وفاسكو ذي جاما، واكتشافات نيوتن، ثم الثورة الصناعية، ثم قامت الثورة الأمريكية وظهرت على العالم بابتكار نمطٍ جديد للدولة. ثم قامت الثورة الفرنسية؛ فأحدثت آثارًا عميقة على أوروبا كلها. لكن

الثورة الصناعية هي الأعمق تأثيرًا فالنتائج العملية للعلم، وتعميم التعليم، هي التي هيأت الأمم للقبول النسبي للعلوم، لكن التأثير استمر في حدود الاستخدام العملي، أما البنيات الذهنية القاعدية فلم تتأثر بالعلوم...

إن الأنساق الثقافية المتنافرة التي تتحكَّم بالأمم؛ قد تكوَّنت تلقائيًا منذ عصور سحيقة، فاحتلت عقول البشر احتلالا مستحكمًا. إنها لم تتعرض من داخلها لأية غربلة؛ فهي تتكوَّن من ركام من الأوهام والرؤى التلقائية القائمة على التخمينات، والتصورات الخاطئة السابقة للعلوم. غير أن العلم قد غَفَل غفلةً مطبقة عن هذا الركام الذي تكوَّن به جهلٌ بنيوي تَراكَم خلال القرون قبل ظهور العلوم؛ حيث يحتل كلَّ العقول، من كل الأمم، ويتحكم بكل العواطف، ويحدد كل الاتجاهات، ويضع عوائق صلدة أمام التآخي الإنساني، ويقيم الأسوار والخنادق العازلة بين الأمم، ويذيب كل الأفراد في التيارات الجماعية المتنافرة، التي تطبعوا تلقائيًّا بأنساقها الثقافية المتضادة؛ ليس هذا فقط بل إن العلم لم يَغفل فقط عن هذا الجهل البنيوي وإنما أبقى كل نسق ثقافي يَنظُر إليه المتطبعون به بوصفه مفخرةً، ومزيةً، وأصالةً؛ وبذلك لا يتقبلون إلا ما يتفق معه، أما ما يتعارض معه؛ فيُرفَض ويُنبَذ ويُستبعَد. لذلك تشتد حاجة البشرية كلها لإنشاء علم جديد (علم الجهل) لكي يتخصَّص بتفكيك وتحليل طبيعة الأنساق الثقافية لجميع الأمم بصفة عامة، وإبراز فاعليتها الحتمية الحاسمة على عقل كل فرد، بغض النظر عن النسق الثقافي الذي ينتمي إليه. ثم يتفرع (علمُ الجهل) إلى تخصصات تتناول كل نسق على حِدة، مماثلةً بذلك لتخصُّصات الطب، لدراسة كل نسق ثقافي متوارث دراسةً علمية متعمقة. لإبراز إيجابياته وما فيه من حكمة ناضجة، وحقائق صحيحة، ورؤى مفيدة، وكشف نقائصه، والعُقد المستحكمة التي ينطوي عليها كل نسق؛ وذلك لإبراء العقل منها بوصفها عِلَلاً معرفية عَميقة وخفية، ومحجوبة بذاتها عن ذاتها...

يقول عالم الانثروبولوجيا شتراوس: «تُفكِّر الأساطير في ذاتها من خلال الناس ودون وعيٍ منهم» ويقول ديورانت: «العمل الآلي؛ هو أنسب طريقة يستجيب بها الإنسان للمثير الخارجي؛ إذا تَكرَّر، أو للموقف المعيَّن إذا تَجدَّد

حدوثُه. أما التفكير الأصيل في السلوك؛ فهو اضطرابٌ في مجرى الاطراد» ويقول عالم الاجتماع المفكر علي الوردي: «إن العقل البشري؛ استطاع أن يبتكر أعجب الأسلحة وأشدها فتكًا. ولكنه لا يزال في منازعاته؛ يفكر على نمط ما كان عليه الأسلاف الغابرون. وهنا يكمن الخط الأكبر» إن الإنسان كائن تلقائي في التطبُّع، وتلقائي في الاستجابة للمثيرات. ولكنه يجهل ذلك عن نفسه؛ فيكون مفعمًا بثقةٍ عميقةٍ زائفةٍ؛ بأنه يَعرف ما لا يعرفه. ومثلما تقول عالمة تشريح الدماغ جيل تايلور: «يوجد فجوة كبيرة بين ما أعرفه فعلًا، وما أعتقد أني أعرفه» إن هذه الفجوة العميقة الواسعة؛ هي التي أوحت لهوسرل بأن يطالب كل إنسان بعدم الاستجابة لتوهُّم المعرفة؛ وذلك بفرض التَّروِّي، وتأجيل الحكم، ووضع العالم بين قوسين، حتى يتم التحقق. وفي نفس اتجاه التروي يقول لويس إنزيز: «تسعة أعشار الخلافات الخطيرة في الحياة؛ ناجمة عن سوء الفهم؛ حيث لا يفهم المرء الحقائق التي تكون واضحة لشخصٍ آخر، ومن ثم لا يمْكنه إدراك وجهة نظره» ويقول فالتر بنيامين: «مالا نختبره صراحةً، وعن وعيٍ منا؛ باعتباره تجربةً؛ هو الذي يتملَّكنا» إن حياةَ الناس غارقةٌ في الجهل البنيوي لكنهم يجهلون ذلك. إن جهل الإنسان بجهله يُعطِّل فاعلية عقله. إن انتظامهم في متطلبات الحياة؛ الذي هو فعلٌ، وردُّ فعلٍ، لكنه يوهِمهم بأنهم يعلمون مع أن هذا الانتظام في الحياة لا يتطلب علمًا بلِ هو محكومٌ بالإرادة وبالفعل، ورد الفعل، وبالتفاعل التلقائي، مع الواقع. وبذلك يَبقَون مسجونين في كهوف التطبُّع دون أن يحسوا...

ورغم استحكام بنية الجهل فإن إمكانية الإفاقة؛ ليست مستحيلة، وإن كانت بعيدة، ولا تحصل إلا على مستوى فردي. لذلك يؤكد المفكر الصيني كانغ يووي أنه: «رغم تجذُّر الطاعة، والتحكُّم العقلي في الفرد، والتراتبية الاجتماعية ضمن الإرث الثقافي- الأيديولوجي» فإن لدى الإنسان قابلية للتغيُّر. رغم أن تحقيق ذلك ليس سهلا. ومن هنا جاءت فكرة (تأسيس علم الجهل لتحرير العقل) ولأن كل نسقٍ ثقافي يختلف عن كل الأنساق الأخرى، فإن المهمة الأساسية لهذا العلم، هي شرح الكيفية التلقائية التي تتَكوَّن بها كل الأنساق الثقافية،

والمراحل التاريخية التي مرت بها. إن تحليل الأنساق وشرح كيفية تكوُّنها التلقائي، والتذكير بأن الأفراد يتطبعون بها تلقائيًا في طفولتهم، وقبل أن يكتسبوا الوعي، وأن الوعي ذاته؛ هو انبثاقٌ تلقائي مما تم التطبع به، وأن كل فرد يفكر بوعيٍ مشروطٍ دون أن يعلم؛ وأن التطبُّع التلقائي بأي نسق موروث هو المعضلة الفردية والجماعية والعالمية، وهو في نفس الوقت أداةُ التعلُّم. فهو وسيلة البشر لرؤية العالم، رؤيةً يحددها النسقُ ذاته. وهي رؤية لا تتفق مع الواقع، وتتصادم غالبًا مع حقائق العلوم. إن كشف كل ذلك قد يساعد على إيقاظ العقل البشري بشكل عام؛ ليدرك أنه مخدَّر بأنساقه الثقافية التي تنساب إليه من كل جيل سابق إلى كل جيل لاحق، ويتم ذلك بشكلٍ تلقائي حتمي. ويتخصَّص العلمُ الأساسي، بتحديد خصائص الأنساق الثقافية بشكل عام، والكيفيات التي تتكوَّن بها. وعلينا أن نتذكر دائمًا أن الإنسان كائنٌ ثقافي، فهو بما ينضاف إليه، أما طبيعته من دون ثقافة؛ فهي طبيعة حيوانية صرفة؛ لذلك ينبه مؤرخ الحضارة الفيلسوف ويل ديورانت في قصة الحضارة بأن: «الوارثة لا البيولوجيا هي التي تصنع الحضارة» فلو حُرِم الفرد بعد ولادته من النشأة في مجتمع لبقي مجرد حيوان بل أسوأ من الحيوان. وهذا يعطي تصوُّرًا عن الفاعلية الحاسمة للأنساق الثقافية...

إن علم الأعصاب، والكشوف الجديدة لكيفية عمل الدماغ البشري، ومجموعةَ العلوم الإدراكية؛ تقدم المعرفة اللازمة للكيفية التي تتطبَّع بها أجيال الأمم بتتابعٍ تلقائي حتمي؛ حيث ينساب النسق من كل جيل سابق إلى كل جيل لاحق. لم تكن هذه الحقيقة الكبرى بالوضوح الحالي إلا بعد تطور علوم الدماغ والعلوم المعرفية. يقول عالم النفس جون بروكمان: «إن العلوم العصبية تتحوَّل الآن تحوُّلاً عميقًا؛ بانفتاحها على العواطف والانفعالات من جهة، وعلى البيئة من جهة أخرى» فنحن البشر كائنات ثقافية، وعاطفية. ويقول عالم الأعصاب راما شاندران في كتابه (أشباحٌ في الدماغ): «إن الثورة العظمى في تاريخ البشرية؛ ستحدث حين نفهم أنفسنا بحق» ويقول: «من المؤكد أن ظهور مقاربات تجريبية جديدة وتقنيات التصوير من شأنه أن يُغَيِّر فهمنا للعقل البشري. يا له من امتياز فريد؛ سوف يكون لجيلنا ولأطفالنا؛ أن نشهد ما أعتقد أنه

سوف يكون أعظم ثورة في تاريخ الجنس البشري: فَهْم أنفسنا» ويقول: «يكافح الدماغ لفهم نفسه؛ ما يجعل علم الأعصاب رائعًا» ويقول رئيس المشروع الأوروبي للدماغ الدكتور هنري مكرام: «أعتقد بإخلاص أنه لو فَهِمَ العالم كيف يعمل الدماغ؛ فسوف نحل النزاعات في كل مكان» ويقول عالم النفس الشهير ابراهام مسلو: «كل المعضلات التي تواجه البشرية اليوم، من حربٍ وسلام، ونظامٍ وفوضى، وتنافرٍ وتآخٍ، وفَهْمٍ وسوء فهم، وسعادةٍ وشقاء، وحُبٍّ وكراهية؛ جميعها يمكن حلها في ضوء فهم الطبيعة البشرية، فهمًا جيدًا» أما أستاذ علم الأعصاب كريس فريت فهو في كتابه (كيف يخلق المخُّ عالمنا الذهني) يقول: «إن مخي يكتشف ما هو في الخارج، في العالم، عن طريق بناء نماذج عن هذا العالم؛ فإدراكي ليس إدراكًا للعالم، بل هو إدراكٌ لنموذجٍ صاغه مخي عن العالم» ويقول توم ستونير في كتابه (التاريخ الطبيعي للذكاء): «إن الأمر الذي يجيده المخُّ البشري، أفضل إجادة؛ هو اكتشاف الأنماط» ويقول تشالز سايف في كتابه (شفرة الكون): «إن المعلومات في عقولنا مشابهة للمعلومات في جيناتنا، إن عقولنا تكتسب باستمرار المعلومات التي تجمعها من البيئة، وتقوم بالتكيُّف معها، فالدماغ البشري آلةٌ لاكتساب المعلومات تماما كما أنه آلةٌ لمعالجتها» ويقول: «فعقولنا الرائعة هي بمثابة آلاتٍ لمعالجة المعلومات وتخزينها» ويضيف: «فنحن الكائنات البشرية، نخزن المعلومات في عقولنا وجيناتنا، كما لو كنا مجرد كمبيوترات تخزن المعلومات على أقراص صلبة» ويقول عالم الأعصاب بول باخ ريتا: «أعط الدماغ المعلومات فقط وسيتمكن من التعامل معها» ويقول فيتولد غومبروفتش: «الإنسان يصاغ من خارجه، وهو في ماهيته عينها، دون أصالةٍ. بل هو لا شيء سوى شكلٍ ينشأ بين الناس. إنه مُمثِّلٌ أبديٌّ لكنه ممثل طبيعي بحالته الإنسانية؛ فالكائن الإنساني يعني كائنًا ممثلا» إننا لن نفهم أنفسنا حق الفهم؛ حتى ندرك أن عقل كل فرد هو نتاجٌ للنسق الثقافي الذي تتوارثه الأمة التي ينتمي إليها؛ حيث ينشأ عليه، ويتطبَّع به، فما تنقله حواسه إلى دماغه من البيئة الاجتماعية والطبيعية؛ يتكوَّن به له بنية ذهنية قاعدية، تصبح هي أداته للتعلُّم، ورؤيةِ العالم، كما ندرك بأن أية معارف

علمية ينالها الفرد، بعد أن يكبر؛ يتكوَّن بها أنماطٌ ذهنية منفصلة عن البنية الذهنية القاعدية، كما أن علينا أن ندرك أنه لا يوجد بنيتان متماثلتان، وإنما يختلف الأفراد حتى داخل النسق الثقافي الواحد، فالاختلافات هي الأصل، لذلك ينبغي أن لا نستغرب من الاختلافات على أبسط الأمور وأن نأخذ هذه الحقيقة باعتبارنا في علاقاتنا وفي أحكام بعضنا على بعض...

إن العقل البشري، يُكَوِّنه ويحتله ويتحكم به الأسبق إليه؛ وهذا الأسبق متوارث مما تكَوَّن وتَراكَم تلقائيًّا خلال التاريخ، لذلك فإنه في الغالب جهلٌ بنيوي، لأنه لم يتعرض لأي تحقُّق؛ فقد تكوَّن بالتراكم التلقائي الذي تحركه الأهواء المتضادة؛ لذلك يقول ميشيل فوكو: «مهمة الفكر أن يستشعر الخطر الذي يكمن في ما هو مألوف، وأن يجعل ما هو راسخ موضوع إشكالٍ» فالمعضلة الحقيقية هي في المألوف الراسخ الذي تكوَّن وتَراكَم تلقائيًّا خلال أحقابٍ طويلة. إنها كما يقول فوكو: «لابد أن تُخفي وراءها آلاف السنين من الأخطاء» فالتكوُّن التلقائي؛ لابد أنه زاخرٌ بالأخطاء. بدليل أنه في العلم؛ لا يتم التحقق من أية مسألة مهما كانت صغيرة، إلا بإجراءات دقيقة، وعملٍ منظَّم، وانتباهٍ شديد، ومراجعات متجددة ومتشددة. أما الأنساق الثقافية فهي تلقائية التكوُّن؛ ومع ذلك تهيمن على الأمم هيمنة كاملة بشكل تلقائي؛ فكل مولود في الغرب، والشرق، في الماضي، والحاضر، يتطبَّع بنسقٍ ثقافي مغاير لكل الأنساق الأخرى التي تتطبع بها أجيال الأمم. ومن البديهي أنها ما دامت بهذا التباين الحاد، وأن كلّاً منها يتوهم أنه هو وحده صاحب النسق الصحيح الكامل، إن هذا التضاد يؤكد عدم صحة أي واحد منها، بالشكل المطلق الذي يدعيه كل نسق ثقافي. ولا شك أن في كل نسق مزايا وحقائق وحكمة تستحق التمسك لكن بجانب هذه المزايا والحقائق والحكمة؛ أوهام وتخمينات وضلالات وولاءات وعُقد ثقافية تُسمِّم العقل، وتُفسد العلاقات، وتمنع تبادل الفهم. لذلك فإن الجهل المُعْضِل ليس هو الجهل الذي يزال بالمعلومات؛ فذاك جهلٌ بسيط. إن الجهل المُعْضِل ليس عدمًا ولا فراغًا، بل هو كيانٌ شديد التركيب، والتعقيد، والثبات، ومقاومة التغيير، إن التطبُّع به حتمي، فلا مفر

لأي مولود في الغرب والشرق، في الماضي والحاضر، عن التطبُّع التلقائي بالنسق الثقافي السائد في البيئة التي ينشأ فيها. إن العالم لا يواجه مشكلةً في الجهل الذي يزال بالمعلومات. وإنما المشكل الحقيقي هو الجهل البنيوي الذي يتطبَّع به كل مولود بشكل تلقائي؛ إنه يباشر قابلياته الفارغة منذ خروجه من رحم أمه؛ فتتكوَّن به له بنية ذهنية قاعدية، تصبح هو وسيلته للتعلُّم، وهي أداته لمعرفة العالم، وهي عُدَّته للحكم على الأشياء والأفعال والأقوال والأعمال والأشخاص والأوضاع. ومع تلقائية تكوُّن الأنسان الثقافية العامة، وتلقائية التطبع بها، فإنه يُنظَر إليها بتبجيلٍ يبلغ حد التقديس. ليس هذا فقط بل إنها تَجرِي من الإنسان جريان الدم، وتَسري فيه سريان الحياة؛ فهي تَملِك، ولا تُملَك، وتسيطر بفاعليةٍ تلقائيةٍ خفية، ولا يُسيطَر عليها...

إن الجهل المعضل هو الجهل البنيوي الذي يَعتبره المأخوذ به علمًا مرجعيًّا، ويتخذه معيارًا للقبول أو الرفض، وللاستحسان أو الاستهجان. إنه الجهل المركَّب، إنه الجهل العميق المركَّب الذي يتم التعامل معه بتمجيدٍ يصل حد التقديس. إنه الجهل الذي يخالط النفس، ويجري من كل إنسان جريان الدم، ويسري فيه سريان الحياة. ومثلما يقول إلياس مرقص في (حوار العمر): «يمكن إزالة جبال الهمالايا بقنبلة ذرية. ولكن الأصعب؛ هو إزالة أوهام الناس وأفكارهم» هذا القول صحيح صحة قاطعة؛ فمعضلة البشر هي في الأوهام الراسخة، والتصورات الخاطئة، والولاءات الموروثة المشحونة بكراهية الآخر المغاير، والأحكام القاطعة حول ما يجب فعله، وما يجب تركه. إن كل أمة ترث تعاليم تحدد لها كل شيء ولا تترك مجالا للتفكير أو التدبُّر. ومع كل هذا الشمول القاطع؛ يتوارثونها بشكل تلقائي حتمي. إن اختطاف قابليات كل مولود قبل بزوغ وعيه بواسطة الأنساق الثقافية المتوارثة هي المعضلة الأشد استعصاء على الحل...

علم الانثروبولوجيا دَرَس كل الأنساق الثقافية لكنه كان يَصِف، ولا ينتقد، ولا يوضح أنها تمثل معضلة بشرية مستعصية. إن علم الانثروبولوجيا، والعلوم الاجتماعية بشكل عام؛ قد وفَّرَتْ معلومات هائلة عن الاختلافات الحادة بين

الأنساق الثقافية التي تتحكم بالأمم لكنها دراسات وصْفِيَّة؛ فلم تتناولها هذه الدراسات بوصفها معضلة مزمنة عميقة تقاوم أية محاول للتغيير، وإنما تصفها وصفًا محايدًا. وكذلك علم الاجتماع وبقية العلوم الاجتماعية والدراسات الثقافية، تمثل ذخيرة علمية عظيمة من المعرفة المتنوعة الثرية عن الأنساق الثقافية المتوارثة. لكنها تَصِفها ولا تَنظر إليها باعتبارها المعضلة البشرية الكبرى، بل إن عالم الانثروبولوجيا الأشهر شتراوس، يُمجِّد كل الأنساق الثقافية المتوارثة، بشكل مطلق متماثل، ويكاد يجعلها تستحق من الاعتبار والقيمة ما تستحقه العلوم الموضوعية الممحَّصة، وهو رأيٌ مضلل أشد التضليل، ولأن شتراوس عمل مع منظمة الثقافة والتربية والعلوم (اليونسكو) مستشارًا فقد أثَّر تأثيرًا سيئًا على اتجاه المنظمة وعلى عملها. إضافة إلى الدور الأعمق للمفكُر الكاثوليكي الفرنسي جاك ماريتان، لذلك بقيت اليونسكو تتعامل مع الأنساق الثقافية بنفس الرؤية التمجيدية دون تمييز. إن من أفضل الدراسات عن هذه المعضلة مؤلفات جيروم برونر. ومنها كتابه (ثقافة التربية وعلم النفس الثقافي) وكتاب (علم النفس الثقافي) تأليف مايكل كول. وكتاب (الفروق الثقافية بين الأمم في إدارة الأعمال) تأليف غيرت هوفستيد ودانييل بولنجر. وكتاب (سلطة الجماعات المفسرة) تأليف ستانلي فش. وكتاب (علم النفس الثقافي) تأليف برتران تروادك. وكتاب (التحول الكبير) تأليف كارين آرمستروتج وكتاب (القصاص وثقافات الشرف) تأليف وليم إيان ميلر وكتاب (البُعْد الخفي) تأليف إدوارد هول. وكذلك كتابه (اللغة الصامتة) حتى هنتنجتون حين أصدر كتاب (صراع الحضارات) قوبل بهجوم قوي من اتجاهات متنوعة. وهذا يؤكد غياب الإحساس بأن الأنساق الثقافية المتوارثة، تمثل معضلة كبرى...

إنِ الجهل المعضل يتكوَّن من بنية شديدة الكثافة، بالغة التعقيد، تلقائية المقاومة للمغاير. إن الجهل المعضل هو الجهل الذي يتطبَّع به البشر، ثم يجعلونه معيارًا للقبول أو الرفض، وللصواب أو الخطأ، وللحُسْن أو القُبْح. إنه الجهل الذي يوهِم الإنسان بأنه يعلم، إنه التوهُّم الدائم للمعرفة، إن المتطبع بأي نسق ثقافي لا يكتفي بأن يعتقد بأنه قد تطبَّع بالحقائق الناصعة، وإنما يكون

ما تَطَبَّع به، هو مرجعيته الثابتة القاطعة، للحكم على الأفكار والأفعال والأشخاص والأعمال والاتجاهات والأوضاع. إن الإنسان يتوهَّم دومًا أنه يعرف ولا يتردد في القول أو الفعل المترتب على تَوَهُّمه. إنه لا يعلم أنه لا يعلم، إنه يجهل جهله، فأنماطه الذهنية، توهِمه بأنه مُدْرِكٌ موضوعَ الحديث أو النقاش، حتى لو لم يكن لديه أية خلفية معرفية سابقة، لكنها طبيعة تكوين العقل البشري. وبهذا الجهل البنيوي يصاب العقل بالعمى المطْبِق، إن المعضلة تتضاعف، بأنه لا يوجد شخصان يتماثلان في الأنماط الذهنية، فالاختلافات الحادة؛ ليست محصورة بين الأنساق الثقافية المختلفة، وإنما داخل كل نسق ثقافي تختلف البنية الذهنية القاعدية، بين كل فرد وآخر، كما تختلف أنماطهما الذهنية، التي تتحدد بها تصوراتهم ورؤاهم ومواقفهم. إن الجهل البنيوي ظلمات بعضها فوق بعض. إن الجهل البنيوي يوهِم بالثقة، ويُغَيِّب البصيرة، ويَستبعد الاهتمام بالتحقق؛ إن جهل الجهل يخنق العقل، ويُصَفِّد الإدراك بالأغلال، ويمنحه ثقة تلقائية عميقة عمياء، بأنه يعرف، حتى لو كان أمام موقفٍ يجهله تمام الجهل. لذلك فإنه من أجل لفت النظر إلى هذه المعضلة البشرية العامة، انشغلتُ طول عمري بتأسيس علم الجهل لتحرير العقل وأصدرتُ العديد من الكتب؛ وذلك من أجل جَعْل الجهل البنيوي موضوعًا للانتباه والاهتمام والدارسة والمناقشة والتداول والكشف والتحليل؛ فالكثيرون لا يدركون أن العائق الأكبر أمام انعتاق البشرية كلها مما هي فيه من اختلافات حادة، واضطرابات مدمرة؛ هو الأنساق الثقافية المتوارثة...

وبسبب هيمنة الأنساق الثقافية المتضادة على العقل البشري؛ فإنه رغم مضي ثمانية وعشرين قرنًا على بزوغ الفكر الفلسفي؛ ثم ظهور العلوم الموضوعية الحديثة المشتقة من التفكير الفلسفي منذ بضعة قرون؛ فإن المهتمين المتابعين، يدركون بأن نتائج الفكر الفلسفي، والعلوم الموضوعية المشتقة منه؛ لم تصبح مُكَوِّنًا من مكوِّنات أي نسق ثقافي متوارَث، لا في الغرب ولا في الشرق؛ ولا حتى في اليونان، وفي أثينا ذاتها كان الفكر الفلسفي زَمَنَ بزوغه؛ منفصلًا عن النسق الثقافي السائد. بل كانت أثينا تحاكم الفلاسفة، وأعدمت

سقراط، ولاحقت فلاسفة آخرين. لذلك فإن تعميم القول المطلق عن عظَمة الإغريق بهذا التعميم، هو قولٌ خاطئ ومضلِّل وعميق الضرر؛ إن التمجيد الجاري لكل الإغريق هو تمجيدٌ مضادٌّ لما يؤكده التاريخ الإغريقي، ولا يوجد ما يدعمه تاريخيًّا. فعلاقتهم بالفلسفة والفلاسفة، كانت علاقة عداء ومقاومة. إن التعميم لتمجيد الإغريق وكأن الشعب الإغريقي كله من الفلاسفة؛ هو من الأخطاء التاريخية المتكرر المضلِّلة، فالفلاسفة اليونانيون في أزهى عصور الفلسفة اليونانية؛ كانوا أفرادًا لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين. أما الشعب اليوناني؛ فلا يختلف عن غيره من الشعوب المحكومة بأنساقها الثقافية الموروثة، بل إن الشعب اليوناني؛ قد حارب الفلسفة، وطارد الفلاسفة. ثم اعتنق الارثوذكسية وهي أشد المذاهب المسيحية انغلاقًا وتحجُّرًا. إن الفلسفة في العصر اليوناني وفي كل العصور، هي نظام تفكير فردي مستقل عن أي نسقٍ ثقافي سائد، ولا يمكن أن تكون الفلسفة نَسَقًا ثقافيًّا لمجتمعٍ بأكمله. بل ولا أن تصبح عنصرًا أساسيًّا من أي نسق ثقافي شعبي. ففي القرن الحادي والعشرين؛ ما تزال الأمم تتوارث أنساقها الثقافية، كما كانت منذ القرون الأولى. لم تتأثر الأنساق المتوارثة، تأثُّرًا جوهريًّا، بالتراث الفلسفي العظيم، ولا بالتقدم العلمي الهائل، ولا بتعميم التعليم. لقد تغيَّرتْ أوضاعُ الأمم بالقوانين والنُّظُم والمؤسسات والمناهج والأساليب؛ وبالنمو الاقتصادي العظيم، وبالتقنيات المتطورة المذهلة؛ إن ذلك كله نتاج ومضات عبقرية فردية خارقة، وثمرة تنظيم طاقة المجتمعات باتجاه العمل المنتِج المنظَّم، بتحويل الومضات العبقرية إلى واقع معاش، عن طريق الإنتاج الواسع بالجملة، أو التطبيق الفردي المهني كمهنة الطب، والقانون، والمحاسبة. أما الشعوب فهي محمولة بَمرْكَبة عامة تتجسد بهذه المكوِّنات من غير أن يستوعبوا العوامل الفاعلة، التي أوصلتهم إلى ما هم عليه. مثلما أن ركاب الطائرة أو السيارة أو الباخرة، يستخدمونها براحة دون أن يفهموا عملية صنعها. أما هذه العوامل التي تتكوَّن منها مَرْكَبة الازدهار؛ فكلها أومضت بها عقولٌ فردية استثنائية خارقة. إن العقلانية السائدة في المجتمعات المزدهرة؛ هي عقلانية قوانين ومؤسسات ونُظُم ومناهج وأساليب

واتجاه وإدارة. وليست عقلانية أفراد ولا عقلانية مجتمعات. ومن هنا فالحضارة ما تزال هشة. إن الأمريكي أو الأوروبي قد لا يكون ملتزمًا بالنسق الموروث، لكن تفكيره وقيمه وعاداته تظل مرتبطة بالنسق الثقافي المتوارث...

أما عقليات الأمم والأفراد المندمجين في الأنساق الثقافية المتوارثة؛ فما زالت تتحكَّم بها هذه الأنساق. إن النسق الثقافي لأية أمة؛ ينساب تلقائيًّا وحتميًّا من كل جيلٍ سابق، إلى كل جيل لاحق؛ فيختطف قابليات كل مولود، قبل أن ينبثق وعيه. وكما يقول موريس بيكام في كتابه (ما بعد الرؤية المأساوية): «فإن التفكير القديم، دام قرونًا لا تُحصى، وهو باقٍ حتى الآن بالنسبة للأكثرية العظمى من البشر. إن القوى الثقافية، تعمل في الظلام؛ فلا نرى إلا منظوراتٍ سحيقة في القِدم» ويقول سيرجون هارجراف في كتابه (اختراق العقل): «يُعَمِّق المجتمع قِيَمَه داخلنا من خلال التكرار والتعزيز المستمرين» ويضيف: «ربما كانت الحلقة التكرارية الأكثر قوةً؛ هي تلك التي شكَّلت صورتنا الذاتية ورؤيتنا للعالم» ويؤكد: «أن التكرار المستمر للحلقات؛ يُنشئ مسارات عقلية عميقة، ومن الطبيعي أن تُحبَس عقولنا داخل تلك المسارات، حتى عندما تكون هذه الحلقات مدمِّرة للذات» وينبه إلى أن: «العقل سوف يتبع تلقائيًّا المسارات التي اعتاد عليها» ويقول: «نحن مسجونون في سجن العقل (المبرمَج). إن الحلقات التكرارية التي تحتل عقولنا؛ تبقينا محاصَرين في هذا السجن ذي الجدران غير المرئية، مقتنعين بأن واقعنا الحالي هو الحقيقة الوحيدة» ويؤكد: «أن عقولنا نتاجٌ لآلافٍ من الدروس المتكررة؛ لقد ترسَّخت كحلقات عقلية؛ تتحكم في عواطفنا وسلوكياتنا وفي حياتنا. ولأنها متجذرة فينا بعمقٍ ونتيجة سنواتٍ من التنشئة والخبرة؛ فإنه يصعب تعَقُّب مثل هذه الحلقات التكرارية» أما الطبيب النفسي الدكتور جوست ميرلو، فيُؤكد: «ففي اللاوعي يقع هذا المخزون الشاسع للذكريات، والعواطف، والاجتهادات المدفونة العميقة، وعبر العديد من السنين الطفولية وغير المنطقية، والتي تؤثر باستمرار على الأفعال الواعية. كلنا محكومون بقدرة هذا الوحش الخفي؛ نحن ضحايا محركات غير واعية» ويقول الطبيب العالم ألكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): «إننا غارقون

في عادات محيطنا؛ فإذا عاش الإنسان في رفقة الحمقى؛ فإنه يصبح أحمق؛ والعزلة هي الأمل الوحيد في الخلاص» ويؤكد: «إن البيئة الاجتماعية تناهض بكل قوّتها؛ نموَّ العقل» ويقول في كتابه الآخر (الحضارة الحديثة في الميزان): «لا يوجد شيء أشق على العقل من إدراك الحقيقة الواقعية. ومع ذلك فإن هذه المعرفة ضرورية لاندماجنا في نظام العالم. وهي لا تُدرَك إلا بالملاحظة والتجربة، والملاحظة والتجربة تتطلبان مجهودًا، وعقلنا يَنفُر من بذل مثل هذا المجهود» ويضيف: «معظم الناس ضحايا تربيتهم وعاداتهم في الحياة، ولم يَلْتَقوا قط بالحقيقة الواقعية، وجهًا لوجه، بسبب حياتهم المصطنعة في المصنع والمكتب والمقهى» ويرى عالم الاجتماع أنتوني جيدنز أن لكل أمة: «نسق ثقافي يتكوَّن من مجموعة من العناصر التي تمثل أنساق الدلالة المتجسدة في أصناف الرموز» أما الدكتور شحاته صيام فيرى في كتابه (قداسة الأولياء) أن النسق: «مجموعة من المعتقدات الصريحة أو الضمنية، التي يقرها المجتمع وفق تصور مشترك للكون والسلوك الاعتيادي اليومي» ويقول الدكتور محمد محيي الدين: «ركَّز وليم فونت، وإميل دوركايم، وفرويد، وفيبلن، وجورج سيمل، وغيرهم؛ على الجوانب غير الرشيدة للخبرة المعاشة للأفراد، والسلوك الاجتماعي، واعتبَروا الجوانب التأملية المبرَّرة والرشيدة للفعل الإنساني، أمورًا ثانوية» فالأصل هو الانتظام التلقائي في النسق. ويضيف: «الثقافة ذات أهمية محورية في فهم كلٍّ من العقل والحدود المفروضة عليه» هكذا الصورة واضحة علميًّا تمام الوضوح بأن العقل البشري في الغرب والشرق، في الماضي والحاضر؛ غارقٌ في أنساقه الثقافية المتوارثة العمياء؛ فالعقل البشري في الغرب والشرق، في الماضي والحاضر؛ مكبَّل بالجهل البنيوي المتوارَث تلقائيًّا...

بمجرد أن يتطبَّع الإنسان بشيء؛ يتمَلَّكه هذا التطبُّع. ومثلما يقول ابن خلدون في المقدمة: «الإنسان هو ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي أَلِفَه في الأحوال، صار خُلُقًا ومَلَكَةً وعادةً، تنزل منزلة الطبيعة والجبلة» ولأن التطبُّع يصوغ الذات، وتذوب به النفس على هذا النحو، فإن التفكير والسلوك؛ ينساب منه تلقائيًّا، دون وعيٍ ولا تفكير، ولا تردد، وبجاهزيته

الدائمة للانسياب التلقائي؛ فإنه يتوهَّم المعرفة، فلا يترد في الجزم برأيٍ أو حكْمٍ أو موقف أو قرار؛ دون أي تبصُّر. أما النسق في عمومه؛ فيكتسب قداسة. إن أهم ما يميز الأنساق الثقافية المتوارثة؛ هو أنها محاطة بالتقديس، ومحمية من النقد، ولا تتسامح مع من يخرج عما هو سائد. يقول عالم الانثروبولوجيا روي راببورت: «الإنسانية نوعٌ من الكائنات التي تعيش وفقًا لمعانٍ يجب أن تخترعها هي بنفسها، ولا تستطيع أن تعيش من دونها» ويتحدث الكاتب الأمريكي ج. جاير في كتابه عن (المعتقدات الإنسانية) كيف كانت الكنيسة تصوغ حياة الأوروبيين بقوالب ضاغطة، ويتم التقيد بدقة وصرامة؛ فقد كانت الكنيسة، تحدد لهم كيف يعيشون، وكان الناس يلتزمون بما يقرره البابا: «فبمجرد انتخاب البابا، كان بمقدوره أن يسن القانون الذي يريده ويتعيَّن على الناس أن يطيعوه، إن البابا يقرر ما يجب على الناس أن يقرؤوه، وما لا ينبغي عليهم قراءته، وكل ما يقرره البابا كان بمثابة قانون» ويضيف: «واستمرت محاكم التفتيش أكثر من مائتي عام، وتم قتل الآلاف من الناس بطريقة بربرية، بموجب أوامر محكمة التفتيش، وكان يتم إحراق الناس أحياء في النار، أو كان يجري سحقهم تحت أحمال وأوزان ثقيلة، أو كان يتم تمزيقهم إلى قطع بواسطة الأدوات القاسية» وإذا كان ذلك البلاء قد توقف؛ فإن الأنساق الثقافية ما تزال تتحكم بالعقل البشري. إنه انتظام تلقائي فهو أشبه بالبرمجة، حتى لو كان الفرد ملحدًا، فإنه يبقى منتظمًا تلقائيًا بالنسق الثقافي الذي تطبَّع به. وللأنساق الثقافية جوانب غريبة ومثلما يقول جاير: «عاش اليابانيون أكثر من ألفي عام؛ يعتقدون أنهم الشعب الوحيد الذي يعيش على الأرض» إن غرائب تصورات الشعوب لا تقف عند حدٍّ. ويقول عالم الانثروبولوجيا الفرنسي روجيه كايوا في كتابه (الإنسان والمقدس): «إن مسألة المقدس تطول ناحية عميقة وجوهرية في الإنسان» ويضيف: «المقدس هو المقولة التي تَفرِض على المؤمن شعورًا مميَّزًا بالاحترام، يُحَصِّن إيمانه ضد روح النقد، كما تجعله بمنأى عن الجدل، بوضعها إياه خارج نطاق العقل وما وراءه» ويقول: «إن أي تصور للعالم يَفترض التمييز بين المقدس والدنيوي على قاعدة التعارض» ويضيف: «إن المقدس

يُشَكِّل طاقةَ خطِرة، خفية على الفهم، عصية على الترويض، شديدة الفاعلية» فبالتلاحُم التلقائي القوي حول الأنساق الثقافية بل بالذوبان في التيار الجاري، تنتظم المجتمعات. ينبه عالم الاجتماع برتي السوتاري في كتابه (النظرية الاجتماعية والواقع الإنساني): «أن الممارسة الروتينية هي الأساس الذي يقوم عليه نظام الواقع الإنساني» ويضيف: «إن الوجود الاجتماعي؛ يمكن تفسيره بالممارسة الروتينية في الحياة اليومية» فالتفكير والسلوك في عمومه وعند كل الأفراد؛ ينساب تلقائيًا مما تطبع به الأفراد، من النسق الثقافي السائد الموروث، وخلال عمر الفرد لا يدرك الأفراد أنهم مبرمَجون، فيَستحكِم التطبُّع بالتعزيز المستمر، وبالتأكيد المتكرر...

إن الأنساق الثقافية المتوارثة؛ لا تتأثر بالبراهين المضادة. ينبه الفيلسوف جون ستيوارت ميل في كتابه (استعباد النساء): «فما دامت فكرةٌ متأصِّلةُ الجذور في مشاعر الناس؛ فإن قوة الحجة ضدها تزيدها رسوخًا» هكذا رغم التراث الفلسفي العظيم، ورغم التقدم الهائل للعلوم، ورغم تعميم التعليم في كل العالم؛ فإن الجهل البنيوي، ما يزال يتحكَّم بالعقل البشري في الماضي والحاضر، في الغرب وفي الشرق؛ رغم كل الاختلافات الحادة بين الأنساق الثقافية المتوارثة؛ إن كل الأنساق الثقافية للأمم قد تَكَوَّنت تلقائيًا بالتراكم الذي تغلب عليه العشوائية، والتحيز وتضارب الأهواء على امتداد التاريخ، ومع هذا التكَّوُن التلقائي المضطرب للأنساق؛ فإن كل أمة تمجد أسلافها، وتبجل تاريخها، وتقدس نسقها الثقافي، وتنبذ من يخرج عن النسق الموروث. أما التاريخ الذي تكوَّنت بأحداثه الأنساق الثقافية فكما يقول الفيلسوف الأكبر كانط: «الواقع أن العرض للتاريخ، يُثبت بصفة عامة أن هذا التاريخ ليس بالسجل الذي ينتظم حكمةً، وإنما هو سِجِل الطيش الإنساني، والغرور والضعف الخُلُقي» وَيصف المؤرخ الشهير جيبون التاريخ البشري بأنه تاريخ البربرية ويقول: «إن الدافع القوي وراء الأحداث التاريخية؛ هو الطيش الإنساني» ويرى أنه بعيدٌ عن الحكمة. ويقول الفيلسوف برتراند رسل: «فالقوة الجديدة التي يخلقها العلم؛ تكون قوة شريرة بقدر ما في الإنسان من حُمْقٍ» ويقول الفيلسوف

هوبز: «الشهوة الأساسية في الإنسان؛ هي الشهوة إلى القوة؛ الحياة مجالٌ للقوة الباطشة، بالنسبة للأقوياء، وللخداع والمكر والتحايل بالنسبة للضعفاء» وفي ظل النزاعات والصراعات وتضارب شهوات التسلط؛ تَكَوَّنت الأنساق الثقافية خلال تقلبات التاريخ. فليست الأنساق الثقافية سوى نتاجٍ من نتاجات هذا التاريخ المضطرب الذي وُصِف بالبربرية، والطيش، والغرور، وشهوة التسلط والضعف الأخلاقي. ومع ذلك فإن هذه الأنساق ما تزال تتحكم بالعقل البشري لا فرق بين الغرب والشرق، ولا بين الماضي والحاضر؛ إن كل أمة يتحكم بها نسقها الثقافي منذ أقدم العصور وما يزال...

إن الأنساق الثقافية المتوارَثة؛ رغم اختلافاتها الحادة؛ قد احتلت العقل البشري واستحكمت سيطرتها عليه منذ أزمان سحيقة قبل ظهور العلوم؛ لذلك فإنه لا نجاة من هيمنة الأنساق الثقافية التي تتوارثها الأمم حيث ينساب النسق من كل جيل سابق إلى كل جيل لاحق بشكل تلقائي حتمي، والكل مغتبطٌ بنسقه الذي يتحكم به. وهو بهذه الصفة يمثل جهلًا بنيويًا، إنه ليس جهلاً يزال بالحصول على المعرفة، الصحيحة، لأن كل إنسان يرى صحةَ محتويات ذهنه، كما يرى عظَمَة النسق الثقافي الذي ينتمي إليه. إن البنية الذهنية القاعدية لكل فرد قد كَوَّنها واحتلَّها وبقي يتحكم بها النسقُ الثقافي الذي تطبّعتْ به في الطفولة ثم استمرت تتعزز وتتأكد وتَرْسخ. فهو لا يرى العالم إلا بواسطتها. ومن البديهي أن يمتلئ غبطةً بها؛ لأنها هي التي تحدد رؤيته لها، ولنفسه، وللعالم. أما ما يتلقاه الدارس من تعليمٍ تخصصي؛ فإن الدماغ يملك آلية لتكوين أنماط ذهنية منفصلة، خارج البنية الذهنية القاعدية، وربما يكون الشخص عالمًا متفوقًا في الفيزياء أو في أي مجالٍ علمي حديث. لكن ذلك لا يؤثر على بنيته الذهنية القاعدية التي تطبَّع بها في طفولته فصار بها محكومًا بالنسق الثقافي الذي ينتمي إليه. إن ثبات النسق بالتطبُّع يماثل ثبات اللغة الأم في اللسان وثبات اللهجة أو اللكنة التي يتطبع بها الفرد...

أما الفكر الفلسفي والعلوم الموضوعية؛ فهي نظام فكريٌّ مغاير لكل الأنساق الثقافية المتوارثة. وهذا الانفصال الحاد بين الفكر الفلسفي والعلوم

الموضوعية من جهة، مقابل كل الأنساق الثقافية المتوارثة من الجهة المقابلة، هو المعضلة البشرية العامة، الأشد استعصاء التي تحول دون تحرير العقل البشري؛ فرغم وفرة الأفكار العظيمة، وتقدُّم العلوم في مختلف المجالات، وكذلك رغم تعميم التعليم في كل العالم؛ فإن استمرار هيمنة الأنساق الثقافية؛ قد حال دون انعتاق العقل البشري، وعطَّل بزوغ الإنسان الجديد؛ لكي يستأنف رؤيته لنفسه وللعالم برؤية فلسفية علمية متحررة من أوحال الماضي وأنساقه الثقافية. ولكن لن تتضح لنا حقيقة أن العقل البشري؛ حتى في أشد المجتمعات ازدهارًا؛ غارقٌ ومكبَّلٌ بالجهل البنيوي المتوارَث؛ إلا بالمقارنة بين التكوُّن التلقائي التراكمي خلال القرون للأنساق الثقافية المتوارثة، ومع ذلك يحاط بالتقديس، ويُنبَذ من يحاول نقده. مقابل الشروط الدقيقة الصارمة للتحقق العلمي؛ فإذا قرأنا تاريخ الأمم، وتمعَّنا في تاريخ العلوم؛ وأدركنا الحواجز والصوارف والصعوبات، التي تعترض محاولات استخلاص أبسط الحقائق؛ فضلا عن القضايا المعقدة، وبعد كل التركيز والتدقيق وإمعان النظر؛ ينتهي البحث إلى الترجيح والتغليب حيث يستحيل الوثوق المطلق القاطع، ويبقى المجال مفتوحًا للمراجعة والتعديل والتصحيح، وربما للتحوُّل الكامل؛ إلى رؤيةٍ مغايرة على ضوء ما يستجد من اكتشافات في نفس المجال أو في مجالات أخرى ذات علاقة بالموضوع، ولو من بعيد؛ بل إن اتجاهات فلسفية مهمة كفلسفة كارل بوبر تنفي إمكانية التحقق، وتقيم العلوم والمعارف على معيار قابلية النقض والتفنيد. فالنقد الجذري أهم معايير المنطق العلمي...

البروفيسور روبن آبيل في كتابه الفلسفي (الإنسان هو المقياس) يوضح طبيعة العلم المضادة تمامًا لطبيعة الأنساق الثقافية المتوارَثة فيقول: «إن مثاليات العلم الجدِيرة بالثقة؛ هي الوضوح، والتحديد، والموضوعية، والبينية الذاتية، والقابلية للاختبار، والتصحيح الذاتي، والعالمية، والتماسك المنهجي» ويؤكد أن العلم بكل فروعه واتجاهاته ومجالاته يقوم على: «الانتقادات المتواصلة للدليل والمنطق بكل طُرُقٍ ممكنة» ويقول: «إن العلم مشروعٌ ذاتي التصحيح» إنه مفتوح دائمًا للمراجعة والتطوير والتعديل والتصيح. وهذا بعكس الأنساق الثقافية

المتوارثة، المحمية بجلال التقديس، والمسيَّجة برهبةِ تلقائيةِ المقاومةِ للطارئ، والمصونةِ عن النقد. وقد ألَّف العالم لويس وولبرت كتابًا بعنوان (طبيعة العلم غير طبيعية) ليقارن بين التكوُّن التلقائي للأنساق الثقافية المتوارثة، مقابل المناهج العلمية الصارمة، والتحقُّق الدقيق. إنه بذلك يحاول أن يزيل اللبس؛ فبينما يتطبع الأطفال بالأنساق الثقافية تطبعًا تلقائيًا؛ فإنه بالمقابل لا يمكن تَلَقِّي العلم بشكلٍ تلقائي، وإنما تعلُّم العلم يقتضي الانفصال عن طبيعة الإنسان التلقائية. وفيه يقول: «العلم عملية غير طبيعية، تختلف عن التفكير البديهي العادي» ويوضح أن تكوين مخ الإنسان يجعله يجيد التعامل مع مشكلات الواقع. لكنه لا يملك نفس القدرة في مجال العلم والأفكار ويضيف: «إن العلم لا يصبح فقط مضادًّا للبديهة، بل يصبح غير مفهوم إلا لعلماء الطبيعة» كما ينبِّه إلى: «صعوبة هضم الأفكار المضادة للبديهة» ويؤكد: «أن العلم متفرِّدٌ في طبيعته» ويضيف: «العلم يمنحنا أفضل فهْمٍ للعالم المحيط بنا» وبينما تستمر الأنساق الثقافية المتوارثة خلال القرون محتفظةً بالقداسة والثبات ومحاربة التغيير؛ فإن العلم مفتوحٌ للتغير حسب مستجدات الاكتشافات في المجال ذاته أو في مجالات ذات علاقة فيقول: «إن العلماء يغيِّرون نظرياتهم؛ لأن النظريات الجديدة تمنحنا تفسيرًا أكثر قُرْبًا من الحقيقة» فالتغيير في المواقف العلمية، يتكرر بحسب مستجدات العلم، بخلاف الأنساق الثقافية المحمية عن التغيير بالقداسة وبالمقاومة التلقائية...

أما خارج العلم، فإن المختلفين يظلون على اختلافاتهم ولا يوجد ما يحتكمون إليه. لأن كل طرف يبقى متمسكًا بموقفه الذي يمليه عليه نسقه الثقافي. ومثلما يقول عالم الاجتماع الأمريكي جورج لندبرغ في كتابه (هل ينقذنا العلم): «إن أبرز ميزة تميز عصرنا هذا؛ هو ما نراه من بلبلة وتناقض في مناهج تفكيرنا، ووسائل معالجتنا للمشكلات البشرية. فلقد تمكنا في علاقاتنا مع العالم الطبيعي، من تنمية واستعمال منهج موحَّد في التفكير نجح في تمكيننا من الوصول إلى نتائج يسهل التدليل على صحتها. إلا أننا أخفقنا بشكلٍ جليٍّ في استنباط منهج مشابهٍ؛ لمعالجة المشكلات الاجتماعية» فلابد أن يدرك الناس أنه

يوجد فوارق نوعية بنيوية بين طبيعة الفكر الفلسفي والعلوم الموضوعية المشتقة منه، من جهة، مقابل كل الأنساق الثقافية التي تتوارثها الأمم من الجهة المقابلة. إذا أدركنا ذلك، وتذكَّرنا بأن كل البشر في طفولتهم المبكرة؛ يتطبعون حتميًّا وتلقائيًّا بأنساق ثقافية لم تخضع لأي تحليل أو تشكُّك أو مراجعة أو تحقق من داخلها، وبأن الأنساق تحاط بالتقديس الذي هو النقيض التام للمعايير العلمية والفلسفية، وبأن هذا التطبع التلقائي؛ تتكوَّن به لكل فردٍ؛ بنية ذهنية قاعدية، تصبح هي وسيلته للتعلُّم، وأداته لرؤية العالم، وتبقى هذه البنية محجوبة ومحمية عن فاعلية الوعي؛ لأنها هي عُدَّته ومرجعيته الأساسية التي ينساب محتواها تلقائيًّا استجابةً لكل المواقف، والمثيرات؛ ويكون هذا الانسياب التلقائي هو الموقف القاطع الذي لا يشك فيه صاحبه، لأن أنماطه الذهنية تؤكد له ذلك. إن كل فرد لا يتلقى أية معرفة جديدة، ولا ينظر إلى أي شيء، إلا بواسطة ما كان يعلمه من قبل، فأيةُ معرفةٍ لاحقة؛ يكون الوصول إليها وتقييمها بواسطة معرفة سابقة؛ فالعقل بعد تطبُّعه، ليس مفتوحًا للاستقبال ببراءة، إن المعرفة الأسبق تُقَيِّد العقلَ، وتجعل القبول أو الرفض؛ مشروطًا بالمحتوى الأسبق للذهن. إن عقول البشر؛ لا تتلقى معطيات الواقع كما هي وإنما تتلوَّن المعطيات بما تطبعت به من أنساق ثقافية، وما تلقته من معارف سابقة. ومثلما يقول هيجل: «لا تؤثر الأشياء كما هي، بل كما نتصورها» إن تصوُّرنا للأشياء، محكومٌ بأنماطنا الذهنية. إن الأنماط الذهنية، تتكوَّن بالأسبق إلى قابليات الفرد. ويقول عالم النفس إدوارد دي بونو في كتابه (تعليم التفكير): «تقوم المعلومة الأولى، بتغيير حالة العقل، بشكلٍ يجعل المعلومة الثانية، ترتبط بها، أو توافقها، وبهذه الطريقة، يتم بناء الأنماط» إن سيطرة الأنساق الثقافية، على عقولِ البشر، هي أشد استحكامًا مما يتصور من لم يتعرف على طبيعة دماغ الإنسان وكيفية معالجته للمعلومات، فمع أن الشعب الإنجليزي، هو الذي قاد حضارة العصر بطابعها العملي النفعي؛ فإن الناقد برتون راسكو يصف االإنجليز في كتابه (عمالقة الأدب الغربي) بأنهم: «شعبٌ خاضعٌ خضوعًا أعمى للتقاليد» وإذا كان هذا هو شأن قادة الحضارة، فإن غيرهم أشد انقيادًا للتقاليد. خصوصًا

وأن هوية كل أمة تتحدَّد بنسقها الثقافي الموروث. ومثلما تقول صوفي شوتان في كتابها (جيوبوليتيك): «تأتي الثقافات في مقدمة أولويات الشعوب، في سعيها لتأكيد هويتها» إن إدراك هذه الحقيقة من أهم ما يجب أن يعرفه كل فرد عن نفسه، وعن الآخرين، وعن العالم، وعن طبيعة المعرفة البشرية...

رغم فظاعة النتائج التي يتمخض عنها تطبُّع الأمم بأنساق ثقافية متضادة، وبأن الأنماط الذهنية لأي فرد تختلف عن الأنماط الذهنية لأي فرد آخر حتى داخل النسق الثقافي الواحد؛ وكون كل ذلك يجعل الاختلافات في المواقف والرؤى حتمية؛ فإن هذه الحقيقة الكبرى ليست واضحة للجميع، ليأخذوا حذرهم، ويتحكموا ولو نسبيًّا بتلقائيتهم. بل إن التطبُّع التلقائي الحتمي على مستوى الأمم، قد لا يلفت النظر، ولا تتضح منه الفاعلية الحاسمة للتطبُّع، إلا إذا برز التطبُّع، على شكل شذوذٍ وسط مجتمعٍ مغاير، مثل وجود طائفة أمش في الولايات المتحدة الأمريكية الذين يُحَرِّمون التعليم العصري، كما يحرمون كل منجزات العصر، كالسيارات والهواتف والتلفزيون، إنهم يستخدمون الخيل والعربات التي تجرها الخيول، إنهم يعيشون مغمورين بطوفان منجزات الحضارة، لكنهم لا يتأثرون بكل ذلك بل يُحَرِّمون استخدام هذه المنجزات المبهرة لغيرهم. إنهم مثل كل البشر لا ينقصهم الذكاء، لكنهم بالتطبُّع التلقائي ظلوا متمسكين بعقائدهم، وتتابعتْ الأجيالُ على التمسك بما ورثوه. لقد فَرَّ أسلافهم بدينهم من أوروبا في القرن السابع عشر، ليأمنوا على أنفسهم فعاشت الأجيال التالية، وسط صخب الأفكار في أمريكا. لكنهم لم يتأثروا بكل ذلك الصخب الفكري والعلمي والتقني والأدبي والسياسي بل بقوا متمسكين بما ورثوه عن أسلافهم منذ قرون. إنهم مثالٌ صارخٌ وحاسمٌ على الفاعلية القاطعة للأنساق الثقافية التي تتوارثها الأجيال في كل الأمم...

أما النموذج الثاني فهم طائفة المينونايت، وهم مثل طائفة أمش قد فرَّ أجدادهم من ألمانيا إلى أمريكا الجنوبية وعاشوا بين المكسيك والبرازيل وأقطار أخرى، وهم ينتمون لمذهب أسسه رجل دين ألماني اسمه مينو سيمونز وإليه تنتسب الطائفة حيث ما تزال تحمل اسمه. إنهم يعيشون وسط طوفان منجزات

العصر لكنهم يُحَرِّمون التعليم العصري كما يحرمون كل منجزات الحضارة، أما من يتجرأ على ارتكاب أية مخالفة كاستخدام الهاتف الجوال فإنهم يهجرونه وينبذونه ويقاطعونه، إنهم يعتبرون الهاتف صناعة شيطانية، إنهم لا يعرفون التغاضي أو التساهل أو التسامح أو المهادنة؛ بل يخضعون لتعاليم دينية في منتهى الحسم والصرامة. وهم يُعَلِّمون أطفالهم في مدارس خاصة تقتصر على تحفيظهم تعاليم الدين المسيحي وهم ملتزمون التزامًا حادًّا لا يعرف التسامح؛ في توحيد اللباس وفي كل أنماط السلوك؛ إنهم نموذجٌ قاطعٌ على الفاعلية الحاسمة للتطبُّع التلقائي بالأنساق الثقافية المتوارَثة. لكن الفاعلية الحاسمة لهذا التطبع لا تكون واضحة إلا إذا جاءت على شكل طائفة ذات نسق ثقافي مغاير للنسق السائد في البيئة كحالة طائفة أمش في الولايات المتحدة الأمريكية، أو طائفة مينونايت في أمريكا الجنوبية. ويوجد في الولايات المتحدة الأمريكية وفي كندا طوائف أخرى مماثلة ذات انغلاق صارم على امتداد القرون ولا يزيدها مرور الزمن ولا التطورات الحضارية؛ إلا مزيدًا من الإصرار والتمسك...

وفي العراق توجد طائفة اليزيديين لقد تعرضت هذه الطائفة خلال القرون للاضطهاد والتهميش والحرمان مما هو متاح لغيرهم. ولكنها تزداد تمسُّكًا في التعاليم التي تتطبع بها أجيالها؛ كما أنها محرومة من كثير من المزايا التي ينالها العراقيون من الطوائف الأخرى السائدة. وهم يتشابهون في بعض الطقوس مع طائفة الدروز التي لا تقل غموضًا وغرابة. إن النسق الثقافي المتوارث، يَمْلِك ولا يُمْلَك، إنه يَحْكُم ولا يُحْكَم إن العقل البشري في الغرب والشرق في الماضي والحاضر؛ تتحكَّم به مختلف الأنساق الثقافية المتوارثة، رغم أنها أنساقٌ متباينة. لكن الناس داخل كل نسق ثقافي لا يحسون بهذا التحكم التلقائي الصارم بِل إن كل فرد يتوهَّم أنه بكامل إرادته، ومنتهى وعيه، ومحض تفكيره؛ قد اختار اتجاهَه، وتصوراته، وكلَّ محتوى عقله، وولاءاته، ويغيب عنه أنه يفكر ببنية ذهنية قاعدية تكَوَّنتْ تلقائيًا في طفولته، وأن هذه البنية بعد أنْ تكوَّنتْ؛ انبثق منها الوعي، وأنها تملك آلية تلقائية للتعامل مع ما يصل إلى الذهن؛ قبولاً أو رفضًا...

من نماذج التطبُّع اللافت للأنظار؛ ظاهرة النسق الثقافي للغجر، إنهم منذ القرون الأولى وحتى القرن الحادي والعشرين، ما يزالون رُحَّلاً يتنقلون بين البلدان بعاداتهم التي لم يغيرها امتداد الأزمان. في كتاب (العقل الشعري) يقول الدكتور خزعل الماجدي: «في مخطوطات غجرية، محاولة لاستنطاق لغة الغجر وحياتهم. ورغم أن الغجر ينتشرون في العالم كله، إلا أن لهم مبدئيًّا لغة سرية واحدة، ولهم ديانة واحدة، ورموز واحدة، يعيشون وفق حياة وتقاليد تكاد تكون واحدة؛ فهم أمَّة عالمية بكل معنى الكلمة» ويضيف الماجدي: «لقد تابعنا مشاهد عربات الغجر والعادات الغجرية والليالي والغناء وحتى الكوابيس، وكان الهاجس دائمًا؛ هو كيف نَصِفُ شعبًا بوهيميًّا كاملاً لا ينشد سوى اللذة والغناء» إن الغجر ظاهرة ثقافية ذات دلالات بشرية عامة عميقة على فاعلية التوارث التلقائي الحتمي للأنساق الثقافية، التي تتحكم بالأمم وتستبقيها مشدودة لماضيها البعيد، فهؤلاء الغجر كانوا وما زالوا دون وطن يتنقلون من مكان إلى أخر بنفس التقاليد وأنماط السلوك إنهم نموذجٌ ثابت من أنماط الحياة، تتقدم العلوم وتتكاثر التقنيات وتزدهر الحضارة؛ لكن الغجر يظلون كما كانوا رُحَّلاً يجوبون الدنيا وكأنهم دون هدف. ولا شك أن الغجر لا يختلفون جينيًّا عن بقية الأمم، ولكنهم أسرى نسقهم الثقافي الذي يتحكم بهم خلال كل الأجيال. وما أريد تأكيده هو أن كل الأمم محكومة بأنساق ثقافية تخصها تتوارثها عن أسلافها بامتداد الأجيال. الفرق الوحيد هو أن الغجر تحرروا من رابطة المكان؛ إنهم يَعتبِرون كلَّ الدنيا وطنًا لهم ولأنهم يستخدمون البغال وحيوانات أُخرى للتنقل فإنهم لا يمرون بمراكز التحقق من الهويات فيجتازون حدود الدول دون أن يخضعوا للرقابة، أو المنع من الدخول. وكأن العالم قد أبرم اتفاقًا غير مكتوب بالسماح للغجر بأن يدخلوا كل الأوطان، إنهم يسكنون بالحدائق وفي لندن يخيمون في الهايدبارك. إن الأمم الأخرى تخضع لأنساق ثقافية صارمة تنتقل من جيل سابق، إلى الجيل الذي يليه انتقالا تلقائيًّا حتميًّا، فيتطبع الجيل اللاحق بلغة ولهجة وولاءات وانتماءات وتصورات الجيل الذي قبله. إنها سلسلة متصلة. لكن أكثر الناس لا ينتبهون إلى أن محتوى أذهانهم قد تطبَّعوا به تلقائيًّا في

طفولتهم وبأنهم محكومون بهذا التطبُّع فالغجر لا ينفردون بهذا التوارث التلقائي الحتمي وإنما هم نمطٌ ثقافي انفرد بتحرره من الانتماء المكاني والسياسي فكل الأرض وطنٌ لهم لكنهم مقابل هذا الانفكاك من روابط الوطن بقوا شبه مشردين ومحرومين من مزايا كثيرة يحققها الانتماء لوطن...

ومن البديهي أنه لو أُخِذ عددٌ من أطفال الغجر بعد ولادتهم مباشرة وتربوا في أسر ألمانية، وفرنسية، وبريطانية؛ لنشأ كلُّ واحد منهم على النسق الثقافي الذي تطبَّع به. إنهم بعد أن يكبروا جميعا وقد تطبَّعوا بأنساق ثقافية مختلفة؛ سوف ينظرون باستغراب واستهجان إلى حياة الغجر، فالعقل يكوِّنه ويحتله ويتحكم به الأسبق إلى القابليات، ثم يبقى هذا الأسبق يتحكم بتفكير الإنسان وسلوكه واتجاهه وولاءاته وكل ما هو من مكوِّنات النسق الثقافي الذي تطبَّع به. إن الطوائف التي تعيش وسط مجتمعات مغايرة لها كليًّا في النسق الثقافي المتوارث؛ تلفت النظر لأنها مختلفة عما يحيط بها. لكن الناس المحيطين أيضا مبرمَجون بنسق ثقافي لم يكن لهم أي دور في تكوينه ولا في اختيارهم له، وإنما لأنهم هم الكثرة فإنهم لا يلفتون النظر فالتطبع التلقائي عام لكل البشر...

تكتب المبدعة المترجمة لطيفة الديلمي أنها في جولتها في شرق أوروبا زارت مخيمًا للغجر: «شئنا أن نرتاح عند غجر تنتشر عرباتهم المتهالكة بين أشجار الدلب والصفصاف؛ نمضي سهرتنا معهم وهو يحتسون أشربتهم القوية، ونشاركهم رقصهم، ونردد أغاني لوعتهم المعتَّقة من وادي الإندوس الهندي» وتضيف: «مخيم الغجر يمضي نحو الجبال في عربات، غير آبهٍ بالحدود والجوازات وتأشيرات المرور، يمر كأنه الريح أمام كل سلطة، فلا توقفه نظرة الذئب، ولا تصده نظرة التنين، ولا تحديق الأفعى» إنهم يتنقلون بين كل الأوطان وينصبون خيامهم في أطراف القرى والمدن. إن حياتهم كانت خلال القرون وما تزال مشحونة بالمشقة والتشرد والفقر إنهم في ترحالٍ دائمٍ لا يستقر...

إن الإنسان إذا تطبَّع بأي تفكير أو سلوك فإنه يلتزم به حتى لو كان في

وطن بعيد عن وطنه، لقد تربى على أن نسقه الثقافي هو النسق الذي يليق بالإنسان، إنه لا يشعر بأن التزامه خارج وطنه يثير الاستغراب ويجعله محل تساؤل. وعلى سبيل المثال يَذكر المبدع عبدالله بخيت، بأنه شاهد في كندا شخصًا من الطوارق يغطي كامل وجهه ومما جاء في مقال البخيت: «كنت أجلس في مقهى في تورنتو، دَخَلَ رجلٌ لن تَعرف لون بشرته، إلا من يديه العاريتين، لأن بقية جسمه بما في ذلك وجهه مغطًى بالكامل، لفَتَ نظر الناس، أكثر الظن أنه من الطوارق» أتذكر أول مرة قرأت عن الطوارق في رواية (حورية الاطلنطي) للمبدع الفرنسي بيير بنوا، وكنت وقتها بالمرحلة الثانوية لكن تلك الرواية شدتني للفن الروائي بمنتهى القوة. ورغم مرور عقود متتالية فإني ما زلت أحتفظ بالرواية. كما أني قرأت عام 1967 استطلاعًا لمجلة العربي الكويتية وكان الاستطلاع بعنوان لافت: (الطوارق حيث النساء سافرات، والرجال مُحَجَّبون) واستهل الاستطلاع بقوله: «عرفنا الحجاب فوق وجه المرأة، ولكننا لم نعهد الرجال يتحجَّبون، بينما يتركون نساءهم وبناتهم سافرات الوجوه؛ حتى رأينا الطوارق؛ هناك الرجال يعيشون ويموتون دون أن يزيحوا الحجاب الأسود عن وجوههم، حتى في أوقات الطعام، بينما النساء لا يعرفن الحجاب» رغم أن الأنساق الثقافية تتحكم بالتفكير والاتجاهات والسلوك في كل الأمم؛ فإن الناس في الغالب لا يدركون أنهم نتاج نسق ثقافي قد انساب إليهم من أجيال سابقة، وسوف ينساب منهم إلى أجيال لاحقة، وهذا العمى المطبق هو الجهل البنيوي الذي يتحكم بكل الأمم. إن جهل الجهل يغتال العقل...

تتكاثف الأفكار المضيئة، وتتقدم العلوم الدقيقة، وتتوافر الأدوات والوسائل الكاشفة، وتتعاظم القدرات، وتتغيَّر الأوضاع، وتتبدل الدنيا. ولكن الأنساق الثقافية المتوارَثة، لا تتغيَّر مهما بلغتْ من الشذوذ والغرابة. ولن يحس الناس أو يقتنعوا بأنهم أسرى التطبُّع الذي يَستحكِم في مرحلة الطفولة؛ لأنهم يُقَيِّمون النسق الثقافي؛ بالنسق ذاته؛ فهو المعضلة، وهو الحَكَم. إن بقاء العقل البشري في الغرب والشرق، في الماضي والحاضر؛ تتحكَّم به الأنساق الثقافية المتوارثة، من غير أن يدرك الناس ذلك؛ هي أشد المعضلات البشرية استعصاءً

على الحل؛ فالعقل يكونه ويحتله ويتحكم به الأسبق إليه، ومعلومٌ أن الأسبق دائمًا إلى قابليات كل مولود هو النسق الثقافي السائد في البيئة التي ينشأ فيها. وهكذا توارثت أجيال الطوارق، أن النساء سافرات، وأن الرجال متحجِّبون، وهو حجابٌ صارمٌ، فالرجل لا يكشف وجهه أمام أي أحد. بينما أن النساء في المجتمعات التي توجب الحجاب، لا يكون الحجاب إلا أمام غير المحارم. توجد رسالة دكتوراه من جامعة محمد الخامس في المغرب عن (صحراء الملثمين) للدكتور الناني الحسين. كما نشرت مجلة العربي عن الطوارق استطلاعًا آخر عام 1977 وبتاريخ 1988 نشرت مجلة العربي مقالا عن تميُّز المرأة الطوارقية للدكتورة بثينة شعبان؛ فهي الوجه السافر؛ الذي يستقبل الآخرين. وفي عام 1982 نشرت المجلة ذاتها مقالا عن المبدع الليبي الطوارقي إبراهيم الكوني وبالطبع كان الحديث عن الروائي وعن الطوارق. وفي عام 1992 نشرت المجلة نفسها مقالا عن (المجوس: رواية الطوارق الكبرى) لنفس المبدع الطوارقي إبراهيم الكوني. ولست بحاجة إلى القول بأن إبراهيم الكوني ليس فقط مبدعًا طوارقيًّا خلَّد تاريخ الطوارق بروائعه، بل إنه ليس فقط مبدعًا عربيًّا وإنما هو مبدعٌ عالمي...

وإذا كان الطارقي يعيش في كندا مغطَّى الوجه، دون أن يحس بأنه يظهر أمام الناس الغرباء، بمظهر لا يُعتبر لائقًا؛ فإن أحد الوزراء في كندا كان من طائفة السيخ وكان وهو الوزير في دولة متقدمة ذات تقاليد جدُّ مغايرة. لكنه بقي ملتزمًا بغطاء الرأس المحكم المميز لهذه الطائفة. وهذا يدل على أن الإنسان إذا تطبَّع على تقديس شيء، فإنه مهما تنقَّل ومهما تعلَّم، يظل عاجزًا عن التحرر حتى من المظاهر الشكلية؛ ولا شك أن العقائد، والتصورات، والقيم، والولاءات؛ تكون أشد رسوخًا، وأقوى هيمنة. لذلك فإنه رغم التقدم الهائل في ذخيرة الأفكار والعلوم والإمكانات؛ فإن الأنساق الثقافية المتوارثة؛ ما تزال تتحكَّم بالعقل البشري. مع أنها في معظمها تتعارض مع العلوم. لكن الناس يغفلون عن ذلك وربما يغفلون عن حقيقة أن التطور والعقلانية في أشد المجتمعات ازدهارًا؛ هي عقلانية، قوانين ونُظُم ومؤسسات ومناهج وأساليب

ومواضعات. وليست عقلانية أفراد ولا عقلانية مجتمعات فلو اضطربت التوازنات بين المؤسسات لاضطرب البلد كله؛ فالأوضاع البشرية هشة، والحضارة ذاتها ما تزال معاقة وبعيدة عن النضج...

إن التأمل في التعدُّد الهائل للطوائف في الهند، وكون الطائفة تكون مغلقة بصرامة، وبقائها منغلقة خلال القرون، وعدم قدرة كل منجزات حضارة العصر، بأن تفكك هذه الأوضاع الطائفية. يقول عالم الانثروبولوجيا وليم هاولز في كتابه (ما وراء التاريخ): «الهند الحديثة تؤلف طوائفها نسقًا اجتماعيًّا فريدًا. فكرة الطائفة تدين بظهورها إلى الآريين الذين غزوا الهند حوالي عام 1400 قبل الميلاد» ويقول: «فرجال الدين والكتبة وصيادو السمك؛ يؤلفون طوائف. إن لدينا نسقًا جامعًا شاملًا أو نمطًا لتنظيم المجتمع، يضم كل أنواع الجماعات في شكلها الراهن؛ فالطائفة هي طريقة للتفكير. عَمِلَ الهندوس على تعميمها» ويضيف: «فالسر في وجود الطوائف؛ هو أنها نمطٌ لتنظيم المجتمع. وقد يبدو غريبًا أن نرى كيف يعيش الهندي سجينًا في الطائفة التي يولد فيها، وكيف تعيش الطوائف ذاتها، منعزلاً بعضها عن يعض» ويضيف: «يتعيَّن على الرجل أن يتزوج من طائفته ذاتها وإلا عرَّض نفسه للطرد منها. وهو أمرٌ خطير، كما يتعين عليه أن يراعي المطالب الشعائرية الخاصة بطقوس الطائفة وطهارتها» ويضيف: «يخضعون لقواعد صارمة تتعلق بالنساء والزواج، فالزوجة تحيا في عزلة تامة، والأرملة لا تستطيع الزواج مرة أخرى، والطلاق غير مسموحٍ به على الإطلاق» ويضيف: «وقد يبدو انغلاق الطوائف على نفسها أشبه شيء بالصراع من أجل العزلة التامة لكل منها» إن كثرة الطوائف في الهند، والتنوع الشديد في معتقداتها، وكونها متجاورة وتتعايش معًا منذ قرون طويلة من دون أن يتأثر بعضها ببعض، وكونها رغم تطورات العصر الهائلة، ما تزال متمسكة بمعتقداتها الغريبة، إنها بانغلاقها، وصرامة تعاليمها، والتزام الجميع بأداء طقوسها، إنها بكل ذلك وما هو أكثر من ذلك تُلغي فردية الإنسان، وتمحو إرادته، وتحول بينه وبين تعدد الخيارات؛ إن هذا نموذجٌ صارخ على أن الأنساق الثقافية المتوارَثة ما تزال تتحكم بالعقل البشري وتحول دون الاستنارة الإنسانية...

إن كل أمة وكل طائفة؛ تَعتبِر أنها هي وحدها في المسار الصحيح، وأن الأمم الأخرى أو الطوائف المغايرة، تتبع الضلال والجهل. بهذا يتضح أن معضلات الإنسان المعرفية، أينما كان، وفي أي زمانٍ وُجِد؛ هي أن قابلياته تتطبَّع تلقائيًّا في طفولته، بما لم يتم التحقق منه، وأن التحكُّم في تفكيره، وفي اتجاهه وفي المسار الذي تتحدَّد به حياته؛ يكون للأسبق إلى قابلياته مهما كان محتوى واتجاه ونتاج هذا الأسبق، لأن الدماغ البشري، لا يملك آلية للتمييز بين الصواب والخطأ، ولا بين الحقيقة والوهم، ولا بين الواقع والخيال، وإنما يصير الأسبق إلى قابلياته؛ هو معياره للقبول أو الرفض، وللاستحسان أو الاستهجان، وللموالاة أو المعادات، وللانجذاب أو النفور...

إن العقل الفردي يكَوِّنه ويحتله ويتحكم به الأسبق إلى قابلياته. يضاف إلى ذلك أن البنية الذهنية القاعدية لأي فرد حين تتكوَّن تلقائيًّا في الطفولة؛ تصير خارج مستوى الوعي فهي أشبه ما تكون بالغريزة ذات الاستجابة التلقائية؛ تنساب منها تلقائيًّا استجابات القبول أو الرفض دون تفكير ومن دون التعرض لفاعليات الوعي الفاحص، إن الأنماط الذهنية التي يكوِّنها الدماغ لأي فرد، تتحكَّم بتفكيره وتُحدِّد اتجاهه وآراءه ومواقفه وتقييماته، وتُوهِمه بأنه يعرف، ولهذا فإنه لا يعلم أنه لا يعلم، أي أن تَوَهُّم المعرفة هو الأصل في التفكير البشري، ولا يُفيق من هذا التوهُّم إلا إذا اصطدم بما يوقظه ويضطره للتدقيق والفحص والمراجعة والتحليل؛ وبهذا يَخرج عن المسار الطبيعي التلقائي، الذي ينساب أو يتدفق تلقائيًّا دون خضوع لتحليل الوعي. أو إذا كان يبحث قصدًا كعملٍ علمي مقصود؛ إنه في هذه الحالة يكون مضطرًّا للخروج من تلقائيته وحشد انتباهه ويستخدم المنهج العلمي، وتقنيات وأدوات البحث وما يقتضيه واجب التحقق. وبهذا يتضح أن أكبر معضلة تتحكَّم بالأمم؛ أي بالجنس البشري بأجمعه؛ هو هيمنةُ الأنساق الثقافية المتوارَثة؛ إن كل أمة هي نتاج تاريخها، وما كان عليه أسلافها، إن كل أمة تنظر بتقديس إلى النسق الثقافي الذي يتلبَّسها تلقائيًّا، ويتحكم بها حتمًا، إنها تنظر إلى نسقها الثقافي ليس بوصفه أكبر معضلة فهي مأسورة به وينطبق ذلك على كل الأمم؛ إنها معضلة بشرية عامة؛ فكل أمة

لا تنظر إلى وقوعها في قبضة نسقها الثقافي على أنه معضلة، وإنما تنظر إليه باعتباره مصدر فخرها، وعنوان امتيازها، والمكوِّن العظيم لأصالتها. إن الطوائف تموت دفاعًا عن تصوراتها وطقوسها وولاءاتها وكل ما تفترق به عن غيرها من الطوائف والمذاهب؛ فالإنسان نَسَقِيًّا كائنٌ غير عقلاني...

إن الناس في الغالب، لا يدركون أن معضلات البشرية، ليست في نقص المعلومات. وإنما في التوارث التلقائي للجهل البنيوي. أي الوثوق المطلق بما تم التطبُّع به تلقائيًّا في الطفولة، فتكوَّنت به البنية الذهنية القاعدية لكل فرد. ثم تعزَّزتْ وتأكَّدت ورسخت خلال عمر الفرد. وكذلك الاختلافات الحتمية في الأنماط الذهنية بين كل فرد وآخر. لذلك فإن معرفة الإنسان لطبيعته، ومعرفة قابلياته، ومعرفة مفتاح هذه القابليات؛ هي أهم وأعظم ما يجب أن يهتم به كل فرد قادر، وأن يتعمق فيه إلى أقصى حدود التعمق الممكنة؛ لأن معنى وجوده، ومساره في الحياة، مرتبطٌ بهذه القابليات إيجابًا، أو سلبًا، فهي عظيمة النفع، أو فظيعة الضرر، حسَب الأسبقية، فهي تتبرمج بالأسبق إليها، وتتخذه معيارًا للحكم على الأفكار، والأشخاص، والأعمال، والتصورات، والاتجاهات، والآراء...

إن كون جميع الناس من كل الأمم، يولدون بقابليات فارغة مفتوحة متعطشة للمثيرات؛ تمثِّل مفتاحًا لقفزة إنسانية نوعية هائلة، إنها على المستوى الإنساني بأجمعه؛ تحمل وغدًا مضيئًا، بتحقيق تغيرات نوعية عظيمة. ومن هنا جاءت فكرة المدن الفاضلة، التي يراد منها أن تباشر قابليات كل مولود بالحكمة والحقيقة وتحمي قابلياته من التطبع بأي نسق ثقافي موروث. أما الآن فإن قابليات المواليد مطمورة ومبددة ومختطَفة في اتجاهات متناقضة ومتصارعة وكلها تقريبًا تسير في غير الاتجاه الصحيح؛ إن العقل البشري عمومًا محكومٌ بالبدايات الثقافية التي تكوَّنَتْ وتراكمت وتعقدت تلقائيًّا في أعماق الماضي. لذلك فإن المهمة الكبرى المنتظَرة هي تحرير العقل البشري من الجهل البنيوي المكتسَب الذي يتحكم بالعقول، ويُفسد العلاقات، ويتسبب في استمرار النزاعات. ولكن هذه العقول لا تدرك ذلك؛ فتبقى مغتبطةً بهذا التحكم، فرغم

كل التطورات المدهشة التي تحققت للإنسانية في مجالات الأفكار والعلوم والتقنيات؛ فإنها بقيتْ مكبَّلة بأنساقها الثقافية، إن البشرية مازالت شديدة التخلف؛ ومعاقة: فكرًا وأخلاقا؛ قياسًا بما تتيحه القابليات العظيمة المفتوحة المتاحة لها، ولكنها لم تستثمرها في الاتجاه السليم. لذلك فإني مؤمنٌ بأن الوضع البشري القائم ليس سوى تمهيد متعثر لما هو متوقَّع للإنسان الفرد، وللإنسانية أجمع، وما يجب أن تكون عليه الأوضاع البشرية، ففي اعتقادي ليس أعظم من المستقبل المغاير جذريًا الذي ينتظر اليقظة الإنسانية التي يتأسس بها الوجود الإنساني الحق الذي يتناسب مع قابليات الإنسان المرنة والمفتوحة والمتعطشة، سوف تزدهر كل الإنسانية، فكرًا وأخلاقًا وعلاقات؛ حين تتأسس البنية الذهنية القاعدية، على الأفكار المضيئة، وتنبني بالحقائق العلمية الممحَّصة، وتتهذب بالأخلاق المثالية، وتتملك الحكمة الناضجة، وتكتسب روحًا شفافة جديدة؛ فيكون همها اكتساب المزيد من التآخي الإنساني، والمعرفة الممحصة، والكفايات العالية، والحكمة الناضجة، القائمة على البحث الدقيق والاستقصاء التام والإخلاص الصادق لمحض الحقيقة...

يولد كل إنسانٍ سَوِيٍّ؛ بقابليات عظيمة فارغة مفتوحة متعطشة مطواعة؛ تتيح تكوين تصورات صحيحة، وتشييد قدرات عالية ومتنوعة ذات فاعليات غير نهائية. إن من يتعرف على القابليات الإنسانية سوف يدرك فداحة الخسارة على المستوى الإنساني بأجمعه؛ فليس أروع من قابليات الإنسان، وليس أعظم منها في دنيا البشر؛ لو أنه أدركها واستثمرها إلى أقصى درجات الاستثمار. إن الإنسان لو أجاد استثمار قابلياته لصار كائنًا مدهشًا في استنارة عقله، وتألُّق فكره، ورفيع أخلاقه، وعظمة النتائج الإنسانية العامة التي تترتب على ذلك. ولكن الإنسِانية كلها ما تزال تُهدر هذه القابليات فتَغرَق في آلاف المشاكل والمعضلات. إن الإنسانية ما زالت محكومة بعقلية التنازع والتنافر وليس بعقلية التعاون، وتبادل الفهم سواء على مستوى المجتمعات أو الجماعات والفئات أو على مستوى الأفراد. لقد تركزت طاقات الإنسانية؛ أممًا وأفرادًا في الصراعات وفي تطوير وسائل التغالُب؛ فرغم كل الثروة الفكرية المضيئة، والعلوم الكاشفة،

والوسائل الميسرة؛ فإن العلاقات الإنسانية ظلت مشحونة بالحماقات كما كانت الحال منذ آلاف السنين حتى العلوم ما تزال فاعليتها محصورة في مجالات إنتاج الأدوات، والوسائل، والهموم الاقتصادية، ومتطلبات البقاء، وبناء قدرات السيطرة والتمكين؛ لأن العلوم ظلت منفصلةً عن الأنساق الثقافية لكل الأمم، إن الفلسفة والعلوم الموضوعية الناشئة عنها؛ تمثل نظامًا للتفكير مغايرًا لكل الأنساق الثقافية المتوارثة. إنها لم تمتزج في ثقافات الشعوب التي يتبرمج بها الأطفال تلقائيًا وتبقى هذه البرمجة تتحكم بهم مهما تلقوا من تعليم. وبذلك غابت إمكانات الارتقاء الحقيقي الذي يليق بالإنسانية؛ فرغم توافر المعارف الكافية عن الدماغ والعقل والطبيعة البشرية؛ فإن هذه المعارف العظيمة بقيت محصورة في عدد محدود من البشر. وبذلك بقي عموم الناس يجهلون أساسيات طبيعتهم، كما يجهلون الكيفية التي تتكوَّن بها بنياتهم الذهنية القاعدية، وكذلك الكيفية التي تتكون بها أنماطهم الذهنية التي تجعلهم مختلفين حتى داخل المجتمع الواحد؛ حيث لا يمكن أن يتماثل شخصان في آرائهم ومواقفهم ورؤاهم للحياة والأحياء. لقد ضل الإنسان عن فهم قابلياته ولم يدرك مفتاح طبيعته كما غاب الاهتمام بالجامع الإنساني فتفاقمت حالات الاختلال...

إن الإنسانية ما زالت تتحكم بها أفكار وتصورات الأموات وصراعاتهم وتاريخهم وأوهامهم وأساطيرهم وعُقَدهم وزائف مفاخرهم وضلال رؤيتهم عن أنفسهم وعن غيرهم أما تحرير الإنسانية من هذا الانسياب التلقائي لضلالات الماضي فإنه يقتضي قطع هذا التدفق التلقائي واستئناف تكوين العقل البشري بمكونات مغايرة ممحَّصة. لذلك فإن من أكبر القضايا التي استهدَفَها مشروع (تأسيس علم الجهل لتحرير العقل) هي قضية تحرير العقل البشري من هذا الركام الفظيع الذي تتوارثه الأجيال تلقائيًا في كل المجتمعات. إن أكثر الناس ينخدعون بما تحقق من إنجازات باهرة في مجالات الوسائل ويغيب عنهم أن المجتمعات في الغرب والشرق وفي الشمال والجنوب ما زالت تتوارث تلقائيًا ثقافات ما قبل كل هذه التطورات الحضارية المدهشة، وأن العقول الفردية، تتبرمج تلقائيًا بما هو متوارث وما هو سائد في البيئات المتناقضة؛ وبذلك تتنوع

عقول الأفراد بتنوع الثقافات بل تتعدد بتعدد الأفراد أما التعليم فنتائجه على الأفراد محصورة غالبًا في التكوين المهني وفي بناء القدرات العملية، وهي قدرات لا تتكوَّن إلا بالمران الدقيق والممارسة الحية والخبرة المستغرقة وليست المعرفة النظرية سوى تعليمات وخطوط إرشادية لقيادة الأداء...

إن من أشد المعضلات الإنسانية تفريقًا للبشر وتنويعًا لأنماط التفكير ومنعًا لإمكانات تبادل الفهم واستعصاءً على الحل؛ هو أن البشرية في كل مكان، وفي مختلف الثقافات، ما زالت تَعتبر العقل جوهرًا قائمًا بذاته وأن كل فرد يولد مزوَّدًا بهذا الجوهر المشترك العام المتوهَّم؛ فعلى امتداد العصور ساد الوهم بوجود عقل جوهري مشتَرَك بين كل البشر مهما اختلفت ثقافاتهم بينما أن العلم قد كشَف بأن الفرد لا يولد بعقل جوهري جاهز وإنما يولد بقابليات فارغة مفتوحة مرنة متعطشة للمثيرات فتتشكل بالأسبق إليها ثم يبقى الوعي السطحي كقدرة آنية معيشية تنحصر فاعلياته غالبًا في الحياة العملية ويتيح التفاهم العملي المعيشي بين المختلفين ثقافيًّا مهما تباينت بنياتهم الذهنية كما أن هذا الوعي السطحي يعمل كقدرة عملية، وللتعلُّم المهني من أجل مواصلة العيش وبناء القدرات المعيشية أما القضايا الوجودية فتبقى محكومة بالبرمجة التلقائية. هذه هي الرؤية التي توصلتُ إليها عن طبيعة ووظيفة الوعي وعلاقته بالبنية الذهنية المتكوِّنة تلقائيًّا وأيهما يتحكم بالآخر ومتى تنقلب الأدوار بينهما فيصير الوعي حاكمًا، واللاوعي محكومًا ولكن ذلك لا يحصل إلا في حالات استثنائية نادرة؛ حين يُفيق الشخص من سباته التلقائي؛ فيخرج من الكهف الذي أحكمه التطبُّع التلقائي، فيمتلك الفرد ذاته، ويصبح يفكر بعقل طليق غير مشروط...

كان ظهور التفكير الفلسفي بواسطة طاليس، في القرن السادس قبل الميلاد؛ إيذانًا بتأسيس نظام تفكير عقلاني موضوعي. لكنه ظل نظامًا فرديًّا منفصلاً عن كل الأنساق الثقافية، وسيظل نظاما للتفكير الفردي، ولا يمكن أن يتحول إلى نسق ثقافي لمجتمع بأكمله، ولا أن يصبح عنصرًا مكوِّنًا لأي نسق ثقافي عام. وإنما يصل إليه قلة من الأفراد ينفصلون عن الأنساق الثقافية التي كانوا قد تطبعوا بها بحكم النشأة. وبظهور نظام التفكير الفلسفي بات ممكنًا

ظهور العلوم الموضوعية القائمة على الملاحظة والبحث والاستقصاء والتجريب والتحقق. ولا يمكن أن يحصل ذلك إلا بالانتباه القوي والانفصال عن التفكير التلقائي. لو استمرت كل الأنساق الثقافية المتوارثة تتحكم بالعقل البشري، ولم يبزغ التفكير الفلسفي، لكان ظهور العلوم الموضوعية الحديثة محالا؛ فالتفكير الفلسفي هو الذي حرر عقول بعض الأفراد من قبضة الأنساق الثقافية، وهيأها للتفكير المستقل، وفتح لها أبواب الملاحظة والتأمل والبحث والاستقصاء والاستنتاج والتحقق...

فبظهور التفكير الفلسفي في اليونان، أخذ قلة من الأفراد يفكرون خارج كل الأنساق الثقافية التي ينتظم بها الكل، لقد دشَّن طاليس بداية التفكير بطبيعة الكون وأصل الأشياء، ثم امتد التأمل في طبيعة العقل ذاته، وكيفية تكوين المعرفة، والبحث الموضوعي لأسباب الأشياء. ولا يهمنا هنا سوى الأفراد الذين اهتموا بطبيعة المعرفة وحدوها وقيمتها حيث ظهرت ملامح تأسيس نظرية معرفية عقلانية متشككة، فظهر فلاسفة صاروا يَسْخَرون من الوثنية اليونانية ومن الاعتقاد بتعدد الآلهة ومن الوثوق الأعمى الذي يلاحظونه في من حولهم. ولم يكن افلاطون فقط ضد الشعراء من أمثال هوميروس وهسيود الذين يلوثون عقول الناشئين، بما يشيعونه من خرافات. وإنما وقف ضدهم ونَقَدَهم بقوة بارمنيدس وزينوفانس وهيراقليطس وبروتاجوراس وجورجياس وانكساجوراس. لقد أكد هيراقليطس أن الوجود في حالة جريان وتغيُّر دائم وأن الأشياء ليست في حالة كينونة ثابتة، وإنما هي في حالة صيرورة دائمة التغير، وأنك لا تخوض النهر نفسه مرتين ففي كل لحظة يتغير النهر؛ فالوجود كله في حالة تدفُّق وصيرورة. وأدرك هؤلاء الفلاسفةُ هشاشةَ المعرفة البشرية وأعلن بروتاجوراس بأن: «الإنسان هو مقياس كل الأشياء» وهذا اكتشاف خطير في مجال المعرفة. إنه اكتشاف في غاية الاختراق والنفاذ والتقدم؛ لأنه يعني اكتشاف أن محتويات ذهن كل شخص تختلف عن محتويات ذهن أي شخص آخر، وأن الأشياء لا تصل إلى العقول كما هي وإنما تتلوَّن بتلوُّنات العقول وهنا تأكدت نسبية المعرفة. وهذه من الحقائق المكتشفة حديثًا؛ فقد أكدها علم الأعصاب وأكدتها

العلوم الإدراكية. لكن اكتشافها في القرن الخامس قبل الميلاد، هو اكتشافٌ عجيبٌ خارق. أما جورجياس فأنكر إمكانية المعرفة. وهذا فَتَح المجال للتفكير العميق في التحقق مما نتوهم أننا نعرفه؛ ففكرة جورجياس عن المعرفة تمثِّل وثبة فلسفية مدهشة، وأشد إدهاشًا أنها ظهرت قبل خمسة وعشرين قرنًا. بينما مئات الملايين من الناس في القرن الحادي والعشرين يعيشون بوثوقٍ أعمى بأشد التخريفات إيغالا في الجهالة والضلال...

أما رؤية سقراط عن الجهل البنيوي وهشاشة المعرفة البشرية؛ فتُمثِّل انطلاقة هائلة، ليس فقط في زمن سقراط. وإنما أيضا في القرن الحادي والعشرين؛ لأن المعضلة المعرفية التي انتبه لها بعمق، وعالجها بفاعلية؛ ما تزال قائمة؛ فقد كان يرى أن توَهُّم المعرفة؛ هو الأصل في كل إنسان، وبأن الإنسان لا يتخفَّف من هذا التوهُّم؛ إلا بإدراك أولويته وأصالته وعمقه وملازمته التلقائية للجميع. لقد كان يطالب كل إنسان بلجم ذاته؛ بأن يَنظر إلى نفسه أمام أي موضوع؛ بأنه يجهله، وبأن عليه أن يَعتبِر هذا الجهل أصلًا ملازمًا لكل إنسان؛ لابد من أخذه في الاعتبار من أجل مقاومته باستمرار، فالجهل هو الأصل. أما المعرفة فهي اكتساب؛ لذلك؛ فإن على كل فرد أن لا يُطلق أحكامًا، ولا يتخذ قرارًا، ولا يبدي رأيًا، ولا يتخذ موقفًا، إلا بعد امتحانٍ ومراجعةٍ واستقصاء وتحقُّق. أما من دون ذلك؛ فإنه يبقى محكومًا بتوَهُّم المعرفة، وتكون آراؤه ومواقفه وتقييماته؛ في الغالب خاطئة وجائرة. وحتى إذا صادفت الصواب، فإن ذلك خلاف الأصل، أي أن إدراكه التلقائي للصواب؛ هو مجرد صدفة وحظ. أما القاعدة الأخرى التي يقيم سقراط عليها الحياة، فهي أن حياةً لا تُمتحَن هي حياة لا تستحق أن نحياها، فالانتظام التلقائي على ما تَبرمَج به الإنسان؛ هو إلغاءٌ للوجود الفردي؛ لأنه ذوبان تلقائي حتمي في القطيع، إن َقيمة الإنسان بمقدار ما يتعقَّله، تعقُّلًا قائمًا على التروي والتحقق. إضافة إلى المتطلبات الأخلاقية التي تتأسس على معرفةٍ، تَمَّ امتحانها والتحقق منها، فالحياة البشرية، تقوم على ركنين أساسيين: معرفة تَمَّ التحقق منها، وأخلاق ملتزمة بكل ما تتطلبه الفضيلة والأخلاق القويمة...

كانت حقيقةُ أولويةِ وأصالةِ وعمقٍ وتلقائيةٍ؛ توَهُّم المعرفة لدى كل إنسان؛ شديدةَ الوضوح في عقل افلاطون، فتصوُّره بأن الأصل في كل البشر أنهم يشبهون سجناء في كهف، لا ينفذ إليهم أي نور إلا من خلف ظهورهم؛ فهم مشدودون إلى حائط الكهف ولا يتعرفون على الأشياء إلا من خلال ظلال الأشياء التي تنعكس على الحائط. أما حقائق الأشياء فلا يصل إليها سوى فيلسوف ينفلت من رباط الكهف ويخرج إلى شمس الحقيقة. لذلك فإن حياة أي مجتمع تبقى في ضلال وعمى مالم يستجيبوا للفيلسوف الذي أبصر وحده الحقيقة. يقول في كتابه (الجمهورية): «تصوَّر طائفةً من الناس، تعيش في كهفٍ سفلي مستطيل، يدخله النور من بابٍ في طوله. وقد سُجِن فيه أولئك الأقوام منذ نعومة أظفارهم، والسلاسل في أعناقهم وأرجلهم، فاضطرتهم إلى الجمود، والنظر إلى الأمام فقط. ثم تصوَّر أن وراءهم نارًا ملتهبة، تعكس ظلال الأشياء. لنفرض أن أحدهم حُلَّتْ أغلاله، ونهض واقفًا على قدميه، فتمكن من الالتفات إلى الوراء، والسير بعينين مفتوحتين في جهة النور» هكذا كانت فلسفة افلاطون؛ يرى أن عقول كل الناس في سجنٍ عام أبدي؛ حيث يظلون أسرى ما تطبَّعوا به في طفولتهم، وما بعدها. ولا ينجو من هذا السجن الحتمي المحكم الإغلاق؛ سوى أفراد ينفك وثاقهم. لم يكن افلاطون متأثرًا بسقراط وحده وإنما كان لهيراقليطس عليه تأثيرٌ عميق. وكذلك بروتاجوراس، وجورجياس إن هراقليطس يرى أن العالَم كله هو عالَمٌ عبثي خال من المعنى. ويرى أن عموم الناس لا يعقلون ويقول: «يملأ الغوغاء بطونهم كالبهائم. إنهم يتخذون من شعراء الملاحم ومن المعتقد الشعبي مرشدين لهم، متجاهلين أن الكثير مما يتخذونه؛ طالحٌ وأنِ القليل فقط هو الصالح» ويقول: «إن معظم الناس أشرار. إن الرعاع لا يُبدون أي اهتمام، ولا حتى بحجر عثرة يعترضهم على حين غرة، ولا يمكنهم إدراك عبرةٍ ما، رغم اعتقادهم بغير ذلك» ويضيف: «لا ينبغي أن نتصرف كالأطفال متشبثين بوجهة نظر ضيقة، كما لو كانت مفروضة علينا» إنه يرى أن عموم الناس لا يكادون يعقلون شيئًا ويقول: «لا ينبغي على المرء أن يتصرف، وأن يتحدث كما لو كان نائمًا؛ فأُولئك النائمون يتحولون إلى عوالمهم الخاصة، إنهم

لعاجزون عن السماع، عجزهم عن الحديث، وحتى لو كانوا يسمعون، فهم أشبه بالصُّم. وينطبق عليهم المثل: إنهم حاضرون ومع ذلك فإنهم غائبون» إنه يحتقر عموم الناس ويرى أنهم لا يعقلون. ولا يكتفي بذلك بل يؤكد على الصيرورة المطلقة التي تحول دون المعرفة. وقد واجه افلاطون هذا التشكيك العميق، سواء من هيراقليطس أو من غيره من المشككين بإمكانية المعرفة؛ فهو حين يقول: «يتعين أن تكون المعرفة واحدة، وغير متغيرة، بل تكون المعرفة هي، هي، ذاتها في كل زمان وكل مكان» فإنه بذلك يحاول أن يرد عليهم ليؤكد وجود الحقائق، وإمكانية المعرفة لمن يحرج من الكهف العام. ولكنه بالملاحظة يدرك أن الناس يختلفون حول الشيء الواحد، وهنا علينا أن نعود لفكرة الكهف فكل إنسان يعيش داخل كهفه أي أن اختلافهم ليس ناشئًا عن التغير والصيرورة، ولا عن استحالة المعرفة، وإنما هو ناشئ عن توهُّم المعرفة؛ فالجهل البنيوي عميق في النفس البشرية، ولا ينجو منه سوى الفلاسفة، لأنهم ينفلتون من قيود الكهف، وينطلقون في فضاء الحقائق المضيء المفتوح. وقد ابتكر افلاطون نظرية المُثُل ليتحاشى اعتراضات هيراقليطس عن التغير والصيرورة الدائمة، كما يتحاشى اعتراضات بروتاجوراس عن كون المعرفة موغلة في النسبية، وأن صور الأشياء تتعدد بتعدد الأفراد مادام الإنسان هو مقياس الأشياء، ثم يتحاشى اعتراضات جورجياس الذي يرى استحالة المعرفة عمومًا. وأمام كل ذلك ابتكر مفهوم المُثُل كما أكَّد على أن المعرفة المبنية على التقاليد ليست معيارًا. فيقول: «يتحتم أن تعتمد المعرفة على الطبيعة، لا على العادات والتقاليد المتقلبة؛ ففي الإنسان كما في غيره من أجزاء هذا العالم؛ يوجد عنصر دائم هو الطبيعة، متميزةً من أي مظهرٍ خارجي تتخذه، والكشف عن الطبيعة وتعَرُّف كنهها هو فيصل التفرقة بين العلم والظن» يقول إروين: «إن افلاطون يعتقد في وجود حقيقة مستَقلة عن العقل يمكن معرفتها» ويقول داود روفائيل في كتابه عن افلاطون: «إن المعرفة لا يمكن أن تكون إلا متعلقة بغير المتغير، فإننا بذلك لا نبرهن على وجود غير المتغير، وإنما ننشئ التمييز بين عالَم المحسوس المتحول، وعالَم المعقول المستقر» ويضيف روفائيل: «ما هو جوهريٌّ للحياة

الفلسفية؛ ليس أن نعرف، أو نعترف بوجود الصور. وإنما أن يكون لنا وعيٌ بالصور، وأن نحيا مع الصور بأن نمارس حياة العقل والتأمل؛ أنْ نحيا حياة إنسانية حقة؛ يعني أن نحيا حياة عقلانية، وأن نحيا حياة عقلانية، يعني أن نُخضِع للمساءلة كل ما هو معطى. كل معطى يظل ببساطة معطى؛ هو تقييد للعقل. هذا هو الأساس العقلاني للرسالة التي كرس لها سقراط كل حياته ممتحنًا ذاته، وممتحنًا الآخرين. وهذا هو جوهر الجهل السقراطي: لا معرفة محددة يمكن أن تُقبل باعتبارها نهائية» ويضيف: «ينشئ سقراط مفهوم الصورة المعقولة، كبُعْدٍ متميز من الكينونة، متميز عن الأمثلة المفردة التي تتجسد فيها الصور» ويضيف: «المفهوم ليس واقعًا موضوعيًا، ولا هو مقولة صِدْقٍ تثبت بالحجة أو البرهان، إنما المفهوم ينشأ بفعلٍ إبداعي» إن افلاطون قد حاول أن يتحاشى اعتراضات الفلاسفة المشككين بإمكانية المعرفة، بمفهومين: المفهوم الأول مفهوم المُثُل، والمفهوم الثاني مفهوم الكهف. إن فكرة الكهف هي فكرة إبداعية عظيمة؛ تُصوِّر طبيعة المعرفة التي يتطبع بها كل مولود ويظل مأسورًا بها، مشدودًا إليها؛ فالناس يتطبعون بأنساق ثقافية مختلفة، ويظلون أسرى لهذا التطبُّع الذي يفصلهم عن الحقائق الموضوعية. فالناس عمومًا يشبهون من يعيشون منذ ولادتهم في كهف مظلم، ولا يصل إليهم ضياء الواقع إلا على هيئة انعكاس يظهر أمامهم معكوسًا على حائط الكهف الذي هم مشدودون إليه. إنه تصوُّرٌ عبقريٌّ عجيب للفرق بين التطبُّع التلقائي بأحد الأنساق الثقافية المتوارثة، مقابل الحقائق الموضوعية. وهذا تأكيد بأن التطبُّع التلقائي بالأنساق الثقافية لا يمثل معرفةً تستحق الاعتبار وإنما هو بمثابة سجنٍ عقلي حتمي تلقائي الفاعلية؛ يظل يتربَّص بكل مولود، ثم يظل يتحكَّم به، ومع ذلك يبقى مغتبطًا به؛ لأنه لا يدرك أنه محكومٌ بجهلٍ بنيوي، وأنه في حقيقة الأمر لا يعرف، وإنما يتوهَّم المعرفة...

تلك هي الصورة العامة للعقل البشري في الغرب والشرق، في الماضي والحاضر. لكن قلة من الأفراد في كل العصور تجتاحهم الشكوك حول الأنساق الثقافية المتوارثة؛ فتكتسب عقولهم طاقة استثنائية خارقة، وبامتداد الزمن، وبمختلف العوامل الحافزة، وبتكرار بزوغ العقول العبقرية الاستثنائية بين فترة

وأخرى؛ يؤثِّر أُولئك الأفراد في ازدهار الأفكار، وتقدم العلوم، وتغيُّر أوضاع المجتمعات، وتطور الحضارة؛ بما يثيرونه من تساؤلات حادة، وتحليل موقظ، وومضات فكرية خارقة. ولأن الشك هو مفتاح التغيُّر خلال مختلف العصور؛ فإن الفيلسوفة الأمريكية جينيفر مايكل هيكت، انبرت لتتبُّع قصة الشك منذ أقدم العصور في كتابٍ رائعٍ يقع في 843 صفحة تقول فيه: «استعان شُكَّاك كل قرن بطروحات من سبقهم، لكن في أزمنة أخرى أعيد ابتداع أفكار الشك العظيمة بمعزل عن الأصل، وبأشكال جديدة مدهشة» وتضيف: «ولأننا بشر فنحن نحيا في قطيعة مع المغزى خلافًا للكون» وتضيف: «وبتعارضٍ هائلٍ مع الكون؛ تمتلك الكائنات البشرية، تصوُّرًا فطريًّا حول ما هو عادل. لكن الحياة جائرة» وتضيف: «لدينا رغبة متقدة إلى حد ما؛ لفهم الأمور، ويبدو أن أدمغتنا تتصور الحياة برمتها على هيئة لغزٍ هائل» وتضيف: «يثير العالمُ ذهولَ البشر كأمرٍ جديرٍ بالفهم» وتضيف: «يواجه العقلُ معضلةَ جديَّة التفكير وسط عالمٍ واسع غير مفكر» وتضيف: «كان الشُّكَّاك خلَّاقين على نحوٍ لافتٍ؛ لسببٍ جلي؛ هو نزوعهم للاستقصاء، ولأن ما يجتذبهم أيضا هو إضفاء معنى على حيواتهم» وتضيف: «دَخَلَ أَوَّلُ شكٍّ إلى سجل التاريخ منذ ألفين وستمائة عام» وتَخْتم كتابها الحافل بالقول: «الشك هو الأمر الوحيد الذي يُعتمَد عليه. توقَّعوا التغيير، تمتَّعوا بالحياة، تقبَّلوا الموت» وتضيف: «الأمر الوحيد الذي يحتاجه هؤلاء الشُّكَّاك حقًّا، هو أن الناس الذين يشبهونهم؛ يحيطون بهم على الدوام، وأنهم جزءٌ من تاريخٍ جليل، وهو مُلْكٌ له، وإنه لولاءٌ قديمٌ وعظيم، يستحق التبجيل والفخر؛ أن يكون المرء شكَّاكًا. لطول عمر الشك، لإنتاجيته، لجنْبِه، لحماسته، لخدمته الصديق والعدو، ولالتزامه بالحقيقة البرهانية، أمنح السعفةَ لقصة الشك» إن قصةَ الشك خلال التاريخ كما تجلت في هذا الكتاب الحافل؛ هي قصةُ التطور الحضاري في مختلف المجالات؛ فلولا هؤلاء الشُّكَّاك الذي فكروا خلاف السائد، وتحركوا عكس التيارات الجارية؛ لما بزغت الفلسفة، ولما ظهرت العلوم المضادة للأنساق الثقافية المتوارثة، ولبقي العالم محكومًا بأنساقه الثقافية المغلقة المتحجرة. إن قصةَ الشك هي قصةٌ مثيرةٌ وموقظةٌ ومثريةٌ

وتستحق أن تُروى وأن تعاد روايتها وأن يَتكرر الحديث عنها لأن تحجُّر العقول هو الأصل، فبدون الأفراد الخارقين، الذين يفكرون خلاف السائد، ويتحركون عكس التيارات الجارية، تتحجر العقول، وتتجمَّد الحياة...

لابد أن ندرك أن خروج أوروبا من الكهف المظلم الذي أقامته الكنيسة في كل مكان ووضعت فيه العقل الأوروبي وأقامت حوله الحراسات القوية لإبقاء العقل خاضعًا لتعاليمها، ملتزمًا بما تقرره؛ مكبَّلا وموصدًا عليه. ورغم ذلك كانت عقولٌ فردية خارقة، تُبدِّد ذلك السكون البليد الخانق؛ لقد توالى خروج مفكرين ينكرون على الكنيسة إجراءاتها التعسفية ويدعون الناس إلى التحرر لكن انعتاق العقل المبرمَج دونه ألف ألف عقبة. ففي القرن الرابع عشر بزغ نجم مفكر انجليزي كان له تأثير عميق هو وليم الأوكامي. كان من أبرز الفلاسفة الذين قالوا بالفلسفة الإسمية، أكد على ضرورة البحث العقلاني، وعارض الكنيسة في مسائل أساسية. هاجم المبدأ القائل بأن سلطة البابا تعلو كل سلطة دنيوية. ودافع عن حق الملك الإنكليزي في فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة. لقد نبَّه لفكرة السيادة؛ فسلطة الملك لا يصح أن تُقيِّدها سلطة من خارج الوطن، حيث كانت كنيسة روما تقيد سلطة الملوك داخل أوطانهم، وتتدخل في قضايا داخلية جوهرية. وكان من أوائل من وضعوا الكنيسة والبابا وقوانينه موضع المساءلة الحادة والنقاش العلني الصريح؛ فجَعَلها قابلة للمعارضة والنقض. كان للمذهب الإسماني تأثير مزلزل وكان من أبرز القائلين به والتر بيرلي المولود عام 1275 أما الثاني وهو الأكثر نشاطًا والأقوى تأثيرًا وليم الأوكامي المولود عام 1285 وجان بوريدان المولود عام 1292 لقد كان لهم تأثير عميق في إثارة إشكالات حول نظرية المعرفة. يقو مؤلفا كتاب (تاريخ الفكر الغربي) سكيريك. وغيلجي: «إن الانتقال الذي حدث في القرون الوسطى من الواقعية التصورية، إلى المذهب الإسمي؛ كان نقلة للاهتمام بالأشياء المادية، إن ذلك قد يكون أدى دورًا في نشوء فجر العلوم الطبيعية وبزوغ العلم» أما مؤرخ الحضارة الفيلسوف ويل ديورانت فيؤكد في الجزء 23 من قصة الحضارة؛ بأن: «المذهب الإسمي قضى على التجريدات وبدد الكثير من الأوهام» ويقول

هيجل: «من المحقق أن الخصومة بين المثاليين والواقعيين؛ ظهرتْ في وقت مبكر. ولكنها لم تأخذ شكلها الناجز إلا في وقت لاحق، وبخاصة على يد وليم الأوكامي» ويقول كارل ياسبرز: «لقد أدخل وليم الأوكامي إلى تاريخ فكرنا؛ العناصر الحاسمة للموقف العلمي الحديث؛ فكانت الأزمة التي تولد منها العلم الحديث» ويقول جورج طرابيشي في (معجم الفلاسفة) نقلا عن كارلو جياكون: «لقد وجَّه وليم الأوكامي في القسم الفلسفي الأكثر أصالةً من آثاره؛ انتقادات بالغة الحدة إلى نزعة تجريدية تتناسى العيني الحي، ودافع بحرارة عن معرفةٍ حدسية وحسية وعقلية، بالأفراد الجزئية، وأنكر كل قيمة فعلية للتصورات الكلية المجردة. وقد أحَلَّ محل الميتافيزيقيا؛ مذهبًا إيمانيا يقوم على المأثور والشعور» ويضيف: «كان وليم الأوكامي رائدًا للتجريبية الإنكليزية، وبصفة عامة كان رائدًا للنزعة الظاهراتية التي غلبت في أزمنة لاحقة» ويقول تينمان: «كان لأوكام أتباعٌ كثيرون ولكن كان له خصوم أكثر» إن الفكر لا ينتعش وينمو ويتفتح على الآفاق إلا بمثل هذه النقاشات المحتدمة الساخنة، لأنها تستنفر طاقات العقل ويحتشد كل طرف بأقصى ما يستطيع من الانتباه والعناية والاستقصاء...

وبزغ في نفس الفترة نجمٌ كان بالغ الضياء فأحدث للكنيسة إحراجاً وبلبلة بمجادلاته المتقنة وهجومه المحتدم، وانشقاقه الصريح؛ ذلك هو جون ويكليف الإنكليزي الذي امتد تأثيره إلى كل القارة الأوروبية. يقول عنه المبدع الشهير ملتون: «ويكليف هو ذلك الإنكليزي الذي اصطفاه الله ليكون أول داعٍ لإصلاحٍ عامٍّ لأوروبا، ذلك الذي كافح تصلُّب رجال الدين وشططهم، فصار مُعَلِّمنا» وانتشرت أفكاره إلى أقصى أوروبا شرقًا فاندلعت ثورة ضد الكنيسة في بوهيميا كان يقودها أستاذٌ جامعي هو يان هس الذي استدرجته محكمة التفتيش في روما وحصل على ضمانٍ من الامبراطور لكنه نكث بتعهده، وقد حوكم هس وانتهت المحاكمة بإحراقه حيًّا. والكثيرون يعتبرونه السلف الحي لانشقاق مارتن لوثر فيما بعد. يقول مؤرخ الحضارة ويل ديورانت في قصة الحضارة: «كان مولد أول المصلحين البريطانيين عام 1320 درس في جامعة أوكسفورد وصار فيها أستاذًا للاهوت. بعد ذلك صار رئيسًا لكلية بالبول، ورُسِّم قسيسًا، وتلقى من البابوات

عددًا من المناصب. ولكنه ظل خلال ذلك يُدَرِّس في الجامعة. وكان نشاطه الأدبي كبيرًا إلى حدٍّ روَّع معاصريه فقد كتب رسائل في الفلسفة المدرسية عما وراء الطبيعة، وعن اللاهوت، والمنطق، وكتب مجلدين في فن الجدل، وأربعة مجلدات في المواعظ، ورسائل متنوعة عظيمة التأثير» ويضيف ديورانت: «كان معظم ما كَتَب بلغةٍ لاتينية عسيرة الفهم، ولكنه كان يُخفي في ثنايا هذا الغموض أفكارًا جدُّ خطيرة، كانت تفصل بريطانيا عن الكنيسة الرومانية، قبل أن يفصلها هنري الثامن بمائة وخمسة وخمسين عامًا، وتقذف ببيوهيميا في أتون الحرب الأهلية، وتسبق أفكار الإصلاح التي نادى بها جون هس ومارتن لوثر» وأعلن بوضوح: «العلاقة القائمة بين الله والإنسان؛ هي علاقة مباشرة، لا تحتاج إلى وسيط. ولذلك يجب أن يُرفَض كل ما تدعيه الكنيسة، أو ما يدعيه أي قس، من أن تكون هي أو هو واسطة لابد منها. وبهذا المعنى يكون كل مسيحي قسيسًا، وليس بحاجة إلى أن يرسم» ويضيف: «وواضحٌ مما جاء في الكتاب المقدس أن المسيح قد قصد أن لا يكون للحواريين ولمن خلفهم ولمن رسموا بعدهم مندوبين عنهم؛ أن لا يكون لهؤلاء جميعًا أملاكٌ ما، وإذن فكل كنيسة وكل قس يمتلكان شيئًا؛ يعصيان الله، ومن ثم فإن أعظم ما تحتاجه الكنيسة ويحتاجه رجال الدين من إصلاح؛ هو أن تتخلص ويتخلص رجالها من الأملاك الدنيوية. وقد كرر لوثر في عام 1525تكرارًا يكاد يكون دقيقًا كل الدقة. ورأى الحزب المناهض للكنيسة شيئًا من المعنى في تنديد ويكلف بثروة الكنيسة. وقرر أسقف لندن أن يشن هجومًا؛ فاتهم ويكلف بأنه رجلٌ مارقٌ خارجٌ على الدين» إن خروج العقل الأوروبي من الكهف الذي وضعته فيه الكنيسة وقامت بحراسته بمنتهى القوة والوحشية؛ لم يكن خروجًا سهلًا وإنما تواصَل ظهورُ المفكرين، والناقدين، والمنشقين، وقادةٍ سياسيين شجعان حاسمين؛ حتى تراخت قبضة الكنيسة واستطاع الناس أن يفكروا بشيء من الاستقلال؛ فصار للفكر الحر بعض التأثير الذي فتح للناس آفاق الدنيا...

امتدت أفكار ويكليف إلى كل أوروبا، واعتنقها المنشق البوهيمي يان هوس الذي قاد ثورة ضد الكنيسة الكاثوليكية، والتف حوله أتباعٌ متحمسون،

وقد قُطِعَت رؤوس ثلاثة من الشبان المتحمسين من أتباعه. كان هوس معاديًا للألمان واللاتين. وبواسطة دروسه في جامعة براغ نشر أفكار المصلح الديني الإنكليزي ويكليف، ويسَّر للتشيكيين قراءة ويكليف بلغتهم بأن قام بترجمة محاوراته. وقد كان هوس جريئًا فندد بمواعظه علانيةً؛ برجال الدين مؤكدًا سوء استخدامهم لسلطتهم. لكن وعظه بلغ ذروته عندما أمر رئيس أساقفة براغ بإحراق جميع كتب ويكليف، بالاستناد إلى فتوى البابا الاسكندر الخامس ضد مشايعي هذا المصلح، في عام 1411 أنزل البابا يوحنا الثالث والعشرين الحرم الكنسي بهوس وقد انتقد صكوك الغفران معتمدًا في ذلك على كتابات ويكليف، وصدر الأمر بطرد هوس من براغ، وللحال ألقي القبض على هوس على الرغم من جواز المرور الذي كان قد أعطاه إياه الامبراطور، يقول ديورانت في قصة الحضارة: «اجتمع المجلس وأدان كلّاً من ويكليف وهس، وأمر بإحراق كتابات هوس وسلمه للسلطة الزمنية، وجُرد لتوه من منصبه الديني وسيق خارج المدينة إلى موضع أُعِدَّت فيه أكداسٌ من الحطب وطُلب منه أن ينقذ نفسه بكلمة تنبئ عن تنازله عن آرائه ولكنه أبى. وأكلته النار وهو يرتل الأناشيد» ثم حوكم زميله جيروم البراغي وكما يقول ديورانت: «وسيق إلى الموضع نفسه الذي أُحرق فيه هوس. وسار الجلاد خلفه ليوقد النار في أكداس الحطب، فناشده جيروم قائلا: تعال أمامي أوقدها أمام وجهي، فلو كنت أخاف الموت لما قدر لي قط أن أجيء إلى هنا. وظل يردد أحد الأناشيد الدينية حتى خنقه الدخان) هكذا واجهت الكنيسة الكاثوليكية الانشقاقات بحرق المنشقين وهم أحياء. وكان الحرق ينتظر مارتن لوثر فلم يكن بينه وبين الحرق سوى شعرة فحاميه أمير سكسونيا كان مترددًا، وهو ليس عالمًا ولم يكن واثقًا أن مارتن لوثر يتبع الصوابِ، لكنه استشار المفكر الإنساني الشهير إيراسموس فاقترح أن يحاكم مارتن لوثر بواسطة قضاة أكفاء أحرار محايدين. وأعطت هذه المشورة مفتاحًا للحل تمسك به أمير سكسونيا. وانتهت المحاكمة بانقسام العالم المسيحي إلى كاثوليك وبروتستانت وبسبب ذلك اشتعلت حرب بين الألمان الكاثوليك والألمان البروتستانت واستمرت الحرب ثلاثين عاما وحصدت نصف الرجال من

الجانبين وأصابت ألمانيا بالكساد والفقر وتردت الأحوال بسبب كوارث الحرب أكثر من قرنين وانتهت الحرب بمعاهدة وستفاليا التي وضعت حدًّا لتجدد الحرب الدينية. هذه القصص مليئة بالعبر فهي لا تحكي فظاعة الكنيسة وبشاعة أحكام محاكم التفتيش لكن الأهم هو قوة إيمان المنشقين ومواجهتهم للموت بهذه الطريقة الممعنة في التوحش إن قوة الإيمان من أعجب قدرات الإنسان...

إن التحجُّر على ما تم التطبُّع به؛ هو الأصل، أما الانفكاك من هذا الأصل؛ فيتطلب حصول أحداث مزلزلة؛ تُحدِث وعيًا جديدًا متفجِّرًا، وتثير طاقة قوية متدفقة هائلة، تَغْلي بالجيشان وبالتفاعل؛ لذلك استحكم التعصب الديني في أوروبا، في العصور الوسطى إلى أقصى المدى، وأنشأتْ الكنيسة محاكم التفتيش، وكان المخالفون يتم إحراقهم وهم أحياء؛ إنها فظاعة تفوق الخيال. فبعد سباتٍ أوروبي شامل دام قرونًا، وبعد أجيال من التعصب الخانق، والتنكيل الفظيع؛ بزغ عصر النهضة، وقد بلغ من أهمية هذا البزوغ؛ أنْ أطلق عليه الألماني ياكوب بوركهارت عنوان (حضارة عصر النهضة) مؤكدًا أن حضارة عصر النهضة هي أم الحضارة الغربية ويقول في كتابٍ استغرق مجلدين: «معالجةٌ لحضارةٍ هي أمُّ حضارتنا، ولا تزال تأثيراتها تعمل عملها بين ظهرانينا» أما فولتير فقد حدَّد أربعة عصور للازدهار الحضاري في أوروبا، العصر الأول عصر بركليس في اليونان، في القرن الخامس قبل الميلاد، والثاني عصر النهضة الإيطالية، ابتداءً من القرن الرابع عشر، والثالث عصر لويس الرابع عشر، والرابع عصر الأنوار. للدكتور لويس عوض كتابٌ بعنوان (ثورة الفكر في عصر النهضة) وقد استعرض فيه حياة خمسة عشر مفكرًا بدْءًا من ماركو بولو ثم دانتي ثم بترارك ثم بوكاشيو ثم مكيافيلي ثم لورنزو دي مديتشي ثم سافونا رولا ثم بيكو ديلا ميرندولا ثم دافنشي ثم رفائيل ثم مايكلانجلو ثم إيراسموس ثم جودانو برونو ثم جاليليو ثم كامبانيلا؛ فهؤلاء الأعلام هم رجال النهضة الإيطالية؛ رحَّالون وشعراء ومفكرون وعلماء ورسامون. وقد وَصَف ميراندولا بأنه «العقل المعجزة، وأنه أكبر مدافع عن شرف الإنسان» ويقول عن مكيافيلي: «غدا لزامًا علينا أن نرى كيف خرجت أوروبا الحديثة من العصور الوسطى؛ إن

بداية البدايات في نشوء الحضارة الحديثة؛ هي ظهور الدولة القومية وحلولها محل الدولة الدينية» أما ماركو بولو فهو الذي فتح لأوروبا أبواب التفكير في الخروج من عزلتها فهو السلف لكولومبس. لقد استثار ماركو بولو خيال الأوروبيين بما حكاه عن إقامته فترة في الصين. أما دانتي وبترارك وبوكاشيو فكانوا طليعة الحركة الإنسانية التي أيقظت أوروبا ونبهتها للتراث الإغريقي. يقول لويس عوض: «الشاعر دانتي ومن بعده الشاعر بترارك والروائي بوكاشيو؛ هؤلاء الثلاثة ثاروا على اللغة اللاتينية المقدسة الجامعة التي كانت لغة الدين والدولة في إيطاليا وفي كافة أرجاء أوروبا؛ واتخذوا من اللغة الإيطالية، أداةً للتعبير الأدبي في الشعر والنثر، وبذلك وضعوا أساس الأدب القومي وأنضحوا اللغة القومية في إيطاليا» ويضيف عوض: «كانت لدانتي في الفكر السياسي معتقداته التي كانت تقوِّض سلطان الكنيسة في الدولة، وتحرر السلطة الدنيوية من السلطة الدينية، وترفع ولاية البابوات على الملوك، بعد أن كان البابوات في زمانه وطوال ألف عام من العصور الوسطى؛ هم الذين يتوِّجون الملوك والأباطرة، ويفوضونهم في حكم شعوبهم»كان ذلك هو التمهيد الضروري لكي تتغيَّر أوروبا، لقد نفضت الأغلال التي كانت تبقيها تدور في نفس المكان ففارت طاقة العقل وتفجرت ينابيع الإبداع فظهر دافنشي وكوبرنيكوس، وكبلر، وبرونو الذي أحرقته الكنيسة حيًّا، وشكسبير، ورابليه، وسرفانتس، وجاليليو وبيكون ثم نيوتن وانطلقت أوروبا في كل الآفاق...

إن عصر التحول الأوروبي كان حافلًا بالمفاجآت؛ وعلى سبيل المثال كان جان ميسلييه؛ كاهنًا فرنسيًّا، وأثناء حياته داوم على أداء وظيفته الدينية خير قيام. ولكنه ترك مذكرات تم نشرها بعد وفاته، يعلن فيها بأنه أدى وظيفته كأمانة لكنه لم يكن مؤمنًا. كما ترك كتابًا بعنوان (الميثاق) أو (الوصية) أعلن فيه الدعوة للمساواة المطلقة بين الناس. تحدث عنه جوناثان إزرايل في كتابه الحافل عن (التنوير) وفيه يقول: «جان مسلييه أشار، أن البؤس والاستغلال والضيق الاقتصادي الذي يتعرض له المقموعون خصوصًا الفلاحين والحرفيين الأميين الفقراء الكادحين، على الرغم من عدم درايتهم بهذا. إنما تُنظَّم وتنسَّق على

أساس مذاهب يثقون فيها بشكل ضمني؛ تنظِّر وتعزز وتشرعن أدوات استغلالهم؛ مذاهب تزدهر وتتعاظم سطوتها بتنامي سذاجة وجهل من هم أشدُّ ضعفًا وأقل استنارة» ووَصَف أعماله بأنها «الأكثر جرأة» لأنها لم تُنشر إلا بعد موته فلم يكن متحفِّظًا أي تحفُّظ. أما فولغين فقد خصَّه بفصلٍ كامل من كتابه (فلسفة الأنوار) ووصف كتابه (الوصية) بأنه: «من أوائل الكتب _في مجاله- وأكثرها ابتكارًا وأصالة» ويضيف: «لقد ارتبطت حياة مسلييه بأكملها في الريف فقد وُلِد عام 1664 وبعد أن أنهى دراسته؛ عُيِّن كاهنًا لبلدة أتريبيني فأقام فيها حتى وفاته» ويضيف فولغين: «من بؤس القرويين المضطهدين وآلامهم تتشكَّل خلفية كتاب الوصية» ويصف مسلييه بشاعة حياة القرويين التي تشبه حياة الحيوانات فيقول: «إننا نشاهد بعض الحيوانات الوحشية تدب ذكورًا وإناثًا، في أنحاء الريف، سوداء داكنة أحرقتها الشمس مرتبطةً بالأرض تنقب فيها وتقلبها بعناد لا يقهر، إنْ علت أصواتها بدت وكأنها قادرة على النطق، وإن انتصبت على أقدامها كشفت عن وجهٍ إنساني. هذه الكائنات بشرية في الواقع، وهي تؤوب إلى أوكارها مع حلول الظلام حيث تعيش على الخبز الأسود والماء وجذور النباتات، إنها توفر على البشر مشقة البذر والحرث والحصاد من أجل العيش وتستحق لذلك أن لا تُحرم من الخبز الذي زرعت» ويضيف فولغين: «وقد فارق مسلييه الحياة في سن متقدمة بعد أن أدى بنزاهة طيلة سنوات وسنوات، فرائض منصبه الكنسي المتعارضة مع قناعاته. وقد كتب مسلييه الوصية: ونظرًا إلى الخطر الجسيم والعواقب الوخيمة التي قد تترتب على رأيي فيما لو أفصحت عنه، فقد قرَّ عزمي على اطلاعكم عليه بعد موتي» وكان له تأثير عميق على مفكري التنوير خصوصا فولتير الذي اهتم بنشر آرائه...

خلال مختلف القرون كان يظهر في أوروبا من يحاولون تحريك العقل لكن جمود النسق الثقافي يطويهم واحدًا بعد آخر يضاف إلى تحجر النسق، وجود رعاة أقوياء يملكون كل وسائل القمع يحمون النسق ويتصيدون من يحاول النيل منه. لذلك كان التأثير في الأنساق الثقافية يتطلب تواتر هزات مزلزلة. وعلى سبيل المثال ظهر في فرنسا في القرن الثاني عشر الفيلسوف بيير أبيلار يقول عنه

ميشليه: «كان فارس الجدل» وفي كتاب (الجانب المظلم في التاريخ المسيحي) تقول المؤلفة هيلين إيليربي: «عندما أعيدت أعمال أرسطو؛ فقُدِّمت مجدَّدًا إلى الغرب؛ تحدَّثْ بتفكيرها المنظم، وبجذورها العلمية، وبنظامها؛ مطلبَ الكنيسة بأن على الإنسان أن يَقبَل تأكيداتها بإيمانٍ اعمى؛ ففي القرن الثاني عشر استخدم بيتر أبيلارد الطرائق المدرسية العلمية لتشجيع اتخاذ القرار الفردي، وليناقش صحة التأكيدات الكنسية، وليُظهِر التناقضات في عقيدة الكنيسة وكتاباتها المقدسة. وبدأت أمور حصر الكنيسة لجميع أعمال التعليم والإبداع في الأديرة بالانهيار» ويقول عنه هيجل: «لقد أسهم أنسلم وأبيلار في إدخال الفلسفة إلى اللاهوت. فقد كانت الفلسفة والدين، يُعَدان شيئًا واحدا. وهما لكذلك في ذاتهما ولذاتهما. لكن أمكن بعدئذ البلوغ إلى هذا التمييز، وهو أن الكثير من الأشياء يمكن أن تكون صادقة في الفلسفة وكاذبة في اللاهوت، وهذا هو الذي أنكرته الكنيسة» يوجد اثنان باسم أنسلم أحدهما انجليزي خاض معارك على استقلال الكنسة مع الملك ابن وليم الفاتح، أما أنسلم الثاني فهو فرنسي. ولكن ليس لأي منهما أهمية فكرية تستحق التنويه سوى ما أشار إليه هيجل. وقد وُصِف أبيلار بأنه: «كان متنقلا بدافعٍ من طبعه القلق، ومن عداوة الأعداء الذين يخلقهم لنفسه أينما حل؛ جلبت عليه تصوراته الجريئة اتهامًا بالهرطقة» ويقول عنه بيير فيراري: «لقد كان أبيلار موضع نقاشٍ حماسيٍّ من قبل معاصريه، وكان تأثيره بليغًا في فكر القرن الثاني عشر كله، وبذهنه الصاحي والنابض بالحيوية، وبحبه للوضوح، وبحاجته إلى الاستناد إلى العقل؛ أحدث لا تجديدًا في المنطق والفلسفة فحسب. بل أدخل أيضا خميرة جديدة على اللاهوت بالذات. وبعد أنْ سقط الفيلسوف في لجة النسيان بضعة قرون؛ ابتعثه منها فكتور كوزان الذي نشر أعماله، وقدَّمه على أنه ديارت القرن الثاني عشر. وقد شاء بعضهم في القرن الماضيَ أن يرى في أبيلار حامل لواء الفكر الحر، ورائدًا للمذهب العقلاني. وكأنه روسو أو كانط سابقٌ لأوانه» ويقول عنه الفيلسوف الألماني المعاصر كارل ياسبرز: (0يُعَلِّم أبيلار قوة التفكير، والإمكانات المنطقية، ومنهج التناقضات الجدلية؛ كوسيلة لمعالجة المشكلات. وهو إذْ يقابل ما بين الحدود المتناقضة؛

يدفع بالمسائل إلى حدودها القصوى، ويغدو على هذا النحو مؤسس المنهج المدرسي الذي سيبلغ إلى ذروته مع توما الأكويني» أديلار الباثي يقول عنه جورح طرابيشي في (معجم الفلاسفة): «أديلار فيلسوف إنكليزي كان من رواد نهضة القرن الثاني عشر. سافر إلى إيطاليا واليونان وسورية وفلسطين وربما الاندلس. كان من أوائل مترجمي المؤلفات العلمية العربية، وناشري الثقافة العربية الإسلامية في أوروبا الغربية» ويقول عنه جان جوليفيه: «لدى أديلار كما لدى أبيلارد يطالعنا ميلٌ إلى التوفيق بين التيارين الرئيسيين للفكر اليوناني القديم» ومن الشخصيات المثيرة روجر بيكون المتوفى عام 1214 يقول عنه فولتير: «من بين الأمور التي تجعله أهلا للثقة؛ دخوله السجن أولا، ثم الشجاعة الشهمة التي أعلن بها أن كتب أرسطو جميعها لا تصلح إلا للحرق، وذلك في زمنٍ كان فيه إجلال المدرسيين لأرسطو يفوق بكثير احترام الجانسينيين للقديس أوغسطينوس» ويقول عنه فلهلم تينمان: «روجر بيكون رجلٌ عظيم كان يمكن أن يعطي الثقافة العلمية برمتها وجهًا جديدا، واتجاهًا جديدا، فيما لو أمكن لعصره أن يفهم عمق تفكيره» ويقول عنه الفريد بابيه: «إن بيكون ذاك الذي أخضع الرياضيات نفسها للتجربة، وسخر من السلطة، وبشَّر بالعقلانية المعاصرة» ويقول بيير روسو: «روجر بيكون كان رائدًا عبقريًّا للعلم التجريبي، وقد تخلص من سلطة أرسطو، ودعا جازمًا إلى إخضاع الاستدلال للوقائع، وسلط ضوءًا باهرًا على دور الرياضيات في العلم» الظاهرة المهمة جدا التي يجب التوقف عندها؛ هي أن الفلاسفة والمفكرين منذ بزوغ الفكر الفلسفي في اليونان وحتى اليوم؛ لا يكون لهم أتباع سواء في أوروبا أو في غيرها من الغرب والشرق؛ فالمفكرون لا أتباع لهم لأن الفكر لا يستجيب له سوى قلة من الأفراد الأحرار الذين يتأثرون مجرد تأثر لكن لا يترتب على هذا التأثر أي التزام أو ارتباط بالفيلسوف أو المفكر بينما أن مؤسسي الجمعيات الدينية؛ يتكاثر حولهم الأتباع، وتتحول الجمعية أو الرابطة إلى ظاهرة شعبية مؤثرة، وتستمر في التنامي والامتداد. ففي القرن السادس الميلادي أسس بندكت النرسيائي ديرًا ثم تنامت الأديرة حتى غطت أوروبا. وكانت الأديرة ظاهرة

أوروبية ذات أبعاد واسعة وعميقة؛ دينية واجتماعية. وفي القرن الثالث عشر أسَّس فرنسيس الأسيزي الرهبانية الفرنسيسكانية التي انتشرت في أوروبا وكانت واسعة التأثير عميقة الفاعلية. وكردٍّ فعلٍ على انشقاق البروتستانت خرج إجناتيوس لويولا من منطقة الباسك في إسبانيا وقصد فرنسا وهناك أسس ومعه أجزافييه ولينيز جماعة اليسوعيين التي صار لها نفوذ واسع وأتباع كثيرون. وبالمقابل هرب كالفن من الملاحقات الفرنسية وقصد جنيف وأسس فيها جماعة تحولت إلى دولة وامتد تأثير كالفن إلى كل أوروبا وما يزال؛ ففي الجانبين المتنازعين في المسيحية الحديثة، تلتف حول الداعية ملايين الأعضاء الملتزمين؛ ينضمون إليهم، ويلتزمون بواجبات ثقيلة، وتعاليم صارمة، ويظلون طيلة الحياة ملتزمين ومرابطين ومنصاعين لكل التعاليم التي تُفرض عليهم. وهذا ليس خاصًا بالمسيحية فبوذا انشق على الهندوسية احتجاجًا على الطبقية المذلة للإنسان ثم تحولت البوذية إلى دين يدين به مئات الملايين في الصين واليابان وكوريا والهند وغيرها. في العالم العربي ظهر منذ مطلع القرن التاسع عشر؛ مفكرون يستهدفون إيقاظ العرب للحضارة الجديدة البازغة. لكن تأثيرهم بقي ضئيلًا ولكن ما أنْ أسس حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين حتى تكاثر الأتباع وامتد تأثيرها إلى المسلمين في كل مكان، فكل ما له علاقة وثيقة بالنسق الثقافي الموروث أو بالدين الذي يدين به المجتمع؛ فإن التأثير يأتي غامرًا وممتدًا ومتجدِّدًا. وقبله كان لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تأثير عالمي واسع وعميق ومتنامي ومتجدد. فمن يريد أن يؤثر في المجتمعات؛ لابد أن يخاطب الوجدان أما مخاطبة العقل فهي ضئيلة النتائج إلا على المدى البعيد والانتظار الطويل...

لذلكِ فإن الفلاسفة والمفكرين لا أتْباع لهم لكنهم يُقَدِّمون مُثُلًا عليا تظل تدغدغ عقول المفكرين بامتداد العصور، وتفتح أبواب الآمال، وتحفز إلى الجليل من الأعمال. يقول المبدع الفرنسي أناتول فرانس: «لولا يوتوبيا الأزمنة الماضية؛ لكان الإنسان لا يزال يعيش في الكهوف؛ بائسًا وعاريا؛ يولد الواقع المزدهر من الأحلام الكريمة. إن المدينة الفاضلة هي أساس كل نجاح، وكل

سعيٍ نحو مستقبلٍ أفضل» ويقول المبدع ستيفان زيفايج: «المثُلُ العليا؛ تُواصِل إحداث تأثيرها في كل جيل جديد؛ بحكم كونها عنصرًا من عناصر القوة الدافعة إلى النهضة الأخلاقية. ولابد لكل مَثَلٍ أعلى إنساني أن يظل مثلا أعلى حاصًّا بالأقلية الفكرية، لا يرتاده إلا القلائل، ويتم تناقُلُه من فكر إلى فكر، ومن جيلٍ إلى جيل» افلاطون حَلُم بإقامة جمهورية يتولى تربية أجيالها على المثُل التي يؤمن بها؛ فالمواليد الجدد لن يتطبَّعوا بالأنساق الثقافية التي تختطف قابلياتهم قبل بزوغ وعيهم. وإنما سيتطبعون بالمثُل التي ينشؤون عليها. إن التطبع الأول هو الذي يحدد المسار. يقول افلاطون: «إن عالمنا ناقصٌ ولذا نحلم على الدوام بحالة لا توجد في أي مكان على الأرض» ويقول باشلار: «لا يمكن أن نتعلَّم إلا ما حلُمنا به أولا» ويقول جوته: «أمنياتنا هي شعورنا بالقدرات التي نملكها، وطلائع ما سنكون قادرين على إنجازه. إن كل أمرٍ مثالي؛ يخدم أهدافًا ثورية» ويقول جيفارا: «من يقتلك ليس الذي يطلق عليك رصاصة، بل مَن يقتل أحلامك» ويقول البروفيسور الياباني لافيكيدو هيرن: «كلًّا المثالية لا تُحتَضَر، فما زال الخيال يحكم العالم وسوف يحتاج الإنسان دائمًا إلى المثل الأعلى لمساعدته على السمو بذاته» ويقول بنيامين فرانكلين: «الآمال العظيمة تجعل كل شيء ممكنًا» ويقول رامزي موير في كتابه (تطور الفكر السياسي): «إن الأحلام والمثُل العليا، والنظريات التي تنبعث وتتزاحم في العقول الإنسانية، إنما تكمن وراء كل هذه الحقائق الخارجية وتؤثر فيها تأثيرًا عميقًا دائمًا، وهي التي تبعث الحركات العظيمة» يقول محمود درويش: «على قدر حلمك تتسع الأرض» ويقول أوسكار وايلد: «إن خريطة للعالم؛ لا تحتوي على يوتوبيا، لا تستحق حتى النظر إليها. إن التقدم هو تحقيق اليوتوبيا في الواقع» ويقول الروائي إدوارد الخراط: «أكتب لأنني أريد أن تظل العدالة حلمًا حيًّا لا يموت، أكتب لأنني أتمنى أن أرى الأرض، قد انجابت عنها تماما غاشية الظُّلم والظلام» وتقول لين تشيني: «الطموحات والآمال الإنسانية؛ تُعَدُّ القوة الحافزة للتاريخ وسحره» لكن ما يحلم به الفلاسفة والمفكرون لا يجد الاهتمام عند العموم المشغولين بمتطلبات البقاء يقول إيزايا برلين: «إن جوهر الإنسان ليس ابتكار الأدوات بل

القدرة على الاختيار. إن مجد الإنسان وكرامته يتوقفان بوصفه هو الذي يختار» ويضيف: «إنه مجتمعٌ لا مجال فيه لحياة الإنسان العقلية، ولمخيلته الأخلاقية والروحية والجمالية، أن تُعَبِّر عن ذاتها إطلاقًا» ويقول: «إن الحقيقة هي أجمل شيء في العالم بأسره» لكن الحقيقة تبقى محجوبةً بألفِ حجابٍ من الأوهام المتراكمة والأفكار المسبقة والانتماءات المخدرة...

يُجمِل البروفيسور كرين برينتون في كتابه (تشكيل العقل الحديث) العوامل التي حركت العقل الأوروبي فيقول: «إن الإنسانيين أصحاب النزعة الطلقة المفعمة بالحيوية؛ هم الذين أسبغوا على عصر النهضة، النكهة التي تبدو لنا الآن أمرًا بالغ الأهمية. إن هؤلاء الرجال المجاهدين في فعاليةٍ ونشاط المغامرين؛ كانوا في تجريبٍ دائم، لا يفتؤون يحاولون شيئًا جديدًا» ويضيف: «امتلأت نفوسهم ازدراءً لآبائهم في العصور الوسطى. كانت النهضة هي الطراز الجديد للحياة. التنافس بلغ الذروة بين الصفوة. لقد كان عصر النهضة هو عصر البطل، البطل فنانًا، والبطل مكافحًا من أجل الثروة، والبطل مستكشفًا، والبطل عالمًا، وإذا كنتَ دون البطل مرتبةً؛ فهذا عين الفشل» ولكن شخصيةً فكرية باهرة استوقفت الدارسين؛ حيث يُضاء تاريخ فكر النهضة في إيطاليا باسم شخصية عجيبة، إنه رجلٌ عبقري. وُلِد عام 1463 ومات في عمر الحادية والثلاثين. لكنه كان سابقًا لعصره، مُلهِمًا لمن عاصروه، أو جاءوا بعده. إنه بيكو ديلا ميراندولا. يتوقف عنده الفيلسوفُ الفرنسي لوك فيري في كتابه (أجمل قصة في تاريخ الفلسفة) فيقول: «ستشهد الإنسانوية تاريخًا طويلا، تتخذ أثناءه أوجُهًا مختلفة جدا، بدءًا بظهورها في أوائل عصر النهضة حيث ما زال يعتمد نقدها للأحكام المسبقة، الفلسفية، والدينية، والاجتماعية اعتمادًا واسعا على المصادر اليونانية، وصولا إلى عصر الأنوار» ويضيف: «إن فترة الإنسانوية الأولى هذه رائعة. ولنبدأ بتلك الثورة العجيبة التي سيُرسيها بيكو ديلا ميراندولا؛ في نَصٍّ قصيرٍ مثيرٍ للإعجاب مخصَّص لكرامة الإنسان، اشتهر بإظهار نبوغٍ مبكرٍ يثير الدهشة؛ في عمر العشر سنوات كان قد حذق اللاتينية واليونانية. تعلم العبرية، والعربية، والآرامية. ولتقديم اطروحاته التسعمائة، كتب مقالا في حوالي ثلاثين

صفحة عن (كرامة الإنسان) هو من سيصوغ لأول مرة بصراحة الفكرةَ الحديثة عن الحرية، بمعنى التخلص من كل القواعد، من كل أنواع التقاليد، ومن الطبيعة أيضا. وهي فكرة ستشق الفلسفة الحديثة وحتى المعاصرة برمتها. هذا الشاب سينشئ تمامًا الإنسانوية الحديثة. ميراندولا بتأسيس كرامة الإنسان على إرادته الحرة التي تضع الإنسان خارج الطبيعة؛ يبادر بإحداث ثورة حقيقية في الفكر بقطيعة أساسية مع العالم القديم» هذا العبقري استوقف أيضا الناقد البريطاني بريستلي فهو في كتابه (من عصر النهضة إلى عصر التنوير) يتحدث عنه بإعجاب وانبهار. ويقول: «وفكرة الإنسان وارث الكرة الذهبية، الذي لم يَعُدْ عبدًا ذليلا يمر بامتحانٍ قصير الأمد في هذه الدنيا. ولم يعد ثابت المحل في الهرم الذي يُشَكِّل مجتمع العصور الوسطى، بل أصبح حرًّا يمكنه أن يبلغ القمم؛ حُرًّا في أن يفوز بفضل قدراته واختياراته، وأفعاله. لقد قالها ميراندولا: لن يقيد حركتك شيءٌ أيها الإنسان وأنت تَرسم لنفسك حدود طبيعتك، أنت صانع نفسك وصائغها، لك أن تُشَكِّل نفسك في أي صورة شئتَ، في مقدورك أن تنحط إلى أسفل أشكال الحياة التي تليق بالحيوان، وفي مقدورك بالروح والحكمة، أن تولد من جديد في الأشكال القدسية العليا» فهو يعلن بأن الإنسان ليس له طبيعة ثابتة تحدد مساره، وإنما بإمكان كل فرد أن يرسم لنفسه مسارًا نحو الذروة، أو نحو القاع، ليهوي إلى أسفل سافلين. على مثل هذه الأفكار المضيئة، وبمثل هذا التأكيد لحرية الإنسان، وامتلاكه لإرادته، واستنهاضه إلى الارتقاء بنفسه إلى أرفع القمم؛ كان هذا هو النشيد الذي سار الناس خلفه في عصر النهضة وصولا إلى عصر التنوير الحافل بنوابغ الفكر: مونتسكيو وفولتير وديدرو وروسو وكانط وأمثالهم من مفكري الاستنارة...

ومن رجال الفكر في عصر النهضة الفرنسي بيتر راموس المولود عام 1515يقول عنه هربرت شنيدر في كتابه (تاريخ الفلسفة الأمريكية): «تعود بنا أصول البيوريتانية إلى عصر النهضة الأفلاطونية وبخاصة إلى بيتر راموس فقد كان فرنسيًّا متشيعًا للنزعة الإنسانية والافلاطونية، حمل حملة عنيفة على منطق المدرسية الارسطية وبلاغتها، وبخاصة على المقولات والمحمولات التي بدت

له معدومة الفائدة، قتل خلال مذبحة سانت بارثليميو وبذلك ساهمت حياته كما ساهم مماته ليجعلا منه قديسًا وشهيدًا بروتستانتيا. وكانت مساهمته الفلسفية الرئيسية في إحياء الجدل الافلاطوني، وصياغته صياغة منهجية. تصوَّر المنطق كفن لتنظيم الحكمة الطبيعية عند الإنسان أكثر منه كعلم للبرهان» ويضيف شنيدر: «وكان الهدف الأول لفلسفة راموس، ولاهوت العهد في أوروبا؛ هو تزويد العلمانيين بالأدوات العقلية التي يقوِّضون بها امتيازات القساوسة وإضعاف قوة الكنائس الرسمية» ويقول عنه جاك بروس: «كان ثاقب الذهن، مقدامًا، نزَّاعًا إلى المطلق؛ فمثَّل واحدًا من أبرز الوجوه في حركة المراجعة الكبرى لجميع القيم في عصر النهضة الأنسية والدينية، وكان رائدًا من أكثر من وجه. ولعب دورًا بالغ الأهمية في تطور الأفكار في المعسكر البروتستانتي بوجه خاص» ويقول جورج طرابيشي في (معجم الفلاسفة): كانت حياة هذا الشخص العجيب مليئة بالمجازفات، تقدم بأطروحة ليثبت أن كل مؤلفات أرسطو تحفل بأخطاء فادحة، واستحصلت الجامعة على أمر من الملك الفرنسي يمنع راموس من نقد أرسطو أو الكتابة في الشأن الفلسفي. لكنه فيما بعد ظفر بتعيينه أستاذا في الجامعة نفسها ليهاجم أرسطو من منبر الجامعة ذاتها دعا إلى إصلاح التعليم الجامعي بالاعتماد على العلوم والرياضيات والقانون. كان نصيرًا متحمسًا لشتى ضروب الإصلاح.

ولكيلا نخلط، فإن راموس مفكر فرنسي أما إراسموس فهو مفكر هولندي مولود عام 1469- وهو زعيم الحركة الإنسانية، جاب أوروبا كلها، وقد وصفه ويل ديورانت في قصة الحضارة بأنه: «أعظم عالم بالإنسانيات، يمسك بزمام اللغة اللاتينية والأدب بصورة مذهلة، كان يلتهم الكتب، فقد أُغرم بالأدب، وعلَّم نفسه اليونانية، وأصبحت أثينا أفلاطون ويوربيدس وزينون وأبيقور؛ مألوفة لديه. مثل روما سيشرون وهوراس وسينيكا» ويضيف ديورانت: «وقد أفزع إيراسموس علماء اللاهوت، وكانت أصداء أصوات دونس سكوتس وأوكام؛ لا تزال تتردد في باريس. والمذهب الإسمي يغلو نجمه، ويهدد العقائد الأساسية مثل التجسيد والثالوث» اشتهر بكتابه (مدْح الحماقة) وهو كما وُصِف: «هجاءٌ

لاذعٌ لكنيسة زمنه» لكن الكتاب أكثر من ذلك؛ إنه تأكيدٌ بأن الحماقة هي أبرز خصال الإنسان أينما كان، فالبشر حمقى. البعض يُترجم عنوان الكتاب (الثناء على الطيَش) كما في قصة الحضارة يقول ديورانت: «طُبِعتْ منه في حياته أربعون طبعة، وتُرجم إلى اثنتي عشرة لغة، والتهمه رابليه، وفي عهدٍ متأخر وجده ملتون في يد كل إنسان في كامبردج» ويضيف ديورانت: «لم يستخدم إيراسموس كلمة موريا بمعنى طيش وسخف وجهل وغباء فحسب، بل بمعنى سورة فكرية وغريزة وعاطفة وبساطة أميَّة، مقابل حكمة وعقل وحساب وفكر. إن الجنس البشري بأسره؛ يدين بوجوده للطيش؛ لو أن الرجال والنساء؛ توقَّفوا وتأملوا مليًّا لضاع كل شيء. إن السخافات تجارة رابحة. وقد أثار كتاب الثناء على الطيش غضب علماء اللاهوت. لقد أثار إزعاجًا كبيرًا. إن إيراسموس قرع جرس الإنذار للتمرُّد» ويضيف ديورانت: «كتب مترجمٌ انجليزي: لا يوجد ما هو أصلح للقراءة؛ من كتابٍ يكاد يهدم تمامًا كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوبٍ شائق» إن ذلك الإقبال الهائل على مؤلفات إيراسموس في كل الأقطار الأوروبية وفي مختلف اللغات؛ له دلالات عميقة فتفكيك عُقَد الأنساق الثقافية المتحجرة؛ تتطلب صواعق فكرية، تَطْرُق كل الأسماع، وتنتبه لها كل الأذهان ويُقبل عليها الجميع؛ للقراءة والمناقشة والاعتبار...

ليس أحد من سلاح التهكم، إنه يجعل الناس يدركون عمق التفاهة في تفكيرهم وسلوكهم فحياتهم كلها موسومة بالحماقة. وعليهم أن يعيدوا التأمل بروية ليدركوا عمق الطيش والرعونة. يقول عنه الفيلسوف برتراند رسل: «سخر من مساجلات اللاهوتيين حول الثالوث، والتجسُّد، وعقيدة استحالة القربان، والفِرَق المدرسية، والكرادلة، والأساقفة؛ كل هذا سخر منه إيراسموس سخرية لاذعة. وكان عنيفًا بوجه خاص على رهبان الأديرة: فهم حمقى معتوهون، ليس فيهم إلا قدر ضئيل من الدين، ولكنهم يحبون أنفسهم حبًّا جمًّا. ولا يُعفي إيرسموس البابوات من هجائه» ويقول عنه الفيلسوف بيير بايل: «لأن إيراسموس لم يعتنق إصلاح لوثر، ولأنه أدان الكثير من الأشياء التي كانت تمارس في البابوية؛ فقد جلب على نفسه سيلًا من الشتائم من جانب الكاثوليك. كما من

جانب البروتستانت. ويُخيَّل إليَّ أنه كان واحدًا من شهود الحقيقة» أما مؤرخ الفكر الهولندي هويزنجا فيقول عنه: «ينتمي إيراسموس كنمط فكري إلى تلك القلة القليلة ممن هم في آن واحد مثاليون مطلقون ومعتدلون إزاء كل شيء. وكان خير من فطن إلى كل ما هو جديد وحامل للمستقبل، وإلى ما لابد من أن يدخل في نزاعٍ مع الأشياء القديمة. وكان بكل تأكيد رائدُ شكلٍ جديد من الفكر الحديث. تابَعه بعده روسو وهردر وبستالوزي ومفكرون انكليز وأميركان. وكان محسنًا إلى الإنسانية بمثاله في التسامح العام والتربية الأخلاقية» وكان يرى أنه من الحماقة شهر السلاح باسم الحقيقة، لأن قصور معرفة الفرد وتعرُّضه كغيره للخطأ لا تُبقي مبررًا لشهر السلاح؛ فما يعتبره شاهرُ السلاح صوابًا؛ قد يكون أشد إمعانًا في الضلال والحماقة. ويقول جورج طرابيشي في (معجم الفلاسفة): «نتاجه الأنسي غزير جدا وقد نشر الأقوال المأثورة، التي رأى فيها القرن السادس عشر، زهرة الحكمة القديمة. وكان أول من أصدر طبعة كاملة لآثار أرسطو. كتب رسالة عن حرية الاختيار فرد عليه مارتن لوثر برسالة جبرية الاختيار» ويضيف طرابيشي: «بقي مشبوهًا في نظر الكاثوليك، وأدانت السوربون اثنين وثلاثين قضية من مسامراته، وأُحرق حيًّا صديقه ومترجمه لويس دي بركوان» وتقول عنه جاكلين مارشان: «لقد أتاح لقرائه أكثر من أي كاتب آخر؛ أن يغرفوا من معين الأقدمين دروسًا في العقلانية والحكمة الباسمة» إن إيراسموس يرى أنه لولا حماقات البشر لما بقوا، ولكانوا قد انقرضوا. لكن حماقة الرجال تدفعهم إلى الزواج، فالرجل يتزوج ويقع في قبضة زوجة غثيثة تلازمه بظلها الثقيل، وينجب أولادًا يشقى بالكد من أجلهم، كما أن حماقة النساء هي التي تدفعهن إلى الزواج، فيقعن في قبضة أزواج ثقلاء، ويتحملن مشقة الحمل وآلام وأخطار الولادة ومشقة الإرضاع والتربية. إنه يرى أن الحماقة قاسم مشترك بين كل الناس، لكنها تكون أشد بروزًا في من ينتسبون للمؤسسة الدينية؛ بما يظهرونه من رياء وتعصب، ومن فظاظة، وعنف. وعمومًا فإن الحماقة تغلف كل السلوك البشري. لقد سخر من المتنطعين بالدين الذين يُسرفون في حرمان أنفسهم مما متاح لكل البشر. كان يرى أن إصلاح أوضاع البشر لا

يأتي بنشر الأفكار وإنما يأتي بالدرجة الأولى من تعرية حماقات البشر وجعلهم يضحكون من إبراز الحماقات الشائعة. ولم يكتف بكتاب (مدح الحماقة) وإنما في كل كتاباته كان يسخر من تفاهات البشر.

وقد ألَّف عنه المبدع النمساوي ستيفان زيفايج كتابًا من أمتع ما كُتب عنه. وفيه يقول: «إيرسموس يقف وحده سيدَ أوروبا، يخطب ودَّه العالم كله» ولكن بظهور مارتن لوثر أنقسم الناس حول إيراسموس لأنه لم يؤيد لوثر. وفي رسالةٍ إليه من المبدع الفرنسي فرانسوا رابليه يخاطبه بقوله: «كلُّ ما أكونه، وما أصلح له، إنما جاء إليَّ منك وحدك» وهذا نموذجٌ على عمق تأثيره في المفكرين والمبدعين من معاصريه. ويقول الدكتور لويس عوض في كتابه (ثورة الفكر): «نَشَر (مدْح الحماقة) و(محاورات مألوفة) وكلها مكتوبة في لاتينية صافية رشيقة، تفيض بالدعابة والتهكم الشديد؛ الدعابة والتهكم الشديد؛ من جهل الجهال، وخرف المخرفين، وتنطُّع الجامدين، من فقهاء الدين، ونفاق القساوسة، والرهبان، وحذلقة المجدفين» ويضيف عوض: «بهذه الدعابة يبدأ إيراسموس كلامه مستخلصًا أن نهجه؛ هو إصلاح أخطاء البشر، وحماقاتهم، بالتهكم والسخرية؛ فإذا ضحك الناس من أخطائهم، كان هذا بداية الإصلاح» ويرى إيراسموس: «أن الحمقى هم أسعد الناس طُرًّا؛ لأنهم لا يفكرون. ومن حماقات البشر أن كلًّا منا سعيدٌ بشخصه ومواهبه وخصاله؛ كلٌّ سعيد بذاته وصفاته، والقرد في عين أمه غزال؛ أليست هذه حماقة؟! ومن أين لنا بهذا النعيم بغير حماقة حب الذات، والرضا عن الذات. كل إنسان بحاجة إلى درجة من درجات الحماقة ليعيش سعيدًا مع زوجة تشاطره حماقته، وأصدقاء يتحامقون معه، ورؤساء ومرؤوسين يذوقون معه طعم الحماقة؛ فلو كنا جميعًا حكماء لكنا من طينة غير هذه الطينة، ولكان الفخَّار الذي صُنِعنا منه خيرًا من هذا الفخَّار» كان إيراسموس صديقًا للسير توماس مور صاحب اليوتوبيا...

يقول المبدع النمساوي ستيفان زيفائج: «كان إيراسموس قد وضع الأساس للنقد الإصلاحي للكنيسة؛ ذلك النقد الذي حوَّله لوثر إلى هجوم على البابوية، وكان قد باض، كما يقول أهل اللاهوت بمرارة؛ البيضة التي تفقَّست عن لوثر،

ويُعَدُّ إيراسموس وبحكم كونه ذلك الذي مهَّد الطريق مسؤولا عن فعلة لوثر. إيراسموس يعترف: كل ما يطالب به لوثر عَلَّمته بنفسي ولكن ليس بهذا العنف» ويضيف زيفايج: «كان فريدريك أمير سكسونيا وكان حاميه، كان يمد يده فوق رأس لوثر مجيرًا له، ويترك له على الرغم من قرار الحرمان البابوي منبرًا ومكانًا في الجامعة. ولكن الآن تتحول هذه الحماية الحذرة إلى خطر ذلك لأن لوثر إذا دخل منطقة الحرمان من حماية القانون؛ كانت متابعة حمايته تعني التمرد الصريح من قبل أمير من أمراء الأقاليم على امبراطوره» ويلجأ الأمير إلى من يثق به الجميع وهو إيراسموس فيسأله عن لوثر ويجيب إيراسموس بأن الواجب تسوية المسألة عن طريق قضاة محايدين ومحاكمة علنية نزيهة «بهذه الكلمات حدث تحوُّلٌ بعيد المدى لصالح الإصلاح الديني، يُنَفِّذ الأميرُ الناخبُ ما اقترحه عليه إيرسموس على وجه الدقة، يطلب فريدريك من المبعوث البابوي الاستماع إلى لوثر علانيةً من قبل قضاة منصفين أحرارًا لا شبهة تحوم حولهم، وأن لا تُحرَق كتبه قبل ذلك. وبذلك يحتج على موقف روما والامبراطور المتسم بالحدَّة والقسوة: وإذا بروتستانتية الأمراء الألمان تَرفع صوتها لأول مرة. وأسدى إيراسموس بمعونته الخفية إلى الإصلاح الديني معونةً حاسمة، في ساعةٍ حاسمةٍ؛ واستحق نصبًا تذكاريًّا» ويضيف زيفايج: «ثم تأتي الساعة الحاسمة في تاريخ العالم، لقد أُتْرِعَتْ المدينة بالبُشر حتى أسطح المنازل والحواف العليا منها، ويدخل امبراطورٌ شاب بصحبة موفدي البابا والمبعوثين والأمراء الناخبين وأمناء السر وقد أحدقتْ به الألوان التي تحاكي ألسنة اللهب؛ ألوان الفرسان والأقنان. وبعد أيام قلائل يسير راهبٌ ضئيل الجسم على الطريق ذاته رجلًا منفردًا قد مسَّه حرمان البابا ولم يحمه من محرقة الهراطقة سوى رسالة تكفل له حرية التحرك يحملها مطوية في جيبه، ومع ذلك فقد دوَّتْ الشوارع مرارًا وتعالت الأصَوات فيها من فرط الهتاف والحماسة. لقد اختار أحدَ الرجلين أي الامبراطور الأمراءُ، واختار الآخرَ الشعبُ الألماني قائدًا لألمانيا» ويضيف زيفايج: «على أن المداولة الأولى تؤخِّر الحسم الثقيل المحمَّل بأهمية المصير، في اليوم الثاني ينطق لوثر بالكلمة ذات الأهمية التاريخية؛ لقد انقسم القوم

قسمين ولأول مرة منذ أيام جون هس؛ يشق رجلٌ عصا الطاعة بين يدي الامبراطور ورجال بلاط الكنيسة المجتمعين وتسري رعدةٌ يسيرة في محيط البلاط إنهم يتهامسون وتتولاهم الدهشة من الراهب الضئيل الأهمية الوقح، ولكن في الأسفل كان الأقنان يهتفون للوثر مهللين» ويضيف زيفايج: «أما لوثر فقد كرَّس نفسه بأقصى قدر من الجرأة والطاقة التي لا تلين لها قناة، في إرادةِ النصر عنده: ولذلك تحوَّلت إرادته إلى فعل» ويضيف زيفايج: «لوثر ذلك الميال إلى العنف؛ انفصل عن روما إلى الأبد دفعةً واحدة»

إن الانبعاث الأوروبي، لم يبدأ في التحقق إلا بعد ثورات فكرية مزلزلة؛ أخرجته من جموده وحرَّكت أعماق ذاته؛ يحدثنا عن ذلك أرنولد توينبي في الجزء الثاني من كتابه الجامع (تاريخ البشرية) فيقول: «إن المدنية الغربية مرت بها بين 1563 و1763 ثورة عقلية وروحية أكبر من أي ثورة مرَّ بها هذا المجتمع منذ أنْ ظهر بين أنقاض الإمبراطورية الرومانية. إن المفكرين الغربيين الآن (أي في الفترة المذكورة) أبوا أن يتقبلوا إرث الأجداد على أنه أمرٌ موثوق به. لقد قرروا أنهم من الآن وصاعدًا؛ سيضعون عقائدهم الموروثة على المحك؛ وذلك عن طريق فحص الظاهرة فحصًا مستقلا، وأنهم سيتبعون تفكيرهم الخاص. كما أنهم تواضعوا على العيش بسلام مع الأقليات أصحاب البدع. ولم يعودوا يشعرون بأنهم ملزمون، أو مرجو منهم، أن يَفرضوا عقيدة الأكثرية، أو طقوسها بالقوة. ولم تكن أي من هاتين الثورتين آنيتين؛ فقد كان في كل منهما وقفات ونكسات» ويضيف توينبي: «في سنة 1686 نشر فونتيل كتابه (تأملات في تعددية العوالم) وهي فكرة كلَّفت جوردانو برونو أن يدفع حياته ثمنها سنة 1600 ومع ذلك عاش فونتيل مائة عام ومات على فراشه عام 1757 وقد نشر نيوتن (1642 - 1727) كتابه الأصول دون أن ترغمه السلطات الدينية على التراجع. على نحو ما فعلت بجاليليو (1633) ومع ذلك فإن مرسوم نانت الذي سمح للأقلية البروتستانتية بأن يُتساهل بشأنها، ألغاه لويس الرابع عشر 1685» ويضيف توينبي: «إن استرقاق الغربيين للسلطة، كائنًا ما كان نوعها؛ قديمٌ عهدها. إن التسامح الديني. مثل الاستقلال الفكري تطوَّر بطيئًا في

الغرب» ويضيف: «فالجدل الديني الذي قد أثار المذابح؛ قد استُعيض عنه بالاهتمام بالرياضيات والعلوم الطبيعية» هكذا كانت المعركة في أوروبا مع نسقها الثقافي الموروث، معركةً عنيفةً، ودامية، ومدمرة، وطويلة. لكنها حُسِمتْ لصالح الانعتاق عمليًّا من أسر النسق الثقافي الموروث، فساد الفكر المضيء، والعلم القائم على الملاحظة والتجريب والبحث والاستقصاء، وبذلك تأسس المجتمع الحديث المفتوح لكل الآراء، والمتاح لكل الاتجاهات، من أجل التقدم بلا حدود، والتحرر بلا قيود...

وخلال التاريخ؛ ومنذ بزوغ الفكر الفلسفي قبل ثمانية وعشرين قرنًا؛ ظل الفلاسفة يقترحون نماذج لمعالجة الإشكالات المعرفية. لأننا أمام معضلة بشرية عامة؛ فكل مولود لابد أن يتطبَّع بشكل تلقائي بنسق ثقافي لم يتم التحقق من محتواه وإنما كلها نتاجٌ تاريخي تلقائي. بعد مغامرة كولومبس الظافرة، اتضح للناس أن مزاعم الكنيسة؛ عن أن خلف المحيط نارٌ تلظَّى، بينما اكتشف كولومبس أن خلف المحيط قارة أكثر اتساعًا من أوروبا؛ فاهتز الكثير من القناعات الراسخة. ثم اكتشف كوبرنيكوس أن الأرض ليست مركز الكون وإنما هي كوكب صغير يدور حول الشمس، فتزايدت عوامل الشك. ودشَّن جاليليو بداية عصر العلم. وقبله كان دافنشي قد مهَّد له. وفي هذه الأثناء ظهر فيلسوفٌ عميقٌ ساخر، فقد تهكَّم من أوهام الإنسان وثقته بهذه الأوهام، هو ميشيل مونتاني. الذي كرر السخرية بتفاهة الإنسان، وانتفاشه الفارغ. وكتب يقول: «هل في الإمكان أن نتصوَّر شيئًا أدْعى للسخرية؛ من أن يزعم هذا المخلوق البائس؛ أنه سيد العالم، وهو لا يملك زمام نفسه بل هو عرضة للأذى يأتيه من كل الأشياء، وكيف يَحْكُم الكون كله وهو ليس لديه القدرة على أن يعرف أصغر جزء منه؟!» يقول عنه الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر في كتابه (مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية): «إن كلمات مونتاني؛ تقدم لنا مفتاحًا لكل تطوُّرٍ تالٍ في النظرية الحديثة عن الإنسان» وكان مونتاني ينتقد التعليم الذي يكتفي بتعبئة ذاكرة الدارس بالمعلومات ويقول: «أنْ تُعَلِّم هو أنْ تُوقد نارًا، وليس أن تملأ إناءً» إنه لا يَمَل من السخرية بالإنسان. ومن أقواله في ذلك: «هل يمكننا أن

نتصور أيَّ كائن يثير في نفوسنا مثل ذلك الشعور من السخرية؛ كهذا المخلوق التعيس البائس المعروف بالإنسان؟!» وكان يرى أن الأذكياء متشككون مرتابون متسائلون. أما الحمقى فلا يعرفون الشك. وقد كتب عنه المفكر الفرنسي الشهير توكفيل يقول: «ارتبط الخروج من التقليد الوسيط بوجوهٍ ثلاثة: لوثر وكوبرنيكوس ومونتاني» أما دونالد سترونبرج فيقول عنه في كتابه (تاريخ الفكر الأوروبي الحديث): «في نهاية القرن السادس عشر؛ برز مفكر فرنسي عظيم الشأن هو مونتاني الشَّكَّاك المحلل والذي اقتسم مع شكسبير آفاقًا هائلة الاتساع من الفضول والاهتمامات بالطبيعة البشرية، وكان مونتاني ينادي بالتحرر من ضيق الأُفق ومن الدقمائية» وقد ارتبط باسم مونتاني مفكر آخر لا يقل عنه سخرية بالجماهير العمياء وهو إيتيان دو لابويسي وقد مات مبكرًا ونُشِر بعد وفاته كتابه العجيب (العبودية الطوعية» إنه في كتابه يتساءل باستغراب وغضب: كيف يبقى الناس مسجونين باختيارهم. ويقول: «لم نولد وحريتنا ملكٌ لنا فحسب، بل نحن مكلفون أيضا بالدفاع عنها» لكنه التطبُّع الذي يختطف كل مولود قبل بزوغ وعيه. فكأن كل إنسان؛ يملك حرية الاختيار؛ لكن مع وقف التنفيذ. لأن التطبُّع التلقائي؛ يَسبِق أية قدرة على التفكير، ولأن الفرد حين يتفتح وعيه؛ يكون بعقلٍ مبرمَج، وبوعيٍ مشروط...

ما من فيلسوف أو مفكر أو مصلح يحاول تغيير الواقع؛ إلا وتكون نقطة انطلاقة؛ محاولة إصلاح التفكير، وتغيير اهتمامات الناس، وتبديل اتجاه سير المجتمع. وقد كان فرنسيس بيكون أعظم فيلسوف ظهر في عصر النهضة، وقد ركَّز على تغيير تفكير الناس، وتوجيه الجهد العلمي للنفع العملي؛ فقاد عملية التحديث الفكري، وحث على توجيه طاقة العقل للاختراع؛ فأكد أن المعرفة قوة وأن فهم الطبيعة يُمَكِّن من تسخيرها؛ فاهتم بإصلاح التفكير، ومحاولة تحرير العقل؛ من الأوهام الملازمة له. يقول الفيلسوف الفرنسي كوندياك: «لم ير أحدٌ أخطاء العقل أكثر من بيكون» وقد ألَّف العقاد كتابًا عن (فرانسيس بيكون) يقول فيه: «تتلخص رسالة بيكون في غرضين هما تحويل العلم إلى منفعة بني الإنسان، وإقامة العلم على أساس الاستقراء بعد قيامه زمنًا على أساس التقدير

والقياس، لتفسير الطبيعة وتسخيرها بمطاوعة قوانينها، لا بفرض الأحكام السابقة عليها وجهلها تلك القوانين» ثم يوضح: «أسلوب بيكون في المضاهاة والمقابلة بين العوارض المثبِتة والنافية؛ لإقصاء الأسباب الوهمية والنفاذ إلى الأسباب الصحيحة التي تُعَلَّل بها كل ظاهرة طبيعية، وهي خطوة تسبقها في رأيه خطوة لازمة لإعداد الذهن وإبرائه من عوائق البحث الصادق، والملاحظة الرشيدة، أو تخليصه من تلك الآفات التي اصطلح بيكون على تسميتها بالأوثان، وعَنَى بها العقائد والموروثات التي تنحرف به عن قصده، وتميل به إلى السخف والضلال» ويضيف: «فإذا انطلق الذهن البشري من عقال هذه الأوثان الأربعة، وقارب الظواهر الطبيعية على ذلك النحو الذي انتحاه بيكون من المضاهاة والمقابلة والتخصيص بعد التعميم؛ فهو على ثقة من إصابة الهدف وتسجيل الحقيقة» أما الطبيب المفكر عادل مصطفى فيُخصِّص كتابا كاملا عن (أوهام العقل) عند بيكون. وفيه يقول: «ثمة أربعة أنواع من الأوهام، تُحْدِق بالعقل البشري، وتظل تلاحقه في عملية تجديد العلوم نفسها، وتضع أمامه العوائق ما لم يأخذ البشر حذرهم، ويُحَصِّنون أنفسهم منها قدر ما يستطيعون» ويضيف: «تتعلق أوهام القبيلة بالطبيعة البشرية بما هي كذلك وتشمل البشر جميعا؛ فنحن جميعا ميالون إلى أن نحتكم إلى حواسنا وأن نجعلها مقياسًا للأشياء، وهذا ميلٌ خاطئ» ويضيف: «أوهام الكهف، المقصود بالكهف هنا هو الفردانية؛ فكل فرد من الناس يعيش من نفسه في كهفٍ خاص به يعترض ضياء الطبيعة ويشوهه. إن لكل فرد من البشر تكوينه الجبلي الخاص، ومَوروثه الجيني، وثقافته التي نشأ عليها وتربيته وظروفه وقراءاته وقدوته وصِلاته الحياتية» ويضيف: «أوهام السوق؛ تنشأ أوهام السوق عن تواصل الناس واجتماعهم، ومداولاتهم، وهي أخطر أنواع الأوهام. تلك هي الأوهام التي تنشأ عن اللغة وتتسلل إلىَ الذهن من خلال تداعيات الألفاظ والأسماء. يميل الناس إلى قبول أفكارٍ معينة، ويُسَلِّمون بها تسليما، وما يدرون أنها مبيَّتة في صميم اللغة نفسها» ويضيف: «أوهام المسرح؛ هي الأوهام التي انسربت إلى عقول البشر من النظريات والمذاهب التي تفرض نفسها على الأذهان نتيجة احترامنا الزائد لآراء

القدماء» بإمكان القارئ إن يعود إلى التفاصيل عن هذه الأوهام في كتاب الدكتور عادل مصطفى. لم يكن إبراز أوهام العقل سوى جزء من نشاط بيكون؛ فقد أراد أن يزرع الثقة في الجميع؛ فحرص بأن يؤكد بأن التعلُّم والإسهام في عملية النهوض وتسخير الأشياء للنفع العام؛ لا يتطلب عبقرية؛ فالتعلُّم والعمل التقني يستطيعهما كل من ليس معاقًا عقليًا ومثلما يؤكد رونالد جيليز في كتابه (فلسفة العلم): «فبعيدًا عن التأكيد على الخيال، أو الإبداع، أو العبقرية؛ يبدو بيكون معنيًّا بجعل العلم نشاطًا عاديًا، يمكن أن يضطلع به أي فرد يتمتع بمستوى متوسط من الذكاء» أما بيكون نفسه فيقول: «لكن السياق الذي أطرحه لاكتشاف العلوم لا يأبه كثيرًا بالذكاء، والقدرة العقلية، لكنه يضع كافة القدرات العقلية والاستيعابية في مستوى واحد» لكنه أكَّد على أهمية الرغبة في التعلُّم، والشغف بالمعرفة، فيقول: «المزاج العلمي يعني الرغبة في السعي والبحث، والصبر على الشك، والغرام بالتوسط، والبطء في التأكُّد، والاستعداد لإعادة التفكير، والدقة في العرض، والقدرة على التصرف والترتيب» لكن هذا بعد أن يتحرر العقل من الأوهام التي تشل حركته، وتعوق انطلاقه. يُجملها الدكتور حبيب الشاروني في كتابه (فلسفة فرانسيس بيكون) فيقول: «الإنسان بقي على ادعائه وكبريائه نائيًا عن الطبيعة عاكفًا على ذاته، وربما مضى به العلم المدرسي إلى الابتعاد أكثر عن الطبيعة، وإلى الإمعان في النظر العقلي والجدل العقيم، وظهرت في آفات المعرفة، سواء عند عامة الناس، أم عند خاصتهم، من المفكرين والفلاسفة والعلماء. هذه الآفات التي تظهر في الكبرياء والادعاء وفي الأنانية وفي الجدل العقيم وفي العلم النظري يتعيَّن معرفتها وحصرها والاحتراز منها» ولأن بيكون يستهدف إصلاحًا شاملا، فإنه لم يكتف بأن يؤكد قابلية الجميع للتعلم والقدرة على الإسهام في العلم والعمل، وإنما عالج معضلة العقل لتحريره من الأوهام الملازمة له...

وأُعجِب الفيلسوف الإيطالي فيكو ببيكون إعجابًا دفعه إلى تقليده في تحديد سبعة أوهام؛ يقع فيها المؤرخون يقول الفيلسوف كولنجوود في كتابه (فكرة التاريخ): «وهي أخطاء شبيهة بالأوهام التي يتحدث عنها بيكون. ويقول بوجود

خمسة من هذه الأوهام التي هي مصادر الخطأ؛ أولها الاشادة بالقديم، وثانيها غرور الأُمم، وثالثها غرور المتعلمين، ورابعها الخطأ المتصل بالمصادر. وأخيرًا ذلك الرأي الخطأ الذي يذهب إلى أن القدامى أعلم منا بأحوال الزمن الذي عاشوا على مقربة منه» يضيف كولنجوود: «الواقع أن ملاحظاته؛ استحدثت تغييرات جبارة في عصره» إن انعتاق أوروبا من أسر الكنيسة لم يحصل إلا بتواتر الضربات، وتكرار الانشقاق، وتضافر الأفكار، والأحداث، وبزوغ شخصيات سياسية ذات إقدام وفاعلية، مثل هنري الثامن في إنجلترا، وبطرس الكبير في روسيا، وفريدريك الكبير في ألمانيا...

وتأثر رينيه ديكارت بمونتاني الذي أشاع الشك، أيما تأثُّر لكنه فاقه في القيمة وفي التأثير؛ فهو مؤسس الفلسفة الحديثة. إن مونتاني ينظر إلى عموم البشر نظرة ساخرة، ويرى أن العقل البشري مهزلة، لذلك لم يأخذ الإنسان مأخذ الجد، فترك أفكارًا وابتكر نمط المقالة الصحفية، لكنه لم يحاول أن يضع نسقًا فلسفيًا. بعكس ديكارت الذي أخذ الموضوع بمنتهى الجدية. وقد أدرك أن أذهان البشر من كل الأمم تمتلئ بما لم يتم التحقق منه، لذلك يرى أن الحقيقة الموضوعية لا تكتشفها أمةٌ بأكملها بل يكتشفها فردٌ خارق ينفصل عن التفكير الجمعي. ومع اختلاف الأفراد في آرائهم ومواقفهم وأحكامهم، فإن كل فرد يكون راضيًا كل الرضا بعقله وبنمط تفكيره ومقتنعًا بأنه يتبع الصواب. ورغم كل ذلك فإن ديكارت يقول: «عندما أنظر بعين الفيلسوف في مختلف أعمال الناس، وما يباشرونه من أعمال، أكاد لا أرى فيها عملاً واحدًا لا يبدو لي باطلا، أو غير مفيد» لذلك آثر العزلة التامة. ويؤكد أنه لم يستفد من التعليم الذي تلقاه، وأن عقله لم يتفتح إلا بعد أن تحرر مما تلقاه تلقينًا. ويوضح أن اهتمامات الناس تختلف؛ فيوجهون عقولهم في اتجاهات مختلفة، وبسبب ذلك يختلفون، ولا يكادونَ يتفقون على شيء، إلا في الذوبان في التيار العام الذي يتحكم به نسقٌ ثقافي متوارث. لذلك يؤكد على ضرورة أن يقوم كل فرد بفحص محتوى ذهنه بمنتهى الدقة، والتحقق منه بأقصى حرص. يورد أندريه جومبي في كتابه عن (ديكارت) مثالا عن كيفية فحص محتويات الذهن فيقول: «إن ديكارت في مثال

مشهور يُشَبِّه نفسه بصاحب سلَّة من التفاح، هو يعلم أن بعضه فاسد. ولكي يمنع انتشار الفساد لبقية التفاح؛ فإن أسلم طريقة هي أن يُفرغ السلة من كل ما فيها، ثم يعيد وضع التفاح في السلة، واحدة بعد الأخرى، بعد أن يفحصها للتأكد من أنها سليمة، وغير معطوبة. وكلما كان فحْصُنا للتفاح أدق كان يقيننا أكبر بسلامته» هذا المثال يجسد الرؤية الفلسفية لديكارت لما تتطبع به أذهان كل الناس، من جميع الأمم، حيث أن الأصل، أن الأذهان مليئة بالأوهام الكثيفة وبالتصورات غير الصحيحة، والأفكار الخاطئة، والتحيزات الجائرة، والولاءات العدوانية. وأن على كل فرد بعد أن يكبر، أن يعيد فحص محتوى ذهنه، بحرص ودقة لكي يتحقق من صحته. وبعد ديكارت ظهر الفيلسوف الهولندي سبينوزا الذي يصفه الفيلسوف كولنجوود بأنه: «رائد النقد الحقيقي» لذلك ما زال يتجدد الاهتمام بفلسفته...

وأنجبت فرنسا مفكرًا عظيمًا آخر، من الغريب أنه في عصرنا الحالي يكاد يكون مجهولا ، رغم أنه قام بمجهود فكري خارق؛ هو بيير بايل كان له دور عظيم في خلخلة التحجر، وإشاعة التسامح، وقد اضطر أن يغادر وطنه فرنسا وأن يلجأ إلى هولندا حيث أصدر كتابه العظيم (المعجم التاريخي النقدي) وفي دراسة بعنوان (الفكر والمفكرون) كتب روبرتسون: «ظل المعجم التاريخي النقدي العظيم يضيء الحياة الفكرية في فرنسا أجيالا طويلة» كان تأثيره قويًّا وعظيمًا على ديكارت ومونتسكيو وفولتير وديدرو وكل فلاسفة التنوير وقد كان يرى بأن أفظع الحماقات؛ ادعاء أو توَهُّم امتلاك الحقيقة المطلقة، وأن هذا التوهُّم، أنتج معضلات كبرى. لقد قام بمجهودٍ فردي خارق من أجل إخراج الناس من سجون التعصب، وإرخاء القيود المفروضة على العقول، وبث التسامح، وإشاعة التفكير الحر. وواجه مصاعب متلاحقة من مختلف الأطراف، وحوصر في مصدر رزقه. ولكنه ظل صامدًا. وأصدر بمفرده مجلة باسم (أخبار جمهورية الأدب) من أجل حشد رجال الفكر الحر؛ في اتجاه إشاعة التسامح. كتب عنه فولتير يقول: «إن بايل كان عظيمًا؛ استطاع أن يعمل بلا أنساق؛ علَّم الناس كيف يتشككون» ويضيف فولتير: «ما يعرفه بايل بمفرده؛ يفوق ما يعرفونه

بمجموعهم. ولقد كان كبيرًا وحكيمًا إلى حدٍّ كافٍ، ليكون بلا مذهب؛ فقد قوَّض المذاهب جميعًا، وحارب الجميع حتى نفسه» ويقول مايكل أنجلو ياكوبوتشي في كتاب (أسباب اللاتسامح): «هناك ثلاثة من المثقفين بصفة خاصة؛ يُعتبَرون آباء لفكرة التسامح هم: لوك وبايل وفولتير» لقد محض وقته وطاقته وعمره للفكر الحر، والدفاع عن التسامح. ومحَض عمره بأكمله لخدمة الفكر الحر؛ فلم يتزوج ولم يشغل نفسه بأي شيء يعوقه عن مهمته التنويرية. وكتب عن نفسه يقول: «لم أهتم بالملاهي العامة، أو الألعاب، أو الرحلات، أو غيرها من أسباب الترفيه، والمتعة، ولم أضيِّع وقتي فيها ولا في المهام المنزلية، ولم أطمع قط في منصب. إني أجد كل الحلاوة والراحة في الدراسات التي شغلتُ نفسي بها، وهي كل متعتي وبهجتي» أما ويل ديورانت فكتب في الجزء 34 من (قصة الحضارة) كتابةً مفصَّلةً، وفيها يقول: «تحدى الطغاة المستبدين بإحدى الروائع في أدب التسامح الديني» ويضيف ديورانت: «وهكذا قبع هادئًا في حجرته يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم، يضيف صفحة إلى صفحة في المجلدات التي أصبحت منبع الاستنارة» ويضيف ديورانت: «ظهر المجلدان الضخمان في 2600 صفحة تحت اسم (معجم تاريخي نقدي) ولم يكن معجم مفردات بل دراسة نقدية للأشخاص والأماكن والآراء وفي التاريخ والجغرافيا وعلم الأساطير واللاهوت والأخلاق والأدب والفلسفة. وهو يَدفع بالتجارب النهائية إلى المطبعة؛ هتف: سبق السيف العذل. وكان العمل مقامرة ثقيلة بالحياة وبالحرية. لأنه احتوى على هرطقات أكثر مما ضم أي كتاب آخر في هذا القرن» ويضيف ديورانت: «انتشر تأثيره طوال القرن الثامن عشر. وأعيد طبع قاموسه عدة مرات حتى أصبح مصدر ابتهاجٍ خفي لآلاف العقول الثائرة. وما وافى عام 1750 حتى كان القاموس قد طُبع تسع مرات باللغة الفرنسية، وثلاث مرات باللغة الإنجليزية، ومرة باللغة الألمانية. وحاول المعجبون به في روتردام أن يقيموا له تمثالاً» ويضيف ديورانت: «وعلى مدى عشرة أعوام من وفاته كان الطلاب؛ يقفون صفوفًا في مكتبة مازاران في باريس حتى يأتي دورهم في قراءة القاموس. وجاء في تقرير عن المكتبات الخاصة، أن الطلب عليه كان أكثر من

طلب أي كتاب آخر. وقد أحسَّ بتأثيره كل مفكر ذي شأن، كذلك نبعت منه كتابات ليسنج عن تحرير العقل ودفاعه عن التسامح. ويُحتمل أن فردريك الأكبر استمد تشككه أصلا من بايل لا من فولتير. وأَطلَق على القاموس عصارة الإحساس السليم، واقتنى أربع مجموعات منه في مكتبته، وأشرف على إصدار طبعة رخيصة موجزة منه في مجلدين، ليجذب عددًا أكبر من القراء. وسار لوك في رسالة التسامح على خطى بايل» ويضيف ديورانت: «ولكن أعظم تأثيرٍ لبايل كان على فلاسفة الاستنارة. وكان فطامهم على القاموس. ومن الجائز أن مونتسكيو وفولتير أخذا عنه أسلوب الاستشهاد بالمقارنات. كما أن ديدرو قد اعترف بفضل بايل عليه، وحياه بأنه أعظم شارح مهيب لمذهب الشك في كل العصور» ويختم ديورانت بالقول: «وجملة القول كانت فرنسا في القرن الثامن عشر هي بايل في تكاثرٍ متفجِّرٍ» هذا المفكر العظيم، والمكافح الخارق استطاع أن يضيء العقل الأوروبي. وأن يتتلمذ عليه كل فلاسفة التنوير لكنه الآن لا يكاد يعرفه أحد بينما تسطع أسماء الذين تتلمذوا على فكره...

كان التنوير في إنجلترا سابقًا لظهوره في فرنسا، فظهر توماس هوبز في فلسفته التي تعلن أن الإنسان كائن عدواني، وأنه لا يقلل من تبادل العدوان سوى سلطة يخضع لها الجميع، فالإنسان ذئب الإنسان. وكان لمواقف ملوك إنجلترا مواقف مضادة لتسلط الكنيسة، فبدأت المعارضة لسلطة الكنيسة مبكرة وبلغت ذروتها بقرار الملك هنري الثامن بفصل كنيسة إنجلترا عن سلطة الكنيسة الأم في روما، وكان هذا القرار يمثل قطيعة فاصلة ذات أبعاد فكرية وثقافية وسياسية عميقة. وبعد تراجع شديد في عهد الملكة الكاثوليكية المتشددة ماريا، انتقل الحكم إلى أختها غير الشقيقة اليزابيت التي كانت بروتستانتية صريحة وبنت مجد بريطانيا وهزمت الأسطول الإسباني الارمادا. وبدأت مسيرة التميز البريطاني وفي عهدها ازدهر الفكر والأدب والمسرح فظهرت فلسفة فرانسيس بيكون ومسرح شكسبير وثلة من الشعراء والكتاب والأدباء...

وبزغ نجم الفيلسوف الانجليزي جون لوك معلنًا نظريته في المعرفة، فالإنسان يولد صفحة بيضاء، ثم يتطبَّع بما تنقله حواسه إلى دماغه من البيئة

الاجتماعية والطبيعية؛ فالعقل هو انعكاسٌ لما في البيئة، بكل أوهامها الثقافية، وترهاتها التاريخية؛ وبكل ما تدعيه من أمجاد؛ وبهذا يتحدد تفكيره، ورؤيته للعالم، وانتماءه وولاءاته، ويصبح لا يتقبل إلا ما يتفق مع ما تطبع به. وهذا تأكيد على أولوية وأصالة وتلقائية تأسيس الجهل البنيوي في كل العقول، فكل مولود يتم اختطاف قابلياته بعد مولده مباشرة، ومع الأيام يتعزز كل ذلك ويرسخ ويزداد وثوقًا وتزداد البرمجة رسوخًا ولا يتأثر بالمغاير إلا كرد فعل في الرفض والمقاومة؛ فيزداد تمسكه بما تبرمج به ويزداد انغلاقه بمقدار قوة الحج المضادة. وكان للوك تأثير امتد إلى فرنسا وإلى كل القارة الأوروبية. وعارضه الفيلسوف الألماني ليبنتز في بعض توجهات وأعقبه بزوغ فلسفة ديفيد هيوم الشكية، فالمعرفة لا تتأسس على أساس متين، وإنما هي نتاج التكرار والتعود، وما يزال الاهتمام بفلسفة لوك وهيوم يتجدد لأن علوم الدماغ كشفت أن فلسفتهما تقوم على أساس بيولوجي متين وظهر آدم سميث مؤسسا علم الاقتصاد مع رؤية فلسفية في أساس الأخلاق. فالتنوير الإنجليزي سابق للتنوير الفرنسي لكنه يتسلل بهدوء...

وظهر في هولندا فيلسوف عظيم أعني سبينوزا الذي امتد تأثيره إلى أنحاء أوروبا وثارت حوله خلافات قوية، وقد اهتم بإصلاح التفكير ومعالجة علل العقل. يقول في كتابه (إصلاح العقل): «إن أكثر صروف الدهر تواترًا في حياة الإنسان؛ إنما معظمها تافهة، باطلة» ويضيف: «إن أكثر الأمور تواترًا في حياة الناس؛ تلك التي ينظرون إليها على أنها الخير الأعظم؛ إنما تنحصر في ثلاثة: المجد والثراء واللذة الحسية. وهي تشغل الفكر عن التركيز على أي خيرٍ آخر» وثار حوله جدال طويل فيما بعد داخل التنوير الفرنسي لكن فلسفة سبينوزا ما يزال يتجدد الاهتمام بها...

ثم ظَهر التنوير في فرنسا بقوة غمرت أوروبا كلها بإشعاعها الباهر. وقد نمت بتأثير مونتاني وديكارت وبيير بايل وبتأثير كوبرنيكوس وجاليليو ثم نيوتن وكان من أسبقهم إلى الظهور مونتسكيو ثم فولتير ثم روسو وديدرو وغيرهم. وكان للعمل الموسوعي الذي تولاه ديدرو تأثير عميق وعام لكل أوروبا وقد

عانى ديدرو بسبب ذلك من الملاحقات والسجن والمتابعات والمضايقات والتحقيقات لكنه كان جريئًا ومفكرًا عميقًا ورغم ضخامة عمله الموسوعي؛ فإنه انتشر في أوروبا، وكان بالغ التأثير. لكن لضخامة الموسوعة؛ فإنها لم تُترجَم إلى اللغة العربية، مما جعل ديدرو غير معروف عربيا بشكل يتناسب مع دوره التنويري الكبير؛ إن ضخامة الموسوعة حالت دون ترجمتها إلى الكثير من لغات العالم؛ فلم يُتح لإنتاجه أن ينتشر في العالم لصعوبة ترجمة عملٍ بهذه الضخامة يضم مختلف المعارف الإنسانية، بنفَسٍ تحريضي تنويري لا يتحمله الكثيرون؛ فديدرو شجاع ومندفع ومليء بأفكار ضد الكنيسة والمتعصبين وضد كل من يريدون منع انتشار التنوير...

والتقط عمانويل كانط خيط التنوير من ديفيد هيوم وروسو ثم من التنوير إجمالا. وأنجز أعظم عملٍ فلسفي بفلسفته النقدية التي بدأها بكتابه (نقد العقل المحض) عن نظرية المعرفة ثم أتبعه بكتابه (نقد العقل العملي) ثم تابع إنتاجه في الميتافيزيقا وفي الأخلاق وفي السياسة وقد أعلن أن معضلة الإنسان الأشد عمقًا، هي ذوبانه في التيار العام، وعجزه عن التفكير المستقل، أي أن (الجهل البنيوي) هو المعضلة البشرية المستعصية. ورأى أن انعتاق الإنسان في مختلف المجتمعات من هذا الذوبان في التيار العام لا سبيل إليه إلا بتحرير عقل الإنسان من الاندماج التلقائي في السائد. وهي المعضلة المزمنة التي ما تزال تفرض هيمنتها المطلقة الخانقة...

ويأتي بعده هيجل ليؤكد بأن تفكير الفرد وسلوكه واتجاهاه وكل ما يكون الفرد عليه؛ ما هو إلا نتاج القوالب الاجتماعية وأنه يوجد هوة فاصلة عميقة، بين الحس المشترك، مقابل التفكير الفلسفي ويؤكد عمق وكلية التطبُّع فيقول هيجل: «ما يواجهنا اليوم؛ إنما هو قديمٌ مخبأ في التاريخ» ويضيف: «إن المجتمع نفسه؛ هو الذي خلق طبيعة البشر، وقدرتهم على السلوك العقلاني» ويؤكد تبعية أفكار الفرد لما هو سائد فيقول: «كل ما الإنسان كائن عليه؛ إنما يدين به للدولة: ففيها تكمن كينونته، وكل قيمه. وكل واقعه الروحي لا يستمدها إلا من الدولة» ويؤكد بأن رؤية الفرد للأمور محكومة بأنماطه الذهنية المسبقة

فيقول: «لا تؤثر الأشياء كما هي بل كما نتصورها» فكل فرد محكومٌ أولا بالنسق الثقافي الذي تطبَّع به، ومحكومٌ ثانيًا بأنماطه الذهنية التي تختلف عن الأنماط الذهنية لكل الآخرين. ويقول هيجل عن مشاعل وقادة الفعل: «إن رجالات التاريخ، أو أبطال عصرٍ ما؛ لابد أن يُعَدُّوا حكماء عصرهم، ولابد من النظر إلى أعمالهم وإلى كلماتهم على أنها خيرُ ما عُمِل، وأفضل ما في العصر. لابد أن يكونوا هم الذين فهِموا الأمور على نحوٍ أفضل، ولابد أن يكونوا هم الذين يتعلَّم منهم الآخرون» لكن قبضة الأنساق الثقافية المستحكمة على عقول البشر لا تُعطي فرصة لتقبُّل الأفكار المضيئة التي لا تتفق مع ما تطبعوا به وهذا هو السبب الأكبر في ضآلة تأثير الفكر الفلسفي على الأنساق الثقافية المتوارثة، كما على عموم المتعلمين في كل العالم، فما يزال التفكير الفلسفي محصورًا بقلة من الأفراد من مختلف الأمم...

كان شوبنهاور من أبرز الفلاسفة الذين اكتشفوا أن المعضلة البشرية المستعصية؛ تتمثَّل بهيمنة الأنساق الثقافية المتوارثة، ومن ذلك قوله: «قد يسود الخطأ لآلاف السنين فارضًا قبضته الحديدية، على أممٍ بأكملها؛ مكبلا أنبل المحفزات لدى البشر، وهو العدو الذي طالما خاضت ضده أرجح العقول في كل زمان ومكان؛ معركة غير متكافئة. وما كسبته هذه العقول من تلك المعركة؛ أصبح ملكًا للبشرية» إن شوبنهاور قد اكتشف بأن الأصل في الإنسان أنه كائنٌ غير عقلاني إلا في حالات فردية نادرة...

وقد مهَّد شوبنهاور لظهور فرويد الذي أكَّد بأن الإنسان محكوم باللاوعي وبأن العقل إذا تطبَّع بأي نسق ثقافي فإنه يكون رقيب ذاته فلا يسمح بقبول ما يتعارض معه. يقول فرويد: «توجد رقابة ذاتية تلقائية، لا تدع شيئًا يمر إلا ما كان محبَّبًا، وتنبذ الباقي» ويقول الدكتور فاخر عاقل في كتابه (سيكولوجية الإدراَك): «إن المعلومة المبدئية تُكَوِّن إطارًا ومفتاحًا للمعلومات التالية؛ وإذا كانت المعلومة التالية مخالفة للمعلومة الأولى؛ فإنها تُلْوى لتناسب المعلومة المبدئية» ويقول عالم النفس إدوارد دي بونو في كتابه (تعليم التفكير): «تَقوم المعلومة الأولى؛ بتغيير حالةَ العقل؛ بشكلٍ يجعل المعلومة الثانية؛ ترتبط بها،

أو توافقها. وبهذه الطريقة يتم بناء الأنماط» فكل فردٍ بغض النظر عن الأمة التي ينتسب إليها، والوطن الذي يعيش فيه؛ تتكوَّن له بنية ذهنية قاعدية في طفولته المبكرة، وتبدأ هذه البنية في التكوُّن منذ ولادته؛ فإذا اكتمل تكوينها وانبثق منها الوعي، انسحبت من شاشة الوعي وأصبحت ضمن البنية القاعدية للدماغ، فهي تؤثر ولا تتأثر. وبذلك تصبح هذه البنية الذهنية القاعدية هي أداته للتعلم، وهي وسيلته لرؤية العالم. لكنها هي ذاتها تلقائية الاستجابة ولا تخضع لرقابة الوعي ومن هنا خطورة التطبع التلقائي في الطفولة...

ويقول عالم النفس هارولد فنك: «تمثل الممارسة الروتينية الجانب اللاشعوري من الثقافة؛ المعْقَل الرئيسي للنظام الاجتماعي» ويعزو نجاح البشر في الحياة إلى: «التكيُّف مع الظروف المتباينة؛ لأننا قادرون على تطبيق الخبرة بصورة لا واعية، أي الممارسة الروتينية؛ فالروتين والسلوك اللاواعي ثقافيًا هو السر في نجاح الجنس البشري» أما أستاذ علم النفس بول بلوم فيؤكد: «بأن المخ يمكن فهم قدراته كعمليات تكيُّف» ويقول وليم جيمس: «نحن مخلوقات تحكمها العادات؛ فالعادات هي لحمة التربية وسداها» ويضيف: «كلما أسلمنا تفاصيل حياتنا الروتينية إلى زمام الآلية التي لا تمتُّ إلى الوعي بسبب؛ ولا تتطلب تفكيرًا: استطعنا أن نحرر قوى العقل العليا لتؤدي وظائفها اللائقة بها والمخصصة لها» ويقول دوركايم: «إن جميع البراهين لا تؤثر في أذهان الناس» ويرى برغسون: «إن الإدراك يعمل بطريقة سريعة فعالة؛ لأنه يكتفي دومًا بالتصورات المسبقة الكامنة في الذاكرة» ومما يدخل في الاستجابة التلقائية بتأثير عوامل مختلفة ما قَدَّمه الدكتور روبرت شيالديني المتخصص في علم نفس المجتمع؛ في كتابه (التأثير) وهو دراسة عن سيكولوجية التأثير ووجد أن الناس ينقادون ويستجيبون بعدد من العوامل أو المبادئ وقد أبرز منها ستة عوامل هي: مبدأ المجاملة، ومبدأ الاطراد، ومبدأ البرهان الاجتماعي، وعامل الحب، وعامل السلطة، وعامل الندرة. وفي الكتاب يؤكد: «إن السلوك الآلي القوالبي؛ يسود كثيرًا من الفعل البشري لأنه الشكل الأكفأ للسلوك في معظم الحالات» ويضيف: «من الغريب أن الكثيرين منا يعرفون القليل جدا عن أنماط سلوكنا

الآلية، على الرغم من انتشار استخدامها حاليا وضخامة أهميتها في المستقبل» ويضيف: «من المناسب أن نلقي نظرةً ثانية على أعمال دراسة الحيوانات في بيئتها الطبيعية؛ حتى نفهم تماما طبيعة ضعفنا» ويضيف: «يوجد ما هو مأساوي، في الغابة البشرية؛ فلدينا أيضا المستغلون الذين يقلدون ضواغط الزناد، لنوعية الاستجابة الآلية فينا» ويَنقل مؤيِّدًا عالم الآثار ريتشارد ليكي قوله: «نحن بشرٌ لأن أجدادنا تعلموا أن يتقاسموا طعامهم، ومهاراتهم، في شبكة مبجَّلة من الالتزام» ويضيف شيالديني: «ينظر عالما الانثروبولوجيا الثقافية ليونيل تيجر وروبن فوكس إلى هذا: النسيج من المديونية كميكانيزم فريد للتوافق تختص به الكائنات البشرية؛ يسمح بتقسيم العمل، وتبادل أشكال متنوعة من السلع، وتبادل الخدمات المختلفة، وخلق مجموعة من الاعتماد المتبادل تربط الأفراد بعضهم ببعض في وحدات كفاية عالية» ويضيف: «فالمجتمعات البشرية تستمد ميزة تنافسية لها دلالتها الصادقة من قاعدة المجاملة وبالتالي تتأكد من أن أعضاءها يدرَّبون لينصاعوا لها ويؤمنوا بها» ويضيف: «القاعدة غلَّابة؛ إن أحد الأسباب التي تجعل من الممكن استخدام قاعدة المجاملة بمثل هذه الفاعلية الكبيرة كوسيلة لكسب انصياعِ شخصٍ آخر هو قُوَّتُها؛ إذْ تملك القاعدة قوةً رهيبةً، وتؤدي إلى استجابةِ نعم، لرجاء كان يُرفَض بالتأكيد لولا وجود الشعور بالمديونية» ويقدم العالم شواهد كثيرة تدل على التأثير الهائل الذي تمارسه المجاملات في السلوك البشري...

أما الفصل الثاني فهو عن العامل الثاني من عوامل التأثير وهو (الالتزام والاطراد) وفيه يتحدث عن (آفات العقل البشري) ويقول: «لقد عرف علماء النفس منذ زمن طويل؛ قوة مبدأ الاطراد في توجيهه للفعل البشري؛ النزعة للاطراد قويةِ حقًّا إلى حَدٍّ يُرغمنا على أن نفعل ما لا نريد القيام به في ظروفٍ عادية؛ يمثل الدافع لأن نكون مُطَّردين سلاحًا فعالا للتأثير الاجتماعي؛ وتُعتبر نزعتنا للانصياع الآلي كنزًا من الذهب للمستغلين ممن تتحقق مصالحهم بعدم التفكير، والاستجابة الآلية لرجاواتهم» ويؤكد: «أن قوة الاطراد رهيبة في توجيهها للفعل البشري» أما الفصل الثالث فهو عن (البرهان الاجتماعي) وفيه

يقول: «إن النزعة لرؤية فعلٍ على أنه الأسلم، إذا رأينا آخرين يفعلونه عاديًا؛ تعمل بشكل جيد جدا؛ فإننا كقاعدة سوف نقترف أخطاء أقل بالتصرف بما يتفق والدليل الاجتماعي، مما لو كنا نتصرف ضده. يقول مبدأ البرهان الاجتماعي: كلما زاد عدد الناس الذين يجدون أية فكرة صوابًا؛ زادت صحة الفكرة» ويضيف: «هناك وقتٌ آخر يقوم فيه مبدأ البرهان الاجتماعي بتوجيهنا بانتظام توجيهًا خاطئًا؛ وهنا درْسٌ لابد أن نستوعبه: يجب أن لا نثق ثقة عمياء أبدًا في أداةِ ملّاحٍ آلّي مثل البرهان الاجتماعي» أما الفصل الرابع فعن تأثير الحب وفيه يقول: «فكل أسلحة التأثير الرئيسية؛ موجودة وتؤدي دورها في سير الأمور» ويضيف: «إن الانتشار الواسع النطاق لرابطة الحب بين الأصدقاء بواسطة ممارسي الانصياع؛ ينبئنا بالكثير عن قوة قاعدة الحب التي تؤدي إلى الموافقة» أما العامل الخامس من عوامل التأثير فهو عامل السلطة وهو في هذا العامل يعتمد على دراسة قام بها عالم النفس ميليجرام وهي دراسة مشهورة عن الكيفية التي ينصاع فيها الأفراد للأوامر مهما كانت فظيعة؛ يقول شيالديني: «أمدَّنا ميلجرام بدليل أكثر إقناعًا لتفسير سلوك مفحوصيه؛ بالطاعة للسلطة» أما عامل التأثير الأخير فهو مبدأ الندرة وعنه يقول شيالديني: «إن اعتماد ممارسي الانصياع على الندرة كسلاح للتأثير؛ متكرر، واسع المدى، منتظم ومتنوع» الكتاب قوبل باحتفاءٍ شديدٍ، وتُرجم إلى لغات العالم وبعد سنوات أتْبعه بكتابٍ آخر بعنوان (قبل الإقناع: طريقة ثورية للتأثير والإقناع) وهو لا يقل عن كتابه الأول جودةً وإقناعًا. ولكنه يتناول الاستجابة التلقائية من زوايا أخرى، وكلها تؤكد أن الإنسان كائنٌ تلقائي وأن تفكيره وسلوكه في معظمه هو انسيابٌ تلقائي ومن دون تدخل الوعي..

يبرز أشهر فلاسفة العلوم كارل بوبر بوصفه أبرز من أعطى الجهل أولوية وتلقائية مطلقة، ففي كتابه (بحثًا عن عالم أفضل) ينقل عن فولتير قوله: التسامح هو النتيجة الحتمية لإدراكنا أننا لسنا معصومين من الخطأ؛ البشر خطاؤون، نحن نخطئ طول الوقت. دعونا إذن نغفر لبعضنا الحماقات. هذا هو المبدأ الأول للحق الطبيعي» ويضيف بوبر: «فولتير يناشد أمانتنا الذهنية: علينا أن

نعترف بأخطائنا، بأننا لسنا معصومين من الخطأ بجهلنا» ويضيف: «تصبح فكرة الحقيقة ذات أهمية قصوى عندما نود التمييز بين النسبوية وبين التعددية النقدية. التعددية النقدية هي الوضع الذي يُسمح فيه لكل النظريات؛ بأن تتنافس، وذلك لمصلحة البحث عن الحقيقة. إن لفكرة الحقيقة الموضوعية، وفكرة البحث عن الحقيقة؛ أهمية حاسمة» ويضيف: «كان زينوفانيس في عصر ما قبل سقراط أول مفكر طوَّر نظرية للحقيقة وربَط فكرة الحقيقة الموضوعية بالفكرة الجوهرية القائلة بأن البشر غير معصومين من الخطأ، كان أول من طوَّر نظرية نقدية للمعرفة البشرية» ويضيف: «كان زينوفانيس مؤسس تقليد، مؤسس طريقة في التفكير» ثم يوضح بأن طريقة زينوفانيس هي طريقة التفكير التي ينتمي إليها سقراط، وإرسموس، ومونتاني، ولوك، وهيوم، وفولتير، وليسنج، وآخرون» يضيف بوبر: «الواضح أن هذه النظرية الجديدة تمامًا؛ كانت عند زينوفانيس حلاًّ لمشكلة عويصة. والواقع أنها قد خطرت له كحل لأكبر المشاكل، مشكلة الكون. ليس من يشك، بين من يعرف شيئًا عن سيكولوجية المعرفة، في أن هذا التبصُّر الجديد، عند مبتكره، كان يبدو له إلهامًا» ويضيف بوبر: «وضَع زينوفانيس نظريته النقدية عن المعرفة؛ أن كل شيء؛ هو فرْضٌ حدسيٌّ: أما بالنسبة للحقيقية اليقينية فلا أحد يعرفها، ولن يعرفها أحدٌ؛ فكل شيء ليس إلا نسيجًا من التخمينات» يضيف بوبر: «من المهم لتفهُّم نظرية زينوفانيس عن الحقيقة؛ أن نؤكد أن زينوفانيس كان يفرق بين الحقيقة الموضوعية، وبين اليقين الذاتي» ويضيف: «لمعرفتنا بوجود معرفة حدسية أهمية كبرى. هناك حقائق لا يمكن الاقتراب منها إلا بالبحث الشاق» ويضيف: «كان سقراط هو المؤسس الثاني الأكثر تأثيرًا للتقليد الارتيابي؛ علَّمنا إن الحكيم هو من يعرف أنه ليس حكيمًا» ويضيف بوبر: «معرفتنا العلمية، لا تزال معرفة غير يقينية؛ إنها مفتوحة للمراجعةِ، إنها تتألف من حدوس تخضع للاختبار، من فروض على أفضل الأحوال فروض تعرضت لأقسى الاختبارات، لكنها لا تزال مجرد حدوس» إن النقاش الذي كتبه كارل بوبر مفصَّل وطويل ويمكن للقارئ أن يعود إليه في كتابه (بحثًا عن عالَم أفضل) بل إن مؤلفات كارل بوبر كلها تحث على الفحص الدقيق المتكرر لمعارفنا ولكل ما نعتقد أننا نعرفه...

ولكارل بوبر بحث آخر بعنوان (منابع الجهل) وقد ترجمه الدكتور محيي الدين صبحي ضمن كتابه (النقد الأدبي الحديث) أهم ما يؤكده بوبر أن الجهل ليس عدمًا، ليس فراغًا لذلك يكرر التأكيد على: «مؤامرة الجهل، التي ليست أمرًا سلبيًا يتمثل في نقص المعرفة، بل هي قضية إيجابية ذات اتجاهٍ مضلِّل، يسمِّم عقولنا، ويقودنا إلى مقاومة المعرفة» يؤكد بوبر في هذا المقال: «أن أفضل الطرق في البحث عن الحقيقة؛ هي أن نبدأ بنقد أفضل معتقداتنا» ويضيف: «إن الأفكار أخطر الأشياء وأقواها» ويقول: «تصر المدرسة البريطانية على أن الملاحظة؛ هي المنبع الوحيد للمعرفة، بينما ترى المدرسة الأوروبية أن المنبع هو الحدس العقلي بالأفكار الصحيحة. وفي رأيي أن الفروق بين التجريبية والعقلانية قليلة جدا؛ وكلتاهما على خطأ» ويضيف: «إن مشكلتنا تتعلق بنظرية المعرفة. وبينما يرى كانط، أن السؤال كيف أعرف، هو أحد ثلاثة أسئلة هامة يسألها الإنسان. بينما يرى برتراند رسل أن الفكرة هي حقيقة موضوعية» ويوضح بوبر بأن سقراط في حواراته التوليدية كان يستهدف: «إبعاد الهوى والمعتقدات الزائفة والأفكار المسبقة والأجوبة الخاطئة؛ فتوليد سقراط لا يهدف إلى بث معتقدات، بل يهدف إلى إزالة المعرفة الزائفة. وقد حقق هدفه حين علَّمنا أن نشك بمعتقداتنا» ويضيف بوبر: «بأن علينا أن نُصَفِّي ذهننا من كل نظرية أو شعور مسبق أو معتقدات زائفة، لأن هذه كلها تشوب نظرتنا» ويضيف: «وعلى هذا يكون الاستقراء الباكوني- الارسطي؛ مساويًا للتوليد السقراطي القائم على منع العقل من التحيز للهوى، ليقوى هذا العقل على معرفة الحقيقة البينة، ويأتي من هذا القبيل الشك الديكارتي الذي يهدم كل تخرُّصات الهوى والأحكام المسبقة؛ ليفسح المجال للعقل كي يصل إلى الحقيقة الثابتة» ويضيف: «إن العقلانية النقدية التي أدعو إليها؛ ليست إلا اللمسات النهائية لفلسفة كانط الانتقادية» ويضيف: «إننا نعتقد أن عالم الظواهر؛ هو مجرد عالم من الظلال التي تنعكس على جدران كهفنا القاتم وعلينا باستمرار أن نحاول الخروج منه» ويضيف: «وبالرغم من قول ديمقريطيس أن الحقيقة تختبئ في الأعماق؛ فإننا نَقْدر على سبر الأغوار في سبيل الحقيقة» ويضيف: «إن اطلاعنا يزيد من معرفتنا

بجهلنا. وبناء على هذا فإن المصدر الرئيسي لجهلنا هو الحقيقة القاضية بأن معرفتنا محدودة في حين أن جهلنا غير محدود» ويضيف: «وأعتقد أنه جدير بنا أن نحاول أن نتعلم شيئًا عن العالم حتى لو انتهت بنا محاولتنا إلى أن نعْلم أننا لا نعرف شيئًا عن هذا العالم. ويمكن لهذه الحالة من الجهل المعلوم؛ أن تذلل كثيرًا من الصعاب. فمن المستحسن لكل منا أن نذكر أثناء خلافنا العظيم حول القليل من المعارف؛ أننا كلنا في الجهل سواء» يضيف: «إن المعرفة شيء إنساني، أي يختلط بالخطأ والهوى والأحلام والآمال التي تكمن في نفوسنا، وعلينا أن نتلمس طريقنا إلى الحقيقة من خلال ذلك، حتى لو كانت أبعد من متناول أيدينا» وينتهي إلى التأكيد: «بأنه ما من شيء إلا ويخضع للنقد، إن الحقيقة فوق سلطة الإنسان، يجب أن نستبقي هذه الفكرة لأننا بدونها لا نملك مقاييس للتفحُّص والاستقصاء» لقد أطلت الاقتباس من كارل بوبر لأنه أفضل من كتب عن أولوية الجهل، وعمقه، وصعوبة التحرر النسبي منه...

إن التقدم المذهل لعلم الأعصاب وللعلوم المعرفية الأخرى الباحثة في الطبيعة البشرية واكتشاف طبيعة الدماغ الإنساني العجيب ووظائفه المتخصصة واستجاباته التلقائية واتساعه الواعد قد كشف الإمكانات الهائلة في قابليات الإنسان العظيمة ولكن هذه القابليات مازالت تمتلئ تلقائيًا بما يعطل الارتقاء ويديم هيمنة ما قبل العلوم فالإنسانية عموماً مازالت محكومة بثقافاتها التليدة تتوارثها جيلاً بعد جيل أما الذين يعلمون؛ فإنهم لا يملكون سوى هذا العلم الذي قد لا يستجيب له سوى قلة من الأفراد المهيئين للانعتاق من قبضة الأنساق. أما قرارات التبني أو الرفض فهي خارج مجالهم إنهم حتى في المجتمعات المزدهرة والأكثر ازدهاراً مازالوا يعملون كجزر منفصلة فرغم أنهم يعيشون وسط المجتمع فإنهم منفصلون عنه فكريًا؛ وكأنهم جزر صغيرة وسط المحيط الهائل فلا تتحول العلوم إلى برامج عمل ومناهج تربية إلا في المجالات التي تكرس الماضي وتؤكد منطق القوة وما يعزز ما اعتاد عليه الناس منذ آلاف السنين فالإنسانية مازالت مشغولة ومستغرقة في تفهم الأشياء فالعلوم التي تتعلق بالأشياء وبمصادر القوة المادية والرخاء الاقتصادي تتحول إلى مشروعات

وبرامج عمل أما العلوم المتعلقة بالإنسان نفسه فتبقى غالباً يتداولها المهتمون ويعرفون ماذا يجب أن يكون عليه الإنسان لكنهم لا يملكون إيقاف الاندفاع البشري الأهوج ولا مواجهة تياراته الجارفة...

يقول عالم الاجتماع جبريل تارد: «إن المجتمع لا يستطيع أن يعيش، ولا أن يخطو إلى الأمام، ولا أن يطور نفسه؛ بغير أن يعتمد على ينبوع الروتين الذي لا ينضب، وعلى النسناسية والخروفية التي تتزايد بلا توقف بتأثير الأجيال» ويضيف: «المجتمع مجموعة من الناس تربط بينهم روابط؛ إما لأنهم يقلدون بعضهم بعضا، وإما لأن بينهم نوعًا من التشابه في الصفات العامة؛ وهي في مجموعها عبارة عن صورة متكررة لنموذج واحد» ويضيف: «إننا إذا حللنا عقول الأفراد وجدنا أنها تتكوَّن من مجموعة من الأفكار والآراء التي تصدر عن التقليد والتكرار ويندر أن تكون أفعال الناس مبتكَرة» ويقول الدكتور السيد محمد بدوي في كتابه عن (التطور): «التقليد هو العامل الأساسي في نشأة الظواهر الاجتماعية وفي تكوين المجتمعات» ويقول المفكر الفرنسي دي توكفيل: «إن كان الفرد ملكًا؛ فهو يستطيع أن يستحدث في المجتمع تغييرات مدهشة. لكن شعبًا بأسره لا يمكن أن يرتفع على ذات نفسه» ويقول الفيلسوف العالم وايتهد في كتابه (مغامرات الأفكار): «الروتين هو رب كل نظام اجتماعي، وهو السماء السابعة بالنسبة لأصحاب الأعمال، والعامل الجوهري في نجاح أي مصنع، والمثل الأعلى لأي حاكم؛ فالماكنة الاجتماعية يجب أن تعمل مثل الساعة، وحين يكون الروتين كاملا؛ يمكن الاستغناء عن الفهم، إن الروتين وحده هو أشد جذرية من الفهم» ويضف: «إن لكل حالة ذهنية؛ طبيعتها الصلبة التي تقيد وجودها في الحياة» ويقول: «إن الحضارة ليست نتيجة عادية للطبيعة الخام؛ إنها تعتمد على الفعالية الطويلة المدى جدا؛ فعالية العوامل المختارة» وهنا أكرر التذكير بأن الإنسان كائن تلقائي، في التطبُّع بأحد الأنساق الثقافية المتوارثة، وفي الاستجابات التلقائية للمثيرات، التزامًا تلقائيًا بما تَطبَّع به، وانسيابًا تلقائيًا من أنماطه الذهنية ذات الثبات النسبي...

لذلك فإنه رغم ما حققته الإنسانية من إنجازات مدهشة وكشوف عظيمة

ومهارات عالية وتقدم هائل، في مختلف المجالات؛ فإن هذا كله ليس سوى تمهيد وتوطئة لبزوغ الإنسانية الحقيقية في عليائها الباهرة حيث ستكون قادرة على تحقيق الأنسنة الحقيقية بسيطرتها على نفسها وامتلاكها القدر الكافي من النضج والحكمة والانفتاح والتآخي وستكون قادرة على استثمار قابليات الإنسان استثماراً رشيداً يحرره من حماقاته الفظيعة ويخلصه من جهالاته المزمنة...

إن قابليات الإنسان العظيمة المفتوحة تهيئة ليصير مدهشاً في تفكيره ومعارفه ومهاراته وأدائه وأخلاقه لأن ما تتلقاه هذه القابليات تلقائيًّا أو ما يجري تعبئتها به قصداً يفيض انسياباً أو تدفُّقاً بمقدار كثافة التعبئة فالإنسان بما ينضاف إليه لكن هذه القابليات في الغالب تمتلئ مبكراً بما هو مضاد للحكمة والعقلانية وما هو معاد للحياة والأحياء فبدلاً من تكوين قدرات إنسانية إيجابية ومنفتحة تتكون عوائق صلدة منغلقة فتنقلب الإمكانات التي تتيحها القابليات من الإيجاب إلى السلب ومن إمكانات التآخي إلى واقع التنافر ومن نصاعة الحقائق إلى ظلام الأوهام فالإنسان تاه عن الهدف الأعظم فصار قادراً على تسخير الأشياء لكنه لم يستطع السيطرة على نفسه فحكمته وعقلانيته مازالت هشة وقابلة للانكسار السريع إنها في غاية الضآلة والضعف قياساً بقدرته على بناء القوة وتعزيز الشراسة فالإنسان مازال يفترس الإنسان ويتعامل بعدوانية ومكر وتضليل واستئثار ومكابرة واستخفاف بالمسؤولية الإنسانية وتهميش ما تقتضيه العدالة وما يمليه الضمير النظيف...

إن أية مقارنة بين قابليات الإنسان العظيمة التي تتيح له الارتقاء إلى أقصى المدى وأوضاعه البائسة على المستويات الفردية والاجتماعية والإنسانية تؤكد فداحة الخلل وفظاعة الخسائر فطوفان الجهالات وتفاقُم الاضطرابات واستمرار الفقر وانتشار الحروب وتنوع النزاعات وقتامة الواقع واندلاع العنف وتوسيع المخاوف وشيوع القلق وغيرها من الظواهر البشرية الفظيعة كلها تؤكد بأن الإنسان مازال فظًّا متوحِّشاً بدائيًّا قياساً بما هو ممكن من التجرد والتهذيب والارتقاء والتآخي والشفقة إن هذه كلها تكشف الهوة الواسعة والعميقة التي تفصل بين ما هو كائن في الحياة الإنسانية وما يمكن أن يكون فرغم الإنجازات

الهائلة التي تحققت في مجالات العلوم والتنظيم والتقنيات والفنون فإنه بشكل عام وخصوصاً في مجال العلاقات بين الأمم مازال الإنسان بدائيًا وعاجزاً عن التفاهم وغير قادر على التعامل الحكيم فهو مازال عاجزاً عن كبح انفجاراته العاطفية وغليانه الأيديولوجي واختلافاته الثقافية وجهالاته المزمنة وأحقاده البشعة فالأكثرية الساحقة من البشر في الشرق والغرب مازالت محكومة في تفكيرها وسلوكها بتلقائية الإدراك الحسي الساذج...

إن الإنجازات العلمية باهرة وعظيمة كما أن تطبيقاتها أشد إثارة وروعة وإدهاشاً لكن التفكير الموضوعي والمعالجة العلمية والرؤية الإنسانية مازالت من نصيب القلة من الناس أما عموم المتعلمين في كل المجالات حتى في المجتمعات المتقدمة فهم يكتسبون مهارات مهنية تتيح لهم النجاح العملي فقط من دون اكتساب التفكير الموضوعي والروح العلمية فالتفكير العلمي مازال محصوراً تقريبا في المجالات العملية والمهنية بشكل سطحي. إن الروح العلمية تعني القدرة العميقة على الرؤية الموضوعية؛ للأفكار والأعمال والأشخاص والرؤى والمواقف. إن الإنسان بطبيعته ليس موضوعيًا فهو متحيز بالطبع؛ أما الموضوعية المحضة؛ فهي قدرات نادرة مكتسبة، إن اكتساب الموضوعية المحضة ليس سهلا بل يكاد يكون محالا أما بدون هذا الاكتساب فإن الشخص يظل جائرًا في أحكامه منحازًا في رُؤاه، وغير عادل في مواقفه مهما نال من تعليمٍ يستهدف التأهيل العملي...

وليس الافتقار إلى الموضوعية وإلى التفكير العقلاني محصوراً في المجتمعات المتخلفة بل حتى في المجتمعات المتقدمة فإن تفكير أكثر المتعلمين خارج المجال المهني لا يختلف كثيراً عن تفكير الأميين فالمتحكم بالعقول والعواطف هو البرمجة التلقائية التي يتشربها الناس تلقائيًا من البيئة بما في هذه البرمجة التلقائية من طريقة تفكير ساذجة ومنظومة قيم متحجرة وأنواع اهتمامات متوارثة لا تتناسب مع ما ينبغي أن يهتم به الناس فالتفكير العلمي في كل العالم مازال غريباً غربة شديدة على مستوى الحياة اليومية خارج مجالات الأداء المهني فالأمم في الغالب تحرص بأن تحافظ على استمرار ثقافاتها بمكوناتها

المعيقة للفكر العلمي والمضادة للسلوك العقلاني والمتعارضة مع الموضوعية المحضة ومن ناحية أخرى فإن اهتمام الإنسانية قد تركز على ابتكار الوسائل من أجل التنمية المادية فجرى استثمار القابليات والأفكار والعلوم والمؤسسات والقدرات والطاقات من أجل الارتقاء إلى أقصى المدى بوسائل الحياة وأدوات الإنتاج وحوافز العمل فحققت الإنسانية نتائج مذهلة في الصناعات والتقنيات والإنتاج والتنظيم واكتسب الأفراد الكثير من الدقة والجودة والمهارة والإبداع إن الدول والشركات قد استغلت القابليات والأفكار والعلوم والاختراعات والابتكارات من أجل الانتاج الغزير والأداء الدقيق وتحقيق الوفرة الاقتصادية والتنمية المادية والقوة العسكرية والمكانة الدولية...

أما العلوم التي تتعلق باستثمار قابليات الإنسان العليا للارتقاء الأخلاقي والانفتاح الإنساني والتفكير العقلاني وتحريره من ركام الجهالات المزمنة المتراكمة خلال القرون السابقة للعلوم فإنها مازالت ضئيلة التأثير لأنها ليست ذات مكاسب آنية فلم تهتم بها الشركات ولم تنل من اهتمام الحكومات ما يتناسب مع أهميتها البالغة بل إن الكثير من الدول ترعى الجهالات وتكرس الأوهام لأنه يخدم استمرارها ويستبقي الشعوب عاجزة عن فهم مصدر تعاستها إن تحرير العقل البشري من أوهامه الراسخة وجهالاته المزمنة وعدوانيته العميقة يتطلب من العالم احتشاداً عظيماً تتكاتف فيه كل المنظمات الدولية وكل عقلاء العالم وحكمائه لكن هذا مازال بعيداً عن التحقق حتى اليونسكو المعنية بهذا الشأن غرقت في مجاملة الثقافات المتخلفة وضاعت إرادتها في النزاعات بين الدول الأعضاء وتبدد جهدها في اجتماعات روتينية يتبادل أعضاؤها الإشادة والمجاملة ويتحاشون مناقشة العوائق الأساسية التي تعطل مسيرة الأنسنة الحقيقية الشاملة...

إن الإنسانية مازالت محكومة بثقافات متوارثة معادية غالباً للتفكير العلمي وتقاوم التقارب الإنساني وترفض الانفتاح الثقافي فكل ثقافة تتوهم الامتياز المطْلق وتدعي التفرد النهائي وتحتقر الثقافات المغايرة وبسبب ذلك لم تتأثر الثقافات كثيراً بالعلوم الحديثة سواء على مستوى التفكير الاجتماعي أو على

مستوى التفكير الفردي فيبقى المجتمع يكرر إنتاج ذاته مهما اهتم بالتعليم ومهما استخدم من التقنيات ويظل الأفراد ذائبين في المجتمع في حركته الدائرية المغلقة فالإنسان يولد فارغ القابليات فتصله حواسه بالعالم وتنقل إليه صوراً ونماذج ودلالات من البيئة يتكوَّن بها وعيه قبل أن يمتلك قدرة الفرز والتمحيص وبذلك تتراكم تلقائيًّا البنية الذهنية القاعدية التي تُدخله عالم اللغة وعالم الثقافة وعالم الإنسان فعن طريق الحواس يتكوَّن الإدراك الحسي الساذج فيتبرمج الفرد تلقائيًّا بمعطيات البيئة الثقافية والاجتماعية والطبيعية قبل تكوين الوعي ثم ينبثق وعيه من اللاوعي فيبقى امتداداً له ومحكوماً به فمحتوى اللاوعي المتكون تلقائيًّا هو الأصل أما الوعي فهو انبثاقٌ منه ومتولد عنه ويظل مجرد مَظْهَر له إنه يشبه الجهاز التنفيذي وبسبب هذا الارتباط العضوي العميق بين الوعي واللاوعي وهيمنة الأخير فإن الفرد مهما اجتاز من مراحل التعليم ينشأ مغتبطاً بهذه البرمجة التلقائية مهما كان اتجاهها ومحتواها لأنها هي التي صاغت ذاته وكوَّنتْ وعيه فالبرمجة تفيض وتنساب تلقائيًّا كهوية وانتماء وطريقة تفكير ونظام معرفة ولغة ولهجة ونمط سلوك وأسلوب حياة ومنظومة قيم وأنواع اهتمامات...

ولأن الذات يحتلها الأسبق فيتحكَّم بها تلقائيًّا فإن تجاوُز مرحلة الإدراك الحسي الساذج، المنتظم على التطبُّع التأسيسي بالنسق الثقافي، والانتقال إلى مرحلة الإدراك العقلي المتأجج؛ لا يتم تلقائيًّا مهما واصل الإنسان التعليم الاضطراري، وإنما إذا حصل الإفلات من قبضة الانتظام التلقائي وتحقَّق الانتقال إلى مستوى الوعي الفردي في فورة تلقائية مفاجئة؛ فإنه يأتي كوثبة استثنائية فائرة وحاسمة فإن لم تتحقق هذه الوثبة بانكسار أطواق الانتظام التلقائي فإن الإنسان يبقى مأسوراً تلقائيًّا بفيضان اللاوعي يواصل حياته في مرحلة الإدراك الحسي التلقائي الساذج مع ومضات متقطعة من العقلانية الاستثنائية فيما يهتم به اهتماماً استثنائيًّا...

إن وعي الفرد كوعي المجتمع محكومٌ بقانون القصور الذاتي فهو ينمو ويتسع ويتعمق لكنه ينمو ويمتد من نفس الجذور إنها استطالة تلقائية لذات النبتة إن التأسيس الحسي التلقائي يظل هو الأساس وهو البذرة التي تمتد منها

تفريعات الوعي مثلما تمتد تفريعات الشجرة من البذرة فيتحكَّم به هذا الأساس التلقائي ويظل الفرد مكتفياً بما يفيض إليه من محتوى اللاوعي المتراكم تلقائيًّا إنه يفكر ويرى ويحكم بوعي مشروط يتلون به التفكير والأحكام والآراء والمواقف إنه لا يشعر بخلل محتوى البرمجة التلقائية ولا بافتقاره إلى الحقائق ولا بحاجته إلى التمحيص والتحقق ولا يحس بانغلاق ذاته تلقائيًّا على ما تبرمجت به ذاته بل يفخر بهذا التبرمُج ويتباهى به ويستسلم له ويظل مبتهجاً به فهو قالَب ذاته ومنبع وعيه ومحدِّد هُويته وهذه هي معضلة الإنسان الكبرى في الشرق والغرب وفي القديم والحديث فلا شيء يعلو فوق ذاته إلا في حالات استثنائية نادرة. إن كل فرد تتكوَّن له في طفولته بنية ذهنية قاعدية، فإذا اكتمل تكوينها؛ تنسحب من مستوى الوعي، إلى مستوى اللاوعي؛ فتصبح مماثلة للغريزة، في تلقائية وسرعة الاستجابة، أما ما يكتسبه من معارف ومهارات تخصصية بعد أن يكبر؛ فإن الدماغ يكوِّن لها أنماطًا ذهنية منفصلة عن البنية الذهنية القاعدية، فهي قابلة للتنمية والتطوير والتعديل كما أنها قابلة للنسيان والتآكل حسب كثافة وفاعلية الاستخدام أو ندرته وضآلته...

إن قابليات الإنسان تتلقى في كل لحظة سيلًا غامرًا مما تنقله حواسه إلى دماغه، من المشاهد والأصوات والأحداث ومختلف المؤثرات؛ ولكن آليات الدماغ تَستبعد كل ما لا يتفق مع الأنماط الذهنية للفرد. أما إذا كان المؤثر مهمًا ولا يتعارض مع الأنماط الذهنية فإنه يتكوَّن به نمطٌ ذهني مستقل عن البنية الذهنية القاعدية. إنه لكي يكون الإنسان عظيم القدرات وليصير مستثمرًا لإمكاناته الكامنة وقابلياته العظيمة استثمارًا رشيدًا ومتقنًا فإن أهَمَّ ما يجب عليه هو أن يعرف طبيعته وإمكانات قابلياته للتلقي والتخزين وكيفية تعبئتها بالمعارف والمهارات وتنمية كفاياته والاستفادة القصوى من هذه القابليات من أجل تحويلها إلى قدرات خارقة ومتنوعة ومتجددة لكن هذه المعرفة الأساسية مازالت مستبعَدة عند أكثر الناس كما أنها لم تنل الاهتمام الكافي في التعليم والإعلام ومؤسسات التنشئة وبسبب غياب الاهتمام الكافي على كل المستويات فإن الإنسان يتعامل مع قابلياته التي هي أعظم ما يملك وكأنها تحصيل حاصل

بوصفها قدرات جاهزة مع أنها ليست كذلك أبداً فالإنسان يولد بقابليات فارغة مفتوحة مرنة مطواعة متعطشة للمثيرات. إن الإنسان لا يولد بقدرات جاهزة؛ فالقدرات لابد من تكوينها واكتسابها ومواصلة غربلتها وتنميتها وتطويرها خصوصاً في المجال العقلي والعاطفي فإذا لم يعمل الإنسان على الانتقاء الشديد لغذاء عقله وتحديد مسارات مختارة وممحَّصة لعواطفه فإن هذه القابليات سوف تمتلئ بأي شيء يصل إليها تلقائيًا من دون اختيار ولا تمحيص ولا تحقُّق وبذلك تضيع عليه الفرصة العظيمة المتاحة له لتمنحه الفرصة ليحيل القابليات الفارغة إلى مهارات وقدرات عظيمة وكفايات ذات جاهزية دائمة...

توجد حقائق تتعلق بطبعة الدماغ، وتكوين العقل، وكيفية استجابة الفرد في مختلف المواقف. إن إدراك هذه الحقائق شديد الأهمية، بل شديد الإلحاح؛ فيجب تكرار التذكير بها دومًا، لأن إدراكها قد يوقظ العقول؛ فيأخذ الإنسان حذره دائمًا ليواجه هذه النقائص الملازمة لكل إنسان؛ فلابد أن ننتبه جميعًا إلى أن الفرد في كل المجتمعات ليس طليقًا كما يتوهَّم وبعد أن يتطبَّع لا يبقى مفتوح القابليات كما يُعتقد بل إنه محكومٌ بأطواق عميقة لا يدركها ويمكن تلخيص هذه الأطواق بما يلي:

❖ ما يراه كل إنسان؛ ليس هو الواقع الموضوعي كما هو، وإنما هو نموذجٌ كوَّنه دماغه. وكل شخص آخر يُكَوِّن له دماغه نموذجًا يخصه وحده، يختلف عن كل النماذج التي كَوَّنتْها للآخرين أدمغتهم؛ فما يراه الكل ليس مطابقًا تمامًا للواقع الموضوعي؛ وإنما هي نماذج كوَّنتْها أدمغتهم، ويكون بينها من الاختلافات بمقدار اختلافات الأدمغة واختلافات محتوى كل منها؛ لذلك فإن الاختلافات بين الناس حتمية، ولا مَفَرَّ منها في التصورات والآراء والأحكام والمواقف؛ إن الاختلافات حتمية؛ بمقدار اختلافات النماذج التي كوَّنتها مختلف الأدمغة لمختلف الأشخاص يقول روبرت غرين في كتابه (قوانين الطبيعة البشرية): «نحن البشر نتصور أننا نملك معرفة موضوعية بهذا العالم، ومن المسلَّمات عندنا أن ما نلاحظه يوميًا؛ هو الواقع، وأن هذا الواقع هو نفسه عند كل الناس. إلا أن هذا وهْمٌ؛ فليس هناك من اثنين يريان هذا العالم أو

يعيشان فيه بالطريقة نفسها؛ فما نلاحظه ونراه إنما هو نسختنا الشخصية من الواقع، واقع أنشأناه بأنفسنا. ويُعَدُّ إدراكنا هذا الأمر خطوة في غاية الأهمية في فهمنا الطبيعة البشرية» إن إدراكنا للكيفية التي نرى بها العالم تفتح لنا آفاقًا نكون عميان البصيرة من دونها...

❖ إن حتمية الاختلاف تقوم على أكثر من سبب؛ فعلينا أن ندرك بأن كل إنسان محكومٌ أوَّلا بالنسَق الثقافي الذي تكيَّف معه، واعتاد عليه، وتَطَبَّع به تلقائيًّا في طفولته، ثم تَعزَّ وتَرسَّخ في كبره، فالعقل الفردي هو نتاجٌ للعقل الجمعي وامتدادٌ له ونسخةٌ منه...

❖ ليس ذلك فقط بل إن كل فرد يكون محكومًا بشكل تلقائي حتمي؛ باعتقاده التلقائي الحتمي الوَهْمي أنه هو ذاته قد اختار بعقلٍ واعٍ وإرادة خالصةٍ وبصيره نافذةٍ محتوى خافيته وأنماط ذهنه ومنظومة تصوُّراته ومنهج تفكيره والاتجاه والمسار الذي تحدَّدَتْ به حياته. وتغيب عن باله حقيقة أن بنيته الذهنية القاعدية قد تكوَّنت بالتطبُّع التلقائي إن غياب هذا الإدراك؛ يبقيه واثقًا بأنه يرى الحقيقة بعقل موضوعي...

❖ ولا تتوقف المعضلة عند هذا الحد بل إن كل فرد يكون محكومًا أيضا باختلاف أنماطه الذهنية والوجدانية وتصوراته عن أنماطِ وتصورات أيِّ فردٍ آخر غيره حتى داخل النسق الثقافي الذي ينتمي إليه فلا يتماثَل فردان أبدًا بل لا يكاد أحَدٌ يَفْهَمُ أحدًا فهمًا كاملاً أو دون شوائب ولكن الناس لا يأخذون هذه العوائق بالاعتبار...

❖ إن عوائق المعرفة الموضوعية لا تكاد تنتهي؛ فكل فرد يكون محكومًا أيضا بتلقائية تَوَهُّم المعرفة، وبأحكامه المسبقة، إنه بطبيعته لا يعلم أنه لا يعلم وهو تَوَهُّمٌ عَامٌّ وشامل يلازِمه طول حياته كغيره من الناس؛ فيبقى كلُّ فردٍ تُوهِمُه أنماطُه الذهنية دائمًا أنه يَعْرِف ولا يَنتبِه الشخصُ لاستحكام أيٍّ من هذه الحلقات المهيمنة عليه تلقائيًّا إلا إذا ارتَطَم بما يوقظه ويَدفعه قسرًا للتحقُّق...

لكل ذلك فإن هذه الحلقات المستحكمة هي أول ما يجب أن يَعْرِفه كلُّ

فردٍ عن نفسه وعن كل فردٍ آخر. لا يَختلف في ذلك المتعلمون عن غير المتعلمين لأن ما تتلقاه الأجيال في التعليم إما أن يُعزِّز ما تم التَّطَبُّع به من قبل أو يكون محايدًا فيُكَوِّن بـها الدماغُ أنماطًا منفصلةً عن أنماط البنية الذهنية القاعدية. أما ما يتعارض مع البنية الذهنية القاعدية فإن الدماغ البشري يملك آلية تلقائية لرفْضه واستبعاده وحذفه لتقليل أعباء الدماغ طبقًا لقانون الاقتصاد في الجهد والطاقة إن هذا التحديد المسبق للأنماط الذهنية والوجدانية يُمثِّل معضلةً بشرية عامة لا يكاد ينجو من نتائجها أحدٌ حتى مع الحيطة والدقة وتتأسس هذه الحقائق على أن الإنسان لا يولد بعقل جاهز وإنما يولد بقابليات فارغة متعطشة للمثيرات كما أن الدماغ يملك آلية للمعالجة فهو يقوم بمعالجة ما يصله من الحواس فيقوم بالفرز والتصنيف ويقوم عمله على مبدأ الاقتصاد في الجهد والطاقة. لذلك علينا أن ندرك عن أنفسنا الحقائق التالية:

1 - أن قابليات الدماغ تتشرَّب في الطفولة تلقائيًّا من البيئة الطبيعية والثقافية والاجتماعية؛ اللغة والنظام المعرفي، والعادات الذهنية والسلوكية ومنظومة القيم الأخلاقية وطريقة التفكير وأنواع الاهتمامات السائدة في البيئة وكل ذلك يتم تلقائيًّا قبل تكوين الوعي ومن دون تدخُّل منه بل بهذا التشرُّب التلقائي الأعمى لخليطٍ غير متحققٍ منه؛ يتكوَّن الوعيُ ذاته فهو دائماً وعيٌ مشروطٌ وغير ممحَّص فهو وعيٌ زائف إلا إذا حصل في الكبر تدارُكٌ فرديٌّ يعيد برمجة الذات ويحشدها بالحقائق الممحَّصة. ومثلما يقول العالم الفيلسوف وليم جيمس: «أعظم اكتشاف، تَوَصَّل إليه هذا الجيل؛ هو حقيقة أن الكائنات البشرية بإمكانها تغيير حياتها بتغيير مواقفها الذهنية» ولكن هذا التدارك من النادر حصوله لأن الأصل في كل فرد أنه يبقى منتظمًا على ما تطبَّع به في طفولته، فالتأسيس التلقائي الأول يستمر في تعزيز ذاته، فهو خلال عمر الفرد؛ يجذب ما يتفق معه، ويتعزَّز به، ويستبعد ما يعارضه، فهو حارس نفسه؛ فالسوابق عوائق فلكل وضع سابق طاقة تلقائية للاستمرار؛ إن كل فرد يتطبع تلقائيًّا بالنسق الثقافي الذي ينشأ عليه، ثم يبقى هذا التطبُّع يتحكم به بشكل تلقائيًّا إنه بنساب كما ينساب التنفس فلا يحس به ولا يعيه إن يتحكم به دون أن يعلم...

2 - لمَّا كان اللاوعي والوعي كلاهما قد تكوَّن تلقائيًّا بواسطة التشرُّب التلقائي الأعمى من البيئة فإن الإنسان يبقى محكوماً بهما فهو لا ينظر إلا بهما إنهما مرآته وبواسطتهما ينظر إلى كل ما في الدنيا من ثقافات ومجتمعات وتاريخ وأشياء وأشخاص وأعمال وأفكار ومعارف وغيرها فرغم أنهما تشكَّلا تلقائيًّا، ولم يتم التحقق من مكوِّنات هذا التشكُّل؛ فإنهما مصدر أحكامه وآرائه وتصوراته ومواقفه وسلوكه وما يستحسنه وما يستهجنه وما يقبله وما يرفضه وبذلك تظل أحكامه ذاتية محضة ولا يكتسب قدْراً من الموضوعية إلا بمقدار إحساسه اللاحق بهذه الذاتية المستحكمة ورغبته العميقة في التحكُّم بها، وسعيه الصادق من أجل التحرر النسبي منها والتزامه الدقيق بتدريب نفسه تدريبا صارماً لاكتساب مستوى مقبول من اليقظة والموضوعية...

3 - وبهذا يتضح أن الأحكام والآراء الخاطئة الفجة المستقرة المسبقة التي تنساب تلقائيًّا من أي فرد ليست نشازاً بل هي الأصل على المستوى الفردي والجماعي فهي فيضانٌ تلقائي يتدفق من اللاوعي ويُمَرِّره الوعيُ من دون اعتراض لأن كل إناء بما فيه ينضج فالتحرر النسبي من الأحكام المسبقة لا يتحقق تلقائيًّا وإنما يتطلب حصول وعي استثنائي طارئ مشع يضطلع بمسؤولية المراجعة وإعادة الفحص والحرص بأن يتحقق من كل الرؤى ويفحص كل التصورات التي تشبَّع بها تلقائيًّا فصارت تتحكم به بشكل تلقائي فالتلقائية هي المجرى الأساسي للوعي الأساسي التلقائي الزائف أما صَرْف الوعي عن مجراه التلقائي المستمد من السائد فيتطلب جهداً استثنائيًّا استدراكيًّا واعياً وعياً مغايراً فهو يشبه السد الذي يقام في مجرى النهر لصرفه إلى مجرى جديد...

4 - إن هذا الإدراك المشع الضروري اللاحق سوف يفتح وعي الإنسان على حقيقة الخليط المتراكم الذي تحويه خافيته وبذلك يكون متهيئاً لمراجعة هذا الخليط الذي تراكم تلقائيًّا فيحلله ويفحصه ويغربله فيستبعد الأوهام والأخطاء ويكف عن الغبطة الزائفة ويُحلُّ محلها ما يستطيع إحلاله من حقائق ممحصة...

5 - إذا أدرك الإنسان أنه يتطبع في طفولته، وأن وعيه يتكوَّن بهذا التطبع

وأن وعيه مشروطٌ بمحتوى التطبُّع. إذا أدرك ذلك وأدرك طبيعة العلاقة بين الوعي واللاوعي وعَرَفَ وظيفة كل منهما فسوف يمنحه هذا الإدراك اللاحق فرصة عظيمة ليعيد برمجة ذاته وتعبئة خافيته بما يريده لنفسه وما يرغب أن تحويه هذه الخافية من معارف وأفكار وتصورات ورؤى ومواقف وأخلاق فيخرج من التلقائية البليدة إلى تلقائية ذكية وممحصة ليأتي انسيابها التلقائي متفقاً مع المتوفر من حقائق العلم وما هو ناضجٌ من الخبرات الإنسانية الحكيمة...

إنها إمكانات هائلة تتيحها للإنسان معرفة أنه يولد بقابليات فارغة وأن هذه القابليات تنقل لها الحواس من محتويات البيئة الثقافية والاجتماعية والطبيعية؛ ما تتكوَّن به له بنية ذهنية قاعدية، وأن هذه البنية القاعدية بعد اكتمال تكوينها تنسحب من منطقة الوعي إلى منطقة اللاوعي، فتصبح أشبه بالغريزة في تلقائية وسرعة الاستجابة، فهي لا تخضع لغربلة الوعي. إذا أدرك الإنسان ذلك وتعرف على العلاقة بين الوعي واللاوعي فإنه قد يصبح قادراً على أن يصير كما يود أن يكون بشرط أن تتوفر الرغبة القوية والمثابرة المنتظمة وأن يتحقق ذلك بصبر وابتهاج بعيداً عن الشعور بالملل أو المكابدة...

الفصل الثاني

تعليمٌ للخدمة والإنتاج
وليس للفكر والوعي والأخلاق

تعليمٌ للخدمة والإنتاج
وليس للفكر والوعي والأخلاق

مفارقةٌ فظيعة، تخترق الحضارةَ المعاصرة؛ فتصنع هُوَّةً عميقةً واسعة؛ في الأوضاع الإنسانية؛ بين ما هو كائن؛ وما يجب أن يكون؛ إن ما يجب أن يكون ليس حلمًا خياليًّا، بل هو إمكانٌ؛ تتيحه قابلياتُ الإنسان المرنة المفتوحة المتعطشة للمثيرات، التي يولد بها فارغةً كلُّ فردٍ من بني الإنسان؛ فالإنسان ليس بما يولد به بل بما ينضاف إليه؛ فلو بوشرتْ هذه القابليات الفارغة المستثارة؛ ببذور وخلاصات الحقائق الممحصة، وأوَّليات الأفكار المضيئة، وأساسيات الأخلاق العالية، وتجليات الحكمة الناضجة؛ قبل أن تتطبَّع بأي نسقٍ ثقافي موروث؛ لكانت النتائجُ مذهلةً؛ فالتأسيس الأسبق؛ مهما كان اتجاهه ومحتواه؛ يتحكَّم بكل فاعليات العقل، ويظل طول عمره محكومًا بهذا التأسيس. لكن هذا المطلب يكاد أن يكون محالاً على المستوى العام. أما إذا تطبَّعت القابلياتُ فعلاً، بأي نسق ثقافي متوارث، كما هو الحاصل في كل الأمكنة، وجميع الأزمنة؛ فإنه من أشد المحالات؛ تحريرها من هيمنة هذا التطبُّع الذي يتكوَّن به الجهلُ البنيوي الذي تتطبَّع به أجيالُ كل الأمم تلقائيًّا بعد الولادة. لكن توجد تجربة فردية فريدة؛ عُمِلتْ على مستوًى فردي، للتحكم بما يصل إلى قابلياتِ مولودٍ؛ فالتاريخ يحتفظ بتجربةٍ فردية فريدة عجيبة لحماية قابليات المولود من أن تتلوث بما لم يتم التحقق منه؛ إنها تجربة الفيلسوف البريطاني الشهير جيمس ميل، في تنشئة ابنه الفيلسوف جون ستيوارت ميل. فلقد أبعده عن مخالطة الآخرين، ولم يُلحِقه بأية مؤسسة تعليمية، أو تربوية، وإنما جعله ملازمًا له؛ وتولى هو تعليمه وتربيته، وصان قابلياته وحماها من أن تتلقى أي شيء لم

يوافق عليه أو يتقصده، فخرج كما أراده أبوه فيلسوفًا إنسانيا عظيمًا يَعتبِره الدارسون قد بلغ الذروة في العبقرية...

وقد صار من أشهر الفلاسفة، وباتت كتاباته محل عناية الفلاسفة والمفكرين والمثقفين. وقد علَّق فلهيلهم فون هامبولت على أحد مؤلفات جون ستيورات ميل بقوله: «إن المبدأ العظيم، ذا الأهمية القصوى، والذي تتوجه نحوه بصورة مباشرة؛ كلُّ حجةٍ تتكشَّف في هذه الصفحات؛ هو الأهمية المطلقة والأساسية للتطور الإنساني في أغنى تنوُّعه» لقد تشبَّع جون ستيوارت ميل من فكر أبيه وفكر صديق الأب الفيلسوف جيريمي بنثام. وبسبب هذه التنشئة الفريدة؛ كان يرى بأن التطبُّع التلقائي بأي نسق ثقافي موروث؛ يمثِّل خللًا جذريًا عامًّا يتعذر علاجه. فيقول: «الصعوبات الأولى التي تعترض سبيل التطور، تبلغ من الضخامة حدًّا يكون من النادر وجود أي خيار للتغلب عليه» ويقول: «طغيان الأغلبية أعمق وأوسع انتشارًا، ولديه القدرة على التغلغل في حياة الناس» وهذا يعني أنه قد أدرك أن المعضلة البشرية الأشد استعصاءً؛ هي توارثُ كل الأمم لأنساقٍ ثقافية؛ هي نتاج التراكم التلقائي التاريخي، ولم تخضع لأي تحقُّق بل هي حصيلةٌ تراكمية لتخمينات البشر، ونتاجٌ من نتاجات الصراعات؛ إن تطبُّع كل مولود في الغرب والشرق، في الماضي والحاضر؛ بما لم يتم التحقق منه ثم التزامه التلقائي بهذا التطبع التلقائي الحتمي؛ يعني أن البنية الذهنية لأي مولود قد تكوَّنت بخليط من التصورات والمواقف والاتجاهات، التي لم تخضع لأي تحقق، وهذا يعني هيمنة أنواعٍ متباينة من الرؤى المتضادة، التي يَغلب عليها أن تكون من الجهل البنيوي. إن هذا التوارث الحتمي التلقائي العام؛ يمثِّل معضلةً بشريةً عامة؛ تجعل الأمم تتوارث جهلًا بنيويًّا عامًّا. وتتضاعف تعقيدات المعضلة، أن كل موروث يحاط بالتبجيل الذي يصل حد التَقديس، فيجري التمسك به والتمجيد للشخصيات التاريخية التي تمثله، ونبذ من يحاول أن يخالف النسق، أو ينتقد رمزًا من رموزه...

إن هذا الجهل البنيوي؛ قد تَكوَّن تلقائيًا خلال تاريخ كل أمة، وتَتَشرَّبه حتميًّا قابلياتُ كلِّ مولودٍ تلقائيًا؛ وبهذا الاختطاف المبكر الذي لا مَفرَّ منه؛

تُعتَقَل وتُختطَف قابلياتُ الجميع؛ فيُكبِّلُ الجهلُ البنيوي العقلَ البشري في الغرب والشرق؛ إنها مَصْيَدةُ الإنسان الأبدية في الماضي والحاضر. يقول الفيلسوف توينبي في كتابه (دراسة التاريخ): «إن تاريخ الإنسانية؛ لا يَمُتُّ بصلةٍ إلى تاريخ العقل الإنساني، أو العلم الإنساني» كما يؤكد بعد دراساته الشاملة للتاريخ الإنساني، خلال كل مراحل التاريخ، وعند كل الأمم؛ بأن تاريخ الإنسانية: «هو تاريخ الانفعالات، والعواطف، والمذاهب والاتجاهات اللاعقلية» إن نتاج هذا التاريخ الموصوف باللاعقلي؛ هو ما تتطبَّع به أجيالُ الأمم. إن الأصل في البنية الذهنية القاعدية الأساسية لأي فرد، أنها بنية ذهنية ثابتة ومغلقة، وما يتعلمه الفرد في كبره من المعارف والخبرات؛ يتعلمه بواسطة هذه البنية الذهنية القاعدية ذات الثبات المغلق، أما ما يتعلمه قصدًا في المدارس والجامعات أو خارجها؛ فيتكوَّن على شكل أنماط ذهنية منفصلة عن البنية القاعدية، ويكون قابلًا للتعديل وللنسيان. لذلك فإنه رغم كل الإنجازات الهائلة التي حقَّقَتْها الحضارةُ المعاصرة؛ ورغم أنها قَدَّمَتْ للإنسانية؛ مكتسبات نوعية عظيمة، كثيرة ومتنوعة؛ فقد نظَّمتْ علاقات الدول؛ وأوقفت الغزو العدواني الصريح، واعترفت بسيادة وحدود الدول الصغيرة، ولم تَعُدْ الدول الضعيفة تخشى غزو الدول القوية، كما أنها رفعتْ قيمةَ الإنسان، وأكَّدَتْ فرديته، ووفرت له التعليم، وفتحت له إمكانات تنمية قدراته، وحفظت كرامته، قياسًا بالحضارات القديمة التي كانت تبيح الرق، وتحتقر النساء، وتُعامِل المضطربين نفسيًّا، معاملةً وحشية، كما قننت ساعات العمل، إلى غير ذلك من نقائص الحضارات القديمة مما سأتناوله في الفصل التالي؛ لكن رغم كل ذلك؛ فإن الحضارة المعاصرة؛ ما تزال حضارة معاقة فكرًا، وأخلاقًا، بشكلٍ شنيعٍ ومخيف. ولولا قلة من الأفراد الذين نذروا أنفسهم للحقيقة، ومحضوها كل طاقتهم. من أمثال كانط وديكارت وجون لوك وباستور ووليم جيمس وبافلوف وآينشتاين، ومدام كوري. هؤلاء أفرادٌ استثنائيون، محضوا طاقتهم للعلم؛ على النحو الذي يصفه العالم برايان جرين، الذي توصل إلى نظرية الأوتار وواصل إثراء الفكر العلمي بالعديد من المؤلفات الرصينة ومنها كتابه (الكون الأنيق) وكتاب (نسيج الكون) وكتاب

(الواقع الخفي) وكتاب (حتى نهاية الزمن) الذي يقول فيه: «أريد أن أكون جزءً من رحلة نحو رؤًى شديدة الجوهرية؛ فما أردته، هو قضاء حياتي محاولا رؤيةَ لمحةٍ من شيءٍ يسمو فوق الوجود المادي» بهذا الشغف بالحقيقة الموضوعية، وبهذا التجرد والولع بالأسمى، تقدمت العلوم وتطورت الفنون وازدهرت الحضارة...

إن التراث الفكري العظيم الذي قدَّمه الفلاسفة والمفكرون، منذ طاليس حتى اليوم؛ بقي غير مؤثر على العقل البشري بشكل عام. وكذلك فإن المغزى الأهم للعلوم؛ أنه يستهدف بناء العقل الناقد الفاحص، وتصحيح التصورات الخاطئة التي احتلَّتْ العقول تلقائيًا، فهذه التصورات التلقائية المتوارثة؛ يتكدَّس فيها؛ جهلٌ بنيويٌّ، عميقُ الخفاء على المتلبِّسين به؛ وقد كان وما يزال تتجسَّد فيه أشد المعضلات البشرية استعصاءً على العلاج. لأن كل إنسان لا يفكر ويتعلم إلا بواسطة بنيته الذهنية القاعدية، المحجوبة عن فاعلية الوعي الفاحص الناقد. لذلك لم تستطع الفلسفة ولا العلوم بمغزاها الأعمق أن تَنفُذ إلى العقل البشري، فبقي محكومًا بالأنساق الثقافية المتوارثة. باستثناء قِلَّة من الأفراد الشغوفين بالحقيقة؛ إن الانعتاق من الاختطاف النَّسَقي لا يكون إلا فرديًا وبشكلٍ نادرٍ واستثنائي. لذلك فإن شيوع عدم اهتمام عموم المتعلمين بالمعرفة لذاتها، وتركيز اهتمامهم على نيل الشهادة، والسمعة، والوظيفة؛ هو نتيجة طبيعية؛ لأن حب المعرفة لذاتها ليس من متطلبات البقاء؛ فالوظيفة الأساسية لدماغ الإنسان هي المحافظة على بقائه، وليس الاستقصاء عن المعرفة، ولا التحقق منها. وهذه حقيقة بيولوجية يؤكدها علماء الأحياء، وعلماء الأعصاب، وبقية العلوم الإدراكية. ويتفق مع سُلَّم الاحتياجات عند عالم النفس ابراهام مسلو، ومِثلما تقول العالمة الشهيرة كارين آرمسترونغ في آخر وأهم كتبها؛ تقول في كتابها (التحول الكبير): «إن قدرتنا على إيذاء وتشويه بعضنا؛ قد بقيتْ مسايرةً لتقدمنا العلمي والاقتصادي غير العادي؛ تنقصنا الحكمة كي نُلجِم عدوانيتنا، ونُبْقيها ضمن أُطُرٍ آمنة وملائمة» ويقول سي. إس. لويس: «المشكلة الجوهرية للحياة الإنسانية عند الحكماء؛ هي التوفيق بين الروح والحقيقة

الموضوعية. وكان الحل في الحكمة وترويض النفس على الفضيلة. أما العقل الحديث؛ فيرى أن المشكلة الجوهرية؛ هي إخضاع الحقيقة لرغائب الإنسان» ويقول المبدع البريطاني وول ستور في كتابه (علم رواية القصص): «ما نريده، وما نشقى في نضالنا؛ للحصول عليه؛ هو قصتنا جميعًا» ويقول مؤرخ التكنولوجيا تريفور ويليمز: «للحضارة أوجه متعددة. أما كيف يعيش الإنسان؛ فتلك مسألةٌ تعتمد كثيرًا على ما يستطيع صنعه» والخلاصة أن التحقُّق المعرفي ليس طبيعيًّا في الإنسان وإنما هو من المكتسبات الفردية الثقافية الطارئة؛ إن الشغف التلقائي بالمعرفة مضادٌّ لطبيعة الإنسان، إنه من الخصائص الفردية النادرة، فالحاجة لتحقيق الذات بالشغف المعرفيِّ؛ ليست حاجة طبيعية، وإنما هي حاجة ثقافية طارئة مكتسبة ونادرة...

من أقوى أسباب ضآلة نتائج التعليم في كل العالم، أن الدارسين، يلتحقون في التعليم اضطرارًا وليس بدافع ذاتي تلقائي. إن الإنسان كائنٌ تلقائي؛ إن قابلياته لا تستجيب للإرغام، لذلك كان كل قادة الفكر من ذوي الاهتمام التلقائي القوي المستغرق. أما التعلُّم عن طريق الإلزام، أو الاضطرار فهو ذو نتائج ضحلة أو عقيمة. ومثلما يؤكد عالم الرياضيات الفيلسوف وايتهد: «أن من المستحيل استبدال النظام التلقائي بتنظيم» ويقول عالم النفس الفرنسي بيير داكو في كتابه (الانتصارات المذهلة لعلم النفس): «إن اضطرار الإنسان إلى الاستعانة بإرادته، من أجل أن ينجز عملًا؛ إنما يعني أن الإرادة الواقعية - التلقائية- تُعوزه؛ وحالما يصبح العمل عملاً متشنجًا؛ فإن الإرادة الحقيقية- اليُسْر النفسي- تختفي، وحالما يصبح من الضروري أن يصارع الإنسان المشكلة؛ فإن المشكلة هي التي تصرعه. إن الإرادة الحقيقية السليمة؛ ينبغي لها أن تكون غير مرْئية، فقُوام الفعل الإرادي الواقعي يكمن في الانسياب من مستودع الطاقة دون جهد» لا يتعلم الإنسان إلا إذا امتلأت نفسه بالشغف بالمعرفة، وتحرك تلقائيًّا بدافع الاهتمام التلقائي القوي المستغرق. هذا عن ضآلة نتائج التعليم...

أما الخلل الذي يهمني هنا؛ فهو أن التعليم بتركيزه الشديد على بط الدارسين بتاريخ الأمة التي ينتمون إليها، وترسيخ ما تطبَّعوا به من نسقها

الثقافي، وبناء الولاء العميق للسائد في المجتمع، وتهيئة الدارسين للخدمة في مختلف التخصصات، وهي تخصصات في معظم الأحوال لا يوجد بينها أية روابط، فهي منفصلٌ بعضُها عن بعض انفصالا تاما؛ فلا يوجد ما هو مشترك معرفيًّا ومهنيًّا بين المحاسب والطيار، ولا بين الطبيب والمهندس. إن التخصصات قد ربطت الدارسين بالاحتياجات الاقتصادية، والخدمية، والعسكرية، والبيولوجية، ودفعتهم بأن يركزوا اهتمامهم بمتطلبات البقاء. وكما يؤكد الفيلسوف الأمريكي جون ديوي على: «السمة العملية للواقع) وأن على الجميع بذل الجهد لامتلاك: «الحكمة العملية» أما الفيلسوف النمساوي إرنست ماخ فقد كان شديد الوضوح والحسم في هذا حيث يقرر: «ما يَصلح لي ليس ما هو حقيقي، إنما ما أحتاجه» يضاف لكل ذلك؛ أن العالم الغربي قد سار على نمط التعليم الألماني الذي كان يستهدف تأكيد الانتماء العميق للوطن والولاء المطلق له والطاعة العمياء والانضباط الصارم. فحين انهزمت فرنسا أمام ألمانيا؛ ثار التساؤل عن السبب؛ فصرَّح بسمارك: «لقد غَلَبْنا جارتنا بمعلم المدرسة» فالمدرسة الألمانية، قد صاغت الإنسان الألماني، على الولاء العميق المطلق، والاستعداد للتضحية بكل شيء من أجل الوطن، والصرامة والانضباط والفدائية والطاعة العمياء. يؤكد ذلك ما كتبه الملك البروسي فريدريك العظيم الذي كتب يقول: «يكمن الجزء الأعظم من قوة الجيش البروسي؛ في انتظامه الرائع، الذي أصبح عُرفًا بحكم العادة، وفي طاعته العمياء، وشجاعة جنوده؛ فالانضباط البروسي يجعل هؤلاء الجنود قادرين على تنفيذ أصعب المناورات. والبروسيون متفوقون على أعدائهم في الثبات مادام ضباطهم الذين لا يعرفون مهنةً سوى الجندية، أو ثروة ينشدونها سوى أسلحتهم؛ يُنشِّطون أنفسهم بطموحٍ وجسارة لا شك فيهما، ذلك لأن الجندي يثق بنفسه ويَعتبِر المسألة تشريفًا؛ لا يتنازل عنه البتة» ويقول الفرنسي المركيز أونوريه دو ميرابو في كتابه عن الملك فريدريك: «الحرب صناعة بروسيا الوطنية» ويقول البارون فون شروتر: «ليست بروسيا بلدًا ذا جيش، وإنما هي جيش ذو بلد» فإذا ربطنا ذلك بتصريح بسمارك؛ وتذكَّرنا أن الصراع محتدم بين الدول الأوروبية؛ فإن الجميع راحوا يقلدون نظام التعليم

الألماني. ورغم كل ما طرأ على نُظُم التعليم؛ فإن تأثير ذلك بقي مستمرًا...

إن تركيز التعليم على بناء القوة، وعلى الاقتصاد، وإن ربط التعليم بالجانب النفعي والوظيفي للدارسين؛ قد هبط به على النحو الذي جعل الفيلسوف الروسي ميخائيل باختين يؤكد بأن هذا التركيز على النفع العاجل قد أدى إلى: «تدني أفعال الناس إلى مستوى الدوافع البيولوجية والاقتصادية» وبذلك لم تَكتسب المعرفةُ قيمةً ذاتية. بينما أنها يجب أن تكون القيمة العظيمة العليا وهذه أكبر خسارة أصيب بها العقل البشري. إن تطور العلوم قد تحقق بما توصل إليه الشغوفون بالمعرفة لذاتها وليس بواسطة الذين يبحثون عن النتائج العملية. وهذه حقيقة معروفة عن الرواد مثل جاليليو وأصحاب النظريات الكبرى من أمثال آينشتاين، وفراداي، ويمثل هذا الشغف العميق برثيلو الذي كتب في آخر حياته يقول: «أحس أننا اكتشفنا عمليا كل ما يخبئه الكون، ولا أود أن أعيش زمنًا أطول؛ ذلك أن فكرة عالَمٍ لم يَعُدْ المرءُ يكتشف فيه شيئًا جديدا، هي فكرة يتعذر احتمالها» هذا النموذج من الأفراد نادرٌ غاية الندرة؛ لكن الحضارة تطورت بهؤلاء القلة الخارقين. إنه بهذه الروح تطورت الأفكار المضيئة، والعلوم والفنون وتحققت أعظم الاكتشافات وتقدمت الحضارة. لكن هذا الشغف العميق بالمعرفة الممحصة، والتَّوق العارم لاكتشاف المجهول، والرغبة الملحة لكشف الغامض، والسعادة الغامرة حين تنجلي الحقيقة؛ إن هذا الولع الاستثنائي بما ليس ماديًّا؛ هو من نصيب قلة من الأفراد. أما عموم الدارسين فينحصر اهتمامهم بالجوانب النفعية من العلوم، وأيضا فإن هذا الاهتمام المبذول في التعلُّم؛ لا يأتي اندفاعًا وإنما يضطرون إليه اضطرارًا من أجل الشهادة التي هي جواز العمل الوظيفي، وأداة المزاحمة على المكاسب المادية والمعنوية ذات الدفْع الاجتماعي كما هي حال التخصصات المهنية في مختلف المجالات...

إن الكفاح الفلسفي الكثيف؛ خلال ثمانية وعشرين قرنًا؛ لم يستطع أن يقلل من طوفان التردي البشري. ومثلما يقول الفيلسوف الفرنسي جيل ديلوز: «الدافع إلى الفلسفة هو الابتذال والخسَّة في الفكر والثقافة وأنماط الوجود. غايةُ

الفلسفة؛ هي فضحُ هذه الممارسات المتدنية، ومهاجمة البلاهة والحماقة. إن ما تسعى إليه الفلسفة؛ هو عظَمَة البشرية» ويضيف: «الابتذال يعم الآن مختلف شؤون الحياة. إن أخطر ما يعانيه الإنسان؛ هو الحماقة التي تُعَبِّر عن اللامعنى في الفكر» ثم يؤكد: «لا سبيل لخروج الإنسان من حماقته، وحتى من قصوره العقلي، من دون الفلسفة. وهذا دورٌ عظيمٌ تضطلع به الفلسفة، التي تجعل من الحماقة شيئًا مخجلًا» في عصر العقل، وبداية الانبعاث الأوروبي، وعصر التنوير؛ ساد تفاؤلٌ قوي بأن الإنسان بعد أن تتاح له المعارف العلمية الممحَّصة سوف يصبح عقلانيًا، ولكن الزمن أثبت أنه تفاؤلٌ في غير محله، فقد استمرت هيمنة الجهل البنيوي. إن الحضارة المعاصرة؛ حصَرَتْ الإنسان بمتطلبات البقاء، وكَرَّسَتْ تفكيره لجمْع المال، والسعي وراء النفع المادي والمعنوي. وكما يؤكد ويل ديورانت في (قصة الفلسفة): «إن الناس يميلون إلى جمع المال والثروة؛ ألف مرة أكثر من ميلهم إلى تحصيل الثقافة، مع اليقين الذي لا شك فيه؛ هو أن سعادة الإنسان تتوقف على ثقافته، أكثر مما تعتمد على ماله وثروته» إن وسائل الحياة، ومتطلبات البقاء، والتنافس الفردي والجماعي؛ قد استغرقت الإنسان عن الغايات النبيلة؛ فبات يلهث خلف المال، والمركز، والشهرة، والتدافع على الأهمية والمكانة الاجتماعية. يرى عالمُ الأعصاب الروسي سيرغي سافيلييف في كتابه (مورفولوجيا الوعي) أنه يوجد ثلاثة مستويات للوعي:

- الوعي الأحادي
- الوعي الثنائي
- الوعي الثلاثي

وأن البشر عمومًا يبقون في مستوى الوعي الثنائي؛ مندمجين في القطيع، ويُسيِّرهم النسق الثقافي الذي تطبعوا به. لذلك تتحكم بهم: متطلبات البقاء كالغذاء، والمأوى، والكساء، ونوازع الجنس، والمخاوف الحقيقية والمتوهمة، وإغراق الذوات في الترفيه، وحب السلطة، والتنافس، حيث يسود التدافع. وبسبب هذا الاستغراق؛ يبقى أكثر البشر، مهما تعلموا، في مستوى الأمور

المادية والأشياء المحسوسة، أما الوعي الثلاثي فهو نادر غاية الندرة؛ وهذا النوع من الوعي الاستثنائي؛ لا يهتم بالسلطة، ولا ينافس غيره على الأهمية، أو المكانة الاجتماعية. وإنما يكون مستغرقًا؛ في اهتماماتٍ عليا مغايرة تمامًا لاهتمامات الكل؛ إنه ينظر بإشفاق إلى منافسات الأفراد على المكاسب المادية والمعنوية وأوضح النماذج على هذا المستوى من الشغف العميق بالحقيقة، والزهد فيما يتنازع عليه الناس؛ دافنشي في عصر النهضة، وكانط في عصر التنوير، وآينشتاين في القرن العشرين...

إن الاهتمام الأساسي للحضارة المعاصرة، وللناس عمومًا؛ هو المال ومتطلبات البقاء، وصراع القُوى، والتنافس على النفوذ. وليس العلم والتعليم سوى وسيلة لتحقيق القوة والمكاسب؛ لذلك يقول هايدجر: «العلم لا يُفَكِّر» ويقول العالم جيمس مارتن في كتابه (معنى القرن العشرين): «إن معظم البشر تستغرقهم اليوم؛ أعمالٌ أو أنماطٌ حياتية، أو ظروفٌ اجتماعية؛ فلا يستخدمون سوى جزء من إمكانياتهم. ويمكن أن تتبدَّد الحياة بطرقٍ كثيرة جدا» ويقول: «تتمثل مأساة الجنش البشري اليوم؛ في أن أكثر الناس يقصرون عن إمكانياتهم. ومبدأ حضارة عظيمة؛ يجب أن يركز بقوة على كيف نطور القدرة الكامنة عند كل فرد» إن قابليات الإنسان عظيمة ويمكن بتعبئتها أن يصبح الإنسان مذهلًا لو نجت قابلياته من الاختطاف المبكر بالتطبُّع التلقائي بالنسق الثقافي السائد في البيئة؛ لكن التطبُّع هو المعضلة العامة الأبدية. ثم يتضاعف الضرر بالتركيز على الاقتصاد وبناء القوة وقدرات التمكين ومتطلبات البقاء. يلخص كارل بيكر في كتابه (المدينة الفاضلة) فلسفة أو محور الحضارة المعاصرة بقوله: «وجملة القول؛ أن غايتنا الكبرى هي أن نقيس العالم ونسيطر عليه. لا أنْ نفهمه» ويضيف: «وبما أن غايتنا الكبرى هي أن نقيس العالم ونسيطر عليه؛ فالفلسفة والمنطق القياسي؛ لا تنفعنا كثيرًا، لبلوغ هذه الغاية، وبعد أنْ كانت هذه الدراسات العريقة هي أبواب مدينة العلم، فإنها نزلتْ من عليائها. وأَجْلَسَ المحدثون على عروشها؛ التاريخ والعلم الطبيعي وأساليب الملاحظة والحساب» أما كارل بولاني فيصور المحور الذي تدور عليه حضارة العصر فيقول: «كانت

حضارة اقتصادية، بمعنًى مختلفٍ ومتميز، لأنها اختارت أن تؤسس نفسها على حافزٍ؛ نادرًا ما اعتُرف بصلاحيته في تاريخ المجتمعات الإنسانية، ومن المؤكد أنه لم يرتفع من قبل إلى أن يكون مبررًا للفعل والسلوك في الحياة اليومية، وهو تحديدًا حافز الكسب. كان نظام السوق الذي ينظم نفسه؛ مشتقًّا بشكلٍ فريد من هذا المبدأ. والآلية التي حَرَّكَها دافعُ الكسب؛ لا تُقارَن فاعليتها، إلا بأكثر انفجارات الحماسة الدينية، عنفًا في التاريخ» ويقول نيلسون مانديلا: «الفقر الهائل، والتفاوت الفاحش؛ هما مصيبتا زماننا؛ إنهما يماثلان العبودية والفصل العنصري؛ باعتبارهما شرين اجتماعيين» هكذا هي الحضارة المعاصرة، قد أشعلت حافز الكسب؛ فصار الكل في حلبة سباق للمزيد من المال، والمزيد من الحيازة، والمزيد من التنافس والتدافع على المستويات الفردية والجماعية، فالهدف المحوري هو الهيمنة. ومثلما يقول ريتشارد روبنز في كتابه (المشاكل العالمية): «لكل حضارة أسلوبها المميز، وعناصرها، وطقوسها، وأدواتها التي تُحدِّد لأعضائها ما هو مهم في هذه الحياة؛ فإن العنصر الأساسي في الحضارة الرأسمالية؛ هو المال» ويضيف: «في هذا الصدد يصف جاك وذرفورد العلاقات ليس فقط بين البائعين والشارين في الأسواق، أو بين الموظفين والعمال في أماكن العمل، بل يتعدى إلى وصف العلاقات بين الأهل وأطفالهم، وبين الأصدقاء، بعضهم مع بعض، وبين السياسيين والناخبين، والجيران، وبين الكنيسة وأتباعها» ويضيف: «تُشَكِّل النقودُ المؤسسات المركزية للاقتصاد الحديث وللأسواق الحديثة، وتتجمَّع حولها المؤسسات اللاحقة الأخرى، كالقرابة والدين والسياسة، كما أنها تُعتبَر لغة التجارة في العصر الحديث» ويضيف: «يمكن تَفَهُّم طريقة عمل الحضارة الرأسمالية، على أنها مجموعات من العلاقات التي تربط بين الرأسماليين والعمال والمستهلكين عبر السعي وراء النقود» ويؤَكد أن المال: «يحدد الملامح الأساسية والأسلوب الفريد للحضارة الرأسمالية» لقد انقلبت النقود ذاتها إلى غاية؛ ومثلما يقول جاكوب نيدلمان: «تبقى النقود بحد ذاتها؛ مطلبًا لكل إنسان، وليس ما يمكن أن تشتريه بها» هكذا قفز المال من وسيلة إلى غاية في ذاته. والأسوأ من ذلك أن هذا التهالك على

المال يؤدي إلى الفساد؛ ومثلما يقول تيودور روزاك في كتابه (صُنْع ثقافة مضادة): «إن السعي وراء الربح؛ هو دائمًا الحافز الرئيسي للفساد» فحين يسيطر حب المال على عقول الناس؛ فإنهم ينسون أنفسهم، ويرتهنون وجودهم، وقيمتهم بالمال، ويصبح المال هو القيمة الحاضرة والحافزة دومًا التي تُحرِّك وتَدفع؛ فينشغل الناس بكيفية الحصول عليه، وتنميته، وتكديسه، وتدبيره؛ وكلما نال منه؛ ازداد رغبةً فيه، وبحثًا عنه، وحرصًا عليه، فإغراءات المال تَهبط بقيمة الإنسان، وتُفسد اهتماماته، وتُشعِل الأنانية، وتدفع للفساد، وتُفاقِم الخلل...

يقول الشاعر الألماني هنريك هاينه: «المال هو معبود عصرنا» لكن هذا المعبود شديد التقلب، والميوعة، وعدم الثبات. وكما يقول الشاعر نفسه: «إنه يقوم على أكثر العناصر فقدانًا للاعتمادية؛ على النقود التي هي أكثر سيولة من الماء، وأقل ثباتًا من الهواء» أما الشاعر الإسباني فيديريكو جارسيا لوركا؛ فيصور الناس في مدن المال فيقول: «تتدفق أنهار الذهب هناك من كافة أنحاء كوكب الأرض، ومعها يأتي الموت. هناك تشعر بغيابٍ كاملٍ للعقل، ليس له مثيل في أي مكان آخر: جماعات من الرجال لا يستطيعون العدَّ بعد ثلاثة، وآخرون غيرهم لا يستطيعون العدَّ بعد ستة، واحتقار للعلم والبحث، واحترامٌ شيطانيٌّ للحاضر. والشيء الفظيع؛ هو أن الجمهور الذي يملأ الشارع؛ يعتقد أن العالم لن يتغير أبدًا، وأن واجبه هو إبقاء تلك الآلة الضخمة (آلة المال) دائرة ليل نهار وإلى الأبد» ومثلما يقول ساتيا جيت داس في كتابه (أسطورة المال): «لقد هيمنتْ المراكز المالية، والممولون النشطون الكوزموبوليتانيون، الذين عملوا فيها على اقتصادات الأمم المتقدمة» ويضيف: «إننا محاطون طول الوقت باحتكامٍ منهجي، لعالَم حالمٍ، إننا حَرْفيًّا نعلن عن التزامنا بعدم النضوج، وكثرة الكذب، والسذاجة العميقة؛ هذه هي السمة المميزة لثقافتنا» فإنسان اليوم تتلاعب به الدعاية؛ فبالدعاية الإعلانية، يتم تحريك الهوس بالاقتناء، والنفج، والتعاظُم؛ ومثلما يقول ويل روجرز: «الإعلان هو فن إقناع الناس بإنفاق نقودٍ لا يملكونها، على أشياء لا يحتاجون لها» وبذلك شاع الاقتراض من أجل المزيد من الاستهلاك...

ليس هذا فقط بل إن عالم النفس الحائز على جائزة نوبل الكسيس كارل يقول في كتابه (الحضارة الحديثة في الميزان): «إن ذكاءنا لم يَنْمُ بقدر تعقُّد المسائل المراد حلها، لذلك ترانا في حالة ضياعٍ تامٍّ؛ فالمجتمع الحديث لم يوجه اهتمامه لغير القيم المادية. وقد أهمل المشاكل البشرية الأساسية» ويضيف: «العلم لم يُعَرِّفنا كيف نزود الأطفال والكبار بجهازٍ عصبي متين، وعقلٍ متزن، وكيف نهبهم الشجاعة والحاسة الخلقية والذكاء، ولا كيف نُحَصِّنهم ضد الانهيار العقلي» ويضيف: «إننا نجهل كل الجهل الشروط اللازمة لنمو بعض أنواع النشاط؛ كالحاسة الخُلُقية، والحاسة الجمالية، والحدس. ومع ذلك فنحن نعرف أن الحدس أحد العوامل الجوهرية في سمو الإنسان» ويضيف: «يجب علينا أن نحاول تنمية القدرة العقلية لدى عدد من الأفراد إلى حدٍّ أكبر مما نشاهده لدى أفضل الأفراد؛ فخلق نخبة ممتازة أمرٌ ذو أهمية عظمى؛ إذْ ليس هناك رجل حديث لديه من الذكاء والشجاعة؛ ما يُمَكِّنه من مواجهة مشاكل الحضارة الكبرى» ويضيف: «المجتمع في حاجة إلى أفراد خارقين» لكن المجتمع في أشد المجتمعات ازدهارًا يقاد في غالب الأحوال بأفراد عاديين لا يملكون أية قدرات خارقة، فالمجتمع مكوَّن من الناس العاديين فكيف يتاح لمثل هؤلاء أن يكوِّنوا أفرادًا خارقين ؟!...

ونعود للطابع السائد في الحضارة المعاصرة وهو التركيز على الاقتصاد، وبناء القوة للهيمنة، والتنازع على الأولوية، وحب المال، لنذَكِّر بأن حب المال ليس جديدًا على تفكير الإنسان ومثلما يقول أفلاطون: «إن حب الثراء؛ يستحوذ كل الاستحواذ على قلوب الرجال؛ فلا يفكرون إلا في أملاكهم الخاصة» إن افلاطون يرى أن متطلبات البقاء قد صرفت الناس عن التفلسف والسعي نحو الحقيقة فيقول: «إن كل الحروب قد خِيضتْ لاكتساب الثروة، والسبب وراء وجوب اكتسابنا الثروة؛ هو الجسم، لأننا عبيدٌ في خدمته، ولهذا وبناء على كل هذه الاعتبارات؛ فنحن نملك وقتًا قليلا جدا للتفلسف» أما الشاعر الروماني هوراس فيقول: «اكسب المال بوسائل شريفة، فإن لم تستطع، اكسب المال بأية وسيلة» ويقول ميخائيل نعيمة في مذكراته (سبعون): «المال هو رب الحروب،

وخالق النزاع، ومُفسِد الضمائر، وقاتل الخُلُق الكريم، والمعبود الذي لا يَقبَل شريكًا له في عبادته» لكن طغيان حب المال واستحواذه على القلوب والعقول؛ كان في الحضارات القديمة، طبيعيًا ولم يكن نتاج مبدأ قامت عليه الحضارة. أما الحضارة المعاصرة؛ فقد جعلت التنافس على الربح عنوانًا ومبدأً؛ أي أنه يمثل العنصر الأبرز في فلسفة الحضارة المعاصرة...

ومع ذلك فإن المال ليس شرًا محضًا؛ فتشييد الأعمال العظيمة غير ممكن إلا بالمال. لذلك يقول مؤرخ الحضارة الأكبر ويل ديورانت في (قصة الحضارة): «إن المال أصل كل حضارة» ويقول ماك آيفر: «تنمو الحضارة في دائرة النفعي» فالناس يعملون بجد، ويجتهدون، ويُنجزون، من أجل الحصول على النفع. وما يهمني هنا هو تأكيد أن الحضارة المعاصرة قد حققت من التقدم المادي، ما يفوق أي وصف، ولكنها ظلت معاقة؛ وتعاني من خلل بنيوي، فالإنسان ذاته بقي كما كان منذ أقدم العصور، إنه يفتقر إلى الحكمة، وتحتشد فيه النقائص، ولكنه لا يدرك افتقاره للحكمة، كما أنه لا يدرك نقائصه. بينما تعاظمت الإمكانات المتاحة له تعاظمًا يفوق أي وصف؛ ونتج عن هذا الخلل صراعاتٌ، وحروبٌ، وفروقٌ تزداد تضخُّمًا بين القلة الغنية، والكثرة الفقيرة التي لا تكاد تحصل على قوت يومها، مقابل الثراء الفاحش للقلة الأغنى، وقد نَتَج عن هذا الخلل معضلاتٌ ومظالم بشرية عامة لا تُحصى. ليس هذا فقط بل إن الخلل الأعمق هو أن الإمكانات الهائلة؛ ما تزال تدار بحكمة هزيلة؛ فتنحدر الأوضاع البشرية؛ نحو الأسوأ. ويعود هذا الخلل البنيوي؛ إلى أن الإنجازات المادية تتراكم؛ فينضاف كلُّ إنجازٍ جديد، إلى كل ما أُنجِز من قبل؛ حتى تعاظَمتْ القدرات تعاظُمًا هائلاً، وتضخَّمتْ الوسائل تضخُّمًا مُفرِطًا؛ إن مكوِّنات قدرات التمكين، تتراكم، وتتكامل، إلى ما لانهاية؛ فهي مجموع كل ما أنتجه البشر. أما الحكمة فلا يمكن تجميعها؛ فأمريكا على سبيل المثال؛ بكل ما تملك من إمكانات مادية مذهلة، وهيمنة عالمية طاغية؛ يقودها فردٌ عادي، مثل بوش الابن، أو ترامب، أو بايدن؛ شخصيات عادية. بل ربما أنها أقرب إلى الرعونة، شخصيات كليلة؛ تملك أن تتخذ قرارات خطيرة تمس كل

العالم؛ فتحت إمرتها إمكانات هائلة؛ لا تتلاءم مع مسؤولياتها الخطيرة، حيث يقع تحت سلطتها إمكانات مذهلة. وهذا نموذجٌ على مصادر الخلل الحضاري البنيوي...

يقول ماثيو جلبرت من معهد العلوم العقلية في تقديمه لكتاب (من أجل بشرية أكثر إنسانية): «فالعالم يبدو قاسيًا بائسًا معقَّدًا؛ الصراعات العرقية، والتطرف الديني، والانهيار البيئي، والفقر الذي تتحسر له القلوب؛ هذه الحقائق المؤلمة ترسم صورةً لما مُلِئ به العالم من خوف وألم وانقسامات» أما مؤلف الكتاب إيدموند بورن، فيصف البشرية بأنها تعيش في مستوى المراهَقة، وأن عليها أن تفكر بعمق، ورحابة، وأن تتجاوز طيش المراهقة. ويقول: «إن تغيُّرًا عالميًّا جوهريًّا؛ في المدركات والقيم وكذا السلوكيات؛ هو فقط الذي سيسمح للجنس البشري باستعادة طرقه» ويضيف: «إن كلّاً منا يمثل جزءًا مصغَّرًا في هذا الكوكب ككل. إن آلام الكوكب يعاني منها كلٌّ منا بطرقٍ متنوعة. ولمعالجة جسد الجنس البشري؛ علينا أن نداوي كل خلية به» ثم يدعو كل إنسان بأن يفكر برحابةٍ أكثر، وبعمقٍ أشد، وأن يبادر بفعل أي إسهامٍ نافع. هكذا تبدو عظَمَة الحضارة، مقارنةً بنقائص الإنسان؛ وكأنها ليست من إنجازات البشر، الذين لا يستطيعون حلَّ خلافاتهم إلا بالعنف أو بالحروب، وكأن هذه الإمكانات المدهشة التي يستخدمونها لتبادُل التدمير؛ ليست من إنتاجهم وإنما هي من إنجاز نوع آخر...

لكن الحقيقة تنجلي بعض الشيء؛ حين ندرك، أن الحضارة، نتاجُ ومضاتٍ إبداعية لعدد قليل جدا من الأفراد الخارقين، ومثلما يقول أستاذ الفلسفة جونسون في كتابه (فلسفة الحضارة): «لقد فتح كبلر وديكارت ونيوتن باب العالَم العلمي الحديث» إن الحضارة نتاج الومضات العبقرية الفردية النادرة ومثلما يقَول شكسبير: «يا للبريق الذي يخطف الأبصار؛ إنه بريق العبقرية والإبداع» ولكن الفجوة الحادة بين التفكير العبقري، وتفكير عموم المتعلمين، فضلا عن تفكير عموم الناس؛ قد جعلت الكثير من الومضات العبقرية، تتبدَّد من غير أن يُستجاب لها. ومثلما يقول المفكر المبدع فيكتور هوجو: «إن أشد

أنواع القلق مرارة للمفكر؛ أن يشعر في غياهب الظلام، أن المجتمع يغط في سباتٍ عميق، دون أن يكون قادرًا على إيقاظه» هكذا العبقرية تعيش حالة انفصال حاد عن تفكير المجتمع. أما عموم المتعلمين؛ فهم يتلقون اضطرارًا وبشكل رتيب؛ ما هو جاهز من المعارف، والخبرات، والأفكار، والأساليب؛ ثم يقومون بتطبيقها في مختلف التخصصات، فالطيار الذي يقصف المدن، ويقتل الناس دون تمييز؛ هو إنسانٌ متعلم وهو يُطَبِّق ما تَعَلَّمه، وكذا كل التخصصات. إن الكثرة تقوم بالتطبيق والتنفيذ والإنتاج والاستخدام؛ إن دور التطبيقيين هو دورٌ عظيم فبواسطتهم تجسدت العلوم ونَفَذَتْ إلى كل تفاصيل الحياة؛ فالحضارة إبداع القلة، وتطبيقات الكثرة، ولولا هذا التكامل بين الإبداع والاتباع لما تطورت الحضارة. لكن الخلل يأتي من التوجُّه العام للمجتمعات بتركيزها على الاقتصاد والتنازع على الصدارة والقوة، ويشمل ذلك التطبيقيين الذين يمثلون عموم المتعلمين والعاملين، فالغالب هو التركيز على الجانب النفعي من العلوم...

أما الشغف بالحقيقة، والإلحاح في السعي إليها، والابتهاج العميق باكتشافها؛ فهو محصورٌ بقلةٍ من الأفراد الذين يفكرون بشكلٍ مغاير للسائد، ويتحركون عكس التيار الجاري. إن عَظَمة الحضارة في كليتها الهائلة؛ تُوهِمُ عمومَ الناسِ؛ بالعَظَمَة، وبهذا التَّوَهُّم العام، يختفي عنهم، إدراكُ ضآلةِ دور كل فرد من هؤلاء العموم الواهمين، فيغيب عنهم إدراكُ ضآلةِ الدور الفردي العادي في هذا الكل الهائل الذي تكوَّن من مفردات الفعل؛ مثلما يتكوَّن المحيط من قطرات الماء. ومثلما يؤكد الدكتور إيفار ليبستر في كتابه (الماضي الحي) حيث يقول: «إن أفكانا قاصرة ومحدودة؛ إذْ يغيب عن بالنا، أننا لسنا سوى حلقة تافهة في سلسلة لا تنتهي من البشر الذين خَلَقوا منا ما نحن عليه، وأوصلونا إلى المرحلة التي ألفناها: إن آفاقنا محدودة على نحوٍ يثير الدهشة» ويُذَكِّر بالخلل العام في التعامل مع العلوم فيقول: «فكل علومنا الحديثة؛ تسير مُرَكِّزةً اهتمامًا يكاد يكون قاصرًا على طبيعة الأشياء المادية، والكائنات الحية، ولا تُعْنى إلا قليلا جدا بأعماق الإنسان وبعقله ونفسه» وحتى بعد طفرة العلوم

المعرفية، التي تتعمق في دراسة الدماغ البشري، وتحديد طبيعته، وكشْفِ اتساعِ قابلياته، وبيان مرونته، وتأكيد هشاشته، بقي عموم المتعلمين غير متابعين لهذه المعارف الأساسية عن الإنسان، وغير مهتمين بها؛ فمن ثمانية مليارات هم سكان الأرض؛ كم منهم من يتابعون بعناية؛ الاكتشافات العظيمة عن الدماغ البشري، وعن الحقائق الكاشفة؛ التي تَتَبيَّن منها طبيعةُ الإنسان، وسهولةُ تأرجُحِه بين السواء والاضطراب؛ فكل شخص يبقى غارقًا في تخصصه، ويستغرق عملُه التخصصي غالبًا عند الأكثرية، كلَّ اهتمامه، وتركيزه، وطاقته، ووقته؛ فالطاقة مكرَّسة لمتطلبات البقاء، والتنافس على الأهمية، والتدافع على المكاسب المادية والمعنوية...

يضاف إلى ذلك عاملٌ قويٌّ آخر؛ كما يقول الفيلسوف الفرنسي المميَّز إدقار موران في كتابه (المنهج) أن: «التوحش البشري مزروعٌ في قلب حضارتنا، بالذات التي تُنَمِّي علاقات السيطرة، والاستغلال، والإذلال، والاحتقار. التوحش يختمر في كل واحد منا: تَوَحُّشنا الداخلي، لا نكفُّ عن تبريره، وعن الكذب على أنفسنا، أنه يدفعنا إلى قانون العين بالعين، والسن بالسن؛ ويحثُّنا على الانتقام» أما مؤرخ الحضارة ويل ديورانت فينبه بأن: «الإنسان وحشيٌّ في صميمه، يتصدى للعالم كله تَصَدِّي العدو لأعدائه، بكل ما يتطلبه ذلك» ويضيف: «يعتقد أن غيره لابد له من تلك القوانين، أما هو إذا تُرِك لهواه؛ فسوف ينزع إلى الفوضى» أما الفيلسوف الأشهر برتراند راسل فيقول في كتابه (النظرة العلمية): «فالقوة الجديدة، التي يخلقها العلمُ؛ تكون شريرةً بقدر ما في الإنسان من حُمْق. لذلك فإن أُريد للحضارة العلمية، أن تكون حضارة خيِّرة؛ فقد وَجَب أن تقترن بزيادة المعرفة؛ زيادةٌ في الحكمة، وأعني بالحكمة الإدراك السليم لغِايات الحياة» ويضيف: «إن الرجل الذي أسكره خمر السلطة؛ هو رجلٌ تجرَّد من الحكمة؛ وطالما هو يحكم العالم؛ فالعالم مكانٌ تجرَّد من الجمال والسرور» وكأنه بذلك يرمز إلى لينين، وستالين، وأمثالهما من القادة المتسلطين. أما عالم النفس الدكتور ديباك شوبرا فيقول في كتابه (روح القيادة): «ففي العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين؛ بدأ الجنس البشري يشَكِّل تهديدًا رهيبًا على

وجوده، من خلال افتعاله الأعمى لفجوات كبيرة تؤثر في نسيج استدامة حياتنا» ويضيف: «عندما تسود سلطة الأقوياء والقُساة على الساحة العالمية؛ نجد أنفسنا منساقين تحت قيادة المتعطشين إلى السلطة» وبذلك ندرك أن الحضارة المعاصرة رغم كل إنجازاتها ما تزال حضارة معاقة: فكرًا وأخلاقًا؛ بشكلٍ شنيع ومخيف؛ فهي تقدمت في مجالات الوسائل، والأدوات، وقدرات التمكين. لكنها بقيت متخلفة في الفكر والأخلاق؛ إنها ما تزال مرتَهَنة بأنساقها الثقافية المتوارَثة، وبالصراعات، وبمتطلبات البقاء، فالتركيز كله موجَّه لتزكية الماضي وللاقتصاد، وبناء قدرات التمكين، وترسانات الحرب، والحشد الهائل للتغالُب، والجاهزية المتوترة للانفجار والتدمير. إن أشد المجتمعات تقدُّمًا قد، نَتَج تقدُّمها عن ومضاتٍ فردية إبداعية، وعن تراكم التطبيقات الإنتاجية، ونجاحاتها العملية، والإدارية، وحتى العقلانية السائدة في أشد المجتمعات ازدهارًا؛ هي عقلانية قوانين، ومؤسسات، وأساليب، ومناهج، وتوازنات بين القُوى. وليست عقلانية مجتمعات، ولا عقلانية أفراد. لذلك فإن الحضارة ما تزل هشة، وقابلة لمختلف الاضطرابات، وليس اندلاع الحرب المدمرة بين روسيا وأوكرانيا سوى نموذج على القابلية الهشة للانفجار فالعالم محكومٌ بتجاذبات حادة...

إن عمومَ الناس حتى من نالوا تعليمًا عاليًا، لا يهتمون غالبًا، إلا لما يَنتظرِون منه أن يحقق لهم نفعًا ماديًا أو معنويًا، فالحياة البشرية؛ تقوم على الصراع بين الدول، والتنافس بين الأفراد. إن أكثر المتعلمين يبقون عازفين عن محاولة التعمق في الأفكار الفلسفية، وغبر مهتمين بما لا يعود عليهم بنفع مباشر، ويحصرون أنفسهم في مجالات التخصص فقط. ليس هذا فقط بل إن أشد النظريات العلمية تأثيرًا فيما تحقَّق من تقدُّم، كالنظرية النسبية، أو النظرية الكمومية؛ لا يهتم بها سوى المبدعين الذين يسعون للفهم المحض، أو المتخصصين في الفيزياء الذين تستغرقهم تخصصاتهم، ولا يهتمون بغيرها. وأسوأ من كل ذلك وأشد استعصاء على التدارك؛ أن كل أفراد الجنس البشري يتطبَّعون في طفولتهم بأنساق ثقافية متوارثة؛ فتتكوَّن بنياتهم الذهنية قبل أن يلتحقوا بالتعليم، وتَبقى هذه البنيات الذهنية القاعدية، تتحكم بهم، لكنهم

يكونون مغتبطين بهذا التحكُّم؛ لأن أنماطهم الذهنية تؤكد لهم هذه الغبطة، دون أن يدركوا أنهم مستلَبون بالتطبُّع التلقائي؛ ومثلما يؤكد عالم النفس إدموند بورن في كتابه (من أجل بشرية أكثر إنسانية): «إن المعتقدات تُشَكِّل الواقع» وينبه عبدالصمد الكبَّاص في كتابه (الجسد وأنثروبولوجيا الإفراط) حيث يقول: «الهوية الجمعية الصلبة؛ تنتصب في مواجهة كل تفرُّد؛ مؤسِّسَةً تاريخًا أسطوريًا للمجتمع باعتباره مسارًا تعاقبيًا لاصطفاءٍ نوعيٍّ للتطابق؛ الذي منه تكتسِب الذاتُ امتيازها كأصل» ويقول الناقد الشهير ريتشاردز في كتابه (العلم والشعر): «المزعج حقًّا أن نَعرف؛ أن عاداتنا الفكرية بالنسبة لمعظم أفعالنا؛ ما تزال كما كانت عليه منذ خمسة آلاف سنة» ثم ينبه إلى أن العلوم لا تتداخل مع البنية الذهنية القاعدية فيقول: «العلوم تشذ عن هذا القانون، إننا نفكر خارج حقل العلوم، حيث لا تزال تجري معظم أفكارنا، كما كان يفكر أجدادنا قبل مائتي جيل. وهذا يحدث دون ريب بالنسبة لآرائنا» وبسبب ذلك فإن العقل البشري، في الغرب والشرق، في الماضي والحاضر؛ ما تزال تُكَوِّنه، وتحتله، وتتحكَّم به الأنساق الثقافية المتوارثة. وهي في عمومها يتجسَّد بها (الجهل البنيوي) ومثلما يقول أيمن البوغانمي في كتابه (التدمير الخلاق): «ومقارعة الأوهام بالحقائق والأرقام؛ لا تفيد في أكثر الأحيان؛ فالعقلانية البشرية سجينة التفكير الجماعي الذي انتقل عبر التاريخ» لذلك يؤكد ريبو أن سِوء الرؤى آفة عامة فيقول: «الحكم الباطل عاهة بشرية عامة» ويقول العالم الشهير مرسيا إلياد في كتابه (المقدس والعادي): «إن الإنسان يصنع ذاته بذاته، لكنه لا يستطيع أن يصنعها؛ إلا بقدر سَلْخ القداسة عن ذاته، وعن العالم؛ فالمقدَّس هو العقبة الأولى التي تعترض حريته» ويقول مؤرخ الحضارة الفرنسي فرنان بروديل في كتابه (ديناميكية الرأسمالِية): «اليومي يأخذنا من غير أن نعي ذلك» فما يتطبع به الناس ويعتادون عليه، يتحكم تلقائيًّا بالتفكير والسلوك. يضيف بروديل : «آلاف الحركات تفتح، تتم من تلقاء نفسها، تَحْدُث بمعزل عن وعينا؛ أكثر من نصف البشرية غارقة، لا بل مأخوذة كليا باليومي؛ إن الحركات الموروثة لا تعد ولا تُحصى؛ فهي مكدَّسة بشكلٍ فوضوي، مكرر للغاية منذ زمن بعيد وصولا إلينا؛ إنها تعتقلنا،

تأخذ عنا القرارات. إن ماضينا شديد القِدَم ودائم الحيوية، عمره قرونٌ عديدة، يُفضي إلى الوقت الحاضر كما يُلقي نهر الأمزون الكتلةَ الضخمة من مياهه العكرة في المحيط الأطلسي» ويضيف: «إننا غارقون في أعماق مياه قديمة جدا، فممارسات الماضي أو سمومه، هي بالنسبة للبشر من أولويات اليومي؛ حقًّا إنها تفاهة» لذلك فإن مَن يتعامل مع الأفكار الأساسية الكبرى، ويكون هَمّه التحقُّق، علميًّا، وفلسفيًّا، من القضايا الكبرى التي يختلف حولها المفكرون، أو تَفترِق بسببها الأمم؛ فلن يهتم به، ولن يفهمه في كل المجتمعات سوى أفراد معدودين، ليس عن عوزٍ في القابليات، وإنما بسبب طبيعة تكوين العقل البشري، وتَحَكُّم الأنساق الثقافية به؛ فالسوابق عوائق؛ لأنها عميقة الغور، ومعزولة عن فاعلية الوعي، إنها تلقائية الانسياب، تَخلق الشعور بالكمال، وتُوهِم بالاكتفاء، وبذلك تُطفئ الشغف بالحقيقة؛ فمن ينشأ وهو يعتقد بأنه قد تَلَقَّى تنشئةً مكتملةً، في ظل نسقٍ ثقافي كامل، فإنه سوف يستمر يتوهَّم الكمال والاكتفاء، ويصبح جاهزًا ومتحفزًا للرفض التلقائي لما يتعارض مع ما نشأ عليه، وتطبَّع به. وهذه هي المعضلة البشرية العامة، التي حالت دون ولادة الإنسان الجديد، المنفتح على الآفاق، الذي تسمح به قابلياته؛ لو تحررتْ هذه القابليات من هيمنة الأنساق الثقافية، التي هي في عمومها، لم تكن سوى جهل بنيوي...

هكذا ينشغل المفكرون بما هو خارجٌ عن اهتمام العموم، ولا يلتفت لهم أحد من خارج مجال الفكر. أما من يكون هَمّه الفعل، والعمل، والخدمة، والأداء الحسي، والإنتاج، وما يَهُم الناس في معاشهم، ويكون تعامله، في مستوى المادي، والملموس، والحس المشترك، والأداء العملي؛ فسوف يجد الملايين يفهمونه، ويتأثَّرون به، ويستجيبون له، وينضمون إليه. وهذه نتيجةٌ تلقائية في كل المجتمعات، ماضيًا، وحاضرًا. إن الدماغ، والجهاز العصبي بأكمله، والحواس، مُصَمَّمَة للتعامل مع الأشياء المحسوسة، التعامُل مع ما هو من لوازم البقاء. إن تاريخ الإنسان قد ارتبط بالعمل، وبمتطلبات البقاء، لذلك يجري تحقيب التاريخ، بوسائل العمل، وأدواته، فيقال: العصر الحجري،

والعصر البرونزي، وعصر الحديد. كما يجري تحديد التطورات الحضارية الكبرى، بتحولات الإنسان في كسب الرزق، فالتاريخ يُحدَّد بعصر الصيد والالتقاط، ثم عصر الزراعة، ثم العصر الصناعي. إن الحياة البشرية ترتبط بشكلٍ عضوي بمصدر الرزق، وبمجالات العمل. إن التيار العملي قد جرف حتى ذوي العبقرية، ومثلما يُنَبِّه ديورانت في كتابه (دروسٌ من التاريخ) إلى: «أن نمط العبقرية السائد في البلدان الفتية، مثل أمريكا وأستراليا، يميل إلى الأنواع العملية» أما التفكير الفلسفي، والتفكير العلمي الموضوعي، فهو تفكيرٌ مجرد؛ ومنفصلٌ بنيويًّا عن التفكير النسقي المتطبَّع به. إنه مضادٌّ لطبيعة الإنسان التلقائية. إنه من الخصائص الفردية الإبداعية النادرة. إن الأفراد الذين يوغلون في التفكير التجريدي؛ يفكرون بشكلٍ مغاير للسائد، ويتحركون عكس التيار الجاري؛ فكأنهم خارج المجتمع الذي يعيشون فيه. إن كلية وعُمْق وتركيب وتعقيدات الأفكار التي يعايشونها، ويسعون إليها، وكون الحقيقة تقتضي فهم علاقات خفية بين الظواهر؛ تجعلها بعيدة كل البُعْد، عن فَهْمِ واهتمامِ عمومِ الناس، لذلك يبقى الفلاسفة والمفكرون؛ غير مفهومين من المعاصرين لهم؛ بل يقابَلون بالصد، والنبذ، والسخرية، وربما بالقمع العنيف. لكن أفكارهم تتسلل بتطبيقاتها إلى الحياة البشرية بتحولات صاخبة، أو ببطء شديد، فكل ما هو جميل ورفيع وعظيم في الحياة البشرية؛ مصْدَره الفكر الفلسفي، أو الفكر العلمي بمحتواه الأعمق...

إن الاهتمام بالفكر الفاحص الناقد، وبالمعرفة الموضوعية، التي لا يُنتظَر منها نفعٌ مباشر؛ ليس اهتمامًا طبيعيًّا؛ فالاهتمام بالحقائق الموضوعية لذاتها؛ ليس من الوظائف الطبيعية للدماغ البشري، بل هو مطلبٌ ثقافي طارئ، لا يتم النزوع إليه تلقائيًّا، وإنما هو من الخصائص الفردية النادرة. لذلك فإن طبيعة العقل البشري؛ تجعل عموم الناس غير مهتمين بالأفكار الكلية الفلسفية، بل تستغرق اهتمامهم متطلبات البقاء، والتنافس على المكانة الاجتماعية، والتدافع على المصالح والنفوذ. لذلك فإنه حتى في التعليم؛ يتركز اهتمام الناس على الأمور الجزئية، والتفاصيل، ولا يهتمون بالكليات، ولا بما لا يُنتظَر منه، نفعٌ

ماديٌّ، أو معنويٌّ مباشرٌ، حسب المعايير الاجتماعية السائدة. لذلك فإن تأثير الأفكار الكبرى لا يصل إليهم إلا عبر هزات قوية؛ كالثورة الأمريكية التي تبنت أفكار جون لوك، ومونتسكيو. أو الثورة الفرنسية التي تبنت أفكار جان جاك روسو. كما أنها كانت من ثمار حركة التنوير. حتى الشهرة التي ينالها أمثال آينشتاين؛ لا تكون عن إدراكٍ حقيقي لما أنجزه، وإنما لأنه كَثُر الحديثُ عنه بتبجيل فائق، فعلِق اسمه بالأذهان دون إدراكٍ لما تمخضت عنه أفكاره. وقد لَفَتَ النظرَ إلى ذلك عالمُ الفيزياء ميناس كافاتوس، وعالم النفس ديباك شوبرا في كتابهما (أنت الكون) حيث يقولان: «من المدهش أن آينشتاين لا يعود الفضل في شهرته العالمية، إلى حقيقة فَهْم الناس لنظريتيه في النسبية. لقد سكنتْ نظريتاه في النسبية؛ في عالَمٍ بعيدٍ كلَّ البُعْد عن الحياة اليومية» ويضيفا: «لم يكن الفيلسوف وعالم الرياضيات البريطاني برتراند راسل على درايةٍ تامةٍ بالأمور الفيزيائية. ولكن عندما تم شرْحُ أفكار آينشتاين له؛ صعق وانفجر قائلًا: أعتقد أني بدَّدتُ حياتي في عبثٍ تام. شرَع راسل بعدها في كتابة تفسير رائع لعموم الناس (ألف باء النسبية) لقد أطاحت النسبيةُ بكل من الزمان والمكان، لكن ما تعنيه فعلاً لم يلمس الحياة اليومية؛ إذْ واصل الناس حياتهم اليومية كما لو أن أيًا من أفكار آينشتاين المتعمقة؛ لا تعنيهم» ويضيفا: «عندما أزاحتْ نظريتا النسبية، الزمان والمكان؛ حدث أمرٌ حقيقي؛ إذْ تم تمزيق نسيج الكون، ثم حيك من جديد، على هيئة واقعٍ جديد. تُبين لنا النسبية أنه لا وجود لزمنٍ كوني موَحَّد. لقد باتت النسبية تؤثر فعليًا في شؤون حياتنا اليومية. إن كل ما تنبَّأتْ به؛ قد ثبتتْ صحته» إن ما أردتُ التذكير، به هو أن عموم الناس، بمن فيهم من نالوا تعليمًا عاليًا في مختلف التخصصات؛ يجنون ثمار أعقد النظريات دون أن يفهموها، بل دون أن يحاولوا فهمها. فراكب الطائرة، أو السيارة، لا يعرف في الغالب أسماء المخترعين ولا كيف نجحوا ولا كيف عانوا. ومن يستخدمون الأجهزة الذكية، يستخدمونها، من غير أن يحاولوا فَهْمَ محتواها، ولا كيف صُنِعَتْ، ولا كيف ظهرتْ فكرتها أوَّلًا، ثم كيف تطورتْ إلى أنْ صارت أجهزةً رشيقة لا تثقل حاملها، فيأخذها الإنسان معه أينما ذهب، وتؤدي له أروع الخدمات...

المهم أن الأصل في الإنسان أنه كائنٌ يتطبَّع في طفولته بالأسبق إلى قابلياته، وأن هذا التطبُّع يلازمه طول عمره، ينساب تلقائيًا استجابةً لمختلف المواقف، إنه مهما تعلم؛ يستمر يتحكم بتفكيره وسلوكه واتجاهه ويحدد له مغزى وجوده. إنها قضية مفْصلية تترتب عليها نتائج واسعة وعميقة على مستوى الكل. ثم إن الإنسان كائنٌ عملي، نفعي، رغائبي، يتمحور حول ذاته؛ تحركه متطلبات البقاء، وتثيره الرغبات، وتتحكَّم به المصالح، وتستفزه المنافسة. لذلك لا يهتم بالأفكار العظيمة، ذات المغزى الأبعد، ولا يستجيب لمحض الحقيقة، وإنما يستجيب للجوانب العملية من العمل والإنتاج. لذلك لم يتَحقَّق الانبعاثُ الأوروبي في مراحله الأولى بواسطة الأفكار الفلسفية، ولا بواسطة العلم، وإنما تَحقَّق بواسطة المغامرين العمليين، من أمثال جوتنبرج، وكولومبس، وهنري الملاح، وجيمس وات، ورتشارد آركرايت. وقبل ذلك كان لاختراع البارود، والبنادق والمدافِع، بواسطة الحِرَفيين؛ تأثيرٌ عظيم؛ فلولا هؤلاء وأمثالهم من العمليين، لما حصلتْ الطفرةُ الأوروبية وكما يؤكد عالم الفيزياء برونوفسكي في كتابه (العلم والبداهة): بأن العمليين هم الذين قادوا عمليات الانبعاث وكنموذج فإن: «جيمس برندلاي، قام بتخطيط طُرق الملاحة البريطانية كلها، وهو لا يعرف هجاء كلمة الملاحة» لقد كان أميًّا، لكنه وَضَع طُرُقَ الملاحة الجبارة، التي غيَّرتْ أوضاع بريطانيا، وغيَّرتْ معها العالم. إن حركةَ الملاحة البحرية، قد استفزَّتْ العقولَ بحثًا عما يساعد على تسهيل مهام هذه الطفرة الملاحية، ولم يكن التفكير الكوني العميق عند نيوتن سوى إحدى ثمار هذه الطفرة. لقد كان الانجليز عمليين، فاهتموا بالعمل، لقد ركَّزوا على مباشرة الأشياء، والتعرُّف عليها عمليًّا، فحققوا ذلك التفوق الهائل. ويرى الفيلسوف الألماني جوته بأن الصفة المميزة للبريطانيين هي أنهم عمليون فيقول: «كلُّ الرجال البريطانيين عظماءُ؛ كرجالٍ عمليين» أي أن عظمتهم هي نتاج حسهم العملي، واندفاعهم للعمل وإقدامهم على المغامرة.. ويقول جوته في موضعٍ آخر: «في الوقت الذي يُعَذِّب الألمان أنفسهم في حل المشاكل الفلسفية، نَجِدُ الإنجليز، بحسِّهم العملي، يَضْحكون علينا، ويكسبون العالم» إن ذلك لا يعني أن الشعب

الألماني، يهتم بالفلسفة، فهذا الانشغال الألماني بالمشاكل الفلسفية، لا يتجاوز بضعة أفراد؛ ليبنتز، وفولف، وكانط، وفخته، وهيجل، وشليجل، وهيردر، وشلنج، وشوبنهاور، ونتشه، وياسيرز، وهُوسِّرل، وهايدجر، وهابرماس، وغادامر. إن الفكر الفلسفي لا يمكن أن يكون فكرًا شعبيًّا. لا في ألمانيا ولا في غيرها. لذلك فإن المجتمعات لا يمكن، أن تَهتَمَّ بالفلسفة، ولا أن تفهمها، ولا أن تستفيد منها بشكلٍ مباشر. وإنما تأتي الفائدة حين تتحول الأفكار، والرؤى الفلسفية، إلى مؤسسات، وقوانين، ونُظُم، وأساليب، ونماذج، ومُثُل، ومبادئ، وقدرات عملية. وهذا قد يتأخر قرونًا. مثلما حصل حين تجمدت الأفكار الفلسفية والعلمية اليونانية، ما بين إعدام سقراط إلى عهد مونتاني، وبيكون وديكارت وبايل. إن قانون القصور الذاتي هو قانونٌ صارم. إن قانون العطالة هو الأصل، أما الانفكاك من هذا القانون فهو الاستثناء...

إن الاهتمام الإنجليزي قد تركَّز على العمل، وعلى ما تَكُون نتائجه ملموسة، وهذا التركيز قد طَبَع الحضارة المعاصرة بالطابع العملي، وجَعَل الكُلَّ يتطبَّع بهذا الطابع العملي. فالمجتمعات الحديثة كلها قد انتقلت من نظام المجتمع الزراعي، إلى نظام المجتمع الصناعي الرأسمالي، حتى المجتمعات غير الصناعية؛ اصطبغت حياتها بنفس النظام؛ تعميم التعليم، والأخذ بنظام التخصصات المهنية، والبيروقراطية، وغير ذلك من مظاهر الحضارة المعاصرة، أي أنها انتقلت من نظامٍ ماديٍّ حِسِّيٍّ عمليٍّ، إلى نظامٍ ماديٍّ حِسِّيٍّ عمليٍّ أيضا. ومثلما قال جوته فإن الانجليز قد اكتسحوا العالم، باتجاههم العملي. ولأن الولايات المتحدة الأمريكية؛ هي امتدادٌ للثقافة الإنجليزية، فقد تكَوَّنت فيها الفلسفة البراجماتية، ذات الطابع العملي، أي فلسفة الفعل. ولم تكن الفلسفة الماركسية، أقل تكريسًا للطابع العملي، للعلم، وللحياة. وربما أن هذا هو الذي دفع الفيلسوف الألماني هايدجر إلى أن يصف الفلاسفة بأنهم باتوا: «عُمَّال تقنية» ويقول آلان توران: «إن العمل هو الظرف التاريخي للإنسان؛ تجربةً مُعَبِّرةً؛ وعلى أساسها، يمكن فهم إنجازات الحضارات، وأشكال التنظيم الاجتماعي» ويقول الدكتور محمد الزائد: «الخير قيمة الفعل، والإتقان قيمة

الممارسة» ويُذَكِّر عالم الفيزياء الألماني الشهير فيرنر هايزنبيرغ، بأن نشأة العلم، قد ارتبطت منذ البداية، بمنافعه العملية، وأن هذا الطابع العملي، قد امتدَّ للكل، وأن هذا الربط العضوي بين العلم ونتائجه العملية؛ قد هبط بمستوى العلم إلى مستوى السلعة؛ ففقد تأثيره الفكري، والأخلاقي، وتخلى عن القيم المعنوية المثالية، وطبع الحضارة بطابع الصراع الذي أبقى البشرية في المستوى البدائي. ويقول: «فالإنسان لم يكن مهتمًا بالطبيعة كما هي، ولكنه تساءل بدلا من ذلك؛ ما الذي يستطيع أن يفعله معها. لذا تحوَّلتْ العلوم الطبيعية إلى علوم تطبيقية؛ فارتبط كل تقدُّم في المعرفة بالتساؤل عن ماهية الفائدة العملية، التي يمكن أن تُستخلص منها. ومثلما ساد ذلك في الفيزياء، فقد ساد نفس الاتجاه في الكيمياء والبيولوجيا. وأسهم نجاح الطرق الجديدة في الطب أو في الزراعة، في انتشار تلك الاتجاهات الجديدة» ثم يضيف هايزنبيرغ: «بهذه الطريقة تَطوَّر إطارٌ جامدٌ للعلوم الطبيعية، أدى إلى تشكيلٍ ليس العلم فحسب. ولكن أيضا النظرة العامة للناس عامة. وقد تأيَّد هذا الإطار بالمفاهيم الأساسية للفيزياء الكلاسيكية» ويضيف: «ينطبق مفهوم الواقع على الأشياء والأحداث التي نستطيع إدراكها بإحساساتنا، أو التي يمكن ملاحظتها بواسطة الأدوات الدقيقة. وكانت المادة هي الحقيقة الأولية» وينتهي إلى القول: «صُوِّر تقدُّم العلم على أنه سعيٌ جادٌّ لغزو العالم المادي. وكانت النفعية هي كلمة السر» هكذا انبثقت التغيرات باندفاع الناس نحو مجالات العمل والكسب، وحصل هذا الجيشان العملي؛ بعد أن شهدتْ أوروبا عددًا من المخترعات ذات التأثير الحاسم كالمطبعة، والبوصلة، والمدفع، والبارود، ومغامرة كولومبس، ثم اندلعت الثورة الصناعية بواسطة الحرفيين؛ وبواسطة أفراد عَلَّموا أنفسهم، وكان جيمس وات الرائد المقدام الذي قاد التغيير؛ ففي مرحلة الثورة الصناعية كانت الجامعات بعيدة كل البُعْد عن مجال العمل، أما الذين صنعوا التغيير فهم الحرفيون، والتجار، والمستكشفون المغامرون. وكان السعي إلى الربح هو الحافز، وهو المحرك، وهو الدافع إلى الانفتاح لتجريب طرق جديدة غير معهودة للعمل والإنتاج والكسب. إنهم يَظفرون لأنهم مندفعون باهتمامٍ تلقائي قوي مستغرق...

يؤكد مؤرخ العلم المفكر البريطاني السير جون ديزموند برنال في كتابه (العلم في التاريخ) بتأثير المخترعات وخصوصا البارود والمدفع فيقول: «كانت تأثيرات البارود؛ في الأساس على العلم؛ أكبر منها على الحرب، حتى إنها كانت العامل المؤثر الأكبر في إيجاد عصر الآلة. إن البارود والمدفع؛ لم ينسف فقط عالَم العصور الوسطى سياسيًا واقتصاديًا فحسب؛ بل إنهما كانا القوتين الأساسيتين في تدمير منظومة أفكاره» أما عن الفاعلية الحاسمة للطفرات التقنية فيبرزها بروس بلفن في كتابه (بُناة المستقبل) حيث يقول: «حاول الدكتاتوريون في العصر الحديث زيادة نسبة المواليد لكنهم أخفقوا. في حين أن جيمس وات مخترع الآلة البخارية وقليلًا من معاونيه؛ هيأوا ظروفًا كان من نتيجتها؛ زيادة سكان أوروبا ثلاثة أضعاف في قرن واحد. وأنشأت جماعةٌ صغيرة على رأسها هنري فورد السيارات؛ فاضطررنا إلى إنشاء طرقٍ صالحة، قضتْ على عزلة المزارعين في مساحات شاسعة من العالم. وأوجدتْ الصورُ المتحركة، والإذاعة، لأول مرة في التاريخ؛ بدايةَ الشعور بتماسك العالم، وجعلتْ أخيرًا؛ العمل المشترك لخير البشرية ممكنًا نظريًا» أما عالم الفيزياء برونوفسكي؛ فإنه في كتابه (ارتقاء الإنسان) يعقد فصلاً عن الثورة الصناعية لكنه يجعله بعنوان (الانطلاق نحو القوة) وفيه يقول: «إن الثورات يصنعها الرجال، وأحيانًا يكونون رجالاً عباقرة يعملون بمفردهم. ولكن الثورة (الصناعية) العظيمة التي حدثت في القرن الثامن عشر؛ قام بها أناسٌ عملوا كفريق، والدافع لهم كان الاعتقاد بأن كل إنسان هو المسؤول عن مصيره، وإنقاذ نفسه» ويضيف: «إن من المسلم به الآن أن للعلم مسؤولية اجتماعية. ولكن هذه الفكرة؛ لم تكن لتخطر على بال جاليليو أو نيوتن. فقد كان ظنهما أن العلم مجرد وصفٍ للعالم كما هو، وأن المسؤولية الوحيدة التي التزما بها؛ هي أن يقولا الحقيقة، أما مفهوم العلم كمؤسسة اجتماعية؛ فهو شيءٌ حديثٌ؛ بدأ منذ الثورة الصناعية» ويضيف: «إن الثورة الصناعية سلسلة طويلة من التغيرات؛ بدأتْ حوالي عام1760 إن الثورة الصناعية؛ كانت الأسلوب الإنجليزي في تحقيق التغيرات الاجتماعية. انطلقتْ من إنجلترا التي كانت الدولة الصناعية الرئيسية، في ذلك الوقت. ولكن الصناعة

تلك كانت صناعة منزلية، والثورة الصناعية تبدأ في القرى، والرجال الذين قاموا بها، هم حِرَفيون؛ كالغني الذي يبني الطاحون، وصانع الساعات، وباني القنوات، والحدَّاد، إن الذي يجعل الثورة الصناعية ذات صفة إنجليزية مميزة؛ هو أن جذورها بدأت في الريف» والعجيب أن الثورة الصناعية؛ اندلعت بواسطة جيمس وات والثري المموِّل بولتون، والحرفيين، وكان الاهتمام بالعلم آنذاك في حالة انحسار وركود ومثلما يؤكد عالم الفيزياء برونوفسكي: «فخلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، كان نيوتن قد شاخ وهرم، وكانت الجمعية الملكية في حالة انحلال، وكانت إنجلترا، تنعم بنتاج ازدهار الصناعة القروية، وتجارة التُّجَّار المغامرين فيما وراء البحار» بل إن النظرية الماركسية؛ ترى أن الإنسان لم يكتشف فرديته، إلا بواسطة تقسيم العمل. إن من يقرأ تاريخ الانبعاث الأوروبي، منذ مغامرة كولومبس؛ يجد أن الحياة الأوروبية قد اهتاجت فيها حُمى المغامرة، فصار الكل يتطلع إلى أن يشارك في المغامرة الخطرة، ويكون له نصيبٌ من اكتشاف مجاهل الأرض، وتحصيل الصيت والثروة. لقد نشأ في النشطاء من الناس طموحٌ متأججٌ؛ إلى الثراء، واندفاعٌ إلى المغامرة نحو أقاصي الأرض؛ بحثًا عن الثراء والمجد. والمكتبة زاخرة بالكتب التي تصف تفاصيل ذلك الهيجان العام الذي تغيرت به أوضاع العالم...

حتى تاريخ الفكر قد أسهم في التأكيد على الدور المحوري للمخترعات في يقظة العقل الأوروبي وتحرره من قبضة العصور المظلمة، نجد نموذجًا منه في كتاب (آلام العقل الأوروبي) لرتشارد تارناس حيث يقول: «مع الثورة الثقافية في القرون الوسطى قبل بضعة قرون؛ ثمة اختراعات تقنية لعبت دورً محوريًا في إنشاء الحقبة الجديدة: أربعة اختراعات خصوصًا، كانت قد انتشرت على نطاق واسع فِي الغرب، وقد انطوت على تبعاتٍ ثقافيةٍ بالغةِ الأهمية الأول: البوصلة المغناطيسية التي أتاحت المشروعات الملاحية العظيمة التي فتحت كوكب الأرض أمام الاستكشاف الأوروبي. الثاني: البارود الذي أسهم في زوال النظام الإقطاعي، وصعود النزعة القومية. الثالث: الساعة الميكانيكية التي أحدثت انقلابًا في علاقة الإنسان بالزمن، وبالطبيعة، وبالعمل؛ فاصلةً ومحرِّرةً بنية

الفاعلية الإنسانية؛ عن هيمنة إيقاعات الطبيعة. أما الاختراع الرابع؛ فهو آلة الطباعة التي أفضتْ إلى زيادة هائلة في التعليم، وجعلت الكلاسيكيات الإغريقية، والمؤلفات الحديثة، في متناول أيدي جمهور متزايد الاتساع باطراد، وأنزلتْ ضربة كبيرة باحتكار رجال الدين الطويل للتعليم» ويضيف: «كل هذه الاختراعات؛ كانت دائبة بقوة على التحديث؛ وصولاً إلى العلْمنة في جميع آثارها؛ فالصعود المدعوم بالمدفعية للدول القومية؛ مهَّد الطريق ليس فقط أمام الإطاحة بالبنى الإقطاعية في القرون الوسطى، بل أمام تمكين القُوى العلمانية من تحدي الكنيسة الكاثوليكية. وبتأثير موازٍ في مجال الفكر؛ أتاحت آلة الطباعة، فرصةَ الانتشار السريع للأفكار الجديدة الثورية، عبر أوروبا. ولولا هذه الآلة، لبقيتْ حركة الإصلاح الديني محصورةً بنزاعٍ لاهوتي ثانوي، في واحدٍ من أقاليم ألمانيا النائية. وبالمثل كان تطور الساعة الميكانيكية، التي أصبحت بمنظومتها المضبوطة بدقة من العجلات والمسننات، أنموذجًا إرشاديًّا للآلات الحديثة، مسَرِّعةً تقدم الابتكار الميكانيكي، وعمليات بناء المكائن من جميع الأنواع. وبالمثل فإن الاستكشافات الكوكبية التي جعلتْها البوصلة المغناطيسية ممكنة؛ دفعتْ حركة التجديد الفكري دفعًا بالغ القوة، عاكسةً ومشجعةً التقصي العلمي الجديد للعالم الطبيعي، ومضاعفةً تأكيد شعور الغرب بأنه الجبهة البطولية للتاريخ المتحضِّر» إنها فورة عامة عارمة من فورات الاهتمام التلقائي القوي المستغرق...

إن قيام أول ثورة صناعية ناجحة بواسطة الحرفيين الذين نشأوا على التفاعل المباشر مع المواد، والتعايش معها وهي تتشكَّل وتتخلَّق أثناء عملهم فيها؛ إن هذا يحمل دلالة عميقة، على الارتباط العضوي بين الفكر والفعل؛ لبناء تصورات صحيحة عن الأشياء بالتفاعل المباشر مع الأشياء. ومثلما يقول بيير شونو في كتابه (الحضارة الأوروبية في عصر التنوير): «فللأجهزة الأسبقية على الآلات؛ ويكمن أحد شروط الثورة الصناعية؛ في مهارة الحرفيين المستعدين للتحكم بالمادة بين أيديهم، فيشتغلون الحديد، ويُنجزون عجلاتٍ مسننة، ومسننات الحركة، ومحاور الحركة، ويحلون مجموعة كبيرة من المشاكل

العملية الصغيرة التي يطلقون عليها سيور نقل الحركة، والإطارات الكاوتشوكية العازلة، والتي تعتبر كنوزًا من المهارة وحسن التدبير» ويضيف: «خير ما أنتجه القرن الأجهزة التي تحسنت عبر تطورٍ طويل الأمد، لأن مادة التصنيع المستخدمة، أصبحت أفضل، ويد الصَّنَّاع التي تستخدمها، أصبحت أمهر؛ لأن التدريب أعطى ثمارًا أكبر حيث توجَّه إلى جيلٍ من الحرفيين أصبحوا يقرؤون. وانظروا إلى روسو وبيئة مدينة جنيف ثم تخيلوا إنجلترا وهي تقرأ، والبؤر الفرنسية المتعلمة. لقد تزايد الاهتمام على توارث الخبرات ضمن أفضل الشروط. وبكل تأكيد كانت الخبرة الملقنة شفهيًّا وتجريبيًّا، ما تزال هي المهيمنة باستمرار، على صعيد انتقال المعرفة التقنية. وجاءت موسوعة ديدرو تعبيرًا عن نقطة انطلاق، وأصبحنا حيال حرفيين يقرؤون ويفكرون بجرأة بواسطة أيديهم الماهرة، حيال حرفيين يتواصلون مع صُناع الفكر» أما الإمام الغزالي فيلخص المعنى بجملة عجيبة جامعة فيقول: «العقل كالشيخ؛ لا ينهض إلا معتمدًا على عكاز التجربة» فكل التصورات تُبنى على نماذج عايشها الحس. إن إغفال هذه الحقيقة من أشد أسباب ضآلة نتائج التعليم الجمعي الذي يعتمد على الوصف اللفظي...

ولكي ننتبه للتأثير العميق الذي أحدثه العمليون المغامرون من أمثال كولومبس؛ فلنقرأ ما كتبه منشئ علم الاقتصاد آدم سميث حيث يقول في كتابه (ثروة الأمم): «إن اكتشاف أمريكا، واكتشاف مَعْبَر إلى الهند عَبْر رأس الرجاء الصالح؛ هما الحدثان الأكثر أهمية، والأحق بالانتباه. من المستحيل أن ندرك جميع النتائج التي ستترتب على ذلك. وليس في مستطاع أي إنسان مهما بلغ من الحكمة؛ أن يتوقع الحسنات، أو النكبات التي يهيئهما هذان الحدثان للناس في باقي الأزمان» إن البشر يتأثرون بالأعمال، ويستجيبون لنتائج المغامرات العملية، ويندفعون في الاتجاهات العملية ذات النفع المنظور. أما الأفكار العظيمة؛ فلا يهتم بها سوى عددٍ قليلٍ من الأفراد، الذين لا يكون لهم تأثير مباشر على عموم الناس، بمن فيهم الناس الأرفع تعليمًا، ولا على أوضاع المجتمعات. ولو كان عموم الناس، وعموم المتعلمين؛ قادرين على الاهتمام

بالأفكار الفلسفية العظيمة، والاستجابة لها؛ لكان التقدم الحضاري أسرع وأروع وأنضج، بل لكان الفارق هائلًا. لكن الأفكار العظيمة قد تبقى قرونًا تنتظر قائدًا سياسيًّا يعي أهميتها ويتبناها. أو تحصل أحداثٌ تؤدي تلقائيًّا إلى تطبيق الأفكار الفلسفية العظيمة...

ومما يُذْكر عن التركيز الإنجليزي على الجوانب النفعية للعلوم، أن العالم الشهير مايكل فاراداي حين: «اكتشف أن المجال المغناطيسي المتغير؛ يُحدِثُ تيارًا في موصِّل حراري، وقد كان هذا الاكتشاف هو الأساس لكل من المولد الكهربائي، والموتور الكهربائي» أي أنه أحد الاكتشافات الأساسية الكبرى التي قامت عليها مولدات الطاقة الكهربائية كجزء من نتائجها. لكن العالم فاراداي ككل العلماء الخارقين؛ كان مبتهجًا بالاكتشاف ذاته بغض النظر عن النتائج العملية، وحين علم بذلك رئيس الحكومة البريطانية آنذاك وليم جلادستون؛ سأله وما هي الفائدة من ذلك؟! أجابه فاراداي ساخرًا: «في القريب العاجل ستكون قادرًا على فرض الضريبة عليه» وهذا المثال يوضح الفرق النوعي بين الاندفاع للبحث والاستقصاء لمجرد الاكتشاف، مقابل التعلُّم اضطرارًا من أجل الشهادة والوظيفة والوجاهة...

والخلاصة أن العقل البشري قد ارتبط منذ وجوده بمتطلبات البقاء؛ فهو يتحرك وذهنه موجَّهٌ، للجدوى والمنافع وللأشياء، ولما هو محسوس. ونشأ العلم استجابةً للمتطلبات العملية. ثم جاء تعميم التعليم في كل العالم؛ وكان هدفه منذ البدء؛ ربط الأجيال بتاريخ أمتهم، والتشبع بالنسق الثقافي الذي تتوارثه الأمة، كما أن التعليم مشدودٌ بقوة باتجاهٍ عمليٍّ يُنَمِّي الاقتصاد، ويبني قدرات الهيمنة والتمكين، ويؤدي مختلف الخدمات، في مجالات الحرب، والسلم؛ والصحة، والقضاء، والبناء، ومختلف المرافق العامة، والقانون، والأمن والجيش، وغيرها من الخدمات التي تتطلبها حياة الأفراد والمجتمعات. إن تعميم التعليم في كل العالم؛ يرسخ الأنساق الثقافية المتوارثة، ويؤكد الولاء للبيئة، ولما هو سائد، أما من الناحية العملية فإنه يخدم غرضين؛ للأوطان وللدارسين، فهو خدمةٌ للمجتمع، ومصدرُ رزقٍ للعاملين. ولكنه في الغالب، قد

اعتمد على المعلومات الوصفية اللفظية بشكلٍ منفصلٍ عن واقع الحياة، وهذا الانفصال في التعليم، عن التفاعل مع المحسوس، ومع حركة الحياة؛ قد حال دون الالتحام الحقيقي بالمعرفة، وأدى إلى ضآلة نتائج التعليم على بناء المهارات العملية؛ فالعقل لا يَفهَم إلا حين تُقَدَّم له الفكرة مجسَّدة؛ ومثلما يقول المبدع وليم شوكلي: «إنك لا تستطيع، أنْ تفهم شيئًا إلا إذا رأيته بأشكال متباينة» وقيمة هذا التأكيد أنه جاء من عالم معروف بذكائه الخارق؛ ومع ذلك أدرك حاجة العقل إلى التجسيد، وأن الفهم مشروطٌ بالتعامل المباشر العميق مع المادة؛ هكذا هو العقل البشري؛ إنه يتجه إلى الأشياء المحسوسة ويتفاعل معها، لكنه يَنفُر من الأفكار المجردة. أما المهارات العملية؛ فمحالٌ أن تتكوَّن إلا بالممارسة. وقد أكد على ذلك جون بيكون، ثم فرانسيس بيكون، وبنى الفيلسوف الإيطالي فيكو فلسفته على أن الفهم لا يكون إلا بالتزاوج بين الفكر والمادة. لهذا السبب بقيتْ الأفكار الفلسفية، وكذلك الروح العلمية؛ من نصيب فئة قليلة جدا من الأفراد، أما عموم المتعلمين مهما ارتفع مستوى التأهيل الأكاديمي؛ فيبقون مشدودين للأشياء، وللجوانب العملية من الحياة؛ وبذلك انحصر تأثير الأفكار الفلسفية والعلوم، على الجوانب العملية؛ حيث تتجسَّد على شكل قوانين، ومؤسسات، ونُظُم، وأساليب، ومناهج...

إن التأثير في عموم الناس، يقتضي الاقتراب من مستوى وعيهم، والتعامل معهم بما يهمهم، وما يتعلق بالمنافع المباشرة، وما يُمْكِن فهمه بشكل مباشر. إن الهيمنة على العقل البشري في عمومه وعند مختلف الأمم؛ هي للأنساق الثقافية المتوارَثة؛ (الجهل البنيوي) حيث يتطبَّع بها الأفراد تلقائيًّا قبل بزوغ وعيهم، ثم يبقون محكومين بها؛ دون أن يعوا بل ينظرون إليها بتبجيل يصل حد التقديس؛ فمثلما يقول مؤرخ الحضارة ويل ديورانت: «العرف والعادة؛ يخلعان القُدْسية على كثير من السخافات» وهذا التطبع التلقائي بالأنساق الثقافية عامٌّ لكل البشر ولكل الأمم. وبسبب ذلك بقي تأثير العلوم الحديثة؛ ضئيلاً خارج النطاق العملي، وخارج متطلبات البقاء، وخارج أهداف الاستقواء، وخارج الهم الاقتصادي، وخارج بناء قدرات التمكين. وهذا التركيز على النافع المتعلق

بالبقاء؛ هو نتاجٌ لطبيعة الدماغ البشري، الذي يُعطي الأولوية المطلقة، لمتطلبات البقاء، وللتنافس مع الأقران؛ فالفرد يسعى للربح، والحرص على تحصيل المكانة الاجتماعية، إنه يهتم بما يتوخى منه نفعًا ماديًا، أو معنويًا. وتجنُّب ما هو ضار حفاظًا على حياته. أما البحث عن العلم لِذات العلم؛ فهو ليس من متطلبات الدماغ، ولا هو من وظائفه الطبيعية، ولكنه حالةٌ فرديةٌ خاصةٌ جدا، تنشأ عند فئة قليلة جدا من الأفراد من أمثال جاليليو ونيوتن وآينشتاين وأمثالهم من المهووسين بالكشف، والولع بمعرفة الحقيقة، إن معرفة الحقيقة بالنسبة لهذه الفئة؛ هي الكسب الحقيقي الذي لا يُعَوِّض عنه أي كسب آخر. وبهذا الشغف المتأجج تحققت الكشوف العلمية الكبرى. نجد ذلك شديد الوضوح في حياة مشاعل الفكر، من أمثال دافنشي، وجاليليو، ونيوتن، ومونتاني، وبايل وديكارت، ولوك، وديدرو، وهيوم، وكانط، وآينشتاين، وهايزنبرج، ونيلز بور، ووليم جيمس، وجون ديوي، وكارل ياسبرز، وفئة قليلة من ذوي الاهتمام التلقائي القوي المستغرق بالحقيقة، لذات الحقيقة، وليس من أجل نتائج عملية...

يُنبِّه البروفيسور ديفيد جريبر في كتابه الفخم عن (الديون) أن العقل المشغول بحب المال؛ لا مكان فيه لحب الفكر والمعرفة الموضوعية التي لا تقود إلى كسبٍ ملموس؛ فهو يؤكد أنه لكي تهتم بالمعرفة لابد أن: «تُحَرِّر عقلك من فكرة التكسب، عندئذ تبدأ قدرتك على التفكير» ليس هذا فقط بل إن الرغبة في الكسب السريع قد فتحت مجال الاستغلال فكثُرَتْ الشركات الوهمية، إن جشع الإنسان فخٌ لاصطياده؛ فلا شيء يُغري كإغراء أوهام الكسب السريع والوفير. يقول البروفيسور جريبر: «جنون الناس المطْبق، الذي كان أكثر عبثية، وشذوذًا من الجميع، والذي تَبَدَّى أكثر اكتمالا من أي شيء آخر؛ كان جنونًا قد بدأه مغامرٌ أطلق على مشروعه اسم (شركة لتنفيذ تعهدات الميزة الكبرى) لكن لا أحد يعرف ماذا تكون هذه الميزة الكبرى. إن الجموع التي اندفعت خلفه لم تسأله عن هذه الميزة الكبرى المزعومة، ولا ما هو المجال!!. هذا الرجل العبقري الذي ألقى بهذه المحاولة الجريئة، والناجحة على قارعة الطريق،

معتمدًا على سذاجة الجمهور. نصَّ ببساطة في نشرة التوزيع على أن رأس المال المطلوب هو نصف مليون ليرة، موزعًا على خمسة آلاف سهم بمائة ليرة، وتُوضَع ليرتان كإيداع للسهم الواحد. كل مشترك يدفع هذا الإيداع يصبح مستحقًّا لمائة ليرة سنويًّا عن كل سهم» يضيف: «كيف يمكن الحصول على هذا الربح الرهيب؟! ولم يتعطف هذا الشخص ليخبرهم في حينه، ولكنه وعد بأنه خلال شهر سوف تُعلَن التفاصيل كاملةً، وتمت الدعوة لدفع الثماني والتسعين ليرة الباقية من الاشتراك. في الصباح التالي في التاسعة تمامًا افتتح هذا الرجل العظيم مكتبًا في كورنههيل. حَدَّقَتْ الجماهير ببابه من كل صوب، وعندما أغلق المكتب في الساعة الثالثة، وَجَد أنه قد تم الاشتراك فيما لا يقل عن ألف سهم، وتم دفع إيداعاتهم. وفي المساء أبحر إلى القارة الأوروبية. ولم يَسمع عنه أحدٌ بعد ذلك قط» ويضيف: «فجميع سكان لندن تصوروا هذا الوهم في وقت واحد، ليس أن النقود من الممكن فعلا إنتاجها من لا شيء. إن الناس مغفلون لدرجةٍ كافية لتصديق أن ذلك ممكن. وأنه بواسطة تلك الحقيقة نفسها فهم قادرون فعلا على صنع النقود من لا شيء رغم كل شيء» إن حب المال والرغبة في الكسب السريع تُبطل فاعلية العقل؛ فمثل هذه الاحتيالات تتكرر كثيرًا في أشد المجتمعات تعليمًا وتقدُّمًا؛ لأن الرغبة في الكسب السريع تُعمي عن أبسط الحقائق، وتَصْرِف الذهن عن ملاحظة أشد الحقائق وضوحًا. إلى درجة أن أحد المحتالين أعلن في أمريكا طَرْحَ مساهمةٍ، لمكونات برج أيفل المقام في فرنسا؛ حيث زعم أنه سيجري تفكيك ذلك البرج الشامخ الذي يميز مدينة باريس كرمز حضاري؛ وبَيْع المواد الناتجة منه؛ فاندفع الناس للمساهمة، وبعد أن حصد المحتالُ المالَ، اختفى إلى الأبد...

إنِ السذاجة هي الأصل في السلوك الجماعي؛ فإذا حصل اندفاعٌ في أي اتجاه، فمن السهل أن يتحول إلى اندفاع عام، لكن هذه السذاجة تنكشف أكثر في سهولة الوقوع في مصائد المحتالين؛ حين يَعِدون بكسبٍ سريع، وفير. وكذلك من السهل أن يُصَدِّقوا أسخف الخرافات، إذا كانوا يبحثون عن الشفاء من مرضٍ مزمن، لذلك يكثر المحتالون في مجال الوعود بالكسب السريع

الوفير. كما يكثر الدجالون في مجال ادعاء الشفاء، من أشد الأمراض فتكًا. إن الناس بشيء من الهمهمة، والغموض؛ يُصَدِّقون الوعود التي تُغْدِق ما هو منتظَر لمن يستجيب، فحين اندفعت أفواجٌ من الناس من مختلف تخصصات التعليم خلف داعش، رغم المخاطر الشديدة؛ فإن هذا الاندفاع يتفق مع طبيعة الإنسان الساذجة. وحين ترى الهنود وهم يتمسَّحون بالثور المجلَّل بالملابس ذات الألوان الزاهية، فتأكَّد أن هؤلاء الهنود ليسوا أقل ذكاء من غيرهم. لكن لكل أمة خرافاتها التي تمارسها بكل ابتهاج وتصديق، بينما يراها الآخرون من الأمم التي لم تَعتدْ على هذا النمط من التخريف، لكنها هي ذاتها تُمارِس نمطًا آخر لا يقل تخريفًا، ومجافاة لمنطق العلم الموضوعي الممحَّص، مما لا يسيغه العقل الفاحص الناقد. لكن البشر يمارسون خرافاتهم بكل ثقة بأنها عين الصواب. إن المكتبة الإنسانية زاخرة بالكتب الحصيفة التي تؤكد تلقائية السذاجة البشرية، أما اليقظة الفاعلة؛ فهي نادرة، لقد توفرت للأمم القوية إمكاناتٌ هائلة، من دون أن يصاحب ذلك نمو في التعقُّل والحكمة، وتَزخُر المكتبة الإنسانية؛ بأفكار التعقُّل والرُّشْد لكن ذلك ما يزال أمنيات فلاسفة ومفكرين ومصلحين. ومن أحدث الكتب التي تكشف هذا الضعف البشري العام؛ كتاب (أنت على وشك ارتكاب خطأ فادح) لأوليفييه سيبوني، وكتاب (الإلمام بالحقيقة) لهانس روسلينغ، وكتاب (لمحة مختصرة عن تاريخ الهراء) وكتاب (موجز تاريخ الفشل، وكيف أفسدنا كل شيء) وكلاهما تأليف توم فيلبس. وكتاب (كيف يتحول الأخيار إلى أشرار) لفيليب زيمباردو وكتاب (أغبياء في السياسة) لجوزيف بناش. وكتاب (نظام التفاهة) لآلان دونو وكتاب (التوحش: عودة البربرية في القرن الحادي والعشرين) لتيريز دلباش. وكتاب (قوانين الطبيعة البشرية) لروبرت غرين. وكتاب (التأثير) لروبرت سيالديني. وكتاب (جدوى القوة) لروبرت سميث. وكتاب (كيف تُصنع الطاعة) لستانلي ميلجرام وكتاب (اللغة الصامتة) وكتاب (البُعْد الخفي) وكلاهما لإدوارد هول. وكتاب (تناقض الرؤى) لتوماس سوويل. وكتاب (التشريح السياسي للسيطرة) لبياتريس هيبو وكتاب (نظريات في الإخضاع) لجوديث بتلر. وكتاب (في القسوة) لكنعان مكية. وكتاب (في مواجهة العالم

المعاصر) لجان زيغلر. وكتاب (التفكير السريع والبطيء) لدانييل كانيمان وكتاب (البجعة السوداء) لنسيم طالب، وكتاب (المؤمن الصادق) لإريك هوفر، وكتاب (سيكولوجية الجماهير) لغوستاف لوبون، وكتاب (العبودية المختارة) لإيتان دو بويسي، وكتاب (المخ الأبله) لدين برنيت؛ هذه مجرد نماذج للكتب الفكرية التي تؤكد عمق وأصالة؛ عمى البصائر وأن هذا العمى؛ هو المهيمن على العقل البشري...

إن هذه النتيجة ليست غريبة؛ إذا عرفنا أن كل إنسان يولد بقابليات فارغة؛ فتتبرمج تلقائيًّا بما تنقله حواسه من البيئة إلى دماغه. ومثلما يؤكد ويل ديورانت: «تنتقل الثقافة على مر الأجيال. وهذا التراث ما هو إلا الأداة الأساسية التي تُحَوِّل النشء من مرحلة الحيوان، إلى طور الإنسان» ويقول الفيلسوف دانييل بينيت: «معظم الثوابت في الثقافة الموروثة؛ تشمل جميع أنواع العادات القبيحة، والأشياء الغبية، فكما أن القذارة والبراغيث جزءٌ من العالم؛ فكذلك نعطي براغيثنا الثقافية لأبنائنا فهي نقمة. هناك الكثير من البراغيث الثقافية، وهناك الكثير من الأشياء التي نورثها بدون أن نلاحظ ذلك» وهو بهذا يتحدث عن النسق الثقافي الغربي الموروث، ومن البديهي أن المعضلة بشرية عامة مع أنساقها الثقافية، التي تختطف عقول النشء قبل بزوغ وعيهم. فهذا الركام من الأنساق الثقافية؛ تتطبَّع به الأجيالُ تلقائيًّا. ثم يصبح عائقًا صلدًا دون تأثير الذخيرة الهائلة من الأفكار العظيمة، ومانعًا لامتزاج التفكير العلمي في البنيات الذهنية المتشكلة قبْله. وبسبب ذلك فإن العالم يعيش مفارقة كبرى؛ إن البشرية تتحرك وكأنها معزولة عن الثروة الفكرية العظيمة الباهرة، التي تراكمت خلال القرون، لكنها بقيت قابعة في الكتب، ولم تصل إلى العقل العام، وكذلك ظلت البشرية، معزِولة عن إدراك أن العلم ليس معلومات، وإنما هو بالدرجة الأولى تصحيح تصورات. إن العقل البشري، على مستوى الأمم، وعلى مستوى الأفراد؛ ما يزال مستغرقًا بالصراعات، وبمتطلبات البقاء، وبكل ما له علاقة بالقوة، وبالاقتصاد، وبالتنافس على الأهمية والمكانة والشهرة. إن السوابق التاريخية تمثل العائق الأشد استعصاءً، وصلابة دون التعقُّل والرُّشْد. لأنه ليس

عائقًا ناتجًا عن نقص في المعارف والمعلومات، فقد تمتلئ الأذهان بالمعلومات لكنها تبقى محكومة بالجهل البنيوي الموروث الذي تتكوَّن به البنية الذهنية القاعدية لكل فرد؛ فالجهل البنيوي يهيمن على العقل البشري في كل مكان في الماضي والحاضر، إن الجهل البنيوي لا يخضع لوعي الفرد نفسه، إنه يتحكم به ويكون مغتبطًا بهذا التحكُّم لأن بنيته الذهنية القاعدية هي المرجع وهي الحَكَم وهي مصْدر الغبطة. إن الاهتمامات والآراء والاتجاهات والمواقف والتصورات والولاءات والعادات الفكرية والسلوكية؛ تنساب تلقائيًّا من البنية الذهنية القاعدية دون أن تخضع للفحص والتحليل والمراجعة والتحقق...

لذلك فإنه عند تقييم ما يصدر عنا وعن غيرنا؛ يجب أن نستحضر طبيعة البنية الذهنية القاعدية، بانسيابها التلقائي؛ ليكون التقييم واقعيًّا، يأخذ في الاعتبار كل هذه العوائق التلقائية. كما يجب أن نتذكر دائمًا بأن العلم ليس معلومات، بل هو تصحيح تصورات؛ إن حشو الأذهان في مختلف مراحل التعليم، بمختلف المعلومات عن الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والأحياء، وغيرها من علوم العصر؛ لا يعني تصحيح البنية الذهنية القاعدية التي تكَوَّنت لكل شخص قبل التحاقه بالتعليم. إن الدارسين لا يلتحقون بالتعليم بقابليات فارغة، بل يكونون قد تطبَّعوا بالنسق الثقافي الذي ينساب تلقائيًّا من جيلٍ سابقٍ، إلى جيلٍ لاحق. وقد نبَّه لهذه المعضلة العامة والعميقة؛ فيلسوفُ العلم الفرنسي غاستون باشلار مؤكِّدًا أولوية الجهل البنيوي في العقل البشري في كل زمان ومكان؛ فيقول: «إن العالَم يغفل عن حقيقةٍ هامة؛ وهي أن الجهل مكَوَّنٌ من نسيجٍ من الأخطاء المتلازمة، والمتماسكة، وله بنيته الخاصة. وأنه بهذا الاعتبار؛ يجب على كل اختبارٍ موضوعيٍّ صحيحٍ؛ أن يعمل باستمرار على تحديد الوسيلة التي تمكنه من تصحيح خطأ ذاتي» ثم يُشدِّد التأكيد على أنه: «ليس سهلاً كما يُظَن؛ القضاء على الأخطاء (البنيوية)؛ إذْ أنها متماسكة، ومتناسقة. ولذلك فالضرورة تُحَتِّم على العقل العلمي لكي يتكَوَّن؛ أن يُحَطِّم العقل غير العلمي؛ إذْ أن الفكر العلمي ينبغي أن يَهدف إلى إصلاحٍ كليٍّ وشاملٍ للذات» إن هذه القضية التي يكرر فيلسوف العلم الشهير باشلار؛ التأكيد عليها

في عدد من مؤلفاته؛ هي معضلةٌ بشريةٌ عامةٌ؛ فالجهل البنيوي، تتوارثه أجيالُ كلِّ أمةٍ؛ وتتطبَّع به؛ قبل الالتحاق بالتعليم، ثم يأتي التعليم ليرسخه ويؤكده ويزكيه؛ إن التعليم عند كل أمة يهتم بالدرجة الأولى بربط الأجيال بتاريخها، وتمجيد أسلافها، وتأكيد عظمة أولئك الأسلاف، واعتباهم نماذج عالية؛ يقتدى بهم...

أما التفكير العلمي الموضوعي؛ فالأصل فيه أنه يَنشُدْ الحقيقة؛ إنه امتدادٌ للتفكير الفلسفي؛ وهو بهذه الصفة؛ لا يمكن أن يكون فكرًا عامًّا، يستوعبه العموم. إن التفكير الفلسفي، يبقى حتمًا منفصلاً عن التفكير العام، فعَظَمَةُ الأفكار الفلسفية، وكونها مرَكَّبة، وأنها تتكوَّن من عناصر خفية متباعدة، وكونها تستدعي إدراك علاقات غير مشهودة، وانفصالها عن المحسوسات، وكونها مسبوقة ببنية ذهنية قاعدية راسخة، بأولوية التطبُّع بالأنساق الثقافية المتوارَثة؛ إن كل هذه العوامل؛ متضافرة؛ تُبقي الأفكار العلمية والفلسفية؛ منفصلةً عن اهتمامات الحياة اليومية، وغير مفهومة للعموم، مهما تعلَّموا. إلا لمن يعيش الهمَّ المعرفي باهتمامٍ تلقائي قوي مستغرق. لكن نتائج الأفكار الفلسفية، تتحول مع الزمن إلى واقع الحياة؛ كنُظُم، وقوانين، ومؤسسات، ومعايشة، وأسلوب حياة، وقدرات مادية. إن التفكير الفلسفي، تفكيرٌ تجريدي، بل إنه موغلٌ في التجريد، إنه يهتم بالعوامل الكلية، وبالعلاقات غير المنظورة. إنه يمثل انفصالًا معرفيًّا حادًّا، إنه تفكيرٌ فرديٌّ، ولا يمكن أن يكون تفكيرًا جماعيًّا، إن التفكير الفلسفي، مضادٌّ لطبيعة العقل البشري. ولمَّا كان العقلُ البشري، مرتبطًا بالحس، وبالعمل، وبمتطلبات البقاء، فإن العلم منذ بداية الانبعاث الأوروبي الحديث، قد تمَّ تدشينه بواسطة العمليين، فقد نشأ العلم استجابةً للمشكلات العملية. ومثلما يؤكدِ تشالز فرانكل في كتابه (أزمة الإنسان الحديث) حيث يقول: «فالتفكير البشري، يبدأ بحاجةٍ عمليةٍ، أو بباعثٍ خُلُقي عنيف» ويضيف: «إن البحث الذي يقوم به الإنسان، هو في أساسه مسألةٌ عمليةٌ» ثم يبين أن: «الوسائل التي تؤدي إلى النظرية، هي النتائج النهائية، لتطوُّرٍ طويلِ الأمد، يبدأ بالمحاولات العاثرة التي يقوم بها الناس العمليون، والتجارب، والأخطاء التي

تقع لهم» إن المعرفة الحقيقية، لا تتكوَّن إلا بالتفاعل الجياش، بين الفعل والفكر، القائم على التساؤل، ومثلما يقول هايدغر: «الفعل التساؤلي، يدفعنا تجاه فضاءٍ مفتوحٍ، يشترط أن يتحول ويتفاعل بدوره أثناء التساؤل، وهكذا فهو يفتح أُفُقًا جديدًا؛ إذْ يرسم فضاءً يخترق كل شيء، ويتجاوز كل شيء» هكذا تتكوَّن النظريات العلمية، حيث أنه أثناء الأداء العملي، تنشأ مشكلةٌ عمليةٌ، تؤدي إلى إشعال الاهتمام التلقائي، لدى أحد المعنيين، فيواصل البحث باهتمامٍ تلقائيٍّ قويٍّ مستغرق، حتى يُشرق الحلُّ، أو تَبزغ نظرية...

لقد عاشت البشرية قرونًا ممتدة، قبل ظهور العلوم الموضوعية، ودون اعتماد على العلم. ومع ذلك تمكَّنتْ البشرية قبل نشأة العلوم، من مواجهة الكثير من العقبات، واستطاعت أن تواجه المشكلات العملية، وأن تتغلب على الكثير من الصعوبات العملية، من دون معارف نظرية، ومع أن الحياة كانت عسيرة، ومشحونة بالصعوبات، والمشقة، وقِلَّة الحيلة. إلا أن البشرية بمواجهة الواقع تمكنت من إنشاء السدود، والجسور، وشقَّتْ التُّرَع، وحفرت القنوات، واستخرجتْ الماء من باطن الأرض بواسطة الآبار، وابتكرت السفن، وأقامت القلاع، وشيدت القصور، وبنتْ المساكن، وابتكرت الكثير من الأدوات والوسائل، وحمت المدن بالأسوار وبالحاميات، واستأنست الحيوانات، وروَّضت الخيل، وأقامت صروحًا عظيمة مثل الاهرامات وسور الصين العظيم، بل إن النساء في بادية نجد إلى وقت قريب، كُنَّ يُتْقن بالتوارث عمليات الغزل والنسيج، وتشييد بيوت الشَّعْر، وهي عمليات معقدة، وكان النجارون الأميون، يصنعون عجلات وأدوات الساقية، وهي عجلات وأدوات معقدة. بل إنها شديدة التركيب والتعقيد، فهي تتكوَّن من أجزاء كثيرة، لكن الإنسان إذا تدرب عمليًّا، فإنه يكتسب مهارات دقيقة ومتنوعة، فيؤديها الأميون المدرَّبون بمنتهى المهارة التلقائية...

ويعود ذلك إلى أن الأصل في الدماغ البشري، أنه جهازٌ من أجل البقاء، لذلك يستثار بالمشكلات العملية؛ ذات النفع المرتبط، بمتطلبات البقاء؛ كالغذاء، والكساء، والماء، والمأوى، واحتياطات الأمان. حسب ترتيب سُلَّم

الحاجات الذي وضعه عالم النفس مسلو. لقد استُثير العقلُ عمليًا، فكانت بدايةُ العلم، بمضاعفة قدرة الحواس بأجهزة التقريب، حيث تتم رؤية النجوم، وتَجري مراقبة الكواكب. أو بأجهزة التكبير حيث تم اكتشاف الأحياء الدقيقة التي أحدثت زلزالًا في التفكير، فلم يكن أحدٌ يتوقع وجود هذه الأحياء الخفية العجيبة. ومثلما يبين كنيث بولدنج في كتابه (نقاط التحول العظمى): «إن تقدُّم العلم، يرجع إلى حد كبير، إلى سلسلة الابتكارات الرائعة، الموجَّهة نحو زيادة مدى حساسية جهاز استقبال الرسائل في الإنسان. وليس من قبيل المصادفة، أن التقدم العظيم للعلم، بدأ مع اختراع التلسكوب، والميكروسكوب. فكلاهما يمثل امتدادًا للعيون الإنسانية؛ أحدهما في مجال إدراك الأشياء الكبيرة البعيدة، والآخر في مجال إدراك الأشياء الصغيرة القريبة، وتستمر عملية التوسع في حواس الإنسان» وهنا يتضح لنا، السبب الرئيسي، لفشل التعليم، الوصفي، اللفظي المعتمَد في كل العالم. كما يتضح من ذلك أيضا السبب الرئيسي الذي قَفَزَ ببريطانيا منذ القرن السابع عشر، لتحتل المكانة الأولى في العالم، مقابل تراجُع مكانة إسبانيا وفرنسا. ثم تراجُع مكانة هولندا التي كانت الأسبق إلى المغامرات التجارية البحرية، فقد كانت فرنسا أقدم من بريطانيا تأسيسًا، وأعرق فكرًا، وأنشط أدبًا، وأرسخ تحضُّرًا، وأوسع أرضًا، وأكثر سكانًا. وكانت اللغة الفرنسية، في أوروبا هي لغة الفكر والسياسية والأدب، ثم هبَّت إنجلترا في عصر الملكة اليزابيث وما بعده؛ هبَّةً عمليةً، جعلَتْها تَلحَق، ثم تَسْبِق، ثم يتعاظم الفارق بينها وبين غيرها من الدول الأوروبية، تعاظُمًا هائلاً، فامتد سلطانها إلى كل القارات، فكانت لا تغيب الشمس عن مستعمراتها...

ولأن بريطانيا ذات ثقافةِ عملية، ومفهومة، وتتناغم مع احتياجات الناس، فإن المجتمعات التي استعمرتها، قد اكتسبت منها بسهولة هذه الروح العملية. ومثلما يؤكد الطبيب الأديب البريطاني سومرست موم في كتابه (تجربتي في الأدب والحياة): «المعرفة قد تطوَّرت لأسبابٍ عمليةٍ، في معمعة الكفاح من أجل البقاء» وهو يرى أن التحضُّر الحقيقي، لن يتحقق إلا بمقدار تجاوُز الإنسان لمتطلبات البقاء. وهو الهدف العالي، الذي ما يزال بعيدًا، غاية البُعْد. إن التعلُّم

والتعليم، قد ارتبط منذ نشأته الحديثة بالعمل، إنه تعليمٌ من أجل الوظيفة، والعمل، والخدمة، والإنتاج، والاقتصاد، وبناء القوة، وقدرات التمكين. لذلك فإنه في أوروبا القرن التاسع عشر كان يُسَمَّى «التعليم من أجل الخبز» إن التعلُّم ظل محكومًا بالأهداف العملية، وبتعميق الأنساق الثقافية، وتكريس الاندماج الاجتماعي. ومثلما يقول ويل ديورانت عن التعليم: «يكون مستودعًا للتقاليد، لا مسرحًا للتجارب الحية، فهو أصلح للحفظ، وليس للابتكار» إن الفرد يلتحق بالتعليم ليس من أجل العلم ذاته، وإنما من أجل الوظيفة، وتأمين لقمة العيش، وأيضا لأنه بات أسلوبًا للحياة، فالشهادة التعليمية هي معيار المفاضلة، وهي وسيلة الوجاهة. ورغم أن أمريكا وإنجلترا قمة الأمم المزدهرة؛ فإن الناقد الحصيف برتون راسكو؛ يؤكد في كتابه (عمالقة الأدب الغربي) أن التعليم في كل من إنجلترا وأمريكا مليء: «بأوجه النقص في النظم التعليمية» كما يؤكد أن: «الأمانة في الرأي شيءٌ غير منشود على الدوام في أقسام الجامعات الإنجليزية والأمريكية» ثم يؤكد استمرار الأخطاء؛ لأن: «الشيء المنشود هو تَقَبُّل رأي الغير والامتثال له» إن الأمم تُعلِّم أبناءها، لثلاثة أهداف: تخريج متخصصين، يَخْدمون المجتمع في المجالات المختلفة. وتأكيد، وترسيخ، الانتماء، وضمان الولاء، وتأهيل الأجيال لكسب رزقهم. وبذلك تطورت الوسائل، والأدوات، وقدرات التمكين، تطورات مذهلة. لكن دون أن يصاحب ذلك ارتقاءٌ فكريٌّ، وأخلاقيٌّ، وهذا وضْعٌ عام لكل الأمم؛ فالمستوى البشري، في شكلٍ عام، بقي بدائيًّا، فما يزال منطق القوة هو السائد. لقد تَجذَّر تأثير الثقافة البريطانية، بطابعها العملي، في كل المجتمعات التي خضعت لها. وما يزال تأثيرها شديدَ الوضوحِ في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي كندا، وفي أستراليا، وجنوب أفريقيا، وفي الهند، وماليزيا، وسنغافورة، وهونج كونج. إن الازدهار التقني والاقتصادي والسياسي، يَتَحرَّكُ مع الثقافة الانجلو سكسون أينما تحركتْ. لأنها ثقافةُ فعلٍ وعملٍ، وخدمةٍ، وإنتاج، وهي بهذه الصفة مفهومةٌ من الجميع، بعكس الثقافة الفرنسية، والألمانية الموغلتان في التجريد، حيث التعامل معهما، له متطلَّباتٌ فكريةٌ، ومعرفية، ليست محل اهتمام أغلب البشر...

في الثقافة الانجلو سكسون تكون العناية بالجوانب العملية النفعية، بل إن بعض مبدعيهم قد ثاروا ضد العلم لأنه كشف الحقيقة وحرمهم من دغدغات الخيال وكنموذج على ذلك المبدع البريطاني ديفيد هربرت لورانس الذي كتب يقول: «المعرفة العلمية قتلت الشمس؛ فجعلتْ منها كرةً من نار. عالَم العقل والعلم: هذا العالَم الجاف العقيم الذي يعيش فيه العقل التجريدي» وهكذا نجد أن العقل البريطاني هو عقلٌ عملي نفعي، يكره التفكير التجريدي وينفر منه ويؤثر التعامل مع المحسوس والتفاعل معه وتحويله إلى شيء نافع، أما المبدع منهم فقد يتجاوز الحس إلى الخيال وأوهامه. يقول العالم لويس وولبرت في كتابه (طبعة العلم غير طبيعية): «يختلف التفكير العلمي عن التفكير اليومي، وكلٌّ منهما يتعلق بفكرة مختلفة جدا عن الأخرى. وبشكلٍ عام فإن التفكير البديهي اليومي يهتم بالنفعية. أما العلم فيهتم بالفهم المجرد. بل إن أحد أهم الأدلة على البُعْد بين التفهُّم البديهي والعلم، أن المرء يعيش معيشةً مريحة دون أن يعرف أيِ شيء عن قوانين نيوتن أو مادة الدنا أو العلوم الأخرى» ويؤكد: «اتجاهنا إلى الإدراك البديهي في الحياة، وتتميز هذه العملية بأنها لا حاجة بها إلى الدقة أو إلى المعرفة الكاملة الشاملة؛ فنحن نبني قراراتنا بناء على ذاكرتنا وهي ذاكرة تتجه إلى التعميم وإلى التأكيد» إن 95 % من تفكير الإنسان وسلوكه هو انسيابٌ تلقائي مما تطبَّع به واعتاد عليه وتآلف معه...

من أبرز المفكرين الذين أكَّدوا حقيقةَ أن الأصل في العقل البشري؛ أنه مشدودٌ نحو المحسوس، وأنه قاصرٌ عن إدراك الكليات؛ المفكر الأمريكي من أصل لبناني، الدكتور نسيم طالب. حيث يؤكد في كتابه (البجعة السوداء): «أن انتباهنا ينساب دونما جهد مقصود؛ نحو الحسي والمثير والملموس، وليس نحو المعوَّل علِيه، جهاز الإرشاد عندنا مزروعٌ في عالَمٍ يكون المعوَّل عليه مضجرًا؛ فالأمر يحتاج منا إلى جهد جهيد؛ كي نرى الحقائق ونتذكَّرها» ويضيف: «نحن في حياتنا اليومية نكون محدودي النطاق، إلى حد مضحك» وينبه إلى أن: «لدينا ميلٌ إلى تعلُّم تفاصيل المسائل، وليس الإحاطة بالعموميات؛ فالمشكلة تتعلق ببنيةِ أذهاننا؛ فنحن لا نتعلَّم القواعد، بل يبقى تعَلُّمنا قاصرًا على الحقائق، ولا

شيء غيرها؛ فنحن نحتقر التجريد. لا بل نحتقره بكل ما أوتينا من شغفٍ وعاطفة» ويؤكد بأن العقل البشري خلال تاريخه الطويل؛ لم يتمرس بالتفكير النقدي الفاحص، وإنما يتقبل الأفراد ما يقبله الآخرون فيقول: «إن عملية التفكير هي عمليةٌ، تستهلك الوقت، كما أنها تستهلك كثيرًا من الطاقة؛ بحيث أن أجدادنا القدماء؛ قد صرفوا أكثر من مليون سنة، وهم يعيشون حياةً بدائية. وفي تحوُّلنا التاريخي عندما أصبحنا نستخدم أدمغتنا؛ فقد دَرَجْنا على استخدام هذا الدماغ من أجل مواضيع، وغايات تُعتبَر هامشية؛ فالدلائل تشير إلى أننا نفكر أقل بكثير مما نحن نعتقد» ويوضح أنه لن يكون صعبًا أن تجد: «شاهدًا على شدة محدودية معارفنا المستقاة من الملاحظة والتجربة، كما تشير إلى مبلغ هشاشة مداركنا عن الأشياء والأمور» ويطالب الجميع بأن يتوقفوا بتركيز ليدركوا: «الغشاوة التي تُعَشِّي أبصارنا؛ لماذا لا نكف عن التركيز على التفاصيل، ولا نركز انتباهنا على الأحداث الكبرى الممكنة» والأسوأ أننا نغفل عن حقيقة تفاهة وسطحية إدراكنا: «ونتصرف كما لو أننا قادرون على تحويل مسار التاريخ» إن ثقة كل فرد بآرائه ومواقفه وأفكاره هي ثقة عمياء. ومثلما يقول تولستوي: «كل إنسان يفكر في تغيير العالم لكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه» ويتكرر المعنى نفسه عند شوبنهاور وغيره...

إن الإنسان سواء على المستوى الفردي، أم على المستوى الاجتماعي، أم على المستوى الإنساني؛ يثق بذاته ثقةً عمياء؛ وهي ثقةٌ لا يؤيدها الواقع. لكنه يبقى مصرًّا على عماه. إن مجموع الحضارة الإنسانية، هو مجموعٌ هائل ولكن إسهام الأفراد، قياسًا بمجموع الحضارة، كإسهام قطرات المطر في مجموع نهر الأمزون. أو في المحيط الهادي؛ فنحن البشر كائنات حِسِّيَّة بامتياز، ولسنا كائنات عقلانية. لذلك فإن عدد عظماء الفلاسفة منذ سقراط حتى اليوم، لا يكاد يتجاوز عدد أصابع اليدين، وهذا أعظم شاهد على أصالة القحط الذهني، وجدب القرائح، وندرة التفكير الخارق، لذلك بقي الناس مشدودين للمحسوس، ولا طاقة لهم بمعاناة الفكر الجاد الخلاق. لكن هذا الالتصاق بالمحسوس، والتعويل عليه، قد أنتج حضارةً عمليةً معاقةً؛ فكريًّا وأخلاقيًّا.

لكنها وفَّرتْ بتحويل إشراقات الأفراد الخارقين؛ إلى ما لا نهاية له من الأدوات، والوسائل، وقدرات التمكين، وأسباب الراحة والرفاه، فقد تجمَّعت الإبداعات، والتطبيقات، وتكاملت الإنجازات، منذ أقدم العصور لتصبح كلها ملك الجيل المعاصر، وما سيأتي سيكون أعجب وأروع وأكمل...

أحد رواد عصر التنوير العربي محمد كرد علي؛ قد انتبه للطابع العملي الذي اتسمت به الثقافة الإنجليزية، التي قادت حضارة التصنيع، وأكَّد بأن هذا الطابع العملي، هو الذي مكَّن بريطانيا من ذلك الامتداد الهائل لسلطتها في العالم، واستمرت تلك الهيمنة حتى الحرب العالمية الثانية. وقد طبعتْ الحضارة المعاصرة بأجمعها، بهذا الطابع العملي. وكتب عن ذلك في كتابه (غرائب الغرب) يقول: «يَقِلُّ في العنصر الإنجليزي على الجملة، الاستعداد لتصوُّر الأفكار العامة، ويَكره النظريات المجردة، كما يكره المذاهب المقررة؛ فليس للإنجليزي شيءٌ من المجردات يشغله. بل نراه أبدًا مأخوذًا بضرورة العمل. أليس معنى هذا أن حاسَّة العموميات ضعيفٌ تركيبها في إنجلترا. بل إن العقلَ عمليٌّ لا يَقْبَل إلا ما يَلزمه، وينفعه؟؟ يَعرف كيف يضبط نفسه، ويُحدِّد حدوده حتى إذا سار بنفسه سيرًا نافعًا» ويضيف: «العقل الإنجليزي؛ يفكر في الأمور القريبة التي هي أكثر ما يكون ماسًّا به مباشرةً، وله من شواغله؛ في تحصيل ثروته، وتحسين زراعته؛ ما يصدُّه عن الحق، ولا يَفْرغ ذهنُه إلى النظر إلى الأشباح الفارغة؛ فهي بعيدة من الأرض جدا، غريبة عن الحياة الدنيا، غير ملتئمة مع شروطها وضروراتها. ولذا ترى الإنجليزي في مسائل الدين لا يتعدى أفق العالم الناظر بأحوال النفس والأخلاق الذي يبحث في المرئيات، وليس صوفيًّا أو مفكرًا. فهم أخصائيون لا تشوبهم شائبة؛ من يحاول في إنجلترا أن يُحَدِّث أحد علمائهم في العلم المجرد؛ لا يجد من يستمع لكلامه؛ فالعالم الطبيعي عندهم هو الذي يعرف كيفَ يصنع نموذجًا ميكانيكيًّا يطبق فيه العلم على العمل فقط. وهكذا إنجلترا في صناعاتها لا يصدر منها إلا ما يقع تحت حِسِّها ولا تقصُّ في قصصها إلا ما يماثل حالتها الطبيعية، وكذلك تاريخها ورواياتها وفلسفتها» ويضيف: «إننا في درس المدنية الغربية؛ لو أردنا استقصاء البحث؛ لاقتضى

علينا أن نصرف السنة، والسنتين لندرس حال مدينة واحدة؛ ينفد العمرُ ولا تنفد مادة الكلام عن رقي الغرب، وكلما تأملنا معاهده وحلَّلنا مادة قواه؛ نبكي لضعفنا وقوتهم، وجهلنا وعلمهم» إن هذا الطابع العملي يتفق مع طبيعة الإنسان بارتباطه بالأشياء المحسوسة، وتركيزه على الأشياء التي تنفعه في حياته؛ فهي متطلبات البقاء ذات الأولوية في وظائف الدماغ البشري. إن التركيز على متطلبات البقاء؛ يتفق مع الطبيعة البشرية، ووظائف الدماغ البشري، فليس من وظائفه الأساسية الحيوية، الانشغال بالبحث عن الحقيقة المحضة. أما المهووسون بالتحقق المعرفي؛ فهم أفرادٌ استثنائيون، اشتعل في أذهانهم الهمُّ المعرفي؛ فعاشوا باهتماماتهم العظيمة؛ منفصلين عن اهتمامات العموم...

أما عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد فيلفت النظر إلى أن الجانب العملي في الثقافة الإنجليزية قد غمر أعظم حدث سياسي في القارة الأوروبية؛ فعزوف الإنجليز عن التنظير واستغراقهم في الجوانب العملية؛ حَجَب عن العالم حقيقةَ؛ أن ثورتهم كانت أعمق وأسبق وأكثر أصالة من الثورة الفرنسية ولكنها مَرَّتْ وكأنها شأنٌ انجليزي محض، ولا شأن للعالم به، رغم أن نتائجها على الحضارة وعلى العالم كانت هي الأعظم والأعمق والأكثر تأثيرًا. وهذا هو ما ينبه له العقاد فيقول: «فالإنجليز قد ثاروا ثورتهم الكبرى، وشرعوا في حياتهم الدستورية، قبل أن يتململ الفرنسيون في مهاد الذل الذي اطمأنوا إليه، أو يُحَدِّثوا أنفسهم بالثورة على ظلم ملوكهم ونبلائهم. فكان الواجب أن يكون الإنجليز لا الفرنسيون؛ هم قدوة الأمم، في طَلَب الحرية، والدستور، وحاملي رايتها، في طريق الاصلاح الديمقراطي، والتجديد الحكومي. ولكننا رأينا الأمر على خلاف ذلك، ووجدنا كل أمةٍ ثارت في العهد الحديث؛ تحذو حذو فرنسا، وتصبغ ثورتها بصبغة الثورة الفرنسية، وتُعَنْوِن دعوتها بعناوينها، وتُسَمِّي مطالبها بأسمائها. فلماذا اختلف الأمر، وصارت الثورة الفرنسية عَلَمًا للحرية والدستور. ولم تكن كذلك الثورة الإنجليزية؟! ذلك لأن الفرنسيين؛ اتخذوا من ثورتهم نظريةً عامَّةً؛ فعمَّتْ وشاعت، وتعلَّقتْ بها خيالات الأمم كافةً. كأنها شيءٌ يخصُّ كلَّ أمةٍ، ولا يخص فرنسا وحدها. أما الإنجليز فقد

ثاروا ثورتهم لأنفسهم، ونظروا فيها إلى ما يهمهم، واقتصروا في مطالبهم على أحوالهم وشؤون بيئتهم؛ فبقيتْ خاصةً بهم، وظنها الناس شيئًا لا يعنيهم، ولا يجوز أن يتخطَّى شواطئ إنجلترا؛ فإذا ذكرتَ فضل التخصيص والتثبيت من المسائل القريبة في الثورة الإنجليزية؛ فلا تنس فضل التعميم ومط الحقائق في الثورة الفرنسية» إن استغراق الإنجليز بالعمل وعزوفهم عن التنظير قد شكا منه فلاسفتهم ومفكروهم؛ فبينما أن المفكر الفرنسي يجد الرفيع من المكانة، كما يجد الحفاوة الغامرة، والتقدير المتجدد، فإن الفيلسوف الإنجليزي لا يهتم به، وبفكره سوى شريحةٍ صغيرة من نفس المستوى. كما يؤكد ذلك برتراند رسل، وكولن ولسون وغيرهما...

يُبيِّن المبدعُ الشهير ستيفان زيفايج الفرق النوعي بين عزلة رجل الفكر، مقابل عموم المتعلمين فيقول عن رجل الفكر: «كان مستسلمًا للوهم الذي يُلقي في روعه، أن مملكة العقل قد تأسست على الدوام. أما ما يُحَرِّك الناس في الحواري والأزقة، وما يسود في الأعماق السحيقة من صفوف الجماهير، فلا يعرفونه، ولا يريدون أن يعرفوه» فالأصل في عموم الناس أنهم لا يهتمون بالفكر الفلسفي، ولا برؤاه الكلية ذات المستوى الرفيع، فهي تتسم بالتركيب الشديد والعناصر المتعددة، وحتى إذا اهتموا فسوف لا يكون اهتمامهم مصحوبًا بعتادٍ فكري يساعد على الفهم، مما يصرف اهتمامهم عنه سريعًا؛ فيبقون في نطاق الحس، ونطاق الجوانب العملية من الحياة. يضيف زيفايج التأكيد بأن: «أهل الفكر لا يُشَكِّلون إلا أقليةً ضئيلة، متفرقين في البلدان دونما رابط بينهم» إن الناس، مهما تعلَّموا؛ يبقون مشدودين للمحسوس، ويصعب عليهم التعامل مع الأفكار الفلسفية، والتصورات المجردة. لذلك فإنه رغم وفرة الأفكار المضيئة، والمعارف الدقيقة، والحكمة العميقة، على المستوى الإنساني؛ فإن كل هذا؛ يبقى قابِعًا في الكتب، وفي عقول عددٍ قليلٍ جدا من المفكرين. لكن الومضات الإبداعية التي فاضت من عقول القلة المبدعة، يتم تجسيدها في مواقع الإدارة، والعمل، والإنتاج. غير أنها، كأفكارٍ مجردة؛ تَظَل منفصلةً وبعيدةً عن عقول الناس في كل أقطار الأرض؛ فبقي تأثير الفكر الخلاق، محصورًا في الجوانب

التطبيقية، دون أن يفهمه العموم، ودون أن يهتموا به. لذلك يَشعر بالغُربة، كلُّ المبدعين، في كل العالم، على النحو الذي يصوره المبدع الإيطالي كالفينو حيث يقول: «أختارُ القفزةَ المباغتةَ، للشاعر الفيلسوف، الذي يسمو فوق وطأةِ العالم؛ مؤكِّدًا بذلك ما يَعتبِره الكثيرون، نشاطًا وحيويةً، في هذه الأزمنة، الضجيج، والدَّوِيّ، والعدائية؛ ينتمي إلى أقاليم الموت، وإلى ما هو أشبه بمقبرةِ سيارات قديمةٍ وصدئة» ويقول الفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيجا: «إننا نعيش وسط أُناسٍ مسرنمين؛ يتقدمون في الحياة، غارقين في حلمٍ مُطْبِق» ويضيف: «إن الذكاء حادثُ طارئٌ مُفْرِطُ الغرابة» لذلك فإن العقل البشري في كل مكان، ما يزال تُكَبِّله، وتتحكَّم به الأنساق الثقافية التي تتوارثها أجيالُ الأمم بتلقائيةٍ حتميةٍ صارمة، حيث ينساب، كلُّ نسقٍ ثقافيٍّ، انسيابًا حتميًّا تلقائيًّا، من جيلٍ أقدم، إلى الجيل الذي يليه. إن حتميةَ التناسل الثقافي، هي أشدُّ من حتمية التناسل البيولوجي. فالتناسل البيولوجي يتكوَّن من طرفين مختلفين، الذكر والأنثى. أما التناسل الثقافي، فهو يتضمن بداخله آلياتُ استمرارِه، فيتم التطبُّع به تلقائيًّا كما هو دون أي تغيير. إنه يمتد بكامل تعقيداته كما هو، أو تنضاف إليه تعقيداتٌ جديدة، مع كل جيلٍ، لأن السلبيات تتراكم تلقائية وبكثافة، أما الإيجابيات فلا تتحقَّق إلا بيقظةٍ، وعنايةٍ، وتركيزٍ، ومعرفةٍ؛ فهي ليست تلقائية. وبالمقابل فإن أي نَسَقٍ ثقافي متوارث، لا يشتمل بداخله على أيةِ آليةٍ للتصحيح. بل بالعكس ينطوي على آلية مقاومة لأي مغاير؛ آلية ذات استجابة تلقائية؛ تنفي، وتَستبعِد، وتَرفُض، أيةَ أفكارٍ طارئة مغايرة...

لذلك فإن الأنساق الثقافية المتوارَثة، ما تزال تُكَوِّن، وتحتل، وتتحكَّم بعقول البشر من كل الأمم. إن العقلانية، حتى في أشد المجتمعات تقدُّمًا، وأوفرها ازهارًا، هي عقلانيةُ، قوانين، وأنظمة، وإدارة، ومناهج، وأساليب، ومؤسسات. وليست عقلانية أفراد، ولا عقلانية مجتمعات. إن البنية الذهنية القاعدية لكل إنسان، تتكوَّن في السنوات الست الأولى من عمره. ثم تصبح بنيته الذهنية القاعدية حارسةَ ذاتها، فما يتفق معها، ينضاف إليها كنوعٍ من التعزيز، والتأكيد، والترسيخ. أما ما يتعارض معها فيُرفَض، ويُستبعَد، ويُلفَظ. إن الأنساق

الثقافية المتوارثة؛ ما تزال تتحكم بالعقل البشري حتى في أشد المجتمعات ازدهارًا. لذلك، نجد الرئيس الأمريكي البروفيسور وودرو ويلسون يشكو من هيمنة القوالب الموروثة على العقل الأمريكي فيقول: «يجب أن نَشُنَّ حملةً ضد القُوى التي حدَّدَتْ حياتنا، ووضعتنا في قوالب جامدة» هكذا هو العقل البشري؛ يبقى محكومًا بما هو متوارث؛ لأن التطبُّع، يسبق التعلُّم؛ فهو الذي تتكوَّن به البنية الذهنية القاعدية تلقائيًّا في الطفولة المبكرة. أما المعارف المحايدة، كالمعارف العلمية، والخبرات المهنية، والحكمة العملية، ومختلف العلاقات مع الآخرين؛ فيُكَوِّن لها الدماغُ أنماطًا ذهنية، منفصلةً، عن البنية الذهنية القاعدية، فالدماغ كما أثبتت العلوم المعرفية ليس موحَّدًا، وإنما كما أسماه العبقري مارفين مينسكي (مجتمع الذهن) فهو يتكون من مجموعة أجزاء مختلفة. إن الدماغ ليس موحَّدًا، وبدون مركز تَحَكُّم. على النحو الذي يشرحه بوضوح العالم ديفيد إيجلمان في كتابه الرائع (الحيوات السرية للدماغ) المهم أن ندرك أن المعارف الجديدة تكون منفصلةً عن البنية الذهنية القاعدية. لذلك فهي مفتوحةٌ للتوسُّع والتعمُّق، بالبحث، والاطلاع، والتأمل، والخبرات. كما أنها قابلةٌ للتقلص والتلاشي بالنسيان وعدم الاستخدام. إن هذه آليات دماغية فطرية عامة لكل البشر؛ ففي دماغٍ واحدٍ، يؤمن فردٌ بأشد الخرافات بُعْدًا عن المنطق، وفي نفس الوقت يكون عالمًا متمكنًا في الفيزياء، أو الكيمياء، أو في أي مجال...

إن التعلُّم يكون أسرع وأبرع كلما حصل التفاعل بين الفكر والفعل؛ فلابد أن يُدرِك الجميعُ، بأن الأصل في الإنسان، أنه يتعامل بالحس، ويَفهم الملموس، ويبحث عما يحتاج إليه، ويَهتم بما يتفق مع رغباته، ويلاحق طموحاته، ويَعتني بمصالحه، وهو شديد الحساسية لمكانته في المجتمع، ويَحرصَ تلقائيًّا على التلاؤم مع التيار الجاري، وتتكوَّن معارفه، ومهاراته، بالمؤثرات الحسية، وبالتبرمُج التلقائي، كما تتكون كفاياته، بالمعرفة المنظَّمة، وبتعبئة القابليات بتكرار الفعل. أما التعامل العميق، الفعَّال، مع الأفكار المجردة، فهو مستوًى خاص استثنائي محصورٌ بقلةٍ من المفكرين. ومثلما يؤكد

جوته: «كل ما هو عظيمٌ يتواجد بين الأقلية. لا يمكن تصوُّر أن يكون المنطق أمرًا شعبيًّا، قد يكون الشعور والعاطفة، أمرين شعبيين؛ إلا أن المنطق سيبقى دائمًا، الملكية الوحيدة لقليلٍ من الأفراد المميزين» إن العمق الفلسفي، والتعامل مع الأفكار المجردة، سيبقى شأنًا فرديًّا استثنائيًّا، حيث لا يندمج فيها اندماجًا حقيقيًّا سوى عددٍ محدودٍ جدا من الناس، من ذوي الشغف بالمعرفة، الذين يسعون لفهم الوجود، والتعمق في إدراك القضايا الكونية الكبرى، والاستقصاء حول المشاكل الإنسانية العامة العميقة، والتأمل العميق في أوضاع العالم. إن هؤلاء القلة، لا يتعاملون مع المعرفة، كوسيلةٍ مهنية، أو وجاهةٍ اجتماعية، وإنما يندفعون إليها اندفاعًا تلقائيًّا، بضغط التساؤلات، أو بفاعلية الشغف العميق المتجدد. بعكس الدارسين اضطرارًا. إن هؤلاء القلة ليسوا معيارًا يقاس عليهم. لذلك ضاعت أعمار الأجيال في كل الأمم في تعليمٍ قَسْريٍّ مُمِل، وفي تعَلُّمٍ اضطراري خانق...

ورغم أن الهدف الأساسي لتعميم التعليم، هو تأهيلهم للعمل في مختلف قطاعات الأعمال التخصصية؛ فإن اعتماد التعليم على التعليم الوصفي اللفظي، بعيدًا عن طبيعة الواقع العملي؛ فإنهم في الغالب؛ يتخرجون من دون مهارات عملية، باستثناء الطب الذي يقوم على التدريب العملي. إنها مأساة عميقة؛ يقضي الدارسون، نصف أعمارهم، في المراحل الدراسية. ولكنهم يتخرجون بدون مهارات عملية، فلا يكتسبون المهارات العملية، إلا بعد الالتحاق بالأعمال المهنية، من الممارسة، بعيدًا عن معلوماتٍ مدرسيةٍ انسلختْ من الذاكرة. ليس هذا فقط، بل إنهم ينتهون من الجامعة، دون تأهيلٍ معرفي أيضا. إن المعلومات ذاتُها، في أي مجالٍ، حتى لو لم يتم نسيانها، هي شبيهةٌ بمواد البناء، فهي ليست معرفةً إذا لم يمتلك الدارس؛ القدرة على بناء المعرفة من موادها؛ فالمعرفة لابد أن تخالط الذات، وتمتزج بالوجدان، لكنها مهما اتسعتْ وتنوَّعتْ، فلا يتكوَّن بها سلوكٌ، ولا تنبني بها مهارةٌ، ولا تتكوَّن بها أخلاق، ولا تتأسس بها عاداتٌ، فكرية وسلوكية. وهنا لابد من تأكيد أن العادات الذهنية، هي المكوِّن الأساسي، للتفكير، والسلوك، وللمعارف، والمهارات،

والقدرات الإنسانية. إن كل المعلومات، لا تصير عتادًا، فرديًا، تلقائيًا، جاهزًا، إلا إذا تَحوَّلت إلى عاداتٍ راسخةٍ؛ تكتظ بها القابليات وتكون جاهزةً دائما، للاستجابة. إن قابليةَ التعود، هي أهَمُّ خصائص الإنسان، فبدونها لا يوجد مهارات فائقة، ولا كفايات عالية، ولا ممارسات منتظِمة، ولا معارف تفيض بانسيابٍ تلقائيٍّ. إن العادات الفكرية، ومهارات الأداء؛ لا تتكوَّن، بحفظ معلومات، بل تتكوَّن بالممارسة اليَقِظة، المصحوبة بالشغف والحماس. إن مفتاح الفاعلية القصوى؛ هو الاهتمام التلقائي القوي المستغرق. وبذلك يحصل تشبُّع القابليات؛ فيفيض منها الأداءُ، كما يفيض النور من المصباح. أما المعلومات ذاتها، فهي مجرد مواد، لبناء المعرفة، لكنها لا تصير معرفةً إلا بتجليات العمل والممارسة. إن المعلومات ليست معرفة. بل هي مواد لبناء المعرفة، ويوجد فرقٌ نوعي بين المعرفة، والمواد المكوِّنة لها، فالكل ليس هو مجموع أجزائه، وإنما هو مركَّب جديد، ولكن تحويل المعلومات إلى مركب معرفي يتطلب قدرات معرفية نادرة، كالقدرة على إدراك العلاقات غير المنظورة. لذلك فإنه ليس أندر ممن يجيد استخدام المواد المعرفية، ليقوم بعمليات البناء المعرفي...

ثم إن المعلومات وحدها مهما كانت غامرة. لا تتكوَّن بها الكفايات، ولا تنبني بها المهارات، بل إن كثرة المعلومات؛ تَستنفد طاقة الذهن، وتُقلِّص قدرة الانتباه؛ ومثلما يقول عالم الاقتصاد هيربيرت سايمون: «ما تُبَدِّده المعلومات واضح؛ إنها تستنفد انتباه من يتلقونها. لذا فإن ثراء المعلومات يؤدي إلى فقر الانتباه» ومن ناحيةٍ أخرى؛ فإن مجال وفاعلية المعلومات، يختلف نوعيًا عن مجال وفاعلية المهارات العملية؛ فالطيار لا يكون طيارًا بالقراءة عن قيادة الطائرة، وإنما لابد أن يتدرب، مدةً كافية، لكي تتشبَّع قابلياته بالأداء التلقائي، ثم يبدأ المِمارسة، تحت إشرافِ مدرِّب خبير، حتى يكتسب مهارة الأداء التلقائي. وكذلك لو قرأ الفردُ، عن قيادة السيارة، أو القطار، فلن يَكتسِب مهارة القيادة. بينما الإنسان الأمي يَتدَرَّب عمليًا، فيقود قطارًا ضخمًا بمهارةٍ عاليةٍ. وهذا هو ذاته، بناء العادات، في أي مجال. فلن يكون المرء سبَّاحا ماهرًا، ولا لاعبًا مدهشًا، بالقراءة عن السباحة، أو عن قواعد اللعب. وإنما الممارسة

دائمًا؛ هي مصدر كل البراعات. ومع وضوح هذه الحقيقة الأساسية؛ فإن أعمار الأجيال؛ قد ضاعت، وتضيع، في تعليمٍ لفْظِيٍّ، يتجرَّعه الدارسون، بمرارة، وينسلخ من الذاكرة، بعد أداء الامتحانات. إن الخلل في العملية التعليمية، التي تقوم على الاضطرار، وليس على الاهتمام التلقائي؛ بات معروفًا على مستوى عالمي، في مختلف بلدان العالم، لكن التغيير لا يحصل بمجرد معرفة الخلل وإدراك ضرورة التغيير؛ إن اتخاذ قرار التغيير في أي مجال هو من أصعب القرارات؛ حيث تكثر الاعتراضات، وتتكاثف الشكوك، وتتكاثر المخاوف من النتائج، لذلك يتأجل اتخاذ أشد القرارات إلحاحًا. إن السوابق عوائق؛ فكل وضعٍ قائم يملك طاقةً قوية راسخة؛ تضمن استمراره. إن إصلاح التعليم في كل العالَم يتطلَّب تغييرات نوعية، ورغم اقتناع الكثيرين بضرورة التغيير إلا أن اتخاذ القرار بذلك ليس سهلاً كما أن الاتفاق على نوعية البديل من النظام الحالي، تكتنفه صعوباتٌ جمة...

إن تاريخ الانبعاث الأوروبي منذ القرن السادس عشر، يقدم دليلاً إرشاديًّا لكيفية التأثُّر، وعوامل التأثير؛ التي تَدفع الأفرادَ، إلى الاندفاع للعمل، برغبةٍ محمومةٍ، وشغفٍ متجدِّد، واهتمامٍ تلقائي قوي مستغرق، ما جعلهم يحققون الثورة الصناعية من العدم تقريبًا؛ لَم تتقدم أوربا في زمن الانبعاث، بالحصول على معلومات جديدة، بل تقدمت بواسطة طفرة الاهتمام التي خلقها المغامرون، مثل كولومبس، والمخترعون، مثل جوتنبرج، والحرفيون، الذين طوَّروا البارود، والمدفع، والسياسيون الحاسمون مثل هنري الثامن، وأصحاب المشروعات العملية، مثل هنري الملاح. وكلهم جاءوا من خارج مؤسسات التعليم. وحتى الجيل الثاني الذين تكوَّنتْ بهم الثورة الصناعية، مثل جيمس وات، وبولتون، وريتشارد آركرايت، كانوا من خارج مؤسسات التعليم. يقول الفيلسوف الأمريكي جون ديوي في كتابه (الطبيعة الإنسانية والسلوك الإنساني): «إن المميز الأكبر للإنسان؛ هو عمله. وهذا العمل أعني جهاز الفعاليات الإنسانية؛ هو الذي يحدِّد دائرة الإنسانية ويُحَتِّمها» أما عالم النفس الشهير إريك فروم فيؤكد: «أن المجتمع الحديث؛ قد علَّم الإنسان أن الهدف من الحياة؛ هو

أداء واجبه نحو العمل، أو نجاحه؛ فالمركز الاجتماعي، والنفوذ، والمال، باتت هي دوافعه، وغاياته. إن الإنسان لكل شيء، لكنه ليس لنفسه» ويقول بارت كوسكو في كتابه (التفكير المرن): «المال يقود كل شيء، في العلم، وفي الدراسات الأكاديمية» أما الدكتور عبدالغفار مكاوي فيقول في كتابه (ثورة الشعر): «إن العصر الحديث قد بدأ مع بداية الثورة الصناعية، باكتشاف القُوى البخارية والمائية. ومضى الإنسان الحديث في حربه المستمرة للانتصار على الطبيعة واستغلالها لمصلحته وتجريدها من كل أسرارها وألغازها» ويضيف: «لقد تغيرتْ نظرةُ الإنسان إلى الطبيعة، كما تغيرت نظرته إلى نفسه، وإلى المجتمع البشري؛ تغيرات كبيرة صاحبتْ ثوراته الصناعية، والاجتماعية، والدينية، والعقلية» وكما يوضح البروفيسور ديفيد ليفنجستون في كتابه الضخم (مسيرة الفكر الجغرافي) بأن طفرة الملاحة، منذ مستهل القرن السادس عشر، قد أحدثت ثورةً ضد الدراسة الأكاديمية، بل وضد الفكر المجرد بشكلٍ عام. لأن الملّاحين المغامرين، لم يجدوا لدى الجامعات، ما يرشدهم، إلى كيفية، التعامل مع مخاطر المحيطات الشاسعة، ولا ما يُعينهم أثناء سيرهم، في الظلمات البحرية المستحكمة. لقد استفزت، الكشوفُ الجغرافية العقلَ الأوروبي، وأخرجتْ الجامعات، من قوقعة الدراسات النظرية التي تعتمد على تكرار ما قيل من قبل، ودَفَعَتْها إلى الاهتمام بمتطلبات الحياة الواقعية، ونُشدان النفع العملي من المعرفة. ويؤكد هذا الباحث على: «الأهمية الفكرية الهائلة» للكشوف الجغرافية. ومثلما كتب مؤرخ الكشوف البحرية باري يقول: «لم يكن الاستكشاف الجغرافي، ومهارات الملاحة، وعلم الخرائط المرتبطة به، بمثابة المجال الرئيسي للنشاط الإنساني، الذي ارتبط فيه الاكتشاف العلمي، بالأساليب التطبيقية اليومية فحسب، بل إنه كان المجال الوحيد غالبًا، ومن ثم كانت أهميته الكبيرة في تاريخ العلم والفكر» بل إن المؤرخ راير هويكاس، لم يتردد بأن يؤكد بأن الثورة العلمية لم تبدأ مع كوبرنيكوس، ولا جاليليو، ولا نيوتن، وإنما بدأتْ مع هنري الملاح. إن هنري الملاح هو صاحب أول مشروع لاختراق المحيطات. إنه رائدٌ معترَفٌ له بالريادة المطلقة في مجال استكشاف

الطرق البحرية نحو الصين واليابان والشرق عمومًا. إن الأمم لا تستجيب للأفكار المغايرة للمألوف، وإنما تتكيَّف تلقائيًّا بتطبيقات الأفكار. إن مغامرة كولومبس قد تمخَّضَتْ عن نتائج لم تخطر على باله حين كان يلح على طلب التجهيز، كما أنها لم تخطر على بال الذين جهزوه. يقول كراوثر في كتابه (قصة العلم): «إن اكتشاف أمريكا؛ قد غيَّر موقع بريطانيا، في العالم تغييرًا جذريًّا؛ فبعد أن كانت بلدًا على هامش الحضارة؛ وجدَتْ نفسها على الخط الرئيسي لشبكة الطرق المستقبلية. وحتى ذلك الوقت؛ كانت اهتماماتها، وأنشطتها العلمية؛ جزءًا ضئيلاً وثانويًّا من الاهتمامات والأنشطة العلمية لقارة أوروبا؛ بزعامة الإيطاليين، والآن وجد الإيطاليون أنفسهم على هامش التطور المستقبلي للتجارة في المحيط الاطلنطي، وفي العالم الجديد، بينما تربعت بريطانيا بين العالمين؛ القديم والجديد، وحوَّل البريطانيون تَوَجُّههم من الشرق إلى الغرب» ويقول: «باكتشاف أمريكا انتقل مركز العالم الغربي من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الاطلنطي؛ فولَّد هذا دفعةً لتطوير الملاحة عبر المحيط في البلدان الواقعة على سواحل الاطلنطي» ويضيف: «كان النظام الاجتماعي الإنجليزي؛ قد طرأ عليه تغيُّرٌ عميق. وتَخَلَّقَتْ أجواء للتوحيد بين العقلانية، والحماسة، مغايرةً تمامًا لأمجاد إيطاليا البائدة. في هذه الأجواء ازدهرت التجارة والعلم ازدهارًا مدهشًا» لقد تأججت الحماسة، وعمَّ التفاؤل، وسادت الثقة بالمستقبل؛ إلى درجة أن السياسي الإنجليزي جون ويلكنز أصدر عام 1638كتابًا بعنوان (اكتشاف عالم جديد) ثم أصدر كتابًا آخر عام 1641 بعنوان (مقال حول كوكب جديد) تَحدَّثَ فيه عن إمكانية صناعة مركبة طيَّارة؛ تنقل الإنسان إلى القمر، وأكَّد أن الأمر مرتهنٌ بظهور شخصيات فذَّة مثل كولومبس؛ لتغزو الفضاء وتَهبط على القمر...

لذلك قاد فرانسيس بيكون، ثورةً فكرية، ضد منطق أرسطو، وضد الفلسفة المدرسية، وضد التقوقع الأكاديمي. وحصل تحوُّلٌ، جذري نحو المعرفة العملية النفعية، وإلى التجريب. لقد أطلق بيكون شعار: «المعرفة قوة» إنها دعوة للسيطرة، على الطبيعة، وتسخيرها، لبناء قدرات التمكين. ووجَّه اهتمامه نحو

الشباب، لأن عقولهم لم تتكلس، مؤكدًا أن الشباب، ينبغي أن يجتهدوا في الاختراع، وفي الأعمال التنفيذية، وفي ابتكار المشروعات الجديدة. كانت صيحةُ المعرفة، من أجل الاختراع، والعمل، والإنتاج، وتسخير الطبيعة للنفع العاجل؛ صيحةً عامة. إلى درجة أن طليعةَ العلم روبرت بويل كتب يقول: «إنني لن أجرؤ، على إعلان نفسي، باحثًا طبيعيًّا حقيقيًا؛ ما لم تستطع مهارتي، أن تجعل حديقتي، تُنتِج أعشابًا، وزهورًا أفضل، أو يُنتِج بستاني فاكهةً أفضل، أو أن يُنتج حقلي قمحًا أفضل، أو أن تنتج مزرعتي جبنًا أفضل» ويؤكد ديفيد ليفنجستون: «بأن أثر الكشوف البحرية، كان عظيمًا» وبأن: «الكشوف الجغرافية، أدت إلى مشاكل اقتصادية، وإدارية، تتعلق بنظامٍ جديد تماماً، يحتاج إلى إجراءات عاجلة» وهكذا كان النشاط العملي، سابقًا للرؤى العلمية، بل هو الذي جرَّ العلماء، إلى مجال التفكير العملي، والبحث عن حلولٍ علمية للمشاكل العملية. ليس هذا فقط، بل إن الكشوف الجغرافية، وأخبار البحَّارة المغامرين، قد استنفرت الوعي الشعبي. ومثلما يقول ليفنجستون: «إن الاهتمام بالأماكن البعيدة، أدَّى إلى ظهور الأدب الشعبي المصمَّم، إما لجعل الحرف التجارية للجغرافي معروفةً للجمهور الأوسع، أو لجعل القراء، يلهثون وراء الاكتشافات العالمية» إن من يخاطب الناس بالمنفعة المحسوسة، وبالعمل، يكون مفهومًا؛ فيجد الاستجابة، دون عوائق ثقافية، أو فنية، أو معرفية. ولأن بريطانيا كانت ذات ثقافة عملية؛ لذلك قامت الثورة الصناعية، في بريطانيا، بعد منتصف القرن الثامن عشر. أي قبل قرنٍ تقريبًا من قيامها بأي مجتمع آخر. حيث تأخر قيامها، في فرنسا فلم تبدأ إلا قُرْب منتصف القرن التاسع عشر. ولم تبدأ الثورة الصناعية، في ألمانيا، إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر. ثم بدأت في أمريكا عامِ 1860 أما في روسيا فبدأت الثورة الصناعية مع بداية القرن العشرين. إن هذا أكبر دليل على أن العقل البشري، يتفاعل بكفاءة، وسرعة، ودون عوائق، مع العمل، ومع الحس، ومع الأشياء المادية، بعكس التعامل مع الأفكار الفلسفية المجردة. إن الإنسان يستطيع أن يكتسب الكفايات العملية دون أي تعليم. فعندما بدأت شركة أرامكو أعمالها في المملكة العربية السعودية،

ضمَّتْ عددًا كبيرًا من الرجال الذين جاءوا من البادية، بدون أي تعليم، بل من دون خبرات بالبيئة الحضرية، فقد جاءوا من البادية؛ وتمكنوا بسرعة، أن يجيدوا المهام العملية التي تَطَلَّبها العملُ. كما تمكنوا بمجرد المحادثة مع رؤسائهم الأمريكيين، من إتقان اللغة الإنجليزية. وهو يشبه ما حصل، في الثورة الصناعية في بريطانيا، ثم في فرنسا، ثم في ألمانيا، ثم أمريكا، ثم في اليابان، ثم في روسيا. إن بداية النشاط العلمي الحديث، جاءت استجابة لصيحة العمل، والمنفعة الآنية، والإنتاج، والتسخير، والسيطرة. إن تأكيد دور العمل يستهدف إيضاح أن البشرية، لا تستجيب للأفكار المجردة، التي لا تتفق مع ما تطبَّعَتْ به، ولا تستوعب محتواها، وأن الخوف مما يُسَمَّى الغزو الفكري، هو نوعٌ من الفوبيا؛ لأن الأنساق الثقافية المتوارثة؛ تملك ما يشبه الجهاز المناعي، حيث تكون الاستجابة التلقائية؛ هي الرفض القوي، والمقاومة الحادة؛ لأي فكر مضادٍّ لما تم التطبُّع به. لذلك فإنه لا يوجد أي خطر على الأنساق الثقافية من الأفكار الفلسفية مهما كانت قوية، وذات كثافة عالية؛ إلا إذا تبنتها قيادةٌ سياسية وأحالتها، إلى أساليب عمل، وإلى نظُم، وقوانين، ومؤسسات، ومنهج حياة. وبسبب هذه الطبيعة البشرية المرتبطة بالعمل وبالأشياء الحسية، وبالمنفعة؛ فإن الحضارة المعاصرة رغم كل الثروة الفكرية العظيمة المتاحة، ورغم كل التقدم الهائل للعلوم، فإن الحضارة بقيتْ مرتهنة للصراعات، بين الدول، والتنافس بين الأفراد، كما أن العلوم انحصر تأثيرها في مجالات الخدمات والاقتصاد للدول، ومتطلبات البقاء للأفراد. لقد توقفت الحضارة عند مستوى الوسائل، والأدوات، وقدرات السيطرة والتمكين. لقد تطورت الأدوات والوسائل تطورات هائلة، وتوافرت مقومات الراحة والرفاه بشكل لم يكن يخطر ببال بشر، وتعاظمت قدرات القوة، ومقومات التمكين. لكن استمرت الصراعات واستمر التركيز على متطلبات البقاء، أي أن الإنسانية بقيت شديدة التخلف؛ فكرًا وأخلاقًا؛ قياسًا بما أنجزته في مجالات الوسائل والأدوات وقدرات التمكين. فالتحضر الحقيقي يكون بمقدار تجاوز متطلبات البقاء أي أنها ظلت معاقةً وبدائيةً من الناحية الأخلاقية والفكرية...

إن الحضارة المعاصرة، هي حضارةُ السيطرة، والتنافس، والعمل، والخدمة، والإنتاج الجماعي الغزير والإنتاج بالجملة. إنها في أحسن الأحوال حضارة الاقتصاد، أما في الأسوأ فهي حضارة الصراع، والحرب، والسيطرة، والمكائد المتبادلة، وارتكاب أفظع الأعمال من أجل المزيد من الكسب، أو المزيد من النفوذ، أو المزيد من الهيمنة. هكذا هي حضارة العصر، إنها ليست حضارة الفكر، والعلم، والأدب، والفن، والعدل، والتحقُّق؛ فهذه القيم العليا؛ ليست موجودة إلا في أذهان أفرادٍ مبعثرين في مختلف أقطار العالم، ولا يملكون سوى الكتابة، والدعوة للتي هي أحسن، إن الأفكار الإنسانية العظيمة؛ لا تَشغل سوى قلة من الأفراد الذين تزخر نفوسهم بالألم من أجل الإنسانية التائهة. إن برتراند راسل واحد من هؤلاء القلة الذي يتألمون لما يرونه من خلل بنيوي فظيع في الحضارة، نجده يقول: «لقد تَحَكَّمَتْ في حياتي ثلاثة انفعالات؛ البحث عن المعرفة، والإشفاق على الذين يقاسون ويعانون، والحنين إلى الحب» ويؤكد راسل أن كل إنسان يعيش مسجونًا داخل نسق ثقافي يتحكَّم به، وبأن على كل فرد أن يتحرر من هذا السجن الأبدي. وينتقد راسل نظام التعليم ويقول: «أشعر بالسعادة؛ إذْ أنني لم أذهب إلى المدرسة من قبل. وإلا افتقرت إلى المقدرة والشجاعة على التفكير المبدع المستقل» ويضيف: «الإرغام في التربية والتعليم؛ يدَمِّر الأصالةَ، والذكاءَ، والرغبةَ، في المعرفة؛ فالأطفال الذين يُرغَمون ليتعلموا؛ يكتسبون كراهية العلم، وعندما يفكرون فإنهم لا يفكرون تلقائيًا» لأنهم تعوَّدوا على أن يقادوا. والمعروف عن راسل أنه تعلَّم في طفولته على يد معلم خاص، ثم اعتمد على ذاته؛ فعلَّم نفسه. يقول في مذكراته: «بدأتُ أفكر في المسائل الفلسفية في الخامسة عشرة من عمري؛ كنت أفكر بمفردي، وكانت الرياضيات تشغل معظم وقتي، وتسود محاولاتي الأولى في التفكير الفلسفي. لكن الحافز الذي دفعني إلى التفكير هو الشك» ويؤكد أنه ليس مطلوبًا أن تُقَدَّم معلومات للدارسين: «فالمهم هو أن نجعلهم يحبون القراءة» إن المعلومات المفروضة، تُنسى؛ لذلك لا يكون تعليم الدارسين بإعطائهم معلومات، بل بغرس الشغف بالمعرفة ليبحثوا بأنفسهم، بدافع الولع التلقائي. إن

راسل لم يلتحق بالتعليم إلا في المستوى الجامعي الذي يقول عنه: «لما كنت طالبًا في الجامعة؛ كان شعوري أنا ومعظم زملائي، أن المحاضرات كانت مضْيَعة تامة لوقتنا» ويصف التدريس في الجامعة بأنه: «كان تدريسًا رديئًا كل الرداءة» هذه الرداءة لم تكن في جامعة من جامعات العالم الثالث بل هذه الرداءة في أعرق جامعات الغرب. فماذا يمكن أن يقال عن التعليم في المجتمعات المتخلفة؟!. وهذا أحد الشواهد الكثيرة التي تؤكد عُقْمَ التعلُّم اضطرارًا، وضرورة أن لا يكون التعلُّم إلا بدافع الشغف، والاهتمام التلقائي القوي المستغرق. إن مهمة التعليم ليست بإلزام الدارسين بحفظ مواد ينسونها بسرعة. بل مهمته الحقيقية، غرس الشغف بالعلم، وبناء القدرة الذهنية للتعامل مع الواقع، وتكوين رؤية راشدة، عن الإنسان، وعن المعرفة وكيفية بنائها، وعن الوجود وكيفية النظر إليه، وتربيته على الاحترام المتبادل مع الآخرين...

إن الحضارة المعاصرة منذ انطلاقتها، كانت ذات أهداف عملية، لذلك صارت حضارة عالمية؛ لأن التقدم يمكن أن يتحقق دون أن تتخلى الأمة عن نسقها الثقافي، كانت الحضارات القديمة، تدمِّر الأقوى، الأقلَّ قوة، أما الحضارة المعاصرة؛ فإنها فتحت أبواب التقدم للجميع، وتبين من ذلك أن أوضاع الشعوب مرهونة بالاتجاه؛ فبمجرد أن تعرفت اليابان على أسباب نهضة الغرب استطاعت بسرعة أن تتقدم، ثم صارت الدول تتسابق في نفس الاتجاه، سنغافورة وكوريا الجنوبية، والصين، وفيتنام، وماليزيا وتركيا وإندونيسيا والبرازيل وغيرها؛ فكل أمة تسعى لامتلاك المزيد من الثروة، والمزيد من القوة، والمزيد من النفوذ، والمزيد من الهيمنة؛ هذه هي أهداف الحضارة المعاصرة، وهذه هي رؤيتها، منذ أن تفجرت طاقات المغامرة والاستكشاف، وهذه هي الفلسفة التي قامت عليها، واستمرت منتظمة على هذه الفلسفة، وما تزال. إن الأفكار مهما عَظُمَتْ، والعلوم مهما تقدمت؛ تبقى في خدمة الاقتصاد، وخدمة الوسائل، والأدوات، وبناء قدرات السيطرة، والتمكين. وقد جاء تعميم التعليم في كل العالم، استجابةً للمطلب الاقتصادي، من الجهة الرسمية، ولمتطلبات البقاء بالنسبة للأفراد؛ فالأفراد يتعلمون للوظيفة والعمل.

العقل البشري تتحكَّم به متطلبات الاقتصاد، وصراعات البقاء. فحين يؤكد غولدمان وليامز: «هيمنة الفعالية الاقتصادية على كل ما عداها من الفعاليات البشرية» فإنه يعبِّر عن حقيقة واقعة. إن هذه الهيمنة هي الخلل الجذري العميق الذي أفسد الحياة، وأبقى الوعي النسقي المتوارث سائدًا ومهيمنًا. ويصاحب هذا الخلل خللٌ أشد، وهو تكريس الأنساق الثقافية المتوارثة. أما الهمُّ المعرفي المحض، فهو في كل العالم، محصورٌ بعدد قليل جدا من الأفراد، من ذوي الاهتمام التلقائي القوي المستغرق. إن حضارة العصر، كانت منذ البداية، أي منذ تأسيس مشروع هنري الملاح للاكتشاف، ومنذ مغامرة كولومبس، ومنذ ظهور فلسفة فرانسيس بيكون، كان نشاطها بمختلف اتجاهاته، يستهدف تسخير الموجودات للمنافع العاجلة، والسيطرة على العالم. حتى ديكارت وهو مؤسس الفلسفة العقلانية الحديثة. يكتب مستنكرًا ضياع الطاقة الفكرية واستنفاد الاهتمام على معارك حول ما جاء في الانجيل ويؤكد: «بدلاً من هذه المعاك؛ ينبغي وضع المعرفة العلمية، والتقنية الشاملة، في متناول الممارسين الفعليين؛ مثل البحَّارة، والبنائين، ورجال الأعمال، والرأسماليين الجدد في مجال التعدين» ويقول: «أقنعتني اكتشافاتي، أنه من الممكن، أن نصل إلى معرفةٍ، ستكون ذات نفعٍ في هذه الحياة، وأنه بدلًا من الفلسفة التأمُّلية التي تُدْرَس الآن، نستطيع أن نجد فلسفةً عملية، نعرف بواسطتها، طبيعةَ وسلوكَ النار، والماءَ، والهواءَ، والنجومَ، والسماءَ، وكلَّ الأجسام الأخرى، التي تحيط بنا، وبالإضافة إلى ما نَعرفه الآن من المهارات المختلفة لعمالنا، نستطيع أن نستخدم هذه الكينونات، وفق الأغراض المناسبة. وبذلك نجعل من أنفسنا سادةَ الطبيعة ومالكيها» بل إن عالم الأحياء الشهير توماس هنري هكسلي يؤكد: «الفعل وليس المعرفة، هو الغاية العظمى من الحياة» أما الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر؛ فيُعطي أهميةً أساسيةً لعمليات تحويل الأشياء من أجل الانتفاع فيقول: «الفن هو تغييرٌ وتحويلٌ في صورة الأشياء، لهذا فهو أكثر وأشد تحقيقًا للحياة من الحقيقة، التي ليست سوى تحنيطٍ لما يَظهر» ونفس المعنى يؤكده الفيلسوف البريطاني ألفريد وايتهد فيقول: «في عالم الواقع، أَولى بقضيةٍ ما، أنْ تكون مجديةً من أن

تكون حقيقة، إذْ أن أهمية الحقيقة، هي في توسيعها لمجالِ الجدوى» لذلك فإن المتعلمين في مختلف بلدان العالم، لا يبحثون عن المعرفة لذاتها، إنهم لا يسعون للمعرفة؛ من أجل المعرفة. وإنما المعرفة مجرد وسيلة لبناء قدراتٍ عملية، من أجل الوظيفة، ومن أجل العيش، ومن أجل النفوذ، ومن أجل القدرة على المنافسة في معركة التزاحم على الأهلية، ومن أجل السيطرة...

لكل ما سبق فإن التعليم لم يُغَيِّر وعيَ المتعلمين، ولم يصحِّح نمط تفكيرهم. إنهم فقط تعلَّموا ليصيروا (خَدَميين) أي باتوا أشخاصًا تطبيقيين، يَخدمون في مختلف التخصصات. وهي تخصصات شديدة الاختلاف، فلا يوجد مثلا أي تقارُب بين المجال الذي يخدم فيه الطبيب، أو المحامي، والمجال الذي يخدم فيه الطيار، أو المحاسب. هذا ما ينبه إليه العالم الأمريكي البروفيسور فكتور فركس في كتابه (الإنسان التقني) كما يؤكد بأن: «العلوم لم تُصبح، ولن تصبح جزءًا من مواقف الإنسان الثقافية» فالناس حتى في أمريكا كما في غيرها، ليسوا علميين إلا في النطاق الضيق للتخصصات. ليس هذا فقط. بل إن البروفيسور كريستوفر كلاوس يؤكد: «أن أغلب الوظائف التي يشغلها خريجو الجامعات الآن حتى في صناعة الكومبيوتر؛ يمكن أداؤها بفاعلية، من قِبَل أشخاصٍ لم يحصلوا على أي تعليمٍ جامعي» ويضيف هذا الأستاذ الجامعي الأمريكي ليؤكد: «كما يشار دائمًا، فإن الانخراط في الجامعة بالنسبة إلى خريجي التعليم الثانوي، قد أصبح اضطرارًا دفاعيًّا» ليس هذا فقط بل إن التعليم الجمْعي يكرِّس التفكير النمَطي، الخَطِّي، ويَقتُل الخيال، ويُعَوِّد على الامتثال، ويرسخ الأنساق الثقافية المتوارثة. وكما يؤكد ذلك المفكر الأمريكي ريتشارد واطسون في كتابه (عقول المستقبل) فينقل عن داونا ماركوفا التي تنبه في كتابها (العقل المتفتح) إلى: «أن التعليم يعلمنا أنه يوجد إجابة واحدة لكل شيء، بدلاً من التمتع بعقليةٍ متفتحة. وهذا لا محالة يقتل إدراك الاحتمالات للوصول إلى إجابات أخرى» ويضيف واطسون: «الأفكار من نتائج التلاقح، وابتكار توليفات، وتركيبات جديدة، وصِلات جديدة، وطُرُقٍ عصبية جديدة» ويبين أن التعليم يُربي على الالتزام بمسارٍ محدَّد، ويُرَسِّخ الاستمرار على المعهود،

والاكتفاء بالجاهز. ثم يقول: «لو أردتَ التفكير الثوري، فأنت لا تحتاج لمزيد من الخبرة، بل المزيد من الانطلاق الفكري؛ تَحَرَّر فكريًا. إنْ كنا نسعى نحو تفكير جديد؛ فلابد أن نوقف الروتين، وأن ننمي مساراتٍ عصبية جديدة، فأنت في حاجة دائمة إلى الإثارة الذهنية» ثم يؤكد بأن: «الناس يميلون لبذلِ أفضل ما لديهم؛ عندما يقومون بعملِ أشياء تثير اهتمامهم» أما ويلفريد تروتر فيبدد الوهم بشأن فاعلية التعليم فيقول: «من الضروري؛ أن نحذِّر أنفسنا من الظن بأن، بأن تطبيق الطريقة العلمية؛ تُوسِّع قوى الذهن البشري؛ فلا يوجد ما هو أكثر تناقضًا بالتجربة من الاعتقاد بأن إنسانًا برز في واحد أو حتى أكثر من فروع العلم؛ يكون أكثر احتمالا بأن يفكر بطريقة عقلانية في المسائل العادية من أي إنسان آخر» إن أوهامًا كثيرة بشأن التعليم الجمعي لابد من تبديدها، فالعقل البشري لا يستجيب قسرًا وإنما يندفع اندفاعًا لما يعشقه ويهواه، وينفر مما يتم إلزامه به، ويلفظ ما يُفرض عليه...

لذلك فإنه في كل العالم، لا يتوقف عن نقد التعليم، حيث تقام له مؤتمرات، وتُعقد ندوات، وتُكتَب مقالات، وبحوث، ودراسات، وكتب، وتقارير. ولكن معضلة التعليم ما تزال قائمة في مختلف بلدان العالم. لأن التغيير لا يتحقق بالأفكار وحْدها، مهما كانت كثيفة، ومهما كانت مقنعة. بل الأفكار، تتطلَّب وجود رؤية واضحة بديلة، واتخاذ قرار بالتغيير، وقدرة على التنفيذ من غير تردُّد. في فنلندا وُجِد من يتخذ قرار التغيير، ويُنَفذه، فصار كلُّ العالم، يتحدث عن هذا التحول العظيم، لكن لا أحد يحذو حذوها، فما زال الأمر يقف عند مستوى الإعجاب. إن أوضاع الأمم، لا تتغير بالأفكار العزلاء، بل إن الأفكار تحتاج إلى صاحب قرار حاسم يتبناها، ويعمل بجديةٍ، وحسم، لتحويلِها إلى واقع. وهذا هو ما حاولتُ إيضاحه في كتابي (الريادة والاستجابة) فإذا كان السياسي حازمًا وحاسمًا، وهو ذاته صاحب الرؤية الجديدة، المغايرة للجاري، فإنه يستطيع تحويلها إلى واقع بسرعة وفاعلية. إن للأوضاع القائمة، قوةٌ راسخة، تُديم الاستمرار والبقاء، إن قانون القصور الذاتي، يعمل هنا بكل ثقله، فالسوابق عوائق، فهي ذات قدرةٍ هائلةٍ على الاستمرار. إن الاستمرار هو

الأصل، أما إيقاف هذا الاستمرار، أو تحويل الحركة في اتجاه مغاير أو مضاد، فهو يُجابَه تلقائيًّا بمقاومةٍ قويةٍ، وربما تكون المقاومة عنيفة، لأن أيَّ تحويلٍ، هو ضد الأصل، إن عملية التحوُّل في أي مجتمع، تشبه تحويل نهر عن مجراه، إن ذلك يتطلب إقامة سدٍّ يحجز مياه النهر، كما يتطلب شق بداية المسار الجديد، لجعْل النهر يخلق مجراه الجديد. إن تغيير أي شيء مما جرى عليه مجتمعٌ، يتطلب أنْ توجد رؤية عن البديل، وأن يوجد قيادة حاسمة تتخذ قرارًا قويًّا بالتحوُّل، وإجراءات حاسمة لتحويل المجتمع للاتجاه البديل. إن ذلك شرطٌ لأي تحويل ضد وضعٍ قائم. إن قانون العطالة الذي اكتشفه نيوتن يسري على المجتمعات، مثلما يسري على الأجسام والأجرام الكونية...

إن عقولَ البشر يُكَوِّنها، ويحتلها، ويتحكَّم بها الأسبقُ، ثم يبقى هذا الأسبق يحتلها، ويتحكم بها، فالإنسان في طفولته يتبرمج تلقائيًّا بأحد الأنساق الثقافية السائدة في العالم، ثم يَدخل المدرسةَ، فيُكَرِّس التعليمُ في ذهنه النسقَ الذي تَبرمَج به، كما يُرَبِّيه التعليمُ على النمطية، وعلى التفكير الخطِّي، وعلى الامتثال، وعلى التقليد، وعلى التقبُّل دون مناقشة، وعلى الاعتماد على غيره؛ فيصبح مغتبطًا بما تطبَّع به، وممتلئًا بالقناعة بأنه في المسار الصحيح، فيظل يقاوم التغيير. تبقى الفلسفة تقاوم هذا التردي العام الفظيع، الذي يدفع إليه التعليم الرديء المشحون بالأيديولوجيا على اختلاف اتجاهاتها. لذلك ترى إيلين جيلكرست الاكتفاء بتعليمِ الطفل أن يقرأ ويكتب فقط. ثم يُطلَق؛ ليفكر بحرية، ويتعلَّم بنفسه. فتقول: «كل ما عليك فعله لتعليم طفلٍ، هو أن تُعَلِّمه أن يقرأ وتتركه. وكل ما عدى ذلك، هو غسيلُ مُخٍّ» وبهذا الإطلاق، ينجو من تجميد الخيال، كما ينجو من تنميط عقله، ومن تعويده على التفكير الخطي، ذي المسار المسيَّج، كما يتحرر من قوالب الامتثال؛ فتنمو شخصيته في جَوٍّ مفتوحٍ، يُجرِّب مختلف المسارات، ويَكتشف مختلف الاحتمالات، ويعيش التحدي أمام نفسه، وأمام أهله، وبيئته، وعارفيه. إن المطلوب هو خَلْق الاهتمام التلقائي القوي؛ بالمعرفة الموضوعية، وتحريك طاقة الخيال، وغرْس الشغف بالعلم، بمعناه الحديث، وبناء الثقة فيه ليعتمد على نفسه. وبذلك يتعلَّم اندفاعًا وليس

اضطرارًا؛ فتتفتَّح قابلياته؛ ومثلما يقول جون سكانلان في كتابه (مدخل إلى الشك): «فالعقل يتضاعف نشاطه حين يعمل لنفسه، أكثر بمائة مرة حين يعمل للآخرين» إن الإنسان حين يندفع للتعلم أو العمل عن رغبة ذاتية وشغف متجدد؛ فإن طاقاته تتدفَّق تلقائيًّا. والأهم أن ينفك أسر عقله من التطبُّع التلقائي. إن العقل البشري مختطَفٌ بواسطة التطبُّع بالأنساق الثقافية المتوارَثة، ويتكرس هذا التطبُّع خلال مراحل العمر، أما المعلومات العلمية في الفيزياء والكيمياء والأحياء والرياضيات وغيرها، فتتكوَّن لها أنماطٌ ذهنية منفصلةً عن البنية الذهنية القاعدية. وهذا هو الذي يجعل العلوم لم تؤثر في العقل البشري بشكل عام؛ فتكرست نتائج العلوم في تأهيل الأجيال لمختلف الأعمال الخدمية. كما أمدت الدول بالقوة، وقدرات تمكينية للسيطرة. كما وفَّرت للناس وسائل الراحة والرفاه. لكنها لم تؤثر على البنيات الذهنية القاعدية؛ فبقي العقل البشري في كل مكان؛ محكومًا بمختلف الأنساق الثقافية التي تتوارثها الأمم؛ فالجهل البنيوي يسيطر على العقل البشري في الغرب والشرق وفي كل مكان..

تلك هي حقيقة التعليم الجمعي في كل العالم. لكن لدى أكثر الناس تصوُّرات خاطئة عن التعليم. إنهم يعتقدون بأن التعليم يصنع وعيًا جديدًا مغايرًا لوعي غير المتعلمين في المجتمع الذي ينتمون إليه. وبسبب هذا الوهم صارت المجتمعاتُ، تَستهين بغير المتعلمين مدرسيًّا، حتى لو كانت تجارب الحياة، قد جعلتهم حكماء. إنني حين أتأمل النجاحات الباهرة لبعض الشخصيات مثل سليمان الراجحي، أو حين استمع إلى بعض القصائد، لبعض الشعراء الأميين، أجدها إبداعًا مدهشًا رائعًا، كما أجدها مليئةً بالمعنى، وزاخرةً بالحكمة، إنها فيضٌ إبداعيٌّ مدهش، فأين هذه الحكمة العميقة، من سذاجة أكثر الذين دُفِعوا إلى التعلُّم دفعًا، فعانوا منه سنوات طويلة، ثم خرجوا منه، كارهين له، نافرين من كل ما يرمز إليه. إن الوعي، لا ينمو، وينضج، ويتغيَّر بحفظ معلومات متنافرة عن الفيزياء، والكيمياء، والأحياء، والرياضيات، والجغرافيا، والتاريخ، وغيرها من المعلومات الجزئية المتنافرة. أما التعلُّم الذي يكون صانعًا لوعيٍ جديد مغاير؛ فهو التعلُّم الذاتي الذي يحصل على مستوًى فردي، حين تَجتاح

الفردَ تساؤلاتٌ حادَّةٌ، فيندفع، باهتمامٍ تلقائي قوي مستغرق، للبحث، والاستقصاء، والتأمل، والمقارنات. ويتأكد الاندفاعُ، كلما أوغل في البحث، فيتكوَّن فيه شغفٌ متجدد، فيرتبط وجوده بالكتاب، ويصبح البحث العميق الدائم؛ هو متعته المتجددة. إنه بهذه الروح تتكوَّن المعرفةُ الموضوعية، وبهذا الاندفاع، تتغير الأنماط الذهنية، ويكتسب الشخص رؤيةً علمية كاشفة، تتأسَّس على الإيمان العميق بقيمة العلم، وتتكوَّن بالتحقُّق الموضوعي. ولكن هذا لا يحصل إلا في حالات فردية نادرة، وهو يَنتج عن تساؤلات حادَّة تَفرض نفسها على عقل الفرد فرضًا لا محيص عنه...

أما عموم المتعلمين في كل المجتمعات، فإنهم يُدفعون إلى التعلُّم دفعًا. فكل الأجيال في هذا العصر لابد أن ينتظموا في المدارس والجامعات، إن كل الأطفال ما أنْ يبلغوا السادسة حتى يَدفعهم أهلهم إلى المدارس. ليس عن رغبةٍ ذاتية واعية وإنما قسرًا. فإذا كبروا واصلوا التعلُّم اضطرارًا. ومن هنا يأتي عقمُ التعلُّم السائد في كل العالم، لأنه نتاج القسر، أو الاضطرار، وليس نتاج الشغف، والاهتمام التلقائي. ومثلما أكد افلاطون في الجمهورية: «المعرفة حين تُكتسَب بالإكراه، لا يمكن أن تبقى في الذهن» وقد أثبت العلمُ، أن استجابةَ قابليات الإنسان، مرتبطةٌ بمراكز المتعة في الدماغ؛ فإذا كان الشخص يتعلم مُكْرَهًا، أو مضطرًا، ولا تدفعه للتعلُّم رغبةٌ جارفة، أو حاجة ذهنية ملحَّة؛ فإنه سوف يعاني من تَمَنُّع قابلياته. ومن ناحية أخرى، فإن التعليم في أي مجتمع، تابعٌ للنسق الثقافي، ومحكومٌ به. وليس حاكمًا له. إن الأمم لا تقاد بالعلم، وإنما تقاد بالمؤسسات وبالقوانين والنظم، كما أن قابليات الإنسان محكومةٌ بالطبيعة البشرية، فلابد من فَهْم هذه الطبيعة، وأن يتم التعامل معها، باستخدام مفاتيحها، وقد باتت هذه المفاتيح معلومة، بواسطة علم الأعصاب والعلوم المعرفية. ومثلما تقول المبدعة مارجريت آتوود: «ليس العلم هو الذي يسيِّر العالم. بل طبيعتنا. أما العلم فليس سوى وسيلة» إن البنيات الذهنية للمتعلمين، لا تتغير بالمعلومات إلا ضمن نطاق التخصصات المهنية. إن الطيار، أو الضابط في الجيش أو في الأمن، أو الطبيب، أو المهندس، أو المحاسب، أو غيرهم؛

يكونون عقلانيين في حدود الممارسة المهنية. أما ولاءاتهم، ورؤيتهم للعالم، ومنظومة القيم، وسلسلة التحيُّزات ونمط التفكير؛ فكلها تبقى محكومة بالأنساق الثقافية التي نشأوا عليها، وتَبرمَجوا بها، فصارت هي نافذتهم لرؤية العالم، وهي معيارهم للحكم على ما يجري في الدنيا من تفاعلات...

مع طوفان المعلومات الهائل وبعد أنْ توفَّرتْ للجميع الوسائل الآلية وغيرها للحصول بمنتهى السهولة على أية معلومة في مختلف المجالات فإن العالم سوف يشهد خلال السنوات القريبة القادمة تغيرات جذرية في التعليم وفي المؤسسات التعليمية وفي التعامل مع الذين يعتمدون على أنفسهم للحصول على المعارف المتنوعة المتاحة وتأهيل أنفسهم لحياة دائمة التجدد والتغيُّر فلا يبقى سوى التحقق عمليًّا من قدرة كل فرد على الأداء في المجال الذي استحوذ على اهتمامه واستفرغ فيه طاقته وبهذا التحول المنتظَر قريبا تنتهي معاناة الملايين من تضييع أعمارهم في تجرُّع معلومات لا يسيغونها ولا يشعرون أنهم بحاجة إليها...

ومعلومٌ أنه بتعميم التعليم منذ فجر العصر الحديث؛ صار كل فرد يقضي ربع قرن من عمره لتهيئته للدخول في مجال العمل، وبهذا تضيع أعمار الأجيال، في محاولةِ تهيئتهم للعمل. لكنهم ينتهون غالباً من دون أن يكتسبوا مهارات مهنية؛ باستثناء الأطباء لأن دراستهم عملية ونظرية معا. أما غيرهم فيتخرجون من غير تأهيلٍ حقيقي فلا يستوعبون معرفةً نظرية، ولا يكتسبون مهارات عملية، لأن انتظام الدارسين في التعليم لم يكن بدافع الرغبة التلقائية في العلم، ولا هو نتيجة الشعور الذاتي بالحاجة إليه، ويضاف إلى ذلك إغفال الاختلاف النوعي بين مجال تحصيل المعرفة النظرية، ومجال اكتساب المهارات العملية، مَما جعل التعليم النظامي النظري ضئيل النفع، مالم يكن التدريب العملي عنصراً أساسيًّا فيه كما هو حال تعلُّم الطب...

إن مراحل التعليم النظامي في كل العالم تمتد امتداداً مفْرطاً يكاد يستغرق أزهى وأنشط أعمار الأجيال أما الذين يواصلون الدراسات العليا فتزداد إمعاناً

في استغراق سنوات العمر فالدارس بعد حصوله على الدكتوراه لا يكاد يكتسب خبرة كافية في العمل وينضج في الممارسة العملية حتى يبلغ سنَّ التقاعد وبهذا فإن سنوات التهيئة للعمل صارت أطول من سنوات العمل ذاته!!!...

إن التعلُّم هو ثمرة التفاعل العميق بين الذات العاملة والعمل الذي يراد إنجازه فتتلاحم قابلياته وتتآزر قدراته وتتفتح أمامه طرق الأداء ومسالك الإنجاز وكما قال المبدع الفرنسي إكزوبري: «إن الأرض تفيدنا عن أنفسنا أكثر مما تفيدنا كل الكتب لأنها تقاومنا» فما يقاوم اتجاه الفرد يستنفر طاقته إن الإنسان وهو يجابه مشكلات الحياة؛ يبحث عن مخارج للخلاص من المخانق، وعن حلول للمشكلات، التي تعوق تطلعاته، وبذلك يكتسب معرفةً وقدرة فمقاومة الرغبة والبحث عن المنافذ لتحقيقها تُنَمي القدرة؛ أي أن مشكلات الواقع تُعَلِّم الإنسان فالإنسان يتعلَّم من المواجهة المباشرة مع عوائق الحياة وليس من اضطراره لحفظ معلومات لم يشعر بحاجته إليها ولم تدفعه الرغبة للبحث عنها فيعاني من الكلال والملل والنفور والانسداد بدلاً من أن يتفاعل معها من أعماق ذاته...

إن التشرُّب التلقائي السريع والمتقن للغة وللثقافة التلقائية في السنوات الأولى للطفولة مقارنةً بضآلة نتائج التعليم الذي يمتد عشرين عاماً يؤكد أن قابليات الإنسان لا تنفتح إلا من داخل الذات وليس من خارجها فحرمان الأطفال من الاحتكاك المباشر والمبكر بالعمل بدعوى المحافظة على براءة الطفولة أو الخوف عليهم من المتاعب والادعاء الواهم بأنه يعوق النمو قد أدى إلى تأخير النضج وربما أنه أدى إلى تضييع إمكانات النضج فالنضج مثل اكتساب اللغة لابد أن يتحقق بالتفاعل التلقائي الجياش مع الحياة كما هي حالة اكتساب اللغة ضمن فترة الطفولة فإذا تجاوزها الطفل من دون أن يتاح له الاكتساب فإنه يصعب تداركه فإذا تجاوز العتبة العُمْرية صار الاكتساب محالاً. إن المشاركة المبكرة في الحياة العملية؛ لا تعني الإرهاق أو الإنهاك النفسي والبدني وإنما تعني المشاركة والانطلاق والتفاعل الإيجابي مع شؤون الحياة اليومية...

إن نظرية التلقائية التي توصَّلْتُ إليها؛ تنتهي إلى أن إبعاد الأطفال عن الاحتكاك المباشر والمبكر بعوائق الحياة هو الذي أدى إلى استمرار الفجاجة والهشاشة في التعامل مع صعوبات الواقع ونتج عن هذا الامحال البيئي، والفراغ النفسي؛ هذا الكلال في العمل، وهذا الانغلاق في الفكر، وهذا الضعف في التعلُّم، فلا بد أن يكون التعليم مكتظاً بالتساؤلات، والتدريب على التفكير النقدي، وبالنشاط، والحركة، ومواجهة العقبات. كما أنه يجب اختصار سنوات الدراسة ودمج مراحل التعليم ليتاح لهم الدخول في مجال العمل الملتزم والمنتظم بعد الثامنة عشر أو قبل ذلك...

رغم أن السوابق عوائق، وأن كل وضعٍ قائم يملك طاقة قوية للاستمرار؛ فالخروج عن المسار المعتاد عليه؛ ليس من طبيعة العقل البشري؛ ومثلما يقول عالم النفس إدوارد دي بونو في كتابه (تعليم التفكير): «لا يوجد لدينا آلية ذاتية من أجل التفكير بالمسارات المناظرة. ونحتاج لكي نقوم بهذا إلى إطارٍ خارجي؛ إذْ بدونه؛ لا يستطيع العقل أن يتخلى بشكلٍ طبيعي عن مسار؛ ليسلك مسارًا آخر» إن التاريخ، وأوضاع الحضارة، وتجارب الأمم؛ كلها تشهد بأن لأي وضع قائم؛ طاقة آسرة للاستمرار. لذلك تتضافر أسباب التغيير ولكن الأوضاع تستمر كما هي فاتخاذ قرار التغيير ليس سهلاً وتواجهه عقبات كبيرة ومتنامية. لكن رغم ذلك فإنني أجزم أن الأيام سوف تكشف أنه بالنسبة لعموم الدارسين لا مبرر لهذا الطول المفْرط في الانقطاع التام للتعليم النظامي ولا جدوى من كثرة المواد الدراسية لقد لاحظ كثيرون من علماء التربية خلال القرون الثلاثة الماضية في مختلف الأقطار ضآلة النتائج رغم هذا الطول المفْرط لمراحل التعليم فتعددت النظريات وتنوعت التجارب وتباينت الاقتراحات وتضاربت الرؤى لكن النتائج مازالت هزيلة فمشكلة الضياع والهدر في الأعمال والأعمار والأموال مازالت قائمة فأين يكمن الخلل...؟؟

إن الخلل يكمن في انفصال التعليم عن حركة الحياة، وعدم إحساس الدارسين بتفاعل المواد مع واقعهم اليومي؛ فنتج عن ذلك حضور الملل، والسلبية، والانسداد، وغياب التفاعل؛ وبذلك غابت الرغبة التلقائية في العلم،

وانتفى الشعور بالحاجة الذاتية الملحة إليه؛ فما يجب تداركه هو التعليم من خلال العمل، وتكوين الرغبة الجياشة الدائمة في التعلُّم، والتدريب على حُسن التفكير، وخلخلة التلقائية البليدة، واستنفار العقل، وغرس الإيمان بقيمة العلم، ولن يكون ذلك بإعطاء المعلومات مهما بلغت من التنوع والكثافة والجدة بل لابد من إثارة تساؤلات مستفزة وخَلْق اشكالات مزلزلة لكي يندفعوا بأنفسهم للبحث عن الإجابات المريحة؛ فالتعلُّم الحقيقي، يتطلب أن يتلاحم العقل مع العاطفة تلاحماً كاملاً، فلا يتعلَّم من ينتظر أن تأتيه المعلومة من غيره، ومن دون رغبة عميقة متوقدة، أو حاجة ذاتية ملحة. وإنما يتعلَّم من تؤرقه حرقة الأسئلة؛ فيبحث بعمق، وينقب باهتمام، ويقرأ باستغراق، ويتطلع إلى الحقيقة بلهفة...

لذلك فإنني لا أشك في أن الإنسانية سوف تكتشف بمرارة شديدة فداحة ضياع الأعمار خلال أزمان طويلة لأجيال متتابعة وهي تستهلك أعمار الدارسين، وتضطرهم إلى أن يتجرعوا مرارة التعليم دون رغبة في العلم، ولا لهفة دافعة إليه، فلقد نتج عن إغفال الطبيعة التلقائية للإنسان ضياعُ جهود عظيمة، وإهدار طاقات هائلة، وتبديد سنوات ثمينة من أعمار الدارسين خلال أجيال ممتدة متعاقبة وهذه خسارة فادحة على المستويات المحلية والإنسانية...

إن طبيعة الإنسان التلقائية تستوجب إحداث تغييرات جذرية في مؤسسات التعليم واختصار المراحل وتقليل المواد والتعامل المباشر مع مشكلات الإنسان وصعوبات الحياة والاستغناء عن الكثير من الشكليات والأهم من كل ذلك لابد من إدراك ارتباط التعلُّم بدائرة المتعة في الدماغ فالدماغ لا يستقبل كُرْهًا وإنما يستجيب إيجابيا إذا استمتع بالمجال، فإذا درس وهو كاره فإن قابلياته تتمنَّع عن الاستجابة الإيجابية. إنني أجزم بأن العالم سوف يتخلى مستقبلاً عن الأساليب الحالية للتأهيل، ويجد طريقة أفضل للتحقق من نمو الكفايات، تختلف عن الأسلوب الحالي في منح الشهادات. إن من طلائع تغيُّر الرؤية، أن الرئيس الأمريكي قد أصدر أمرًا تنفيذيًا بأن لا تكون الشهادات الدراسية معيارًا لقياس التأهيل الوظيفي. لقد أكد على جَعْل القدرة العملية والإنجاز العملي ومهارات

الأداء هي معيار التأهيل لأن الإنسان بطبعه يركز اهتمامه في المعيار الذي يحقق له الأهمية ويؤهله لوظيفة فإذا كانت الشهادات هي المعيار فسوف تكون هي هدفه فينحصر اهتمامه في الحصول عليها ويبقى محصَّناً بها فهي تُزَكِّيه وتحميه وتحيطه بهالة تمنحه الأهمية وتضمن له أوهام الكفاية فلا يكون ملزَماً عملياً لإثبات كفايته خصوصاً في المجتمعات المتخلفة التي لا تفرق بين المعلومات ومهارات الأداء مع أنهما حقلان مختلفان نوعيًّا...

إن التعلُّم الحقيقي هو الذي يخالط الذات، ويذوب في النفس، ويتفاعل بقوة في كيان الفرد، ويبقى جاهزاً ليفيض هَوناً أو تدفُّقا تلقائيًّا كلما دعت الحاجة. لكن هذا التعلُّم المخالط للنفس لا يمكن أن يحصل إلا بعد استثارة قوية كافية تؤدي إلى تدفُّق الاندفاع من داخل الذات حتى تتفتح كل قابلياته للتشرب والتفاعل فالإنسان لا يتعلم تعلُّما حقيقيا إلا برغبة ذاتية عميقة بالمعرفة، أو بإحساس شديد بالحاجة النفسية إليها؛ لمواجهة مشكلة ملحة تحاصر عقله؛ فالإنسان كائنٌ تلقائي لا يستقبل المعرفة قسراً وإنما يتشرَّبُها تشرُّباً بإلحاحٍ ولهفةٍ من داخله كما أنه لا يتدفق في الأداء اهتماما وإنتاجاً وإتقاناً وإبداعاً إلا إذا جاء المدد من أعماق ذاته...

إن كبار العلماء الذين جرَّبوا الشغف بالعلم واللهفة إلى الحقيقة وعاشوا مباهج الكشف يؤكدون على أولوية الإثارة والشغف والمتعة كشروط أساسية للتعلم فيقول عالم الفيزياء الشهير ريتشارد فينمان في كتابه (معنى هذا كله): «العلم هو الإثارة؛ ثمنُ هذا كله هو التفكير المنظَّم والعمل العسير؛ العمل الذي لا يجري من أجل تطبيقٍ ما إنما يجري من أجل الإثارة التي نجدها فيما نكتشفه. هذا هو السبب الحقيقي للعلم وبدون تَفَهُّم هذا لن يمكنكم إدراك الأمر فأنت لا تِستطيع أن تفهم العلم وعلاقته بكل شيء آخر إلا إذا فهمت وقدَّرت مغامرة زماننا الكبرى أنت لا تعيش عصرك إذا لم تفهم أن العلم مغامرة هائلة وأنه شيء جامح مثير» أما الرائد في علم الفلك جوهانس كبلر؛ فيصور فورة الابتهاج بالاكتشاف بصورة معبرة، فبعد أن حقق أحد الاختراقات؛ شعر بابتهاج غامر ونشوة مُسْكرة فكتب يقول: «لقد أسلمتُ مجامع نفسي لنوبة من الجنون

المقدس. وإني أتحدى الموتى محتقرًا إياهم بالمجاهرة الصريحة. إنني سأكتب كتابًا للأجيال القادمة؛ فقد ينتظر الكتاب مائة عام ليجد قارئًا» وكل المكتشفين؛ يجدون هذه النشوة الغامرة. ولكن العلم المثير الجامح الذي تتجسَّد به أروع مغامرات العقل ليس هو العلم الذي يأتي من تعليمٍ يؤكد للدارسين، الامتلاك المطلق للحقيقة المطلقة. وإنما هو العلم الذي نسعى إليه، ونحن ندرك جهلنا فيه، وحاجتنا الملحة إليه؛ فالشعور الشديد بالحاجة إلى كشف الحقيقة؛ يؤدي تلقائيًا إلى الانهماك في البحث، والاستغراق في الاهتمام، وإبقاء العقل والعاطفة في حالة تلاحم تام، واستنفار شديد؛ فإذا تحقَّق الكشف تأججت البهجة كمن عَثَر على الماء بعد أن كاد الظمأ يُهلكه في الصحراء اللاهبة وعن ذلك يقول ريتشارد فينمان: «إذا أمعنت النظر في أي شيء فلن تجد ما هو أكثر إثارة من الحقيقة» فليس أروع ولا أنبل ولا أنفع ولا أمتع من حقيقةٍ عظيمة تنكشف لواحد من العلماء بعد جهد مرهق ومثابرة طويلة ولهفة عميقة متجددة...

أما النقيض لهذه الإثارة التلقائية البهيجة فهو التجرُّع الاضطراري للتعلُّم على النحو الذي يرويه عن نفسه جون ماكسويل في كتابه (الفشل البنَّاء) حيث يروي كيف يكون التعليم ضئيل النفع، ومؤقت النتائج، حين يكون تعلُّمًا من أجل الشهادة، والوظيفة، ويقوم على الاجتهاد الخوف من الرسوب، وأن هذا الخوف، قد دَفَعَه إلى أن يجتهد في الحفظ وأن يتفوق وأن يجتاز الامتحان بامتياز ثم يقول: «ولكن بعد أيام نسيتُ كافة المعلومات لقد نجحتُ في تجنب الفشل الذي خفتُ منه ولكني لم أستفد شيئا فعليًّا» ثم يقول: «تخرجتُ من الجامعة وكنت من الخمسة الأوائل ولكن ذلك لم يعن لي شيئا فقد لعبتُ لعبة الدراسة بنجاح وقد حفظت الكثير من المعلومات ولكني لم أكن مستعداً على الإطلاق لمواجهة الحياة وقد اكتشفت ذلك في أول وظيفة لي فتجربتي الجامعية قد رسَّخَت لدي المفاهيم الخاطئة» فالعلم لا يأتي قسراً ولا يتحقق حقْناً، فالتعلُّم لابد أن يكون تشرُّبًا، أما الأداء فلابد أن يأتي تدفُّقًا ولكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كانت المعرفة الممحَّصة شوقاً عميقاً من أشواق النفس، وأصبح الأداء فنًّا نؤديه برغبة، وننجزه بمتعة...

إن الانتظام في التعليم الجمعي اضطرارًا يسدُّ منافذ العقل، ويصيب حب الاستطلاع الفطري بالعطب؛ فقابليات الإنسان لا تنفتح قسراً وإنما تنفتح بتوقد الرغبة، واشتداد اللهفة وكما قال آينشتاين: «من خصائص الفن الحقيقي وجود رغبة لا تقاوَم لدى الفنان المبدع» إن هذا التأجج الداخلي التلقائي الذي يصفه آينشتاين وهو صاحب تجربة علمية مدهشة كانت زاخرة بالرغبة العارمة في الحقيقة والنشوة الغامرة في الكشف إن هذا المستوى من الرغبة في العلم والمتعة في الإنجاز تتطلب أن يرتقي الاهتمام بالعلم إلى مستوى أن يصبح قضية وجود بمعنى أن يقتنع المجتمع ويعتاد أفراده على أن ينظروا إلى العلم بإجلال وأن يندفعوا إليه اندفاعاً تلقائيًّا من أجله هو بوصفه قيمة عظيمة في ذاته وليس لكونه وسيلة لغاية أخرى كالحصول على وجاهة أو وظيفة...

إن التضحيات الكبرى والأعمال الانتحارية الفدائية التي يُظهرها بعض الأفراد في اختناقات الحروب أو في الصراعات الإيديولوجية تؤكد أن الفاعليات الإنسانية التي تبلغ أقصى المدى بالتضحية بالنفس هي نتاج الإيمان بقضية ففي الحرب العالمية الثانية أظهر أفرادٌ من الجيش البريطاني من الطيارين وغيرهم روحاً فدائية مذهلة بل إن بعض المذاهب الأيديولوجية قد استطاعت تعبئة أتباعها تعبئة عجيبة حيث يقتحمون الموت ويستبسلون في سبيلها استبسالاً مذهلاً كما حصل من أتباع الطائفة الإسماعيلية المعروفة باسم (الحشاشين) وليسوا سوى مثال يتكرر كثيراً وهو دليل حاسم لتأكيد فاعلية الإيمان بقضية حتى وإن كان إيماناً خاطئاً إن معركة التعليم مع الجهل والكلال والخواء والتخلف هي المعركة الحقيقية الدائمة فلا بد أن ترتقي قيمة العلم في نفوس الأجيال لتصبح قضية وجود وبذلك يتحقق التعلُّم الحقيقي باندفاع ذاتي؛ وباهتمامٍ تلقائي قوي مستغرق...

إنك لن تستطيع أن تدفع الناس لخوض المخاطر أو مكابدة المتاعب بمحاولة الإقناع العقلاني المحض ولكنك تستطيع ذلك حين تجعل العلم همًّا شخصيًّا للدارس، بحيث يصير التعلُّم تجربة ذاتية، يضاف للرغبة الذاتية، والشغف العقلي؛ بأن يصير التحصيل العلمي؛ قضية وطن ومطْلَب أمة ومصير

مجتمع فبذلك تتأجج العواطف وتحتشد الرغبات وتتفجر بغزارة واستمرار الطاقات الإنتاجية والإبداعية فبهذا وحده يمكن أن تجعل الدارسين يندفعون تلقائيًا ليحققوا المعجزات تحصيلاً واهتماماً وإنتاجاً ومهارة وإبداعاً...

إن كبار القادة على مر التاريخ قد أدركوا أن العاطفة هي مهماز الطاقة الإنسانية فاستخدموا هذا المهماز بدهاء فائق فحققوا بهذا الاستخدام أمجاداً لا تمحوها الأزمان إن الإسكندر العظيم لم يحقق فتوحاته الباهرة بمنطق العقل وحده ولا بمنطق القوة فقط ولكنه استطاع بدهائه الخارق أن يضاعف طاقة جيشه بأن جعلهم يؤمنون بأنهم يحاربون من أجل قضية إنسانية كبرى لنشر الحضارة وتحقيق التآخي الإنساني إضافة إلى الإثارة والتشجيع والمكافأة والثناء والتعاطف وتأكيد الاهتمام والحضور الجياش الملهم كما استطاع أن يستميل أعداءه وأن يتودد إلى الشعوب بإظهار الرأفة والمودة وإعلان التآخي الإنساني وإظهار أنه جاء لتحريرهم من الطغاة وليس من أجل التسلط عليهم أو قهرهم بل لإنقاذهم ونجدتهم فلقد كان سابقاً لعصره سبقاً هائلاً...

إن نابليون بونابرت كما يعلم الجميع واحدٌ من أعظم القادة في التاريخ وكان يدرك أهمية العواطف في تحقيق النجاحات وبلوغ النصر فكان يجيد استخدامها لكي تسخو النفوس تلقائيًا بأقصى ما تدخِّر من طاقة ولنفس السبب أظهر نابليون إعجابه الشديد بالحاسة السياسية الذكية للإسكندر فقال عنه: «إن ما أُقَدِّره فعليًا في الاسكندر إنما هو حسُّه السياسي لقد كان يملك فن كسب تعاطف الناس» إن العواطف هي مفتاح الطاقات الإنسانية فالعقل ذاته لا تتفتَّح قابلياته للفدائية أو للتعلُّم أو للعمل أو لأي نوع رفيع من أنواع الأداء إلا بتأثير العواطف لقد لاحظ المؤرخون أن الذي مكَّن إمبراطورة روسيا المعروفة باسم كاترين العظمى من تحقيق تلك الطفرة الحضارية لروسيا التي كانت قبلها غارقة في التخلف هو أنها اتبعتْ سياسة الاستمالة وجعْل الناس يعملون ما يجب وكأنهم يحققون رغباتهم هم وكانت تقول: «على المرء أن يحكم بطريقة تجعل أبناء شعبه يعتقدون أنهم يريدون أن يقوموا بما يأمرهم به» إن الإنسان كائنٌ عاطفي فهو يقاوم تلقائيًا مالا يتفق مع هواه وينفُر من الإلزام ويريد أن يعمل

باستقلال وفْق إرادته الحرة فإن لم يتوفر ذلك؛ تباطأ وتلكأ وأصيبت قابلياته بالكلال والانكماش إنه ينشط تلقائيًا من أجل أن يحقق ذاته وأن ينال الاحترام الذي يستحقه وأن يحصل على الأهمية والمكانة التي يسعى إليها أو يحتدم نشاطه خشية الاستخفاف به أو احتقاره أو فقدان الأهمية فتحريك عواطفه هو الذي يفتح منافذ عقله لكي يستقبل العلم ويهضم ويتمثَّل كما أنه هو الذي يجعله يتدفق سخاءً وإنتاجاً وقد يرتقي به هذا الاندفاع العاطفي إلى مستوى الأبداع...

إن من أبرز خصائص الإنسان، أنه كائنٌ رغائبيٌّ، إنه كائنٌ تلقائي، تحركه الرغبة، واللذة، والشغف، والحاجة؛ فإذا عمل الإنسان، بدافع الرغبة والشغف، تفتحت قابلياته، وتفجرت طاقاته. أما إذا أُرغم، أو اضطر للتعلُّم، أو العمل في مجالٍ يتعارض مع رغبته، فإن قابلياته تَنْسَدُّ، وتَحرِن، ولا تستجيب. إن في قصص النابهين عبرةٌ ودلالة عميقة. وعلى سبيل المثال، فإن تشالز داروين، أدخله أبوه كلية الطب، في جامعة أدِنْبرة. ولم يكن ذلك يتفق مع ميوله، ولا هو ينسجم مع رغبته، فبقي سنتين في كلية الطب، وأخفق في النهاية، فترك الدراسة، فوبخه أبوه واصفًا إياه بأنه لا يهتم إلا باللعب مع الكلاب، وأنه سوف يجلب العار لنفسه ولعائلته، ثم أدخله جامعة كامبردج ليدرس اللاهوت. ولكنه ما كان يرتاح إلا لما يهواه. فكان ينصرف لما يميل إليه، فيبحث في الكائنات، أو يقارن بين النباتات، أو بين الحشرات، فيحس بنشوةٍ تُنسيه ضعفَ صحته، فقد كان عليلاً لكن متعةَ البحث تَصرف ذهنه عن أوجاعه. وتم اختياره، ليكون مرافقًا، وجليسًا وأنيسًا، لقائد السفينة الاستكشافية (بيجل) في رحلةٍ طويلةٍ يقضيها، في المحيط، منفصلًا سنوات عن العالم. ومما له أعمق الدلالة، أن مهمة داروين المتفق معه عليها، ليست مهمةً علمية، فقد كان في السفينة باحثٌ علمي معتمَد. بينما كانت مهمة داروين تسلية الكابتن، غير أن شغفه بالبحث قد جعله يتوَصَّل إلى ثورة علمية، صارت أعظم تأثيرًا وأبعد مدى من ثورة كوبرنيكوس. إن داروين، قَلَبَ تصورات الإنسان عن نفسه، وعن العالم. بينما الباحث الرسمي المعتمَد، نسيه التاريخُ، ولا يكاد يذكره أحد، إلا حين يتم الحديث عن داروين. وهذا يؤكد أن الإنسان، لا يكون مبدعًا، ويحقق

اختراقًا عظيمًا، إلا إذا اتجه للبحث، بمحض اهتمامه التلقائي القوي المستغرق...

ولأن هذا المطلب الأساسي، لم يكن متوفرًا، في التعليم الجمعي، في أي مكان، فقد ضجَّ خريجو الجامعات في أوروبا وأمريكا، بأن التعليم رغم طوله، وتعدُّد مراحله، يَقذِف بهم إلى الحياة العملية، من دون إعداد عملي، وبسبب هذه الشكوى العالمية العامة، برزت ظاهرة كتب تنمية الذات. وقد كان رواد هذه الظاهرة هم في الغالب من الأفراد العصاميين الذين بنوا أنفسهم دون تعليمٍ جامعي. وقد كان من أقدم هؤلاء العصاميين. ديل كارنيجي. الذي قدَّم المشورة، وبَذَل النصح، وكان رائدًا في مجال التنمية الذاتية. إن هذا لرائد عصاميٌّ علَّم نفسه، وحقق النجاح، وانبرى يكتب، ويخطب، ليعلم الناس كيف يشقُّون الطريق بمحض الثقة في النفس، والتركيز، والاهتمام التلقائي القوي المستغرق. ولقيتْ كتبه رواجًا هائلاً لم تعرفه كتب الآخرين. وقد وُصِف، بأنه: «الرجل الذي غيَّر حياة الملايين. لقد كانت له قدرة خارقة في إيقاظ المواهب الخفية الكامنة» في كتاب (الهدوء) تقول المؤلفة سوزان كاين: «إن تحوُّل كارنيجي الهائل، من صبيٍّ يَعمل في إحدى المزارع، إلى مندوب مبيعات، ثم إلى أيقونة فن الخطابة، لهو قصةُ نشوءِ المثل الأعلى» وتضيف: «لقد عكستْ رحلةُ كارنيجي، تطوُّرًا ثقافيًا، بلغ نقطةً حاسمةً، غيَّر للأبد، مَن نكون، وبمن نعجب، وكيف نتصرَّف، وما الذي نَبحث عنه، وكيف نُربي أولادنا. لقد تحوَّلتْ أمريكا مما أسماه المؤرخ الثقافي المؤثر وارين سوسمان، بثقافة الطبع إلى ثقافة الشخصية» وقد قيل عنه: «وُلِد كارنيجي لأبوين مزارعَين فقيرين، وكان عليه الاعتماد على مواهبه الخاصة، كي يجد لنفسه مكانًا في هذا العالم» وبمحض وعيه، وجهده، صَنَع لذاته مجدًا، وبقي تأثيره ناميًا. كان يدرك أن الإنسان كائنٌ عاطفي، وأن التأثير على الناس، لا يكون بالعلم وحده، ولا بالعقل، وإنما بمخاطبة العواطف. وهذا يعني أولوية الشغف كشرطٍ أساسي للتعلُّم، وللكفايات العملية. وكان يكرر القول: «عندما تتعامل مع الناس، فتذكَّر أنك لا تُعامل أناسًا عقلانيين، الناس عاطفيون، تتحكم بهم الأهواء، وتحركهم الكبرياء والغرور»

يبين ستيوارت كرينر في كتابه (أعظم الكتب التي شكلت علم الإدارة) بأن: «كتاب ديل كارنيجي، كيف تَكسب الأصدقاء، وتؤثر في الناس، هو أصلُ الكتب في تحسين الذات» هكذا كان تأثير فرد واحد في تَوَجُّه أمة بأكملها. والأهم من هذا أنه فتح المجال لعصاميين آخرين، أيقظوا الناس إلى أن الانتظام في التعليم كل هذه السنوات الطويلة، لا يَعني أنهم باتوا علماء، أو أنهم صاروا مؤهلين لأعمالٍ تتطلب مهاراتٍ عملية لا يُقدمها لهم التعليمُ، حيث أن عليهم اكتساب مهارات الأداء من الممارسة العملية...

ربما كانت وثبةُ الشاب الأمريكي أنتوني روبنز، من حارس عمارة، إلى خطيب مُلهِم، يجتمع له الآلاف، من رجال الأعمال، والمحامين، والأطباء، والأكاديميين، وخريجي الجامعات، ليرشدهم كيف، يُفَجِّرون الطاقات الكامنة فيهم، بل وكيف، يتحررون من القلق، أو من الاكتئاب، أو من الهواجس المشتتة، وكيف يكرسون طاقتهم لما هو نافع، وكيف يتحاشون تبديد الطاقة، وكيف يتعاملون فيما بينهم بحكمةٍ وتفهُّم، وكيف يتجنبون الصدام، بتجنُّب استثارة نقائص الآخرين؛ ربما كانت هذه الوثبة، إحدى عجائب القدرات البشرية. فهذا الرجل تَرَكَ التعليمَ بعد أن حصل على الثانوية، واشتغل حارس عمارة. لكنه كان يحس بالغليان يتأجَّج في أعماقه، يُحَرِّضه بأن ينتفض، وأن يتعرَّف على طاقاته الكامنة. لقد آمن بأن هذا العمل لا يليق به، وأن القدرات، ليست مشروطةً، بالشهادات الدراسية، إن الإنسان يَختزن طاقةً هائلةً، إذا هي اشتعلتْ بالشغف. إن معيار القدرات ليس الاضطرار لحفظ بعض المعلومات. ولكنه بناء الذات بالكفايات، التي يستطيع أن يكتسبها بنفسه، خلال فترةٍ قصيرة، بالعمل الجاد المنظَّم. ويقول: «إن العمل هو العامل المشترك بين كل النجاحات الباهرة، فالعمل هو الذي يؤدي إلى تحقيق النتائج. فالمعرفة ما هي إلا طاقة كَامنة، وتبقى كذلك، حتى تصل إلى شخصٍ، يعرف كيف يحمل نفسه على اتخاذ الإجراء العملي الفعال» لقد اقتنع بأن مقومات الظفر هي: «القدرة على الفعل، والعمل، والتصرف» لقد كوَّن نفسه ببراعةٍ عاليةٍ، جعلته يُقَدِّم النصح والإرشاد لكل الناس من مختلف المستويات، وفي مختلف الأوطان، في

ملتقياتٍ عامة حاشدة. بل لقد بلغت الثقة بقدراته إلى درجة أقنعت وزارة الدفاع الأمريكية بأن تتعاقد معه لرفع كفاءة مستوى تدريب منسوبي الجيش الأمريكي، واختصار المدة التي كانت تقتضيها التدريبات. لقد علَّم نفسه وبسبب حدة ذكائه، واهتمامه التلقائي القوي المستغرق، استطاع تكوين نفسه بسرعة خارقة، فنجح في مجالٍ يتبادر إلى الذهن أنه مشروطٌ بالتأهيل الأكاديمي. وهو مجالُ فَهْمِ الطبيعة البشرية، وكيفية استثمارها، وتفجير طاقاتها الكامنة، وتوجيهها في الاتجاه السليم. لقد كان يرشد المتعلمين، ويوجه رجال الأعمال، ويقدم النصح والمشورة لكبار المديرين التنفيذيين. وهو في كل ذلك، يَبني عمله على أدق الاكتشافات العلمية فهو يقول: «إن فَهْمَ النظام الأساسي الذي يوجه كل السلوك البشري؛ هو علمٌ محض، شأنه شأن الكيمياء والفيزياء، إذْ تَحْكُمُه قوانينُ، يمكن التنبؤ بها، وأنماطُ أفعال، وردودُ أفعال» ويؤكد: «بأننا إذا فَهِمْنا الطريقة التي يعمل بها الدماغ، فإننا نستطيع تبديل الطريقة التي نُكَيِّف بها جهازنا العصبي؛ وبذلك نستطيع السيطرة على حياتنا» إنه بمجرد أنْ أدرك قابليات الإنسان المفتوحة، وتيقَّظ ذهنه للطاقات الكامنة في النفس البشرية، تغيرت حاله تغيُّرًا جذريًّا، وانقلب من حارس، عمارة إلى شخصٍ مشهور تُنصِتُ له أمريكا بأجمعها، ويقدم المشورة حتى للرؤساء الأمريكيين، ورجال الكونجرس وغيرهم من أرفع المقامات السياسية والقانونية، والإدارية، والعلمية، والطبية. وصار بعض المؤلفين يطلبون منه كتابة مقدمات لكتبهم. ففي التقديم الذي كتبه لكتاب شون ستيفنسون يقول: «لقد كرَّست وقتي، لإيجاد الوسائل، التي تساعدنا، على اختبار حياةٍ، غيرِ عادية» هكذا هو يؤمن بأن الحياةَ الرتيبة التي اعتاد الناس عليها، ليست هي الحياة التي تليق بالإنسان، ولا هي الحياة التي تؤهله لها قابلياته المفتوحة، ولا هي الحياة التي تتيحها الطاقات الكامنة في النفس البشرية. إن القابليات الإنسانية العظيمة، في كل زمان، وكل مكان، ما تزال معطَّلة، فهذه القابليات تملك فائضًا هائلاً لم يُستثمَر بعد...

إن يقظة الوعي أحيانًا، قد تكون يقظةً عارمة؛ تَفتح للعقل آفاقًا غير معتادة. إن إحساس أنتوني روبنز بالهوان والغبن، حين اضطر أن يعمل حارس عمارة،

لمجرد أنه لا يحمل شهادة جامعية، إن هذا الإحساس العارم، قد أيقظه، لعُمْقِ الخلل، الذي يعيشه المجتمع الأمريكي بأكمله، بل يعيشه العالم كله. لقد أدرك أن المواضعات غير الممحَّصة هي التي تتحكم بالناس في كل مكان، وأن التعود على هذه الأوضاع، قد أعماهم عن إدراك الخلل، فاستغرقت الأجيال في تعليمٍ وصْفيٍّ لفظيٍّ، يَستهلك الطاقات، والزمن دون مردود، يتناسب مع الوقت المستهلَك، والطاقة المستنزَفة، والأعمار الضائعة. لقد أدرك أن طاقات الإنسان لا تتقد وتتفجر إلا من داخله، فهو يقول: «أنا أؤمن بأن تلك الحياة -غير العادية- يمكن إيجادها، بأن يعيش المرءُ شَغَفَه الحقيقي، فبدون الشغف، يقع الشخص، في فخ كسب العيش، بدلاً من تخطيط الحياة. عندما نقع في فخ الاستيقاظ كل يوم لإعادة تمثيل أسلوب الحياة المألوف، نجد أنفسنا بالكاد في المستوى الأول للبقاء» ويضيف: «أمضيت أكثر من ربع قرن من حياتي وأنا أسافر حول العالم، لأتعلم من الناس وأعلمهم، أهميَّة أن يعيشوا الحياة في المستوى الذي خُلِقنا من أجله» إن الناس ينتظمون تلقائيًّا في المألوف، وينصاعون لما هو سائد، إن الفرد لا يعيش كما تؤهله له قابلياته الكامنة، بل ينتظم تلقائيًّا في الواقع، وحتى لو فطن للخلل فإنه، يَضطر أن يتبع النهج المرسوم للجميع، فيدرُس مواد لا يسيغها، ويتخصص في مجال لا يميل إليه، ويمارس مهنة يكرهها، وتمضي حياته بإملاءات البيئة، وضرورات البقاء. إن الإنسان حين يكتشف إمكاناته، تتفتح له آفاقُ المعرفة، كما تنجلي له مجالاتُ العمل. فحتى المعرفة بكل ما فيها من اتساعٍ وعُمْق، ليست محصورة بحاملي الشهادات، بل إن مَن يَندفع للتعلُّم ذاتيًّا، بشغفٍ عميقٍ، ورغبةٍ متجددة، هو الذي تنكشف له الأعماق، وتنفتح له الآفاق، وتتكوَّن له بصيرة، ذاتُ نفاذٍ أخّاذ. إن روبنز بحدة وعيه، وسعة اطلاعه، وتنويع معارفه، قد صار يملك بصيرةً خارَقة، في مجالات متنوعة، فامتد تأثيره الإيجابي، إلى مختلف المجالات، وفي مختلف الأوطان، فقد تَعرَّف على شخصٍ، يعاني من خلل جيني، أدى إلى هشاشة عظامه، وكانت هذه الهشاشة، تُعَرِّضه لكسورٍ متكررة. وكانت البثور تغطي وجهه. ورغم أنه راجع عددًا من الأطباء، إلا أنه بقي

يعاني، من دون تحسُّن، حتى التقاه روبنز فنصحه بأن يغير نظامه الغذائي، وأن يبدل أسلوب حياته، فحدث له ما يشبه المعجزة. فأصدر هذا المريض كتابًا يحكي فيه قصة آفته، وقصة معاناته، وقصة شفائه. وليس غريبًا أن يُقَدِّم روبنز مشورةً تتعلق بالتغذية الصحية، وبأسلوب الحياة الملائم. إن المعلومات في كل المجالات، باتت متاحة لمن يبحث عنها. لذلك فإن روبنز يؤكد للجميع بأن بمقدور أي إنسان جاد، أن يلم بالمعارف اللازمة لجعْل حياته أخصب، وأروع، إن المتخصص قد يشلُّ التخصصُ تفكيره، فيبقى ضمن النطاق الضيق الذي تدرب عليه، فيقف عاجزًا عن تقديم المعونة لبعض الحالات النادرة...

يستهل أنتوني روبنز كتابه (قدرات غير محدودة) واصفًا نفسه فيقول: «ترامتْ أخباره إلى مسامعي لشهورٍ عديدة، وقد قيل إنه كان صغير السن، وغنيًّا، وعفيًّا، وسعيدًا، وناجحًا. فأردت أن أتيقن من ذلك بنفسي. راقبته عن كثبٍ، وهو يغادر استديو التلفزيون، وتبعته على مدار الأسابيع القليلة اللاحقة، وراقبته وهو يقدم المشورة للجميع، من رئيس البلاد، وحتى المكتئب، والمريض بالهوس، رأيته وهو يخوض غمار الجدال مع علماء التغذية، وهو يدرب المديرين التنفيذيين، وهو يعمل مع الرياضيين، ويعلِّم الأطفال المعاقين. كان الرجل يبدو في غاية السعادة والشغف بزوجته وهما يجوبان البلاد طولا وعرضا. وعندما ينتهيان من رحلتهما، كانا يعودان سريعًا إلى سان دييجو ليقضيا بضعة أيام مع العائلة في قلعتهما التي تطل على المحيط الهادي. كيف تمكَّن هذا الشاب الذي يبلغ الخامسة والعشرين من العمر، من إنجاز كل ذلك في وقتٍ قصير، وهو لم يحصل إلا على الشهادة الثانوية؟! لقد كان هذا الرجل منذ ثلاث سنوات فقط يعيش في شقة صغيرة، وكان يغسل أطباق مطبخه في حوض استحمامه. فكيف تحول من شخصٍ تعيسٍ للغاية، نحيف، ويعاني من علاقاتٍ متعثرة، ذي مستقبل محدود، إلى شخصٍ محترم له علاقات جيدة مع الآخرين وفرص غير محدودة للنجاح. لقد بدا كلُّ ذلك أمرًا رائعًا. ولكن أكثر ما أدهشني هو إدراكي أنني أنا هو هذا الشخص، وأن قصته هي قصتي أنا» ثم يوضح أن كل هذه النتائج العجيبة المذهلة، قد تحققتْ لأنه تمكَّن من تغيير نظرته إلى

نفسه، وتبعًا لذلك تغيَّر كل شيء في حياته. وقد تحقق كل ذلك بسرعة مدهشة. إنه لم يعثر على كنوز من الذهب كانت مخبَّأة. ولكن هذه الكنوز موجودة في قابليات كل إنسان. لكنه هو بادر إلى اكتشافها ولم يتردد عن استثمارها. لقد كان ذكيًّا وجريئًا ومقدامًا؛ فاستطاع أن يغير ذاته، وأن يُقنع الكل بقدراته الخارقة. ومع ذلك فهو يكتب ليؤكد: «ومع ذلك، فإنني أبعد ما أكون عن كوني شخصًا فريدًا، فواقع الأمر هو أننا نعيش في عصر يتوافر فيه العديد من الناس، وفيه القدرة على تحقيق المعجزات بين عشية وضحاها، وعلى تحقيق نجاحات كانت أمرًا لا يمكن تصوره في العصور السابقة» إنه في كل كُتبه، وأحاديثه، يؤكد أن ما حققه من نجاحٍ سريعٍ مذهل، هو شيءٌ متاحٌ للجميع، فما على الفرد إلا أن يقرأ بعناية، وأن يقارن بدقة، وأن يتأمل بعمق، وأن يستقصي باهتمام، لكي يتعَرَّف على الطبيعة البشرية، ويتعَرَّف على طبيعة الدماغ البشري، وقابلياته، ووظائفه، وعلاقته بالغدد الصماء، وكيفية تعبئة قابلياته العظيمة المذهلة. لقد باتت هذه المعارف متاحة لأي باحث، فما عليك سوى تكريس جهدك، وتعبئة قابلياتك، واستثمار هذه القابليات، بكفايةٍ، وفهمٍ، وبراعة. إن أنتوني روبنز قد كرس نفسه باهتمام تلقائي قوي مستغرق، من أجل التعرف العميق، والدقيق، على الطبيعة البشرية، وفَهْمِ طبيعة دماغ الإنسان، والتعرف على قابلياته، وكيفية التعامل معها بكفاية، كما كان يتعرف على سير حياة النابهين من المفكرين، والعلماء، والقادة، والأدباء، والمبدعين، والبارعين في مختلف المجالات، ويتعرف على أسباب نجاحاتهم. إن ما توصل إليه متاحٌ لكل من يملك الشغف، والوسيلة، والدراية. لذلك كان يستشيره علماء النفس والأطباء النفسيون. فالمسألة برمتها، هي اهتمامٌ تلقائي قوي مستغرق، وعلمٌ، وجهدٌ، وبراعة...

فِي مستهل كتابه (أيقظ قواك الخفية) يتذكَّر التغيُّر الجذري الذي طرأ على حياته، بمحض الثقة في النفس، والتركيز والاهتمام التلقائي القوي المستغرق. فيقول: «لن أنسى ذلك اليوم الذي شعرت فيه بأنني أعيش حلمي حقًّا. فقد كنت أقود طائرتي الهيليكوبتر خارجًا من اجتماعِ عملٍ كنت أحضره في لوس أنجلوس، متجهًا إلى مقاطعة أورانج في طريقي لإحدى حلقاتي الدراسية. وبينما

كنت أحلق فوق مدينة جليندِيل، تنبَّهْتُ فجأةً لبنايةٍ كبيرة، وأخذتُ أحوم حولها، وأتذكَّر، وأنا أنظر إليها من فوق، بأنني كنت أعمل فيها، بوابًا قبل اثنتي عشرة سنة فقط، قلت لنفسي: ما أعظم ما يمكن للإنسان أن يفعله خلال عقدٍ واحدٍ من الزمن» ويصف وصوله إلى حيث ينتظره الألوف للاستماع إليه: «كان رجال الأمن يقفون في وجه الألوف يحاولون منعهم من الوصول إلى حيث كانت طائرتي تهبط. فذلك السيل من السيارات، هو لأولئك الذين أتوا لحضور مناسبتي» لقد صارت أمريكا كلها، تتحدث عن روبنز، وقوة تأثيره، ونمت إمكاناته، فأصبح يتنقَّل بواسطة طائرته الخاصة، التي يقودها بنفسه. وكانت محاضراته يحضرها الآلاف من مختلف المستويات، وكان يجوب العالم ليلتقي بالجموع الغفيرة من الناس الذين يسعون لتطوير حياتهم، وتنمية قدراتهم. وقد وصفه الدكتور ستيفن كوفي بأنه: «أحد أكثر الكُتَّاب، تأثيرًا في هذا الجيل في الولايات المتحدة» أما الدكتور كينث بلانتشارد، فقد حضر إحدى لقاءاته الحاشدة، وكان الحاضرون مدراء، وأطباء، ومحامون، وغيرهم من ذوي الوظائف العالية. فكتب يقول: «على مدى أربع ساعات ونصف الساعة، راقبت توني، وهو يَسْحر حشدًا كبيرًا من مدراء التنفيذ، والأطباء، والمحامين، وربات البيوت، وغيرهم. أنتوني قد جعل الجميع، يجلسون على حافة مقاعدهم، مسحورين بشخصيته الأسطورية، مأخوذين بسحر حديثه، وعُمْق درايته بالسلوك الإنساني. فقد كانت الندوة من أكثر الندوات التي شهدتها، إثارةً وتحفيزًا في العشرين عامًا التي قضيتها في تدريب الإدارة. وفي نهاية الندوة، وجدتُ الجميع، يَعْبرون فوق خمسين قدمًا من الفحم الساخن، وبلا أية إصابات. لقد كان مشهدًا يستحق الرؤية، وكانت خبرةً محفِّزة للجميع» ويضيف الدكتور بلانتشارد: «أنتوني كان أحد رواد الفكر في علم نفس الدوافع، وتحقيق الذات» ويكتب السير جاسون وِنترز، بأنه خلال عمره كان يعاني الذعر من مواجهة الجمهور. وأنه أنفق الكثير من المال، والوقت، ومراجعات العيادات النفسية، من دون نتيجة. ولكن أنتوني روبنز قد شفاه من ذعره في جلسة واحدة. ويقول عن كتابه (قدرات غير محدودة): «إذا استطعتَ استيعاب المعلومات الواردة في

هذا الكتاب، فسوف تتحكَّم بشكلٍ كامل في ذهنك، وجسدك، وفي حياتك» إن فَهْم روبنز للطبيعة البشرية، وإدراكه بإمكانية برمجة دماغ الإنسان بأي شيء، هو الذي مكَّنه، ومَنَحه هذه القدرة الخارقة. لقد تعرَّف على الآليات النفسية، والاستجابات الجسدية، لهذه الآليات. كانت تستوقفه ظواهر السلوك البشري، فيقف يقارن بين سلوكٍ عدواني لا مبرر له، مقابل سلوكٍ نبيل حيث ينبري الشخص لإنقاذ الآخرين وينسى نفسه، فيهلك بعد أنْ أنقذ غيره، إن هذا التفاوت الحاد يعود إلى اختلاف القيم. هكذا هو الإنسان تنجلي طبيعته عن الأسوأ، كما تنحسر عن الأروع، لكنه إلى السُّوء أمْيَل، لأن النقائص هي الأصل...

إن كون أنتوني روبنز قد اكتفى من التعليم النظامي بالمرحلة الثانوية، لا يعني أنه قد توقف عن التعلُّم، بل إنه قد كرس وقته، وطاقته، واهتمامه، للتعلُّم العميق والتبصُّر الخارق، فبات واسع الاطلاع على مختلف فروع المعرفة. وهو يقول في كتابه (قدرات غير محدودة): «فنحن نعيش في عصرٍ تتغير فيه الأفكار والمفاهيم الجديدة في العالم كل يوم تقريبًا. وإذا كان هناكْ ما يميز هذا العصر، فهو التدفُّق الهائل للمعلومات. ومن ثم التغيُّر الذي يتبعه. فمن الكتب والأفلام ورقائق الكومبيوتر، تأتي إلينا هذه المعلومات في شكل عاصفةٍ من البيانات، نراها ونسمعها، ونشعر بها» ويضيف: «إن أولئك الذين يمتلكون المعرفة وطُرُق تداولها، يمتلكون ما كان لدى القادة من قبل» وهو يركز على سبع صفات يتميز بها الأفراد الفائقون، فكل الناجحين، يتميزون بالشغف العميق، والرغبة المتجددة. وكلهم يثقون بهدف يسعون إليه، ويُعِدُّون العدة لبلوغه، ويؤمنون بقدرتهم على تحقيقه. أما الصفة الثالثة التي يتصف بها أبرز الناجحين، فهي الرؤية الاستراتيجية، وبُعْد النظر، والتعرف على العوائق، وأخذها بالاعتبار، إنهم يعرفون الصعوبات، ويدركون العوائق، فيضعون ذلك في حسابهم. أما الصفة الرابعة، فهي أنهم من أصحاب القيم، فلديهم قيمٌ، تحركهم، وتؤجج نشاطهم، وتُشعِل تفكيرهم، وتَضبط سلوكهم. يتساءل ماهي القيم؟! فيجيب: «هي معتقداتك الشخصية عما هو مهم. بالنسبة لك، فقيمك هي نُظُمُ معتقداتك،

بشأن ما هو صوابٌ، وما هو خطأ، وما هو خيرٌ، وما هو شرٌّ، فقيمنا هي الأشياء التي نحتاجها بشدةٍ كي نتقدم» أما الصفة الخامسة فهي أنهم مبادرون، ونشاطهم متجدد، والتزامهم لا يفتر. أما الصفة السادسة فهي أنهم يقيمون علاقات قوية بمن لهم علاقة بالمجال، ويلتزمون بمقتضيات هذه العلاقة. أما الصفة السابعة، فهي قدراتهم على التواصل، وتأمين شبكات الاتصال مع كل من لهم علاقة...

ويبين روبنز أن أي عمل بعد إنجازه، يختلف عن التصور عند البدء فيه. لأن معظم الإنجازات البشرية العظيمة، لا تأخذ شكلها النهائي، إلا بعد التمام. أما أثناء العمل الفعال، فيجري التبديل والتعديل. إن الفرد الفعال يُقْدِم على العمل، حتى لو لم تكن الصورة، كاملة وواضحة أمامه، فيُعدِّل ويتدارك. إن معظم الأعمال البشرية العظيمة قد استكملت وفقًا لمنهج التجربة والخطأ. إن الفرد يكون لديه تصور، فإذا دخل في مجال التنفيذ، تبينت له أثناء العمل جوانب لم تكن واضحة له من قبل. يقول روبنز: «إن هناك الكثير من الطرق للعمل، ومعظمها يتوقف بدرجةٍ كبيرةٍ على التجربة والخطأ. ومعظم من حققوا نجاحات باهرة، عَدَّلوا وأعادوا تعديل أنفسهم مرارًا وتكرارًا، قبل أن يصلوا إلى ما يريدون» الحياة كلها، حتى في أنصع تجلياتها، هي اختبارٌ لقدرتنا على الإقدام، والمبادرة، والتجربة، وتجاوز الأخطاء، وبلوغ الأهداف...

الفصل الثالث

مكتسبات نوعية تميزت بها الحضارة المعاصرة

مكتسبات نوعية تميزت بها الحضارة المعاصرة

إن إدراك الاختلافات النوعية للحضارة المعاصرة، عن كل الحضارات القديمة، هو مطْلبٌ أساسي لأية أمة تريد النهوض. فبدون هذا الإدراك تبقى الصورة غائمة، ويظل العمل المطلوب غير واضح. لذلك يجب التأكيد الملح على أن الحضارة المعاصرة؛ تختلف اختلافات نوعية، عن كل الحضارات القديمة، باستثناء الحضارة اليونانية التي كانت هي التأسيس الأول المتين لما يعيشه العالم اليوم؛ بل إنها أيضا تختلف عن الحضارة اليونانية، التي كانت تحتقر العمل اليدوي، وتُمجِّد الفكر المحض؛ فرغم أن الحضارة المعاصرة؛ تستمد إلهامها وطاقتها من التجربة اليونانية أثناء ازدهارها في القرن الخامس قبل الميلاد؛ إلا أنها تختلف عنها في تمجيد العمل بل عبادة العمل بدلا من احتقاره. لكن رغم هذا الاختلاف في تقدير العمل اليدوي؛ يبقى أنها امتدادٌ للحضارة اليونانية. إن الحضارة المعاصرة هي الحضارة الوحيدة التي قامت على الفكر الفلسفي والعلوم الموضوعية، فلأول مرة تسعى الدول الناهضة لتكوين رؤية علمية شاملة للتنمية العامة، بل لأول مرة يظهر مفهوم التنمية العامة، ولأول مرة تحشد كل دولة مستنيرة طاقةَ المجتمع بأكمله في اتجاهٍ عام يخدم التنمية في مختلف القطاعات؛ معتمدةً في هذا الاحتشاد الشامل على العلم والتقنيات والخبرات والتجارب المميزة؛ فقد باتت مشروعات الأمم، ونشاطات الإنسان الهادفة، تعتمد على العلم، أو تحاول أن يتحقق ذلك في تقييمها للأوضاع، وفي تخطيطها للمستقبل؛ فلأول مرة ينتقل الاهتمام العلمي من اهتماماتٍ فرديةٍ منعزلةٍ؛ هَدَفُها مجرد الفهم الفردي، إلى اهتمامٍ عامٍّ؛ يستهدف

تنمية كافة قطاعات الحياة؛ حيث يتم تقييم الحاضر والتخطيط للمستقبل، وفقًا لمقتضيات العلم. لقد أصبح العلم مؤثرًا حاسمًا في الأوضاع العامة للأمم التي تبنت العلم واعتمدت عليه. وهذا الاعتماد على العلم هو عاملٌ جديدٌ لم تعرفه الحضارات القديمة...

في الحضارات القديمة، كان يظهر بين فترة وأخرى عددٌ قليل من الفلاسفة والعلماء الذين ينشغلون بمحاولة فهْم الطبيعة، وفهم طبيعة الإنسان، والتأمل العميق في الحياة وتلمُّس المغزى. لكنها تبقى مجرد اهتماماتٍ فرديةٍ منعزلةٍ عن حركة الحياة، وهي إن لم تكن في مجال الطب، فإنها منذ الأصل لا تستهدف سوى الفهم الفردي، وتَستبعد محاولة التأثير في مجريات الحياة العامة، فأولئك العلماء يبقون خارج مسيرة الحياة العامة الرتيبة. باستثناء الطب الذي لم يكن منفصلًا آنذاك عن الفلسفة. إن عدم وضوح هذه الحقيقة الأساسية، كان من أعمق أسباب استمرار التخلف في قارات بأكملها كقارة أمريكا الجنوبية، وكقارة أفريقيا، وفي بلدان معينة مثل الفلبين التي بقيت متخلفة وسط نمورٍ تتسابق نحو القمة. ويكفي لفهم الخلل أن نتأمل في أوضاع فنزويلا التي تملك احتياطيًا هائلا من حقول البترول لكن الشعب يعيش في أوضاع بائسة، فإذا قورنتْ حالة فنزويلا الغنية بالموارد الطبيعية، بتجربة سنغافورة التي تفتقر إلى أية ثروات طبيعية، بل إنها تستورد حتى مياه الشرب من ماليزيا، ومع ذلك حققت نموًّا أدهش الجميع. إننا بهذه المقارنة ندرك أن النمو لا يتوقف على الموارد الطبيعية؛ فالطاقة الإنسانية باستخدام العلوم والتقنيات باتت هي الثروة الحقيقية المتجددة. وهذا مصدرٌ جديدٌ هائل للقوة والثروة والتقدم والازدهار لم تعرفه الحضارات القديمة...

إن الحِضارات القديمة كان كل تقدم تحققه أمَّةٌ؛ يكون إضعافًا للأمم الأخرى، وربما يكون إيذانًا بغزوها واكتساحها. وعمومًا كان التقدم محصورًا في مجال امتلاك قوة أكثر من غيرها فتكون قوتها تهديدًا للأمم الأقل قوة. أما الحضارة المعاصرة فقد امتدتْ تأثيراتها الإيجابية الكثيرة إلى كل العالم؛ بل إن الشركات الغربية في بحثها عن الأيدي العاملة الأرخص، قد ساهمت مساهمة

كبرى في تطور الدول الآسيوية وغيرها. فالحضارة المعاصرة هي الحضارة العالمية حقًّا. إنها تختلف نوعيًّا في النظام المعرفي الذي قامت عليه؛ وهو الفكر الفلسفي، والعلوم الموضوعية المشتقة منه، لذلك تختلف في رؤيتها عن الماضي، وفي تأكيدها للحاضر، وفي تخطيطها للمستقبل، وفي رؤيتها عن عوامل ومصادر ثروات الأمم، وفي رؤيتها عن الإنسان، وفي تأكيدها للنزعة الفردية، وفي رؤيتها عن المجتمع، وفي إعلائها لشأن المرأة، وفي رؤيتها عن السلطة، وفي رؤيتها عن العقل البشري، وفي رؤيتها عن العواطف، وفي رؤيتها عن الموروثات الثقافية، وفي تأكيدها لتكافؤ الأجناس البشرية، ونفيها القاطع للتميُّز العرقي، وفي رؤيتها الموضوعية للأسباب الثقافية لاختلافات الأمم، وفي رؤيتها للعلاقات الدولية، وفي رؤيتها لطبيعة الدولة، وتحوُّلها إلى دولة خدمات، وفي رؤيتها لقيمة العمل، وفي رؤيتها لتوزيع المهام، وتنويع التخصصات، وفي رؤيتها عن الكون وقوانين الوجود، وفي رؤيتها عن خوارق الطبيعة، وفي رؤيتها عن طبيعة المادة، وفي رؤيتها عن المعرفة؛ إنتاجًا وطبيعةً، وحدودًا، وتكوينًا، وتقييمًا، وتغييرًا، وفي رؤيتها عن الإنتاج بالجملة، وفي الظاهرة البيروقراطية، حيث تنوعت الخدمات التي تقدمها الدولة للمواطنين، وفي ظاهرة تكوين الشركات العملاقة، وفي ظاهرة ريادات رجال الأعمال والمال والمصارف؛ حيث نجد فردًا واحدًا تتغيَّر بعمله أوضاع العالم كله كما هي حال جيمس وات، والأخوين رايت وأديسون وفورد وأمثالهم..

إن لرجال الأعمال أدوارًا عظيمة في التنمية، كما أن لرجال المال والمصارف، أدوار أساسية في الإقراض، وتمكين الرواد من المغامرات التي تتكون بها المؤسسات الإنتاجية، وتتفتح بها أبواب العمل، ومجالات الإنجاز. إن رُؤى الحضارة المعاصرة؛ عن كل شيء، تختلف نوعيًّا عن رؤى كل الحضارات القديمة. لذلك لن نفهم الحضارة المعاصرة؛ ولن نستطيع الإسهام الإيجابي في حركتها الغلَّابة؛ إلا حين ندرك بوضوحٍ شديد، وتفاعُلٍ جياش؛ بأن الأساس الذي قامت عليه، والنتائج التي حققتها في حياة البشر كافةً؛ تختلف نوعيًّا عن الأساس والنتائج التي قامت عليها كل الحضارات القديمة؛ إن

الحضارة المعاصرة ليست امتدادًا للحضارات القديمة؛ فهي مغايرة لها نوعيًّا، ليس في مجال دون آخر وإنما في مختلف المجالات. أما الخلل الخطير الذي يعيبها بقوة؛ فهو تركيزها الشديد على الجانب الاقتصادي، وإلحاحها الأحمق في التوسع في بناء القوات العسكرية، وقدرات التمكين على حساب الغير، والسعي الأرعن للهيمنة، ودفْع التعليم والمتعلمين للتركيز على متطلبات البقاء...

إن الأساس الذي قامت عليه كل الحضارات القديمة؛ كالحضارة الفرعونية، والحضارة البابلية، والحضارة الكلدانية، والحضارة الحثية، والحضارة الصينية، والحضارة الكورية، والحضارة اليابانية، والحضارة السومرية، والحضارة الآشورية، والحضارة الفينقية، والحضارة الفارسية، والحضارة البيزنطية، وحضارة العصور الوسطى في أوروبا، وغيرها من الحضارات؛ هو أساسٌ ديني، كما أنها تقوم على تقديس الماضي، وتمجيد الأسلاف، وتُقيم الحياة على تقديس الموروث والالتزام به، والرفض القاطع لما لا يتفق معه، والنبذ العنيف لمن يخالفه. ورغم وجود آلاف الكتب التي تحدد عوامل الانبعاث الأوروبي، وتعمل على تتبع مراحل تطور الحضارة المعاصرة؛ فإن القارئ يجد طريقًا مختصرًا لفهم ما جرى، وكيف جرى؛ فلكي تدرك باختصارٍ شديد؛ كيف كنا وكيف صرنا؛ يمكنك أن تقرأ كتابًا صغيرَ الحجم لكنه كثيف المحتوى؛ ككتاب (تشكيل العقل الحديث) للبروفيسور كرين برينتون. أو كتاب (عندما تغير العالم) للكاتب البريطاني جيمس بيرك. وللكاتب الأمريكي ستيفن جونسون كتاب بعنوان (كيف وصلنا إلى الآن) الكتاب لا يحكي كامل القصة لملحمة الحضارة المعاصرة لكن ما يقدمه يكفي لكي تقتنع بالتحولات النوعية التي حققتها الحضارة المعاصرة في مختلف المجالات. كما أنك ستعيش حرارة المِتابعة لأبطال قصة التطورات العلمية في مختلف المجالات حين تقرأ كتاب (رجال عاشوا للعلم) الذي أعده مجموعة من العلماء الأمريكيين وتمت ترجمته ضمن مشروع (الألف كتاب) وهذه الكتب ما هي إلا نماذج لتتبع مسيرة التطورات العظيمة المدهشة للحضارة المعاصرة. أما عن الحضارات القديمة فقد تتبع ويل ديورانت مسيرة الإنسان منذ وجوده. في كتابه الشامل العظيم (قصة

الحضارة) وفي كتبه الأخرى، فغطّى قصة الإنسان خلال كل المراحل، بما يزيد عن خمسين مجلدًا...

كما أن كتاب (دراسة التاريخ) لأرنولد توينبي يمثل دراسةً شاملةً ذات طابع فلسفي للتاريخ الإنساني بمختلف المراحل، مع تحليلٍ لكل حضارة بتمييز خصائصها وإبراز مقوماتها، إنه أوسع دراسة استهدفت تعليل التاريخ وفلسفة الحضارة. وفي اللغة الفرنسية قام فريق علمي بكتابة (تاريخ الحضارات العام) بإشراف موريس كروزيه. وقد تولت منشورات عويدات ترجمته إلى اللغة العربية في ثمانية مجلدات ضخمة. كما أن منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) قد أصدرت كتابا شاملًا لتاريخ العالم استغرق تاريخ أوروبا وحدها ثلاثة مجلدات ضخمة. أما المفكر الإنجليزي هربرت جورج ولز فقد أرَّخ للعالم تاريخًا فكريًا يقع في أربعة مجلدات. كما أن الدكتور خزعل الماجدي، أرخ للحضارات القديمة في مجموعة من الكتب الضخمة الاستقصائية الشاملة الحافلة بالتفاصيل والرؤى، عن مختلف الحضارات القديمة. كما أصدر السير جون هامرتون تاريخًا شاملا في سبعة مجلدات ضخمة وشارك في كتابته أكثر من خمسين مؤرخًا. لذلك يحق له أن يستهل الكتاب بتأكيد: «هذا التاريخ جديدٌ مبتكَرٌ من جميعِ الوجوه، ويحق لناشره أن يزعم أنه نسيج وحده بين تواريخ العالم؛ تاريخٌ فذٌّ من حيث المادة والشكل. وقد بذلنا الجهد لنروي في أسلوبٍ جديد تلك القصة التي تأسر القلوب؛ قصة ما كان للإنسان من شأنٍ» هذه نماذج من المصادر والمراجع الأساسية الشاملة عن الحضارات القديمة. وبالمقارنات لمختلف الأحوال والأوضاع والظروف والقوانين والمؤسسات والخدمات والإمكانات؛ سوف تتضح الفروق الهائلة بين الحضارات القديمة وحضارة العصر؛ حيث يبقى الإدراك شديد القصور، وموغلًا في الخلل؛ إذا لم يتعرف الجميع عل الاختلافات النوعية بين الحضارات القديمة والحضارة المعاصرة؛ فالاختلافات النوعية هائلة وعميقة وكثيرة...

إن تقدير المكتسبات التي أغدقتها الحضارة المعاصرة على الإنسان الفرد وعلى المرأة وعلى المجتمعات عمومًا؛ إنه بمقدار ما هو ضروري؛ فإنه أيضا

مفيد للناس لأن هذا الإدراك يجعلهم أكثر ابتهاجًا وأقل إحساسًا بالضغوط الطبيعية للواقع. يقول أوين بايبك في كتابه (ارتقاء التقدم): «لقد تسنَّى لكل جيلٍ، أن يعيش حياةً أفضل من تلك الحياة التي عاشها والداه، بل أفضل من الحياة التي عاشها أكثر أجداده غنًى وثروة. إن التقدم مسألةٌ تستعصي على التحديد، إذْ سرعان ما يقوى التقدم على تجاوز المشكلات بصورة تفوق مسؤوليته في إيجادها. وقد تمخض عن هذه المرونة التي يتسم بها التقدم نوعٌ من التسليم المذعن بأن آفاق التقدم مفتوحة بشكل مستمر» ومقابل ذلك يقول الدكتور مارك هيمان في كتابه (الأيض الفائق): «مئات الآلاف من الأجيال؛ عانت ظروف ندرة الغذاء» ويقول كامل الشناوي في يومياته بأن الفرد قد ينتابه في فترة من فترات حياته انسداد في الرؤية؛ فيحكم على الأوضاع بسودائية تتعارض مع الحقيقة فقد عاد إلى أوراق قديمة فوجد أنه دوَّن ملاحظة يقول فيها: «لماذا لم أولد قبل مولدي بمئات السنين؟ لماذا لم أعش في زمن غير هذا الزمن الحافل بالشرور» وهو بعد أنْ فَهِم الحياة يستغرب ذلك من نفسه فيؤكد: «أن أعظم الناس حظًا أو قدْرًا في العصور الغابرة؛ يُعَدُّ شقيًا تعيسًا بالنسبة إلينا، نحن أبناء هذا العصر. ولست أقيس السعادة بالراحة، وهدوء البال، ولكني أقيسها بالمعرفة، والثقافة، وتطوُّر الأفكار، والصناعات، والأحداث التي تصنع التاريخ» هكذا بعد أن كانت الحضارات القديمة تجر البشرية نحو الخلف؛ حيث كان الإنسان يعاني من المجاعات والأوبئة والحروب وقسوة الحياة؛ فتحتْ علومُ العصر وتقنياتُها؛ خيرات الأرض؛ وما زالت تواصل الفتوحات في كل المجالات؛ أما الحضارات القديمة فكان التدهور يمحو التطور؛ فالطفرة اليونانية يعقبها التشتت والهزيمة، واعتناق الارثوذكسية، والحضارة الرومانية تعقبها العصور المظلمة. أما الحضارة المعاصرة فقد قامت على أن المعرفة قوة وأنه لا حَدود لنمو المعارف وبالتالي لا نهاية للتقدم...

لقد تغيَّر كل شيء لكن طبيعة الإنسان وأنساقه الثقافية المتوارثة ظلت ملازمة له؛ بكل أوحالها الفكرية والأخلاقية. إن الإنسانية في مجالات العمل والتنظيم والتنمية؛ تلتزم بالعلم، وتَحشد لذلك طاقات منظمة هائلة، وتُحقِّق

تطورات مدهشة. أما تفكير الناس خارج مجالاتهم الدراسية والعملية وخارج مجالات الإنتاج؛ فإنهم باقون في مستوى السذاجة والدروشة. إن السير جون همرتُن ينبه ويبين حقيقةً كبرى ذات مرارة شديدة وهي أن العقل البشري حتى في المجتمعات المزدهرة ما زال تتحكَّم به الأنساق الثقافية الموروثة فيقول: «إن الماضي ليس ميتًا وإنما يقبض على الحاضر بيد من حديد، وإن ما حصل في بابل منذ آلاف السنين لمُخَلِّفٌ أثره في أجيالٍ من الناس لم تكتحل عيونهم بعد بمرأى الحياة. بل إن ما حدث في الأمور المجهولة في الزوايا الغبراء من غابات العهود الأولى قبل أن تكون بابل؛ ما زال يؤثر في حياة الناس وعقولهم» وفي كتاب (تاريخ المعتقد الغربي) يقول جيلبير ريست: «يَمَّحي العقلُ أمام المعتقَد، في عالَم يتباهى بالعقلانية؛ فالمعتقدات تسيطر دائمًا على الملاحظة الذكية» لذلك فإن الإنسان في كل مكان لم يرتق بتفكيره وأخلاقه إلى مستوى المكتسبات الفكرية والعلمية العظيمة التي حققتها الحضارة المعاصرة. لذلك يحق القول بأن التراث الفلسفي المشرق، والتراث العلمي العظيم الذي حققته الحضارة المعاصرة لم يؤثر في العقل البشري بشكل عام؛ فالاستنارة العامة لم تتحقق، بل إن العقلانية في أفضل تجلياتها؛ تحققت على شكل قوانين، ونُظُم، ومناهج، ومؤسسات، وضوابط، وأساليب. وليست عقلانية مجتمعات ولا عقلانية أفراد، إنهم يجنون الثمار دون أن يدركوا عوامل التغيُّر. إنهم محمولون في مركبة الازدهار من دون أن يعرفوا كيف تكوَّنت؛ مثلما أن راكب الطائرة لا يعرف عنها شيئًا...

فبعد الطفرة اليونانية العظيمة الخاطفة، وبعد التطور الروماني النسبي؛ أتت عصورٌ طويلة مظلمة. إن حضارة العصور الوسطى في أوروبا؛ كانت ذات محتوى ديني محض، ومنحى أخلاقي يقدس التقاليد، ويعتمد على الثقافة الموروثة. فالتعويل على التكرار والاجترار، فكانت المعرفة تتحجر وتتآكل وتتراجع، إن تاريخ الحضارات القديمة يكشف عن أن بعض التقدم، يعقبه تراجعٌ فظيعٌ، وأن بعض الانتعاش يتلوه تدهور وانكماش، وأن بصيص الانفتاح والتنوير، يمحوه نكوصٌ وتحجُّر. بعكس الحضارة المعاصرة تمامًا؛ حيث أن

إنتاج المعارف الجديدة، والتقنيات المذهلة؛ يجري بكثافة ودقة فالعالم في سباق محموم؛ حيث تتواصل الاكتشافات، والابتكارات في كلّ المجالات. ومثلما يقول البروفيسور روبن آبيل في كتابه (الإنسان هو المقياس): «إن نمو الحضارة مستمرٌّ ومتراكم. وتَعني دراسة ماضينا أن نفهم بشكلٍ أفضل كيف وصلنا إلى ما صرنا إليه» وكل هذا مضادٌّ تمامًا لما كانت عليه الحضارات القديمة. إن الحضارة المعاصرة، هي امتدادٌ للحضارة اليونانية، لقد كان اهتمامها الأساسي؛ هو الثورة على النسق الثقافي الموروث، والاندفاع لإنتاج معرفة بديلة، قائمة على البحث الدقيق، والشك المصاحِب، والتحقُّق المتكرر، والمراجعة الدائمة. وكان اعتمادها على العقل الناقد، وكان تركيزها على البحث الموضوعي، بانفصالٍ عن أي تحيُّزٍ ديني أو أيديولوجي. إن الحضارة المعاصرة منذ البدء في جانبها الإنجليزي الذي كانت له القيادة العملية والحضارية منذ الثورة الصناعية؛ كانت تُركِّز على التجريب، وعلى المعرفة التي تستهدف اكتشاف طبيعة الأشياء، وتسخيرها للنفع الدنيوي؛ وكان الهدف معلَنًا بمنتهى الوضوح؛ فالمعرفة من أجل النفع العملي العاجل، ومن أجل رفع مستوى الحياة، وتحسين الظروف الإنسانية؛ وليس من أجل التأمل، ولا من أجل الحقيقة المحضة، ولا التلذذ بالمعرفة. وهذا التركيز على الجانب النفعي العملي؛ كانت له نتائج إيجابية متنوعة وعظيمة، ولكن بالمقابل كان هو مصدر الخلل في الحضارة المعاصرة...

الحرص على النتائج النفعية؛ كان حافزًا قويًا؛ فلأول مرة في التاريخ الإنساني؛ يكون الإنسان مُنتِجًا للمعرفة الممحَّصة، ومعتمدًا على العلم، القائم على الاستقصاء والنقد والتحقق والتفنيد. كان الإنسان مستسلمًا للواقع، وكان يتلقى بِخضوع تام؛ تعاليم النسق الثقافي الذي نشأ في ظله، ولكن بالحضارة المعاصرة، لأول مرة يكون هدف العلم القائم على البحث الدقيق، والتحقق الفاحص؛ هو النجاحات العملية، وتحسين مستوى الحياة. إن الحضارة المعاصرة منذ انطلاقتها، كان شعارها، المعرفة قوة. وهذا هو سرُّ قوتها، كما أنه سبب إعاقتها؛ فكرًا وأخلاقًا. إن هذا التركيز على الجدوى العملية؛ هو

الذي صرف الأذهان عن القيم العظمى للفكر والعلم. لقد كانت الحضارة المعاصرة؛ مندفعةً بإلحاحٍ؛ بأن تتعرف على طبيعة الأشياء من أجل تسخيرها، وكانت إلى جانب ذلك تمثل أيضا ثورة فكرية، ومعرفية، ضد الانصياع للتقاليد؛ فكان اعتمادها على التجريب والاستقصاء والتحقُّق المعرفي. إنها بعد اندفاعتها العملية المحضة في مراحل الانبعاث الأولى؛ تحولت إلى الأعماق؛ فاستمدت طاقتها وطبيعة نموها وطفراتها، من الفكر الفلسفي، والعلوم الموضوعية، المشتقة من الفلسفة. وبهذا التركيز على العلوم الموضوعية؛ انجلتْ عن مكتسَباتٍ نوعيَّةٍ عظيمة؛ تميزت بها الحضارة المعاصرة، عن كل الحضارات القديمة؛ إن الأمم التي حاولت أن تتقدم وأخفقت رغم مرور كل هذه القرون منذ بزوغ الحضارة المعاصرة؛ يعود إلى أنها لم تتفهَّم الأساس الفلسفي والعلمي الموضوعي الذي انفردت به الحضارة المعاصرة، إن المجتمعات التقليدية التي عممت التعليم وأخذت بمبدأ التخصص وتقسيم العمل؛ لم تزدهر لأنها بقيت محكومة برؤية تاريخية؛ يتحكَّم بها النسق الثقافي الموروث، وهنا يبرز الفرق النوعي بين أمة تعتمد الفلسفة والعلم أساسًا للحياة، ومصدرًا للقوانين، ومناهج التفكير، والنظم، والمؤسسات، وأساليب العمل، والاتجاه العام. مقابل ثقافة عممت التعليم، لكنها تتخذ من تاريخها، ومنظومة قيمها، ونسقها الثقافي الموروث؛ معنى وجودها، ومصدر قوانينها، ومؤسساتها. إنها فروق نوعية لابد من إدراكها بوضوح، ومعالجة الخلل بناء على هذا الإدراك الحاسم...

عاش الإنسان أزمانًا سرمدية؛ حياة عقيمة بائسة وقاسية خالية من الابتكار؛ وهذه الحقيقة؛ تؤكد أن الإنسان بطبيعته غير مبتكر؛ فالابتكار لم يطرأ على حياته إلا بعد أن كثرت أعداد البشر، ونمت الثقافة، وكثر التواصل والتفاعل؛ فمن الكثرة والتفاعل، والتراكم الثقافي، صار بين فترة وأخرى، يبزغ عقلٌ فردي خارق. ومن مجموع الومضات الفردية الخارقة وتطبيقاتها العامة المنتشرة تكونت الذخائر الثقافية. يقول عالم الانثروبولوجيا وليم هاولز في كتابه الحصيف (ما وراء التاريخ): «فلم يتمكن الإنسان من التفكير واستخدام الآلات؛ إلا لأن بليونًا من السنين؛ قد مهَّدَتْ له سبيل ذلك» ويقول: «إن

انفرادنا بنوع من الحياة يختلف اختلافًا بينًا عن بقية الطبيعة؛ هو الذي يؤلف ماهية الإنسان. لكن هذا هو الجانب الواضح من المسألة. أما الشيء غير الواضح تمامًا للأذهان؛ فهو أن ذلك الاختلاف حدَثَ داخل نطاق الطبيعة ذاتها، وأن الإنسانية ليست سوى جزء من الطبيعة، وأنها كانت دائمًا جزءًا منها رغم كل اختلافاتها. ولكننا نخدع أنفسنا بسهولة؛ فنحن نميل لأن نجعل اختلافاتنا عن الطبيعة؛ تحجب الروابط الهائلة القوية التي تربطنا بها» ويضيف: «فالإنسان وحياته عبارة عن مجموعة من التناقضات، بعضها فوق بعض. ولا يمكن تفسير الإنسان إلا في ضوء عدد كبير جدا من الغرائب، ولكن لن يمكن فهمه بعد هذا كله؛ إلا إذا فهمنا هذه الغرائب ذاتها على أنها غرائب طبيعية» ويضيف: «إن أفعال الإنسان ظلت محكومة إلى حد كبير بطبيعته خلال فترة طويلة من الزمن، ثم بدأ بعد ذلك يكتسب ببطء القدرة على معالجة الأفكار بطريقة جديدة، إلى أن أصبحت أفكاره تؤلف الجزء الأكبر من العالم الذي يحيط به» ويضيف: «ليس من الممكن أن نفْصِل فصلا تامًّا قصة أفكار الإنسان عن قصة الإنسان نفسه» لذلك فإنه من الضروري جدا التعرف على الزمن السرمدي الذي أمضاه الإنسان وهو عديم الحيلة. يقول هاولز: «الحقيقة هي أنه بعد مليون من السنوات؛ بدأت الثقافة تندفع في سبيلها إلى الأمام، وتسبق كل القدرات الذهنية والاجتماعية والطبيعية التي يملكها الإنسان» وينبه عالم الأحياء جوليان هكسلي بأن زمن الحضارة: «لا يُعَدُّ شيئًا بالنسبة للمليون سنة التي عاشها الإنسان على الأرض» إن كل المزايا التي اكتسبها الإنسان؛ كانت ذات مصدر ثقافي؛ فهو بالثقافة صار إلى ما صار إليه؛ إن الإنسان كائنٌ ثقافي، وهو بما ينضاف إليه، وقد بات المولود في هذا العصر، يتفتَّح وعيه محاطًا بتراث ثقافي هائل...

يتأكد الزمن السرمدي الذي قضاه الإنسان وهو عديم الحيلة في مختلف المراجع الإنثروبولوجية؛ فقد كان عليه أن ينتظر آمادًا طويلة؛ قبل أن تتكون له ثقافة، يرتفع بها شأنه، ثم يواصل الترقي بمقدار التقدم الذي يتحقق للثقافة. يقول وليم نوك في كتابه (عالَمٌ جديد جريء): «منذ مليوني عام عاش أسلافنا

في عالَم البُعْد الصِّفْري. كانت قبائل العصر الجليدي الرحل تعيش في ظل حضارة نُقطية معزولة مع أقل قدر من التفاعل الاجتماعي» ويضيف: «على مدى عمر الفرد كله، لم يكن يستطيع أن يشاهد أكثر من مئات من الأشخاص الآخرين. كان لدى الإنسان الأول الحافز على الانتشار بدلا من التركيز على منطقة واحدة. وكذلك كان يتجنب الاتصال غير الضروري بغيره من الصيادين الجوالين، فقد كان الاتصال بالنقاط الأخرى أمرًا غير ذي نفع في الصراع من أجل البقاء» ويضيف: «إن تلك العزلة التي فرضها الإنسان البدائي على نفسه، كانت العامل الرئيسي الذي حدَّ من تقدُّم البشرية، على مدى المليوني عام الأولى» أما العالم المفكر فريتيوف كابرا فيؤكد في كتابه (رؤية جديدة إلى الحياة): «إن الواقع الاجتماعي قد انبثق؛ منذ مليونين إلى أربعة ملايين عامًا؛ عندما بدأ الإنسان القديم، في إنماء مهارات صُنْعِ الأدوات، وتكوين اللغات» إن الزمن السرمدي الذي عاشه الإنسان قبل أن يبتكر وسائل حقيقية للحياة؛ تؤكد عُقْم الإنسان إبداعيًّا، وأنه بطبيعته كائنٌ غير مبتكر؛ فالابتكار مزية ثقافية فردية طارئة ونادرة، وما يزال الأمر كذلك فعدد المخترعين الأساسيين حتى خلال العصر الحديث الذي يشهد طوفانًا من المخترعات؛ هو عددٌ قليلٌ إلى درجة أنه يمكن حصرهم بسهولة بأسمائهم. وهذا يستوجب المزيد من العناية لاستثارة الاهتمام، وتكوين الشغف...

وفي زمنٍ ليس بالبعيد قياسًا بالعمر السرمدي الذي أمضاه الإنسان على هذه الأرض؛ حصلت في القرن الخامس قبل الميلاد طفرةٌ فكرية عظيمة في أثينا لكنها كانت محدودة المكان والزمان، كانت إشعاعًا محليًّا، ولم تكن شمسًا عالمية، وسرعان ما غمرها طوفان الظلام فبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية دخلت أوروبا والعالم في سبات عميق خلال عشرة قرون، وكان بالإمكان أن يستمر السُّبات لولا اختراع المطبعة، وأن أوروبا وجدت نفسها محاصرة، وأنه لابد من مَخرَج من ذلك الحصار؛ فجاءت مغامرة كولومبس لتنفتح لها الآفاق؛ إن ظفر كولومبس في مغامرته العجيبة قد أيقظ أوروبا فبدأت تتململ وتتحفز للانطلاق. ومثلما يقول وليم نوك: «تغيَّر كل ذلك في القرن الخامس عشر حين

تقدمت التكنولوجيا البحرية» إن بضعة أفراد من المخترعين والفلاسفة والعلماء؛ كانوا خلف كل هذا التغير الهائل؛ فبينما كانت تمضي القرون والأمم في حالة جمود أو في حالة تقهقر؛ باتت تتلاحق الاكتشافات في الحضارة المعاصرة في مختلف المجالات كانت الحضارات القديمة كما وصفها المؤرخ الإنجليزي الشهير إدوارد جيبون في كتابه عن (الحضارة الرومانية) حيث يقول: «على مدار عشرة قرون، لم يتم ولو اكتشافٌ واحد يُعْلي من كرامة البشرية، أو يَرقى بحظها من السعادة. كما لم تُضَفْ ولو فكرةٌ واحدةٌ إلى المناهج التأملية التي أثمرتها العصور(اليونانية) القديمة، وصار تتابع المعلمين المتحجرين للجيل الخانع التالي» إن الإنسان بطبيعته كائنٌ مقلِّد، أما الابتكار والإبداع فهو حالات فردية استثنائية نادرة. يؤكد ذلك تاريخ الإنسان القديم. يقول فرانك ويلش في كتابه (تاريخ العالم): «منذ حوالي مليون ونصف المليون سنة؛ جاب الإنسان مساحات واسعة وصولا إلى الصين وجاوة في الشرق، وفرنسا إسبانيا وإنجلترا في الطرف الآخر من كتلة اليابسة القارية. كانت الأدوات لم تتغيَّر تقريبًا لأكثر من مليون سنة؛ وانتشرت الأداة في العالم بأسره؛ إنها فأس يدوية، وهي الأداة المتعددة الوظائف، التي مكنت الإنسان من البقاء على قيد الحياة، تلك الأداة كانت عادةً مستطيلة الشكل لكن أحيانًا بيضاوية، أو مستديرة، ذات حدٍّ أو حدين قاطعين، قد تُستخدم للتشريح أو الكشط، وكذلك للفرم أو الشق، وعدم وجود مقبض، وهو تطوير حصل لاحقًا» هكذا ظل الإنسان مليون ونصف المليون سنة؛ وهو كليل القدرة، محدود الأدوات، عاجزًا عن تجاوز حالته البدائية الموغلة في الكلال والعجز. ثم قبل عشرة آلاف عام ابتكر الزراعة وبدأ في التحضر لكن في كل الحضارات القديمة بقي الإنسان يقدس الماضي ويعتمد على التقِليد ويحارب الخروج على المألوف. أما في الحضارة المعاصرة؛ فإن قلة من الأفراد الخارقين قد قلبوا حياة الإنسان من التلقي المستسلم البليد، إلى اختراق المجهول، وتغيير المفاهيم، وتبديل الرُّؤى؛ إنهم الرواد الذين أرادوا من الإنسان أن يكون متوقدًا، ومتسائلًا، وباحثًا، ومستشرفًا، ومستكشفًا بلا حدود...

ويلاحَظ وجود اختلافات كبيرة في تحديد طول الزمن السرمدي الذي قضاه الإنسان شريدًا تائهًا لا يكاد يجاوز مستوى الوضع الطبيعي فبينما ذكر بعضهم أن الزمن العقيم امتد مليوني عام نجد آخر يتردد في تحديد هذا الزمن أو يحدده بنصف مليون عام، أما السبب في هذا التفاوت فهو حصول اكتشافات يتبين منها أن عمر الإنسان على الأرض أطول مما كان يُعتقَد...

لابد أن نستحضر دائمًا في أذهاننا؛ أصالة الجهل، وأولوية الكلال، وتلقائية الاعتماد على التقليد والتكرار؛ فهذه أوَّليات الحياة البشرية، هذا هو الأصل في التفكير البشري. لذلك امتدَّ عجزه وكلاله دهورًا سرمدية؛ ومثلما يكتب السير آرثر كيث في الفصل الكثيف الذي كتبه لتاريخ العالم حيث يقول: «العصر الصناعي الذي نعيش فيه الآن، لا يشمل إلا بضعة قرون، ولا يمتد عصر الزراعة إلا بضعة آلاف من السنين. أما زمن العيش على الطبيعة؛ الذي كان الإنسان فيه يعتمد على ما تساقط إليه من موائدها؛ فقد استغرق مئات الآلاف من السنين. ولسنا نعرف مقدار هذا الزمن على وجه التحقيق. ولكن الذين درسوا ما في العالم من الشواهد، لا يشك أحدٌ منهم في أن هذا العهد من حياة الإنسان؛ لا يقل مداه عن نصف مليون من السنين» هذا الإيضاح لابد منه؛ ولكن رغم ما حققته الحضارة المعاصرة، من مكتسبات عظيمة فإنها ما تزال معاقة فكرًا وأخلاقا، على النحو الذي تناولته في الفصل السابق. لكن كشف الإعاقة؛ استوجب أن يتلوه بيانُ ما حققته للإنسانية من مكتسبات؛ فبعد الحديث في الفصل السابق عن الإعاقة الجذرية التي تعاني منها الحضارة المعاصرة؛ لابد من تأكيد أن الحضارات القديمة؛ كانت مكتظة ومثخنة بإعاقات فظيعة تفوق العد، فلو لم يكن للحضارات القديمة، من النقائص سوى موجات الغزو المتكررة للقبائل الهمجية؛ حيث تكتسح القرى والمدن، وتُخلِّف الخراب والبؤس ومالا يحصى من المآسي المروعة. وكذلك استباحة الدول القوية للدول الضعيفة، ومثلما يؤكد مؤرخ الحضارة ويل ديورانت في قصة الحضارة فيقول: «الحروب كانت عاملاً لا يرحم لاقتلاع الشعوب الضعيفة والقضاء عليه» ويقول: «كانت الحروب تُعَدُّ وقتئذ، أسمى أعمال الملوك وأنبلها، وكان من يتقاعسون

عن الحروب، من الملوك، يُحتقَرون. وقد خُلِع من ملوك إنجلترا ثلاثة، لأنهم غير محاربين. وكان الموت الطبيعي للملك عارًا» ويضيف: «إدوارد الثالث؛ كان محاربًا لا حاكمًا، وقد أسلم السلطات للبرلمان، وهو راضٍ مغتبطٍ؛ ما دام البرلمان يمده بما تحتاجه حروبه من المال. وقد ظل طوال حكمه يستنزف دماء فرنسا، فيما كان يبذله من محاولات لضمها إلى تاجه» في أوضاع كهذه ينعدم الأمن، فالدول الأقوى تَعتبِر غزو الدول الأضعف سلوكًا طبيعيًا، بل كان العدوان هو المفخرة الكبرى، والمصدر الأكبر للمجد والمال؛ فلا نهاية لقصص الحروب العدوانية في الحضارات القديمة من أجل السيطرة والنهب وإذلال الأمم الأخرى، والاستغلال والاستعباد، فقد كانت الدول تعتمد في التمويل على الأسلاب التي تأتيها من الغزو، أما الأشد فظاعةً وعارًا؛ فهو انتهاك إنسانية المغلوبين، وإسقاط آدميتهم؛ وتحويل الشعوب المغلوبة إلى عبيد وإماء؛ يباعون كما تباع البهائم، إن هذا العار وحده؛ يكفي لتأكيد التقدم العظيم الهائل الذي حققته الحضارة المعاصرة؛ ومثلما يقول أستاذ الفلسفة جونسون في كتابه (فلسفة الحضارة): «إنه لمن الأهمية بمكان عظيم؛ رصْد التشكُّل البطيء جدا للأفكار الجديدة الحاسمة وبلوغها القدرة على التأثير؛ ولنتدبَّر على سبيل المثال الانتقال من شيوع فكرة الرق؛ إلى شيوع الأفكار عن الحرية والمساواة» ففي الحضارات القديمة كان العدوان مفتوحًا؛ للأقوياء لافتراس الأقل قوة، كان الغزو والعدوان والسلب والاسترقاق هو النظام السائد، وكان يمارَس باعتزاز وفخر، فهو عنوان العزة والقوة والمجد وكانت نتائجه كارثية على المغلوبين، حيث يتم قتلهم أو استعبادهم. أما الحضارة المعاصرة؛ فرغم إعاقتها؛ التي تناولتها في الفصل السابق؛ فإنها قد حقَّقتْ للإنسانية مكاسب كبرى؛ تفوق الحصر؛ متنوعة وعظيمة، مع التنويه بأن المكتسبات جاءت متأخرة، لأن طفرة الانبعاث الأوروبي في مراحله الأولى قامت على المغامرات، كمغامرة كولومبس التي كانت فاتحة الانبعاث الأوربي الحديث...

أما الفكر الفلسفي والعلوم الموضوعية فلم تتدخل إلا في فترة لاحقة. لكن العبرة بالنتائج؛ فبعد تدخُّل الفكر الفلسفي وتدخُّل العلوم؛ برزت الجوانب

المضيئة للحضارة المعاصرة، في تعميم التعليم، وتوفير الخدمات، وتطور القوانين، والمؤسسات، والنُّظُم، والأساليب، والأوضاع. ولكن هذه الحقيقة الكبرى؛ تغيب عن أكثر الناس مما جعل أعداء الحضارة، وأعداء الإنسان؛ يختلقون مزايا غير واقعية للحضارات القديمة، كما يختلقون تشنيعًا للحضارة المعاصرة؛ إمعانًا في الصد عن الانعتاق من التطبُّع التلقائي المعزَّز؛ تأكيدًا وترسيخًا، طول عمر الفرد...

كانت الحياة البشرية في الحضارات القديمة؛ تقدس الماضي، وتنتقص الحاضر، وكان المستقبل يأتي بالأسوأ ولا يَعِد بأي أمل في هذه الدنيا، وكان العدوان، والفقر، والأمراض، والأوبئة؛ تتقاسم حياة الناس. وكانت الحياة تكرارًا ثقيلا خانقًا؛ فالأنساق الثقافية؛ تعطل الخيال، وتقاوم الإبداع، ولا تتقبَّل الخروج عما هو معتاد ومألوف. أما الحضارة المعاصرة؛ فقد كانت ثورة ضد كل ذلك التحجر والعطالة والإملاق؛ إن الحضارة المعاصرة منذ بدايتها جاءت على هيئة انفجار مزلزل، فقد أشعلت خيال الأوروبيين، وأجَّجت رغبتهم في الكشف، حين نجحت مغامرة كولومبس باكتشاف دنيا جديدة، لقد كانت الحضارة المعاصرة، منذ فجرها العملي المغامر؛ ثورةً على الرتابة، وإلهابًا للخيال؛ لقد قامت على كسر المألوف، وأشعلتْ نجاحاتها العملية؛ رغبةً عارمةً في الاكتشاف، وإبراز ما لم يكن معروفًا، ورغم أن البداية كانت مغامرات عملية إلا أن تأثيرها النفسي، في التطلع إلى الاختراق، والتعرُّف على المجهول، والاندفاع إلى الريادة، والرغبة العارمة في التجاوز؛ كان لذلك كله تأثيرٌ قويٌّ؛ على طريقة التفكير؛ فتغيرت الرؤية إلى الوجود. وبعد أن كشفت المغامرات العملية قارات جديدة وتعرفت على عوالم جديدة؛ بزغ العلم بكل جرأته ليضيء مسيرة الحضارة، ويؤسس لتقدم متواصل على كل الجبهات. يقول عالم الفيزياء جاكوب برونوفسكي في كتابه (ارتقاء الإنسان): «إن أقوى الدوافع في ارتقاء الإنسان؛ هو سعادته في مهارته، إنه يحب أن ينجز ما يفعله جيدًا» ويضيف: «الفن والعلم كلاهما ينبع من: القدرة على تخيُّل المستقبل، والتنبؤ بما قد يَحدُث، ثم التخطيط مسبقًا له؛ فخيال الإنسان، ومنطقه، وحِدَّة ذكائه؛

تجعله يمل مما هو فيه، ويغير بيئته» ويضيف: «إن الإنسان يتميز بمواهبه التخيلية، إنه يرسم الخطط، والابتكارات، والاكتشافات الجديدة» وهنا ندرك ضرر التعلُّم اضطرارًا، وضرر التركيز على إعطاء معلومات، وعدم الاهتمام بإشعال الخيال، وإثارة الرغبة الذاتية التلقائية بالمعرفة...

أحداثٌ تتابعت في أوروبا، دفعت بها إلى فوران عام، منها فتح القسطنطينية وسقوط الدولة البيزنطية، واختراع المطبعة، والتهديد التركي، ومغامرة كولومبس الظافرة. ثم إن تاريخ الفكر الغربي، يؤكد على ثلاث حركات، أخرجت أوروبا من سجن العصور الوسطى، إلى آفاق العصر الحديث. وعلى سبيل المثال يُبرز المؤرخ كرين برينتون في كتابه (تشكيل العقل الحديث) الدور الهام الذي اضطلعت به ثلاث حركات، هي الحركة الإنسانية، والحركة البروتستانتية، والحركة العقلانية، ويقول بأن هذه الحركات الثلاث: «أخذت تعمل عملها، في اتجاه تقويض نظرة القرون الوسطى، إلى العالم وعناصره؛ لتُحل محلها النظرة الحديثة» لقد تتابعت الفتوحات الكبرى للعلم، فأعلن كوبرنيكوس بأن الأرض ليست هي مركز الكون وإنما هي مجرد كوكب تابع للشمس، وأثبت الاكتشاف جاليليو بمناظيره، ثم أعلن ديكارت منهجه الفلسفي وأعطى الشك الأولوية، وأحدثت فلسفة ديكارت رجة عامة في أوروبا، ثم اكتشف نيوتن الجاذبية وأعلن قوانين الحركة، وبدأت الاكتشافات العلمية تهز قناعات الأوروبيين بعنف موقظ، واكتشف ليفنهوك بمجاهره الأحياء المجهرية الدقيقة فاتضح للناس أن الدنيا تعج بكائنات حية لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وقامت الثورة الصناعية فغيرت نمط الحياة، ثم قامت الثورة الأمريكية، وقدَّمت نموذجًا جديدًا لنمط تكوين الدولة، ثم اندلعت الثورة الفرنسية؛ فتزلزلت أوروبا كلها. ثم أعلن داروين نظريته عن تطور الكائنات الحية؛ فأَحدثت زلزالا في التفكير الأوروبي وتتابعت فتوحات العلوم، وصارت تحدد مسارات العمل في السلم والحرب، وفي الصحة والمرض، وبات العلم هو المرشد، وتغيرتْ الأسس التي تقوم عليها الحياة؛ فالحضارة المعاصرة هي الحضارة الوحيدة التي كان عمادها العلم، فلم يعد العلم نشاطًا فرديًا منعزلا

لبعض الأفراد، وإنما صار العلم حاضرًا في كل شأن من شؤون الإنسان، في الحرب والسلم، وفي الصحة والمرض، وفي العمل والراحة، وفي السفر والحضر. إن العلم ليس معلومات، وإنما هو تصحيح تصورات؛ فلا قيمة للتعلُّم إلا إذا توغَّل العلمُ في الأعماق؛ وخلخل الجهل البنيوي الذي تتكلس به العقول، ويتجمد به التفكير...

لم يعد العلم تَلَقِّيًا صامتًا، ولم تعد المعرفة قبولًا تلقائيًا، وإنما هو مواجهةٌ حادَّةٌ بين مختلف التفسيرات، وتعاركٌ بين مختلف الاتجاهات، وبذلك تنجلي الحقيقة. يقول العالم فريمان دايسون في كتابه (العالم متمردًا): «لا شيء يضاهي الرؤية العلمية الفريدة؛ فالعلم هو فسيفساء من رؤى جزيئية متضاربة، إلا أن هناك عنصرًا واحدًا مشتركًا بين هذه الرؤى؛ هو التمرد على القيود التي تفرضها الثقافة المحلية السائدة، سواء كانت غربية أو شرقية» ويضيف: «العلم تمردٌ على القيود الفكرية» ويضيف وهو يصف العلماء اليابانيين في المراحل الأولى من دخولهم حضارة العصر: «كان العلم تمردًا على ثقافتهم التقليدية للنظام الإقطاعي» ويضيف: «العلم هو تحالفُ أرواحٍ حرة، تتمرد ضد الطغيان المحلي لكل ثقافة تُفرض على أبنائها» أما العالم الفرنسي كلود برنار فإنه في كتابه (مدخل إلى دراسة الطب التجريبي) يؤكد على أهمية استصحاب الشك فيقول: «العلم يعلِّمنا أن نشك» أما الدكتور جون باري فإنه في كتابه (الإنفلونزا العظمى) يطلب منا أن نعتنق الشك؛ فيقول: «لكي تكون عالمًا، لا يتطلب الأمر ذكاءً وفضولاً فقط، ولكنه يتطلب الشغف، والصبر، والإبداع، والاعتماد على الذات، وشجاعة قبول الشك، بل اعتناقه» فإذا كان على العالم، أن يستصحب الشك دومًا، وهو يعتمد على ذخيرة من المعارف الموثقة؛ فماذا يقال عما تتطبَّع به الأجيال تلقائيًّا في طفولتهم، وبه تتكون بنياتهم الذهنية القاعدية، التي هي أداتهم لمعرفة العالم؟! إن الجهل البنيوي، الذي تتطبَّع به العقول منذ الطفولة المبكرة، في كل الأمم؛ هو العدو الأكبر للعلم، وهو الصاد الأقوى عن الحقيقة، وهو الإعاقة الجذرية، التي حالت دون ولادة الإنسان الجديد، الذي يتمحَّض عقله للعلوم، بموضوعيتها المنشودة...

ومما يجب لفت النظر إليه بقوة وتكرار حقيقة؛ أن النقائص هي الأصل في الوجود البشري، وأن المزايا طارئة ومكتسبة، وهي حقيقة تغيب عن أذهان أكثر الناس. من المؤكد أن الحضارة المعاصرة؛ بدأت كطفرة عملية محضة، ومغامرات مادية؛ فكانت استعمارية، وعنصرية، ونهَّابة وشريرة وعدوانية، ومارست في مراحلها الأولى أسوأ صور الاستعباد. لكن التغيرات الإيجابية تلاحقت؛ بعد تدخُّل الفكر الفلسفي، والعلوم الموضوعية؛ حتى وإن كان الكثير من التغيرات النوعية الإيجابية؛ قد تمخَّضَتْ عنها النقائصُ ذاتُها، وهذه مزية عظيمة، أن لا يَلِجَّ الناسُ في المكابرة، وإنما يراجعون أنفسهم ويكتشفون فظاعة ما يجري؛ فالنزاعات في الحضارة المعاصرة؛ تنتهي أحيانًا بحلولٍ، تصبح قوانينَ تسري على الجميع. كما هو الشأن في الاتفاق على الالتزام بنظام دولي، تلتزم به كل الأطراف. كما حصل حول حرية البحار، وحق السيادة لكل دولة داخل حدود معترف بها. إن قابلية التغيُّر الإيجابي من أعظم مزايا الحضارة المعاصرة. ولكن أعداء الحضارة يجهلون هذه الحقائق، أو يحجبونها عمدًا...

إن عدم إدراك النقائص البشعة للحضارات القديمة، وإغفال مزايا الحضارة المعاصرة؛ قد جعلني؛ أضع ضمن خطة مشروعي الفكري كتابًا بعنوان (التغيُّرات النوعية في الحضارة الإنسانية) وشرعتُ فيه فعلا منذ أكثر من ربعِ قرنٍ، حيث نشرتُ سلسلةَ مقالاتٍ عما تختلف به الحضارةُ المعاصرة إيجابيًّا عن الحضارات القديمة تحت عنوان (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) وفي نفس المجال نشرتُ سلسلة مقالات أخرى عن تَفَرُّد الحضارة المعاصرة بتأكيد قيمة الإنسان الفرد، وما ترتب على ذلك من نتائج عظيمة اجتماعية وسياسية ومعرفية. وكنت أنوي استكمال التغيرات النوعية التي تميزت بها الحضارة المعاصرةِ لنشرها في كتابٍ؛ ما زلتُ أعتبره بالغ الأهمية؛ لأنه قد يسهم في سَدِّ ثغرةٍ ينفذ منها دعاة التحجُّر. لكني انشغلت عن هذا الموضوع بالكتابة عن نظريتي الأساسية بكتاب (الإنسان كائن تلقائي) وكتاب (عبقرية الاهتمام التلقائي) وكتاب (الريادة والاستجابة) وكان الأمر يقتضي إنجاز كتاب (التغيرات النوعية في الحضارة الإنسانية) بهدف الإسهام في تبديد الكثير من الأوهام عن

الحضارات القديمة. ولكن لأن ذلك قد يستغرق وقتًا قد يطول، ولأني تحدثت في الفصل السابق عن الخلل البنيوي الذي تعانيه الحضارة المعاصرة، بتركيزها المفْرط على متطلبات البقاء، واستغراقها بمتطلبات الاقتصاد، والسباق في تكديس قدرات التمكين والتنازع على الهيمنة، رأيت ضرورة أن أكتب باختصار عن بعض مزايا الحضارة المعاصرة كرؤوس موضوعات؛ لئلا يبدو أني أهجو الحضارة المعاصرة بشكلٍ كلي مطلق...

إن الحياة البشرية في العصور القديمة كانت قائمة على مبدأ القوة المحض؛ فالأقوى يغزو الأقل قوة، ويفترسه ويخرب دياره، ويسلبه أمواله، ويستعبد رجاله ونساءه. لذلك ما كانت أُمَّةٌ تبدأ في التقدم حتى تهاجمها القبائل الهمجية فتمحو ما تحقق من تقدم، أو تغزوها دولة أقوى؛ فتُدَمِّر ما تحقق. لذلك كان كل تقدم يعقبه تدمير وتراجع. دُمرت أثينا أكثر من مرة، ودمِّرَتْ قرطاج أكثر من مرة ثم مُحِيَتْ من الوجود. ودُمِّرَتْ روما أكثر من مرة، ودُمِّرَتْ بغداد، بالغزو الهمجي من التتار. كما أن التتار غزوا الصين وحكموها مدة طويلة كما غزوا أوربا، واستولوا على شرق أوروبا وأوكرانيا وروسيا، ومن البديهي أنه لا يمكن أن يتحقق التقدم الحضاري إذا كانت الشعوب غير آمنة، ومعرضة دومًا للعدوان؛ ومثلما يقول مؤرخ الحضارة ويل ديورانت في الجزء الأول من (قصة الحضارة): «الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع، والإنشاء» ولأن الحروب رافقت الإنسان، وكما انتهى إليه الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز؛ بأن العدوان هو السلوك الطبيعي للإنسان ما لم يتم لجمه بسلطة قاهرة. العدوان الفردي يتم السيطرة عليه بالسلطة السياسية، أما عدوان الدول فبقي مفتوحًا حتى قيام النظام الدولي في الحضارة المعاصرة. أما قبل ذلك؛ فكان الخوف من العدوان خوفًا دائمًا، ملازمًا لحياة الناس إلى عهد قريب؛ لذلك تأخَّر نمو الحضارة تأخُّرًا شديدًا. بل قد تحصل طفرة حضارية، ثم يتم تدميرها بموجة من موجات القبائل الهمجية تقضي عليها. ومثلما يقول ديورانت في نفس المصدر: «إن المدنيَّة ليست إلا فترة عارضة موقوتة تتخلل وحشية

الغابات» لم ينتظم التقدم الحضاري إلا بالحضارة الحديثة التي أنجزت العلوم والتقنيات واستمرت تواصل الإنجاز اعتمادًا على العلوم...

الحضارة المعاصرة، رغم أنها في البداية كانت طفرة مغامرين عمليين؛ إلا أنها الحضارة الوحيدة التي قامت على الفكر الفلسفي، وعلى العلوم الموضوعية؛ في قوانينها، ونُظُمها، ومؤسساتها، وأساليب عملها. لذلك تلاحقت التطورات بشكل لا مثيل له في أية حضارة سابقة. لقد انتبه الفيلسوف فرانسيس بيكون للطاقة التي تختزنها الأشياء؛ فبعد أفاعيل اختراع المطبعة، وملح البارود، والبوصلة، أدرك بيكون، أنه لابد من إحداث تغيير جذري في التعليم، وتوجيه الطاقة الإنسانية المعرفية، لكشف طبائع الأشياء وتسخيرها. لقد سخر من التعليم السائد، وأكد أن على الأجيال أن يتعرفوا على طبائع الأشياء لتسخيرها لخدمة الإنسان؛ فالمعرفة عنده مفتاح القوة. وكتب يقول: «الطباعة، وملح البارود، والبوصلة؛ قد غيَّرَتْ العالم كله وحالته، وقد اشتُقَّتْ منها أعدادٌ لا تُحصى من التغييرات، ولا يبدو أن أية امبراطورية، قد مارست سلطةً أو نفوذًا على الشؤون البشرية أكثر من هذه الاكتشافات الميكانيكية» لقد رأى بيكون ببصيرته الخارقة، بأن توجيه الاهتمام لاكتشاف طبائع الأشياء، وتسخيرها؛ سوف يفتح المجال لاستمرار التقدم في كل المجالات؛ فلا نهاية لطاقة الأشياء وما على البشر سوى التركز على مواصلة الاكتشافات وتسخيرها لخدمة الإنسانية...

وبعد أن كانت كل الثقافات ترى أن العظمة في الماضي، وأن الأمم تنحدر نحو الأسوأ؛ قَلَبَ فرنسيس بيكون التصور فأعلن فكرة التقدم المستمر يقول إدوارد كورنيش في كتابه (المستقبلية): «وقد رأى بيكون أن الاكتشافات الجديدة تُغَيِّر الثقافة، وهو بتأكيده على التغيير الثقافي؛ فَتَح عقولَ الناس على احتمال توقُّع التغييرات؛ فما لم يدرك الناس، ويعترفوا أن ثقافتهم آخذة في التغيُّر؛ فلن يُظهروا أي اهتمامٍ جادٍّ بمحاولةِ التنبؤ بالتغييرات التي قد تحدث» ويضيف: «كان بيكون أول من صاغ فكرة التقدم بالشكل الذي انتصرتْ فيه خلال القرن الثامن عشر؛ فهذه الفكرة كما وصَفَها بوري: «هي معتقد أن

الحضارة قد تحركت وتتحرك وستستمر في التحرك في الاتجاه المرغوب» ويضيف كورنيش: «واليوم فإن فكرة التقدم بالنسبة للمؤرخ وارين واغر: «هي دِين الإنسان الغربي؛ فهو وبعد وقت طويل من فقدان حس التفوق والسمو؛ ظل يعتقد أن التاريخ سجل نهجه التدريجي الخاص به نحو الكمال» ويضيف كورنيش: «كانت فكرة التقدم فكرة جديدة ومثيرة في القرن السابع عشر والثامن عشر، وشكَّلَتْ نقطة انعطاف رئيسية في الفكر الإنساني» لقد كانت كلُّ الأمم تنظر إلى الماضي باعتباره النموذج الأمثل، وأن الأمم تتراجع وتتدهور كلما امتد الزمن. ولكن فكرة التقدم قَلَبَتْ التصور تمامًا؛ فأصبح بوسع الإنسانية أن تُغير كل شيء بالتعرف على طبيعة الأشياء وتسخيرها لخدمة الإنسان فالمعرفة هي مفتاح القوة...

يقول المؤرخ تشالز بيارد: «من بين الأفكار التي تحكمت في الشؤون العامة والخاصة، خلال المائتي سنة الأخيرة؛ ليس ما هو أكثر أهمية، وأكبر شأنًا، أو ممارسة نفوذ في المستقبل؛ من فكرة التقدم؛ فقد ظل الإنسان مغلولا بفكرة النهاية المأساوية، وظل الأمر كذلك إلى أن أعتقتْ التجارةُ والاختراعاتُ، والعلومُ الطبيعيةُ؛ الإنسانيةَ من عبودية الحلقة المفرغة، والملحمة المسيحية، وأصبح ممكنًا التفكير بمستقبل زاهر كبير للبشرية. وبفتوحات العالم المادي للصالح البشري ولتوفير الظروف لحياة خيِّرة على هذا الكوكب» إن العقل الأوروبي، لم يحقق هذه التطورات المذهلة؛ إلا بعد أنْ تغيَّرتْ رُؤاه تغيرات نوعية عن الوجود والإنسان وعن نفسه. إن العقل الأوروبي قد غيَّر اتجاهه، وبدَّل اهتماماته، وغيَّر مجالات انشغاله. ومثلما يقول الفيلسوف الفرنسي إدقار موران: «لقد وُلِدَتْ الحضارة في الغرب؛ عبْر القطيعة مع الماضي، معتقدةً أنها تتوجه نحو مستقبل حافلٍ بالتقدم اللانهائي» ويؤكد نفس المعنى الفيلسوف كارل بوبر حيث يقول: «إن أسوأ ما يفعله الإنسان هو الخضوع لمجرى التاريخ» إن الأوروبيين قد أحدثوا قطيعة مع التاريخ الذي أبقاهم أسرى لنمط رتيب من الحياة. ونفس المعنى يتكرر عند الفيلسوف ارنست رينان حيث يقول: «إن أعظم تقدُّم قام به الفكر الحديث هو: إحلال فكرة

الصيرورة محل فكرة الكينونة، وفكرة النسبي محل فكرة المطلق، والتغيير محل الثبات» لقد سارت أوروبا خلف فلاسفة التنوير ومثلما يقول كلود دلماس في كتابه (تاريخ الحضارة الأوروبية): «إن لوثر فتح الباب بوجه كالفن، وكالفن فتحه بوجه فولتير، وهذا الأخير أعطى رينان المفاتيح» لكن ميشيل فوكو يرى أن القطيعة مع الماضي لم تكن كافية ولا حاسمة؛ لذلك يتوجه إلى قرائه الغربيين؛ مؤكدًا لهم أنه لابد من: «تغيير أنفسنا، وطريقتنا في الحياة، وعلاقتنا مع الآخرين، ومع الأشياء؛ فلن تكون هناك ثورة حقيقية إلا إذا حدث تغييرٌ جذري في خبراتنا» هكذا ينظر الفلاسفة الأوروبيون للتاريخ، وضرورة القطيعة الحاسمة مع كل ما يرمز إليه...

لكن هذا التبدل الجذري في الرُّؤى؛ لم يكن على مستوى الشعوب، وإنما كان على مستوى مشاعل الفكر، وقادة الفعل، والاتجاه العام، والقوانين، والنُّظُم، والمؤسسات، والمناهج، والأساليب. أما الشعوب مهما تعمَّم التعليم؛ فإنها تبقى محكومة بالأنساق الثقافية المتوارثة. ومثلما يقول رئيس جامعة كولومبيا الدكتور نيكولاس موراي باتلر: «ينقسم العالم إلى ثلاث فئات من الناس؛ مجموعة صغيرة جدا من الأفراد تَصنع الأحداث، ومجموعة أكبر منها، تراقب الأحداث أثناء حصولها، وعددٌ كبير من الدهماء لا يَعرف شيئًا مما يَحدث» وهذا النص تتكرر نسبته لروسو، فيكون باتلر مجرد ناقل ومقتبس، لكنه لم يُفصح عن ذلك. إن الوعي الشعبي في الغرب، والشرق، في الماضي، والحاضر؛ سوف يظل تتحكم به الأنساق الثقافية المتوارثة، فالأصل في الإنسان، أنه يبقى مرتهنًا للبنية الذهنية القاعدية التي تشكلت في الطفولة، لأن العقل يُكَوِّنه ويحتله ويتحكم به الأسبق إليه. أما التعليم فهو وسيلةٌ للعمل، ومدخلٌ للوظيفة، وسببٌ للوجاهة. هكذا تتكون الدولة الحديثة وهكذا هي المجتمعاَت الحديثة...

يلخص هانز كوهن في كتابه (عصر القومية) الوثبة النوعية التي حققتها الحضارة المعاصرة للإنسان الفرد، وللعقل البشري، وللمجتمع، وللإنسانية بأجمعها، بثلاثة مكاسب كبرى رئيسية تتفرع منها مكاسب أخرى بلا حدود هي:

تحرير الإنسان الفرد، وتحرير العقل البشري، وإقامة مجتمع مفتوح لا مجال فيه للقسر، ولا للانغلاق، فيقول: «إن فكرةَ إنسانٍ حُرٍّ، وعقلٍ حُرٍّ، في مجتمع مفتوح؛ هي روح الحضارة الحديثة» ثم يؤكد أن تحرير الإنسان، وتحرير العقل، وتأكيد انفتاح المجتمع: «تمثل مغامرة جريئة، وظاهرة جديدة في التاريخ، ويُحدِّد قبولُ هذه الفكرة؛ أحَدَ التحولات الحاسمة في كل الحياة الإنسانية» إن تحقُّق هذه المكتسبات الثلاثة الأساسية؛ يفتح الآفاق لما لا نهاية له من المكتسبات الفردية، والاجتماعية، والإنسانية، وبذلك تنفتح آفاق العقل الفردي والجماعي، الفكرية والعلمية والعملية وغيرها. لكن مساوئ الرأسمالية، والهجوم الكثيف الذي وجهه الماركسيون إلى العالم الغربي، قد اجتذب الكثير من المثقفين من مختلف الأوطان؛ فأمطروا الرأسمالية بنقد كثيف ومتصل تجاوز الحقيقة، وتحوَّل إلى نوعٍ من الهجاء للحضارة المعاصرة، إنه هجاءٌ فاقدٌ للمصداقية، ويفتقر إلى الموضوعية، لكن تأثيره كان قويًّا ومستمرًّا حتى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ومنظومة التكتل الشيوعي...

ولمواجهة الهجوم غير الموضوعي على الحضارة المعاصرة، انبرى عالم النفس ستيفن بنكر يدافع بحرارة وصدق في كتابه (التنوير الآن) عن الحضارة المعاصرة، فيقول: «لا شك في أن أفضل العصور حضاريًّا، على مر التاريخ؛ هو العصر الذي نعيش فيه الآن» ويؤكد بأنها تقوم على منظومة قيم عظيمة؛ تأتي في مقدمتها، قيمة العقل المتحرر من الأسر، وقيمة العلم الموضوعي، حيث يكون النظر محكومًا بالتجرد وبالرؤية الموضوعة، وقيمة النزعة الإنسانية، حيث أن الإنسان مقياس الأشياء، وحيث أن البشرية كلها تلتقي بفضل النزعة الإنسانية. أما القيمة الرابعة الكبرى فهي قيمة فكرة التقدم، حيث لا حدود لفتوحات العلوم، ولا نهاية لومضات الفكر. ويقول: «فالتنوير نجح بالفعل، بل ربما هو أعظم قصةٍ حدثتْ، ولكنها نادرًا ما تُروى، ولأن التغني بهذا النصر نادر، يندر أيضا تقدير قيمة مُثُلِه، كالعقل والعلم والنزعة الإنسانية والتقدم» ويوضح أنه بالتزام الإنسان بالعقل يكون قد التزم بأن يضع كل تصوراته موضع المحاكمة وفق معايير موضوعية؛ طبقًا للمبدأ السقراطي الذي يؤكد بأن: «حياة

لا تُمتحَن لا تستحق أن تعاش» لقد قلبتْ الحضارة المعاصرة كل شيْ؛ فقد ركزت على الإنسان الفرد؛ فبدلا من تذويب الفرد في المجتمع في الحضارات القديمة، وتَرْكِه دون أي عونٍ عام؛ فإن الحضارة المعاصرة قد أعطته الاعتبار الأول؛ في التعليم، والتطعيم، والتوظيف، والعناية الصحية، وسلسلة من أنواع الاهتمام بشأن الفرد؛ وهذه تطورات نوعية تترتب عليها نتائج عظيمة، اجتماعية، وسياسية، وإنسانية. وبدلا من الاعتماد على الأنساق الثقافية الموروثة، وعلى الارتجال والبديهة؛ صار الاعتماد في معالجة قضايا الإنسان خاضعًا للعلم الموضوعي، فتم تعميم التعليم، والصحة، والعناية العامة بالاقتصاد والعمل، وبدلاً من تربية الإنسان ليكون دائمًا مستعدًا لما بعد الموت؛ تبدلت النظرة إليه، وتكرست العناية بإعداده للحياة، بتربيته، وتعليمه، وتدريبه، وتوظيفه؛ وتمت تنشئته ليوجه اهتمامه للحياة على هذه الأرض هنا والآن. ولخدمة الناس تضع الدولة الحديثة في الحضارة المعاصرة؛ خططًا للتنمية الشاملة. إن الحضارة المعاصرة تغرس الطموح، وتؤكد الأمل، وتدفع إلى المبادرة الفردية، فالاهتمام يتركز في الحاضر والمستقبل. ومع أن معظم الناس لا يهتمون بالتحقُّق ولا بالمعرفة المحضة لذات المعرفة، فإنه يوجد أفرادٌ استثنائيون؛ يكون همهم الاكتشاف، والتحقق، وتوسيع آفاق المعرفة، في كل جوانب الوجود...

الإنسان بطبيعته، كائنٌ متذمِّر، فاستطلاعات الرأي في مختلف بلدان العالم، تُبيِّن بأن أكثر الناس يعتقدون بأن أوضاع العالم تسير نحو الأسوأ؛ ذلك أن الإنسان بطبيعته، يركِّز على ما يعتقد أنه ينقصه، لكنه يتجاهل ما هو متوفر له. ومثلما يقول موستيل دي كولانج في كتابه (المدينة القديمة): «هكذا الطبيعة البشرية؛ كلما تَحَسَّن مصير الناس؛ زادت مرارة شعورهم بما ينقصهم» إن من يعيش في صحة جيدة، يَعتبر ذلك وضعًا عاديًا فلا يفطن لتوفر الصحة له. لكنه حين يُمرض، يشكو ويطلب العون، هكذا هو الإنسان لا ينتبه لما هو متوفر له. بل ينتبه فقط وبقوة لما ينقصه، أو ما يصيبه. وبسبب ذلك لا ينتبه الناس للتطورات العظيمة التي حققتها الحضارة المعاصرة. أما الحقائق الإحصائية

فتوضح الفروق الهائلة بين الماضي والحاضر. فقد قارَنَ العالِمُ ستيفن بِنكر بين أحوال الناس في الحضارة المعاصرة وفي الحضارات القديمة، بناء على خمسة عشر معيارًا هي: معيار متوسط الأعمار في القديم والحاضر، ومعيار الصحة، والطعام، والثروة، والمساواة، والبيئة، والسلام، والأمن، معدل الإرهاب، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والمعرفة المتاحة للناس، وجودة المعيشة، والسعادة، والأخطار الوجودية» يتوقف الدكتور منصور الجنادي في كتابه (الثورة الذهنية) عند كتاب (التنوير الآن) لستيفن بنكر فيلخص بعض ما جاء فيه فيقول: «تراجعت إن لم تكن اختفت أشكال المجاعات والأوبئة التي أطاحت بحياة مجموعات كبيرة من البشر على مر التاريخ، بفضل رفع كفاءة الزراعة وتقدم الطب» ويضيف: «انخفضت نسبة الفقراء في العالم من 92% في عام 1820 إلى نحو 66% في عام 1950 ثم إلى 42% فقط عام 1981. أما في عام 2015 فقد انخفضت نسبة سكان العالم الذين يعيشون في فقر مدقع إلى 10%» هذا رغم أن عدد سكان الأرض تضاعف مرارًا ويضيف: «متوسط الأعمار العالمي، قفز من ثلاثين عامًا في منتصف القرن الثامن عشر، إلى ما يفوق السبعين الآن، زادت من واحد بالمائة فقط في بداية القرن التاسع عشر، إلى ثلثي شعوب العالم الآن» ويمضي ستيفن بنكر يقارن بين أحوال الناس في الماضي غير البعيد وفي الحاضر، ليظهر الفروق الهائلة بين ما كانت عليه أحوال الناس من سوء وما آلت إليه من تحسُّن كبير...

أما المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل فيوضح في كتابه (الحضارة والرأسمالية): «أن فرنسا سجَّلت فيما بين 1600 و1800 ستًّا وعشرين مجاعة رئيسية. وأنه في سنة1696تضوَّر جوعًا حتى الموت ثلث سكان فنلندا. ولم تكن آسيا أفضل حالا؛ فقد أهلكت المجاعات سنة 1555.وسنة1596.الملايين في الصين والهند وأفرغت مناطق بأكملها من السكان. كانت جيوش الجياع تجوب أوروبا وآسيا بحثًا عن أي شيء يؤكل حتى أكل بعضهم بعضا» ويقول بول روبرتس في كتابه (نهاية الطعام): «حتى في السنوات التي لم تشهد مجاعات، كان معظم السكان يعيشون حالة ترقُّب غذائي. وكان التقزُّم الجسدي متوطنًا،

ففي الأطفال عندما تكون بنية الجسم مازالت في مرحلة التكوُّن؛ يجلب سوء التغذية دمارًا قاسيًا؛ فهو يتسبب في التخلف الذهني ويعطل تكوين الأعصاب، الأمر الذي يؤدي ظهور عدم القدرة على التعلم وإلى معدلات مرتفعة من الشيزوفرينيا» ويشير إلى التطورات التي تحققت في إنتاج الغذاء ومنها على سبيل المثال: «أطلقت ثورة الماشية العنان لموجات من إنتاج اللحوم، كانت من القوة إلى درجة أنها حوَّلت قطاعًا كاملا من الغذاء» ويقول: «في جوهر أية مناقشة حول استدامة النظام الحديث للغذاء ما قد يدعى تناقص البروتين منذ نهاية العالمية الثانية؛ تخطت إمكانياتنا لإنتاج البروتين في شكل لحوم ومنتجات ألبان حتى إمكانياتنا لإنتاج البشر فبوجود حبوب أرخص وتربية أفضل، وعمليات إنتاج ماشية ودواجن بطريقة أكبر وأكثر فعالية تستطيع شركات صناعة الغذاء تقديم قطعة من اللحم تزن أربع أوقيات في رخص شراء علبة شراب الصودا أو رغيف من الخبز. وهي المقدرة التي حسنت حياة البلايين من المستهلكين حول العالم» ويضيف: «إن تحويل إنتاج الغذاء إلى شيء أكثر استدامة، ليس مجرد تغيير مجموعة من المدخلات بأخرى أو إيجاد بعض التقنيات الجديدة؛ إنما يتم ذلك عن طريق تنمية وسيلة جديدة للتفكير حول الغذاء وإنتاجه» ويختم الكتاب بقوله: «لآلاف السنين كان الغذاء يُعتبَر مرآة للمجتمع؛ فهو يقدم المادة والأفكار التي تبعث الحضارة. والجوع دائمًا هو دعوة لصنع عالمٍ أفضل وسيظل كذلك» لقد عانت الأجيال القديمة من مجاعات متتالية رغم أنَّ عدد السكان كان قليلا جدا لكن القدرات التي وفرها العلم والتقنيات المتطورة مكنت الإنسان من أن ينتج من الغذاء ما يغطي احتياج ثمانية مليارات إنسان وإن كانت بلدان كثيرة ما تزال تعاني من الفقر لكن المجاعات القديمة المتكررة قد ولَّت وهذه من مزايا الحضارة المعاصرة...

إنَّ الجيل الحالي من كل الأمم بحاجة إلى أن يتعرف بعمق وتفصيل وأن يدرك بوضوحٍ شديد؛ أن الحياة في العصور القديمة؛ كانت جافة وبائسة ومروِّعة. وعلى سبيل المثال؛ نقرأ في المجلد الخامس من كتاب (تاريخ العالم) في الفصل الذي كتبه تشالز سنجر بحثًا كثيفًا عن القحط ونقص الغذاء وعن

تكرار الأوبئة التي كانت تحصد الناس بالجملة. فيقول: «لقد أصبح الطاعون مرضًا متوطنًا في أوروبا، من أيام جوستينيا إلى أوائل القرن الثامن عشر» ويضيف: «كان الوباء مروعًا في سرعة انتشاره، وفي عدد ضحاياه؛ فقد محا من الوجود كثيرًا من القرى» ويقول: «إذا كانت إنجلترا قد روَّعها انتشار الطاعون من آن لآخر؛ فإن الجدري لم يكن يغيب عنها إطلاقًا، وأحيانًا يأخذ شكل وباء» ويضيف: «كانت النتائج الاجتماعية للموت الأسود رهيبةً وواسعة الانتشار؛ فقد تمزقت الأُسر وتُرِك الأولاد من غير حماية، وانحلت الأخلاق؛ فكلٌّ مشغولٌ بنفسه، وطغت في أوروبا موجةٌ من الهيستيريا ذات مظاهر مفجعة، وكان الناس قد غمرهم الذعر من كثرة الوفيات الفادحة» ويضيف: «كان من نتائج القحط الذي خلفه الموت الأسود؛ أنْ ارتفعت الأسعار ارتفاعا كبير، إن سنين عديدة من البؤس وندرة الطعام؛ قد أعقبت الوباء الكبير» ويقول عن تفاقم نقص الغذاء: «ظَهَر قحطٌ شديد في إيرلاندا فعُقد اجتماع كبير ضم رجال الدين وغيرهم، وانتهوا في اجتماعهم إلى قرار؛ يقضي بأن يصوم الناس، ليتوجهوا إلى الله بالدعاء بأن ينشر بين الطبقات الدنيا وباءً يفنيهم؛ لأن كثرة عددهم هي سبب القحط» ويقول مؤرخ الحضارة الفيلسوف ويل ديورانت: «الطاعون العظيم دهم إنجلترا العامرة بالغنائم الفرنسية، وفرنسا التي أصابتها الهزيمة بالخراب. ووباء الطاعون حدَثٌ مألوفٌ في تاريخ العصور الوسطى، فلقد أزعج أوروبا اثنتين وثلاثين سنة، من القرن الرابع عشر، وإحدى وأربعين سنة من القرن الخامس عشر، وثلاثين سنة من القرن السادس عشر. وهكذا تعاونت الطبيعة وجهل الإنسان من ناحية، مع الحرب والمجاعة من ناحية أخرى، على الحد من استغراق الإنسان في النسل. وكان الموت الأسود شرُّ هذه النوازل، ولعله أفدح ملمَّة طبيعية تعرَّض لها الإنسان في عصور التاريخ» ويضيف ديورانت: «ربما كان مجموع من ماتوا بالمرض، ربع سكان العالم. وكان للوباء آثاره على جميع نواحي الحياة» إنها صورة مأساوية فظيعة مُرَوِّعة، ليس فقط في أن الوباء أهلك ربع سكان الأرض. وإنما كيف يتفاقم البلاء ويبلغ نقص الغذاء إلى درجة أن يتجهوا إلى الله بالدعاء بأن ينزل وباءً لتقليص عددهم حتى يكون المتوفر من

الغذاء كافيًا لمن يبقون بعد الوباء. وربما أن مثل هذه القصص هي التي أوحت لمالتوس بنظريته عن السكان حيث يرى حتمية حصول خللٍ ماحق، بين النمو السريع والكثيف للسكان؛ مقابل محدودية إنتاج الغذاء. ورأى أن تحقيق التوازن لا يتحقق إلا بحروب تحصد الناس، وأوبئة تفنيهم. هذه نظرية كانت متداولة بقوة وكثرة، رغم أن عدد سكان العالم في زمن مالتوس كان عددًا قليلا جدا قياسًا بالعدد الحالي. لكن علوم الحضارة المعاصرة فجَّرَتْ خيرات الأرض. وهكذا علينا أن نُعَرِّف الأجيال الجديدة، كيف عاش أسلافهم؛ ليدركوا بوضوح ووعي وتقدير مزايا الحضارة المعاصرة...

ولكن هذا لا يعني، زوال الشقاء، ولا أن الإنسان بات عقلانيًّا ومثاليا. وإنما يعني أنه تحقق للإنسانية مكتسبات عظيمة قياسًا بذلك الشقاء الشامل، والامتهان الفظيع. في عصر التنوير ساد تفاؤل شديد بقدرة الإنسان الفرد على استقلاله في تفكيره عن العقل الجمعي، متى أتيح له أن يتعلَّم، وأن ذلك سيؤدي إلى انعتاقه من الجهل البنيوي والتحرر من القيود التي كانت تكبله ضمن نسق ثقافي موروث مضادّ للعلم، ومناقض للحقائق، لكن الأيام كشفت أن تحرير عقل الإنسان من الأنساق الثقافية المتوارَثة ليس ممكنًا بالصورة المتفائلة التي ظنها التنويريون وتراجعت طموحات المفكرين فكتب الفيلسوف ألبير كامو: «نرفض اليأس من الإنسان. ونحن نحرص على خدمته، دون أن نطمح طموحًا غير معقول إلى إنقاذه» ويقول الدكتور عادل العوا في كتابه (آفاق الحضارة): «إن النزعة الإنسانية تثق ثقة مطلقة بمناهل الإنسان وبمصيره، وهي ترى أن شعوره حافزٌ إلى غزو نفسه وتثقيف ذاته ليستغل إمكاناته ويملك حقيقته. وعنده أن للطبيعة البشرية نمطًا مرموقًا يطمح إلى تحقيقه ليجعل الإنسان أكثر إنسانية، ويجلو بِذلك عظمته الأصلية والأصيلة، وكأنه يود أن يكثف العالم في الإنسان ويوسع الإنسان إلى تخوم العالم؛ فالإنسانية نزعتها تشير إلى موقف فلسفي؛ يوجب على الإنسان أن يتعلق بما هو حصْرًا إنساني» النزعة الإنسانية تستهدف؛ أن تنتشل الإنسان في جميع الأمم، من الذوبان في التيار العام، ليفكر بعقل متحرر من قيود الأنساق الثقافية المتوارثة، ومستقل في تفكيره، ومعتمد على

العلوم والحقائق والمنطق. لكن النزعة الإنسانية رغم تراجع طموحاتها إلا أنها أثمرت رؤية إنسانية متحررة من التحيزات، ومن هذه الرؤية نشأت جمعيات إنسانية ومنظمات تطوُّعية، تخدم الإنسان أينما كان وبغض النظر عن انتمائه الوطني أو الديني أو القومي، إنها تنطلق من رؤية إنسانية محضة محايدة، وتحاول أن ترفد الإنسان كلما تعرض لمأزق مثل منظمة (أطباء بلا حدود) وجمعية الصليب الأحمر وغيرهما من المنظمات الخيرية التي تبادر لعون المنكوبين أينما كانوا بغض النظر عن انتمائهم الديني أو القومي أو الوطني. هذا بالإضافة إلى منظمة الأمم المتحدة والمنظمات المتفرعة عنها؛ كمنظمة الصحة العالمية، ومنظمة الأغذية والزراعة، ومنظمة التربية والثقافة والعلوم. ومجلس الأمن الذي يحاول تهدئة النزاعات وتحقيق الاحترام المتبادل بين الدول...

رغم نقائص الحضارة المعاصرة؛ فإنه لا نهاية للمكتسبات التي قدَّمتها للإنسان الفرد وللإنسانية بأجمعها؛ ومن هذه المكتسبات رفع الحيف عن المرأة؛ فالموقف من المرأة؛ من غرائب السلوك البشري؛ فقد جاء في كتاب (المرأة في الكنيسة) تأليف لوريلو جان: «بلغ الأمر بالكنيسة إلى حد طرح نقاش على مستوى المجمع الديني المحلي في ماكون (المجتمع في القرن الحادي عشر) للاستفسار عما إذا كان للمرأة روح !! وأضاف في مكان آخر لقد كال العلماء في كل الأزمنة، اللعنات نفسها، ووجهوا للعالم النسوي اللوم نفسه» وحتى في هذا العصر تأخر الغرب تأخُّرًا شديدًا في إنصاف المرأة؛ فلم تنل الاعتراف والتقدير إلا في وقت متأخر جدا. لكن العبرة بالنتيجة؛ فمعيار التحضُّر هو قابلية التغير الإيجابي؛ فقد أنصَفَتْها الحضارةُ المعاصرة. وهذا يدخل في مجال تأكيد النزعة الفردية للإنسان، وأيضا يدخل ضمن النزعة الإنسانية؛ كما كان لكفاح بعض النساء الرائدات دورٌ رئيسي في رفع الحيف عن المرأة. إن الاعتراف المتأخر البطيء بمكانة المرأة، والمساواة مع الرجل. وتأكيد أن اختلاف المرأة عن الرجل ليس اختلاف تفاضُل، وإنما هو اختلاف تنوُّع؛ فالمرأة تختلف عن الرجل، لكنها تُجيد ما لا يجيده الرجل من الأعمال، مثلما أن الرجل يجيد بطبيعة تكوينه ما لا تجيده المرأة؛ فهو اختلاف تنوُّع وتمايز، وليس اختلاف

تفوُّق وتفاضل. بل إن طبيعة الأنثى بما فيها من رقة ونعومة وشفقة وعاطفة فياضة ربما كان لها دور عظيم في تحضُّر الرجال وكما يقول مؤرخ الحضارة الفيلسوف ويل ديورانت: «للنساء في التاريخ فضلٌ أعظم من الملوك، وهنَّ يخضْنَ بشجاعة، معركةً يائسةً لتحويل الرجال، من جفوة التوحُّش، إلى صقل الحضارة» كثيرةٌ هي أحداث التاريخ التي يبرز فيها دور النساء في حقن الدماء وإيقاف صلف الرجال ورغبتهم في الانتقام الوحشي...

إن الشعور بدونية المرأة هو من جملة غرائب الإنسان، والغريب أن هذا الشعور بدونية المرأة، لم يكن في ثقافةٍ دون أخرى، وإنما لأن المعيار هو القوة العضلية، وطبقًا لمنطق القوة، كانت كل الثقافات البشرية، تستهين بالمرأة، فحتى أوروبا لم يكن التعليم متاحًا للنساء إلا في وقت متأخر. في القرن العشرين. لقد حرموهن من التعليم لكن المتميزات، علَّمن أنفسهن، وأبدعن في أصعب الفنون (الفن الروائي) ولأن المرأة تشعر بأن الرجل لا يؤمن بقدرتها الإبداعية؛ فقد اضطرت أن تكتب باسم رجل كما هي حال الكاتبة البريطانية ماري آن وهي روائية وشاعرة كانت تكتب باسم جورج إليوت. وقد عُدَّت من الروائيين العظام؛ ففي المجلد الخامس من كتاب (تاريخ النقد الأدبي الحديث) يقول رينيه ويليك: «والروائيون العظام الذين يعجب بهم ليفس أيما إعجاب هم: جورج إليوت، وهنري جيمس، وكونراد» وكذلك المبدعة الفرنسية الشهيرة جورج صاند. أما اسمها الحقيقي فهو أورور ديبان فرغم أنها كاتبة مبدعة لكنها لو كتبت باسمها فلن تجد من ينشر لها، فانتحلت اسم رجل لكي تُفتح لها أبواب النشر. كتب عنها الفيلسوف البريطاني الشهير جون ستيوارت ميل في كتابه (استعباد النساء) يقول: «ليس أروع في امتيازه الفني الخالص؛ من نثر جورج صاند، التِي يؤثر أسلوبها الرشيق في الجهاز العصبي مثلما تفعل سيمفونية من سيمفونيات هايدن، أو موزارت» وكان هذا الفيلسوف من أشد المدافعين بحماس عن حقوق المرأة...

يرى الفيلسوف جون ستيوارت ميل، أن تهميش المرأة ناشئٌ عن (قانون القوة) فليس له أي تبرير طبيعي، ولا أي سبب منطقي، لذلك يستهل كتابه

(استعباد النساء) بقوله: «لا ينبغي النظر إلى قضية المرأة على أن الحكم قد صدر فيها مقدَّمًا، عن طريق الواقع القائم، والرأي السائد، بل لابد من فتحها للنقاش على أساس أنها مسألة عدالة» لأن الاستخفاف بالمرأة ظُلْمٌ يجب إزالته. ثم يؤكد: «أن المبدأ الذي ينظِّم العلاقات الاجتماعية بين الجنسين، ويجعل خضوع أحد الجنسين للآخر؛ عملاً مشروعًا؛ هو مبدأ خاطئ في ذاته، كما أنه يمثل عقبةً رئيسيةً أمام التقدم البشري، ومن ثم فينبغي أن يزول ليَحلَّ محله مبدأ المساواة التامة، الذي لا يَسمح بوجود سلطة أو ميزة في جانب وعجز وعدم أهلية في جانب آخر» وقد كانت الكاتبة البريطانية ماري وولستونكرافت؛ رائدة في المطالبة بالمساواة وقد صدر كتابها (تبرير حقوق المرأة) عام 1792 وفيه تقول ساخرةً: «في هذا العصر المستنير؛ نأمل أن تكون حقوق الزوج المقدَّسة، موضع النقاش دون التعرض للخطر» وقد زارت فرنسا بعد الثورة الفرنسية وأصدرت عنها كتابًا بعنوان (رؤية تاريخية أخلاقية للثورة الفرنسية) كما نشرت نقدًا لكتاب إدموند بيرك (تأملات حول الثورة الفرنسية) وقد تزوجت الفيلسوف وليم غودوين وأنجبت منه بنتها ماري التي اشتهرت بروايتها الشهيرة والمثيرة (فرانكنشتاين) ومن أشهر المبدعات فرجينيا وولف، التي حُرمت من التعليم الجامعي، فاعتمدت على نفسها، وأبدعت في الفن الروائي وفي النقد وكانت لها شهرة واسعة وتأثير عميق. ومن المبدعات اللاتي علَّمن أنفسهن الأخوات الثلاث برونتي: إميلي برونتي، وشارلوت برونتي، وماريا برونتي...

أما أول امرأة تعينت طبيبة عام 1865 فهي الطبيبة البريطانية الدكتورة اليزابيت جاريت أندرسون. وقد أصدرت وزارة الثقافة المصرية موسوعة شاملة في تسعة مجلدات بعنوان (المرأة عبر العصور) وهو عملٌ جماعي برئاسة أنيس منصور شملت المبدعات في مختلف مجالات الإبداع وكذلك من كان لهن شهرة في أي مجال. ومن الكتب المهمة التي تتحدث عن النساء كتاب (صورة المرأة في العصور القديمة) تأليف إفريل كاميرون وإميلي كوهرت. وكتاب (النساء في الفكر السياسي الغربي) لسوزان مولر أوكين. وكتاب (نساء يركضن مع الذئاب) تأليف كلاريسا بنكولا وكتاب (نساء رائدات من الغرب والشرق) وهو مكون من

عدة أجزاء تأليف إملي نصرالله. وكتاب (العنف ضد المرأة: حقائق وصور وإحصاءات) وهو كتابٌ جماعيٌّ تحرير ماري فلاشوفا، وليا بياسون وكتاب (شهيرات النساء) تأليف مارلين بوث. وكتاب (تاريخ النساء في الغرب) كتاب جماعي تحرير بولين شميت بانتل. وكتاب (النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف) وهو كتاب جماعي مترجم. وكتاب (هل أناحرة؟!) تأليف لين ستالسبيرج. وكتاب (دليل أوكسفام للتدريب على الجندر) كتاب جماعي تحرير سوزان وليمز. وكتاب (اللغز الأنثوي) لبيتي فريدان. وكتاب (النسوية والقومية في العالم الثالث) تأليف كوماري جايا واردينا. وكتاب (الجنسانية العربية) جزأين لشاكر النابلسي. وكتاب (الأنثى مصباح الكون) لمحيي الدين اللاذقاني. وكتاب (القيان والأدب في العصر العباسي) للدكتورة ليلى الطبوني. وكتاب (نساء وراء الأحداث) للدكتور عبدالصبور شاهين وكتاب (سلطانات الشاشة) لمنى غندور. وكتاب (العنف ضد المرأة) لنجلاء الورداني. وكتاب (المرأة والحرب) كتابٌ جماعيٌّ تحرير كارول كوهن وكتاب (تحويل الاضطهاد إلى فرصة) لنيكولاس كريستوف، وشريل وودن. وكتاب (المسألة النسائية في الخطاب العربي الحديث) د فاطمة أزرويل. وكتاب (52 امرأة غيرت وجه التاريخ والعلم) وكتاب (الفلسفة والنسوية) كتاب جماعي بإشراف وتحرير الدكتور علي عبود المحمداوي. وغيرها كثير...

ولأن الهدف من هذا الفصل، هو الإشارة إلى أنه رغم أن الحضارة المعاصرة؛ ما تزال معاقة: فكرًا وأخلاقًا، وأن تركيزها الشديد على متطلبات الاقتصاد، وقدرات التمكين، قد حصر اهتمام الأفراد بمتطلبات البقاء، فالفرد يتعلَّم للوظيفة وللعمل وللوجاهة وليس للفكر والوعي؛ إلا أنها رغم نقائصها؛ قد حققتِ مكتسبات عظيمة ومتنوعة للإنسان والإنسانية، قياسًا بالحضارات القديمة، لذلك فإنه لابد من إبراز الفارق الهائل بين مسؤوليات الدولة الحديثة، قياسًا بمسؤوليات الدول في الحضارات القديمة؛ فالدولة القديمة كانت جهازًا للحرب والجباية وليست دولة تنمية، ولا دولة تعليم، ولا دولة توظيف، ولا دولة رعاية اجتماعية، ولا دولة صحة عامة، ولا دولة نظام تقاعدي، ولا تحديد

لساعات العمل، ولا عطلة أسبوعية، أو سنوية مدفوعة الأجر، ولا دولة خدمات متنوعة، ولا أية ضمانات لحياةٍ آمنةٍ كريمة. إن الدولة الحديثة تقدم خدمات لا تكاد تُحصى. وليست هذه سوى بعض مكاسب الإنسان التي حققتها له الحضارة المعاصرة. إن الدولة الحديثة؛ تسعى بخططها التنموية، ومشاريعها المتنوعة، بواسطة أجهزتها الإدارية المختلفة؛ بأن تكون دولة الرفاهية بحيث تسعى الدولة لتحقيق نظام اجتماعي تكون الدولة مسؤولة عن رفاهية مواطنيها الفردية والاجتماعية. إن الدولة الحديثة تشتمل على أجهزة إدارية ضخمة ومتنوعة، مكرَّسة لخدمة الناس وتيسير أمورهم. فأين هذا من دولة الحرب والجباية التي كانت سائدة في كل الحضارات القديمة؟!. ثم إن عدد السكان في الحضارات القديمة؛ كان ضئيلًا جدا، ولا يكاد يوجد مجالٌ للمقارنة. ولإدراك الفارق السكاني الهائل يكفي أن نَعْلَم بأن سكان مصر، ليس في عهد هارون الرشيد، ولا حتى في عصر صلاح الدين الأيوبي ووزيره قراقوش، بل في زمنٍ قريبٍ جدا؛ ففي بداية القرن التاسع عشر كان مجموع سكان مصر مليونين ونصف مليون فقط، وكانت الأوبئة تحصد السكان بين فترة وأخرى، وكانت مطمعًا دائمًا للغزاة. أما الآن فقد تجاوز عدد سكانها مائة مليون إنسان. وكلهم يطلبون التعليم والعمل والسكن والعلاج وما لا حصر له من المتطلبات. ومن البديهي أنه كلما زاد عدد السكان زادت أعباء الدولة، خصوصًا في الدولة الحديثة التي تلتزم بخدمات تعليمية، وصحية، وأمنية، واجتماعية، كما تلتزم بمعالجة نقص الإسكان وهي مهمة ضخمة وذات تكاليف عالية، كما تلتزم بخدمات متنوعة ذات تكاليف مرهقة ومستمرة، وتضع للتنمية خططًا طويلة المدى. ومثلما يقول سمير عطا الله: «أقرأ أخبار مصر في الأهرام؛ فأجد أن الدولة دفعت حتى الآن ستين مليار جنيه، دعمًا للمواد الغذائية، وفي صفحة أخرى أقرأ أن ضحايا أزمة الخبز تجاوزوا العشرين قتيلا» هذا جزءٌ صغير من جانبٍ واحدٍ من المسؤوليات المتنوعة الكثيرة التي تضطلع بها الدولة الحديثة. بخلاف دولة الحرب والجباية التي كانت تأخذ ولا تعطي رغم ضآلة عدد السكان قياسًا بالكثافات السكانية الحالية المهولة...

يقول فيلسوف الاقتصاد آدم سميث: «إن أكثر الأشياء حسمًا في رخاء أية دولة؛ هو عدد سكانها» ويقول العالم جوليان هكسلي: «الزيادة السكانية؛ هي أخطر تهديد لسعادة الإنسان، وتقدُّمه» ويقول الفيلسوف كارل بوبر: «مشكلة زيادة السكان؛ هي أخطر المشكلات الاجتماعية في زماننا هذا» وينبه اللورد بويد أور المدير العام لمنظمة الأغذية والزارعة إلى: «أن حجم السكان محدود بالمتوافر من الغذاء» ويقول المؤرخ جورج ماكولي ترفليات في كتابه (تاريخ إنجلترا): «يتعين على الباحث الذي يريد أن يصوغ فكرة صحيحة عن حالة أي مجتمع، في فترة زمنية معيَّنة؛ أن يهدف أوَّلاً إلى التثبت من عدد أفراد هذا المجتمع» ويقول هربرت ملر في كتابه (التحركات السكانية): «ثمة نظرية ترى أن عدد السكان؛ هو المفتاح لفهم التاريخ» ويقول الدكتور لويس عوض في كتابه (النُّظُم والمذاهب): «علم السكان علمٌ خطير، يدخل اليوم في أكثر الدراسات الاجتماعية، والاقتصادية، وتُعقد من أجله المؤتمرات، وتُنظَّم الحلقات. وقد انتهى أكثر علماء السكان، إلى أن هناك علاقة ضرورية بين زيادة السكان أو نقصهم، وبين زيادة الغذاء ونقصه» إن الحضارة المعاصرة هي الحضارة الوحيدة التي نمت فيها الكثافة السكانية إلى درجة الاكتظاظ الكثيف، إلى درجة أن الصين كانت تعاقب أية أسرة تنجب أكثر من مولود واحد؛ فالنمو السكاني بهذا المستوى الكثيف، هو ظاهرة حديثة خاصة بالحضارة المعاصرة، لأسباب تعود إلى الحضارة نفسها، بتطوُّر الطب، وتوفُّر الخدمات الصحية، ووفرة الغذاء، وانتهاء المجاعات العامة المهلكة، ومكافحة الأوبئة التي كانت تجتاح الدنيا وتحصد نصف الأحياء، وندرة موت الأطفال بعكس ما كان يحدث للأطفال في الحضارات القديمة، وندرة وفاة الأمهات أثناء الولادة، والارتفاع الحاد لمعدل طول الأعمار...

يذكر كولنجوود في كتابه (فكرة التاريخ) أن سكان مدينة لندن في العهد الروماني كانوا عشرة آلاف إنسان. وهذا مؤشر على التغيرات الهائلة في النمو السكاني في العالم. ويقول: مارتن ريز في كتابه (ساعتنا الأخيرة): «قبل ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد؛ كان عدد سكان الأرض؛ أقل من عشرة ملايين إنسان.

بحلول عصر الرومان كان عدد السكان حوالي ثلاثمائة مليون فقط، ولم يرتفع عددهم فوق البليون إلا في القرن التاسع عشر، عدد الموتى يفوق عدد المواليد» ومثلما يقول محمود المراغي في كتابه (أرقام): «يقول التاريخ إن جديدًا قد حدث خلال القرنين الماضيين، وأن ذلك الجديد قد ازداد وضوحًا في النصف الثاني من القرن العشرين. كان سكان العالم منذ بداية التاريخ يتزايدون ببطء، وأحيانًا بشكل غير مستقر؛ تؤثر فيه المجاعات والحروب والأوبئة؛ فإذا بهم منذ القرن الثامن عشر يزيدون باطراد، وإذا بالنصف الثاني من القرن العشرين وقد سجَّل أرقامًا قياسية في معدلات النمو السكاني؛ مما زاد في القلق على المستقبل، وزاد الاتجاه لمواجهة المشكلة السكانية» ويضيف: «تقول الأرقام أنه في العام الأول للميلادية كان عدد سكان العالم ثلاثمائة مليون إنسان فقط واستغرق الأمر أكثر من 1500 سنة ليتضاعف هذا الرقم؛ حتى كان عام 1750 حين تزايدت المعدلات السكانية وخلال مائة وخمسين عامًا أي في عام 1900 تضاعف عدد السكان. ثم تضاعف عدد السكان مرة أخرى بين عامي 1950 و1980 وساعد على ذلك تحسُّن مستوى المعيشة والصحة والتعليم مما قلل نسبة الوفيات» إن الكثافة السكانية، وضخامة المدن، واكتظاظها بالسكان هي ظاهرة معاصرة ولم تشهد أية حضارة سابقة مدنًا مكتظة فقد كان أغلب السكان يعملون في الزراعة أو مرتبطين بأعمال تتعلق بالزراعة...

لتدرك مزايا الحضارة المعاصرة؛ تخيَّل أوضاع سكان صحرائنا القاحلة، في المملكة العربية السعودية، والفارق الهائل بين الأمس واليوم؛ فالصحراء رغم اتساعها بقيت خلال القرون شبه خالية من البشر لأنها بيئة قاسية ولا يتحمل الإنسان أن يعيش فيها إلا في حالات الضرورة القصوى ولكن مخترعات الحضارة المعاصرة قلبت الوضع كليًّا؛ فجعلتها بيئة رخيَّة؛ حيث يعيش الناس في رغَدٍ ورفاهٍ لم يكن متاحًا لهارون الرشيد، من حيث وفرة الغذاء الذي يُجلَب لها من كل مكان، وحيث برودة المكيفات، تنساب فتشعر أنك في سويسرا، وحيث باتت تتدفق إلى المدن في عمق الصحراء؛ أنهارٌ من المياه المحلَّاة يتم ضخها من محطات التحلية على الخليج العربي، وعلى البحر الأحمر؛ تُضخ من

مئات الأميال، تَفتح الصنبور في أبها أو في الرياض أو في غيرها من المدن؛ فيتدفق الماء العذب. بينما عانى آباؤنا القريبون من شح الماء العذب، وصعوبة الحصول عليه، كما عانوا من قسوة الحياة، ومن الحر الشديد، والخوف، والفقر، وشح الغذاء. وافتقاره الشديد إلى التنوع، وقد كانت حياة الناس في الحضارات القديمة لا تقل فقرًا وشظفًا وقسوة، ليس هذا فقط بل كان فقدان الأمن يمثل قلقًا دائمًا؛ حيث غارات البدو الرحل تتكرر على القرى والحواضر كما كانت خلال التاريخ...

في هذه البيئة الصحراوية المعادية للحياة؛ كان يهيمن الخوف والفقر والتعب والشقاء والمرض والمجاعات والأوبئة، والشح الشديد في الماء الصالح للشرب رغم قلة عدد الناس، وما أن دخلنا حضارة العصر حتى تبدَّل ذلك تبدُّلاً تامًّا وجذريًّا. هكذا هي خيرات الحضارة المعاصرة رغم الكثافة السكانية الهائلة. أما في العصر الذي كان هارون الرشيد يخاطب السحابة: «أمطري حيث شئتِ؛ فسوف يأتيني خراجك» فقد كان عدد سكان الدنيا كلها أقل من عدد سكان مقاطعة صينية واحدة في الوقت الحاضر. يقول ديفيد دوويتش في كتابه (بداية اللانهاية): «تقترح الدراسات الجينية، أن نوعنا قد دنا من الانقراض قبل سبعين ألف سنة، بفعل كارثة قَلَّصَتْ من تعداده تاركةً بضعة آلاف فقط. هلكت الحضارات، بسبب ما اعتقدتْ أنه كوارث طبيعية من مجاعة وقحط. بيد أن السبب الحقيقي، كان ما يمكن أن نطلق عليه، أساليب الزراعة والري الرديئة، أو بتعبير آخر بسبب نقص المعرفة» في كتاب (مغزى القرن العشرين): يوضح بعض مراحل النمو السكاني كالتالي:

- في مطلع القرن الحادي عشر بلغ سكان الأرض 330مليونًا
- في مطلع القرن الثاني عشر بلغ سكان الأرض 380مليونًا
- في مطلع القرن الثالث عشر بلغ سكان الأرض 420مليونًا
- في مطلع القرن الرابع عشر بلغ سكان الأرض 460مليونًا

❖ في مطلع القرن الخامس عشر بلغ سكان الأرض 500مليونًا

❖ في مطلع القرن السادس عشر بلغ سكان الأرض 600مليونًا

❖ في مطلع القرن السابع عشر بلغ سكان الأرض 720مليونًا

❖ في مطلع القرن الثامن عشر بلغ سكان الأرض بليونًا (ألف مليون) أما الآن فقد بلغ سكان الأرض ثمانية مليارات إنسان وبات الإنسان العادي في الصحراء يتوفر له من رفاه الحياة وتكييف درجة الحرارة ما لم يكن متاحًا لهارون الرشيد نفسه...

في كتاب (تاريخ الأحداث الكبرى) يوضح البروفيسور سينتيا ستوكس براون: «إلى أن سكان العالم كله قبل ثمانية وعشرين قرنا قبل الميلاد؛ كانوا بالآلاف فقط. وقبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد ارتفع العدد إلى ما يقدر بستة ملايين إنسان» أي ما يعادل سكان مدينة متوسطة في هذا العصر. يوضح لورانس سميث في كتابه (العالم عام 2050): «العدد الإجمالي لسكان الأرض قبل اثني عشر ألف عام كان على الأرجح لم يتجاوز مليون شخص فقط. لقد تَطَلَّب الأمر مرور اثني عشر ألف عام حتى عام 1800 ليصبح عدد كل البشر بليون إنسان، أي أقل من سكان الهند وحدها حاليا. واكتمل بليوننا الثاني عام 1930 واكتمل بليوننا الثالث سنة 1960 وتطلَّب مليوننا الرابع خمسة عشر عامًا فقط ليكتمل عام 1975 واكتمل بليوننا الخامس عام 1987حلَّ بليوننا السادس عام 1999» ويقول الفيلسوف برتراند راسل في مقالة له عن تحديد النسل: «في فجر الحضارة منذ خمسة آلاف سنة، لم يكن مجموع سكان الأرض؛ يربو على عشرين مليون إنسان. وصل إلى بليون نسمة عام 1850» ويقول ويل ديورانت في (قصة الحضارة): «في عام 1581 بلغ عدد سكان إنجلترا خمسة ملايين، معظمهم مزارعون، ومعظم هؤلاء يَفلحون الأرض لمصلحة المالك نظير جزء من المحصول» ويقول عالم الأحياء نورمان بريل في كتابه (بزوغ العقل البشري): «في سنة 1650 كان عدد سكان الدنيا كلها نحو 550 مليونًا فقط ثم لما استمرت الثورة الصناعية في تقدمها، زاد عدد السكان في أوروبا زيادة صاروخية

بحيث إنه تضاعف في مدى قرنين» ولأن وسيلة تحديد النسل لم تكن قد ظهرت بعد؛ فإن الأمم كانت تلجأ إلى وأد الأطفال لأن الأسر تكون غير قادرة على توفير الحد الأدنى من القوت، ومثلما يقول العالم نورمان بريل: «في الماضي حدث أن زاد عدد السكان في بعض المناطق على مواردهم الغذائية، في كلٍّ من مصر واليونان وفي روما فيما بعد؛ أخذوا يئدون الأطفال كوسيلةٍ لحصر عدد السكان في نطاقٍ معيَّن» إن لجوء الأُسر إلى وأد أطفالهم أكبر دليل على فظاعة الأحوال. كان الناس تتحكم بهم المجاعات، والأوبئة، والحروب. يقول المؤرخ الفرنسي الشهير فرنان بروديل: «قصة العصر البرونزي؛ مليئة بعمليات الغزو، والحروب، والنهب، والكوارث السياسية، والانهيارات الاقتصادية الطويلة الأمد، وهي تمثل أول الصدامات بين الشعوب» وكان ذلك قبل ثلاثة عشر قرنًا قبل الميلاد. إن العلاقات بين الشعوب والأمم كانت في الغالب علاقات تصادم ونزاع وحروب...

وفي عام 1798 نشر المفكر الإنجليزي توماس مالتوس نظريته عن الخلل الحتمي، الذي ينشأ بين تكاثر البشر، وضآلة الغذاء المتوفر، حيث تندلع الحروب من أجل التزاحم على موارد الغذاء. أو يتعرض العالم لجوائح الأمراض التي تفتك بالناس، وتعيد التوازن بين عدد البشر، وما يمكن توفيره من الغذاء. ولم يكن يخطر على بال مالتوس ولا على بال معاصريه، أن العلوم سوف تساعد الإنسان ليضاعف إنتاج الغذاء أضعافًا بما لا يقاس به إنتاج الغذاء في الماضي، ليس فقط في غزارة إنتاج الطعام بل أيضا بشدة تنوّع مصادره، لم يكن يخطر في بال مالتوس أن البشرية مقبلة على وفرة هائلة في الغذاء. لإطعام ثمانية مليارات من البشر، وهو اكتظاظٌ سكاني لم يسبق أن شهدت الأرض سوى جزء يسيرٍ منه. فالاكتظاظ السكاني؛ هو من الأحداث الكبرى الطارئة على الأرض، ومع ذلك تم توفير الغذاء. وإن كان الفقر سيبقى ملازمًا لأعداد كبيرة من البشر...

من أبرز مزايا الحضارة المعاصرة؛ اللجم النسبي للعدوان، والتحريم الدولي للغزو؛ فبات يوجد نظام دولي؛ يعترف بسيادة الدول، ويعترف

بحدودها، ويحترم هذه الحدود. وهذه مزية عظيمة، يغفل عنها الكثيرون؛ ذلك أنه خلال التاريخ البشري على امتداده؛ كان الأقوى يغزو الأضعف، وتتحول الشعوب المغلوبة، إلى عبيد وإماء؛ يباعون كالبهائم، وفي أحيان كثيرة كانت القبائل الهمجية تهاجم المجتمعات المستقرة، كقبائل المغول، والتتار، والهون، والهكسوس. يعرف الجميع أن جنكيز خان هاجم البلاد الإسلامية والعربية، ودمر البلاد وقتل الرجال واستباح المدن. وكذلك القبائل الجرمانية اجتاحت أوروبا وقضت على الدولة الرومانية كما أن القبائل النورماندية، اجتاحت أوروبا. روما تعرضت للتدمير من جحافل الغزاة مرتين؛ الأولى في القرن الثالث قبل الميلاد حيث غزتها قبائل الغال ودمرتها، أما التدمير الأخير، فكما يقول المؤرخ إدوارد جيبون في كتابه (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها): «في ساعة الانفلات الوحشي؛ حدثت مجزرة قاسية بحق الرومان، امتلأت شوارع المدينة بجثث القتلى التي بقيت من دون دفن، في أثناء فترة الذعر الذي سيطر على الجميع. أما في الأماكن التي قوبل فيها البرابرة بالمقاومة، فقد حدثت مجازر عشوائية بحق الضعفاء والأبرياء والعاجزين، تعرضت سيدات روما وعذاراها إلى اعتداءات على عذريتهن هي أشد هولا من الموت ذاته» ويضيف: «البرابرة لا يشبعون من النهب، فمضوا بالتهديد والضرب والتعذيب من أجل إجبار أسراهم على الاعتراف بأمكنة الكنوز المخبأة» ويصف العالم هارولد فينك في كتابه (لمن ترهقهم الحياة) المأساة المروعة ذاتها فيقول: «في عام 410 ميلادية عبَرَتْ جحافل القبائل البربرية المسماة الوندال، عبرت جبال الألب وهبطت على روما، المدينة الخالدة، وما أنْ دخلوا روما حتى أعملوا فيها النهب والسلب والاغتصاب والتدمير بطريقة جنونية، لقد قضوا على حضارة، وضاع معها العلم والفن والأدب والموسيقى والقانون والنظام والدين، ودُفِنَتْ تحت الركام المتداعي من حريق روما. وبعدها ولمدة تزيد على ألف عام ظلت أوروبا في حالة فوضى، وخبت نار الفن والعلم تحت أكوام الرماد الذي خلّفه برابرة أوروبا أينما ذهبوا» وبذلك قضوا على الدولة الرومانية المتحضرة، وأخروا نمو الحضارة أكثر من عشرة قرون إن اللغة عاجزة عن تصوير الفروق الهائلة بين

الحياة في ظل الحضارات القديمة، قياسًا بالمكتسبات التي وفرتها الحضارة المعاصرة...

حين ندرس التاريخ بعقول مفتوحة، ونقف على قصص تقويض الحضارة، في خوارزم وبغداد وروما وقرطاج وأثينا، ندرك أنه كان أهلُ المدن يطورون الحضارةَ خلال أزمان طويلة؛ فيتم تدميرها في أيام؛ حين تهاجمها جحافلُ الغزاة البدو الهمج. وكما يقول هنري كيسنجر في كتابه (النظام العالمي): «كان حشدٌ من الجحافل البدوية متصارعًا على الموارد على مساحات مترامية مفتوحة قليلة التخوم الثابتة؛ إغارات الجحافل سعيًا إلى نهب المدنيين الأجانب واستعبادهم. كانت أحداثًا متكررة بانتظام؛ طريقة حياة بالنسبة إلى البعض، بقي الاستقلال مشروطًا بالمساحة التي كان أي شعب قادرًا على الدفاع عنها ماديًا» إن أبناء هذا العصر لا يستطيعون أن يتخيلوا فظاعة الحياة في العصور القديمة حيث كانت الحياة غارقة بالخوف الدائم، إن شبح التهديد من الغزاة الهمج لا يبرح أذهانهم فعاشوا في شقاء لا مزيد عليه...

إن قصة احتماء سكان البندقية في إيطاليا، بالبحر وإقامة مدينتهم وسط المياه الضحلة للاحتماء بالبحر من هجوم الغزاة؛ لهي أكبر دليل على أن الناس كانوا في العصور القديمة في حالة خوف دائم فظيع، ومجاعات شبه دائمة، وجوائح أوبئة متكررة؛ ففي الفصل الذي كتبه إدوارد هين ضمن كتاب (تاريخ العالم) يتحدث عن: «المدينة التي بُنِيَتْ في البحر» فرارًا من الاجتياحات الهمجية المتكررة؛ ففي البندقية الإيطالية حين دمَّر القوط مدينتهم، فر من استطاع الفرار وتحصنوا بالبحر فأقاموا مدينتهم في المياه الأقل عمقًا ليحتموا بالبحر من الغزاة الهمج، وكما يقول هين: «في هذه الكارثة المروعة؛ لاذ بالفرار كِل من استطاع، وأصبحت هذه المياه الضحلة ملاذًا لهؤلاء اللاجئين وأعقابهم قرونًا عديدة، لأنها كانت شديدة المناعة لا يمكن اقتحامها. وبدأ اللاجئون يفدون إلى هذه المناقع عام 452 وفي عام 466 تمكنوا فعلا من إقامة شبه دولة غير أنها لم تكن ثابتة الأركان ولم يكن لها إلا هدف طارئ، فلما ازداد الاضطراب في الأرض اليابسة نتيجة لتوالي موجات البرابرة عليها؛ أدركوا

أنه لا سبيل إلى عودتهم إليها، ولحقت بهم باستمرار أفواجٌ من المنفيين حتى إذا كانت سنة 568 بنوا تورتشلو حتى يدوم لها البقاء» كانوا عند تأسيس مدينهم وسط المياه الضحلة يقولون: «إن الله أنقذنا، لكي نعيش فوق هذه المياه، هذه هي البندقية الثانية التي أقمناها وسط المستنقعات، موطن منيع لنا، ولا تستطيع أية قوة أن تصل إلينا» هذه الصورة البائسة تصور حالة الأمن في العالم القديم فما تكاد تستقر أية مدينة وتنتعش حتى تهاجمها القبائل الهمجية، فتدمر المدينة وتسبي الأموال وتستعبد السكان؛ فيتحولون إلى بضاعة يُعرضون للبيع كما تُعرض البهائم...

يقول المؤرخ الأمريكي كافين رايلي في كتاب (الغرب والعالم): «إن التفاعل بين الفلاحين والرعاة، بين المستوطنين المستقرين والبدو الرحل، وبين القرى والقبائل، بين المزرعة والمرعى، بين حضارة المدن والبرابرة؛ كان تفاعلا عنيفًا في أغلب الأحيان، وكانت القوة هي المحرك الرئيسي في تاريخ العالم. ولقد بدأت الحرب المنظمة المستمرة نتيجة الصراع بين هاتين الجماعتين؛ فقد غزا الرعاةُ الرُّحَّل مستوطنات القرى زهاء عشرة آلاف سنة؛ وحاربت جيوش المدينة ضد الغزاة البرابرة نحو خمسة آلاف سنة؛ المواجهات كانت وحشية وكثيرة» إن المتحضرين يضطرون إلى حماية مدنهم بالأسوار المانعة والحراسات، فالتهديد لا يتوقف فيقول: «فقد توفر الاستقرار للمدن بفضل الأسوار التي عملت على حمايتها من البدو والجيوش المغيرة. ولكن المدينة تتضمن شيئًا أكثر من الأمن؛ فالمدينة التي تضمن استتباب النظام فقط؛ هي أقرب إلى السجن منها إلى المدينة» بل إن الصين قد اضطرت لإقامة سور عظيم يبلغ طوله ستة آلاف وأربعمائة كيلومتر، لصد الغزاة الهمج، ولكنه لم يحقق لهم الحماية، فهاجمها المغول واحتلوها وحكموها فترة طويلة. لم تتوقف غارات البدو الرحل عن القرى والمدن حتى تم اختراع السلاح الناري، فباتت الحواضر قادرة بأن تقاومهم. فبعد تطور الأسلحة لم تعد القبائل الهمجية قادرة على مهاجمة المدن لكن اختراع البارود والبنادق لم يتحقق إلا قبيل الانبعاث الأوروبي الحديث الذي كان تمهيدًا للحضارة المعاصرة بكل ما حملت من مزايا، وما أتاحته من قوة وعدوان...

لم يكن الغزو والعدوان محصورًا بالقبائل الهمجية، وإنما كانت الدول القوية تفترس الدول الضعيفة؛ وتبقى الحرب سجالا عند تكافؤ القوة. لكنها لا تنطفئ. لقد استعرت حربٌ طويلة بين الرومان والقرطاجيين، ولكن انتهت الحرب بانتصار الرومان والقضاء كليا على القرطاجيين تمكن الرومان من اقتحام قرطاجنة وإبادة المقاتلين وسبي النساء، وبذلك قضوا على الدولة الفينقية. وفي كتاب الدكتور توفيق الطويل (قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة) اعتبرها: «أروع مأساة عرفها تاريخ البشرية» وفيه يقول: «آيات النضال العنيف الذي استعر بين القرطاجيين والرومان، واستمر قائمًا نحو مائة وعشرين عامًا، تغذيه وقدةُ الطموح إلى المجد، وتُذكي نيرانه هوجاء المطامع والأحقاد، حتى نزف المقاتلون دمًا وجهدًا ومالاً، وانتهى بأروع مأساة عرفها تاريخ الدنيا بأسرها: أُمَّةٌ تفنى في ساحة الجهاد، وتتلاشى من الدنيا جلجلةُ أهلها؛ كانت ملء الوجود سمعًا وبصرًا؛ فأضحت مجرد ذكرى يحكيها التاريخ» وقد كتب الأستاذ محمد فريد أبو حديد للكتاب مقدمة تليق بهذا الموضوع الجليل وفيها يقول: «لقد كان النضال بين قرطاجنة وروما، أحد المواقف التاريخية الفذة التي هزت العالم هزة قوية، في إبانها، وما زالت العصور التالية ترجع إليه وتلتفت صوبه» ويقول: «لقد كانت الشعوب الإنسانية منذ القدم ينافس بعضها بعضًا في كل ميادين النشاط والمطامع، فلقد كانت تتنافس في امتلاك الأراضي، وفي الانتفاع بالمراعي، وكانت تتنافس في القوة والمنعة، ثم هي تتنافس، في كل هذه المعاني بوسائل سلمية تارة وحربية أخرى» في الحضارات القديمة. كانت حروب العدوان والسبي والاستعباد دائمة، فالتوقف عن الحرب كان استعدادً لحرب أخرى. وعلى سبيل المثال؛ الامبراطور الفارسي داريوش غزا بلادًا كثيرة ونهبها وأخضعها، ولم يكتف بآسيا وإنما غزا الإغريق في القارة الأوروبية وأحرق أثينا، دون أي سبب منطقي سوى السعي للافتخار بالانتصار وهزيمة الآخرين؛ لأن الانتصارات الحربية العدوانية؛ هي وسام المجد. ومثلما جاء في كتاب (الهوبيت والفلسفة) لباشام، وبرونسون: «في التاريخ الغربي أُريق قدرٌ هائل من الدماء بسبب المجد. في الإلياذة والإنياذة، وبيوولف، وغيرها من الملاحم

الغربية؛ ترى المجد_ الشهرة والعزة والسمعة_ في القتل البطولي لعدوٍّ ما، أو في هزيمة أمة» أما الأسلاب في مثل غزو فارس لليونان البعيدة؛ فلا تكاد تقابل تكاليف الحرب عبر مسافات طويلة، وبحار عازلة، وأنهار تعترض المسيرة الضخمة. فخسائر الفرس في غزوهم لبلاد اليونان كانت خسائر ضخمة لكنه التصميم على الانتصار. وبعد سنوات ردَّ الاسكندر المقدوني على ذلك بأن غزا بلاد فارس وأسقط امبراطورها كما استولى على آسيا الصغرى ومصر والشام وأجزاء من الهند لمجرد أن يثبت أنه أعظم الفاتحينِ. واشتعلت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا. أما الحرب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا؛ فقد استمرت ثلاثين عاما، ولم تتوقف حتى استنزفت الطرفين؛ فقُتِل فيها أكثر من ثلث سكان ألمانيا، وقد دارت المعارك في كل شبر: «فأهلكت المزارع وأحالتها إلى أرض جرداء بلقعًا» وأدت إلى تأخير النمو الألماني وحالت دون وحدتها مدة قرنين؛ فليس أفظع ولا أعنف من الحروب الأهلية ذات المحرك العقائدي...

وقد توقفت الحرب بعد صلح وستفاليا، خرجت منها فرنسا أقوى، فاستمر القتال بينها وبين إسبانيا. أما الإمبراطورية المقدسة فقد تضاءلت سلطتها، واستقلت هولندا عن إسبانيا، وتحررت السويد. يقول جفري برون في كتابه (تاريخ أوروبا الحديث): «إن معاهدة وستفاليا؛ كانت أول المعاهدات الأوروبية التي عملت على إيجاد توازن دولي في عموم أوروبا، وبشكل لا يؤدي إلى تمكين إحدى الدول من تهديد استقلال جيرانها» وفي (قاموس بنغوين للعلاقات الدولية) لغراهام إيفانز وجيفري نوينهام يقول المؤلفان: «سلام وستفاليا سلسلة معاهدات؛ أنهت حرب السنوات الثلاثين. ويَعتبِر الكثيرون أنها كانت إيذانًا ببداية النظام الحديث للعلاقات الدولية؛ فقد تم في وستفاليا؛ إرساء قواعد عدد من المبادئ الهامة التي من شأنها أن تُشَكِّل لاحقًا، الإطار القانوني والسياسي للعلاقات الحديثة بين الدول. وقد اعترفتْ صراحةً بمجتمع من الدول يقوم على أساس السيادة الإقليمية، واستقلال الدول، وأكدت أن لكل دولة حقوقًا قانونية يتوجب على الجميع احترامها. وأرست قواعد الحرية الدينية والتسامح الديني،

ووضعت مفهومًا علمانيًا للعلاقات الدولية، حل إلى الأبد محل الفكرة التي كانت سائدة في العصور الوسطى، بشأن سلطة ديانة عالمية تقوم بدور الحكم الأسمى للعالم المسيحي» ويضيف المؤلفان: «معاهدة وستفاليا؛ كانت حدَثًا فريدًا بالغ الأهمية، ومطلع عهد جديد، أوجد النظام الحديث للدول ذات السيادة» ولكن لم تتوقف الحروب الأوروبية فاندلعت حرب السنوات السبع. وغزت إسبانيا إنجلترا بهدف تحويلها إلى الكاثوليكية، لكن الأسطول الإنجليزي دمَّر الأسطول الإسباني (الارمادا) فلم تقم له بعدها قائمة. واشتعلت حروب متكررة بين بروسيا ومجموعة حلفاء، وتكررت حروب فريدريك الكبير في ألمانيا، ثم بسمارك من أجل توحيد ألمانيا وقام بطرس الكبير في غزو جيران روسيا وضمهم إلى بلاده. ثم اندلعت الثورة الأمريكية، وبعدها اندلعت الثورة الفرنسية، وخاض نابليون حربًا شاملة من أجل توحيد أوروبا تحت زعامته لكنه في النهاية خسر الحرب. ثم كانت الحرب العالمية الأولى، وبعد سنوات اندلعت الحرب العالمية الثانية...

ولمن يرغب التوسع في معرفة الحروب التي دارت بين الأمم؛ توجد كتب تسرد الحروب التي جرت بين الدول مثل كتاب عالم الاجتماع الفرنسي غاستون بوتول عن (ظاهرة الحر) وكتاب (موسوعة الحروب) لهيثم هلال وكتاب (معجم الحروب) للدكتور فردريك معتوق. وكتاب (معجم المعارك الحربية) لماجد اللحام. وكتاب (الحرب المقدَّسة) لجان فلوري. وكتاب (خمسون فكرة عن تاريخ الحرب) تأليف روبن كروس. وكتاب (سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى) لجوزيف داهموس. وكتاب (لماذا تتحارب الأمم؟) لرتشارد نيد ليبو. وكتاب (عن الحرب) لكارل فون كلاوزفيتز. وكتاب (البحر المتوسط: حضاراته وصراعاتهِ) لإرنل برادفورد. وكتاب (جغرافية الحرب والسلام: من معسكرات الموت إلى الحراك الدبلوماسي) لكولن فلنت. وكتاب (مدن تحت الحصار) لستيفن غراهام. وكتاب (نظرية الحرب وممارستها) لمايكل هوارد وكتاب (الحرب في عصر المخاطر) وكتاب (فلسفة العنف) لإلزا دورلين. وكتاب (العنف والإنسان) ليورج بابروفسكي. وكتاب (السعي وراء المجد) لتيم بلاننج. وكتاب

(لماذا تنشب الحروب) لجورج كاشمان. وكتاب (الحرب والتقدم البشري) لجون نيف. وغيرها كثير فما هذه الكتب سوى نماذج من الكتب التي تحكي تفاصيل معارك الموت، وسنوات حصار المدن؛ فالإنسان أسوأ مما وصَفَه به الفيلسوف توماس هوبز حين قال: (الإنسان ذئب الإنسان) فالذئب لا يفترس الذئب، وإنما الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يقتل للقتل ذاته، لأن القتل رمز القوة والتغلب والنصر والهيمنة. ومن أبشع صور القتل الإبادة الجماعية، كإبادة الهنود الحمر في أمريكا وإبادة الأرمن، بواسطة الجيش التركي. ومن أقرب النماذج للإبادة الجماعية ما جرى في رواندا وكذلك الإبادة المتبادلة بين الفرقاء حين تفككت الدولة اليوغسلافية...

كان العالم في الحضارات القديمة مستعرًا بالحروب العدوانية؛ وحين تقرأ التاريخ؛ تجد أن كل أمة تفتخر بحروبها العدوانية، فهي تفاخر بانتصاراتها، وتتمدَّح بقدرتها على العدوان، واحتلال بلاد الآخرين، لذلك فإن من أهم المبادئ الدولية، التي تحققت في الحضارة المعاصرة؛ الاتفاق على نظام دولي؛ يعترف بسيادة الدول ويُحَرِّم العدوان، ويُدين انتهاك حدود أية دولة. وهذا شيء طارئ، ولم يكن معروفًا من قبل. ومثلما يقول روبرت ماكيفر في كتابه (تكوين الدولة): «ظهرتْ فكرةُ النظام الدولي منذ انبثاق فجر العالم الحديث، وأخذ بعض المفكرين والساسة؛ يبشرون بها من حينٍ لآخر في كتاباتهم. وأصدر الأب سان بيير في بداية القرن الثامن عشر كتاب (مشروع السِّلْم الدائم) وكان أقوى المؤمنين بالتقدم فجاء كتابه كبرنامج كامل لإنشاء حلف دائم في أوروبا. ورحب روسو بهذا المشروع وتوسَّع فيه. وطلع كانط الفيلسوف الألماني في نهاية القرن الثامن عشر، بأحسن ما كُتِب عن الموضوع في مشروعه لسلمٍ أبدي. إن فكرة النظام الدولي هي فكرةٌ حديثة لم يسبق إليها أي عصر آخر قبل العصر الحديث» ولكن ماكيفر لا يوافق على أن غروتيوس كان رائدًا في مجال النظام الدولي فيقول: «ولا نوافق على الدور الرئيسي الذي يُنسب لغروسيوس وأتباع مدرسته، كرواد لفكرة النظام الدولي. وهذه الرؤية عن دور غروسيوس تتعارض مع موقف الأمم المتحدة التي تَعتبره رائدًا للنظام الدولي وكذلك كثير من علماء السياسة

والتاريخ. لكن ماكيفر يعارض الجميع؛ لأن غروسيوس في نظره: «لم يمثل هذا الدور ولكنه أبدى حرصه على إيجاد نظام للعلاقات الدولية» أما الحقيقة فهي أن أعمال غروسيوس باهتمامه بتنظيم علاقات الدول، وتأكيده على حرية البحار، واعتبارها مياهًا دولية، وأن استخدام المحيطات والبحار حقٌّ تشترك فيه كل الدول، ولا يحق لأية دولة أن تحتكر استخدامه، إنه بكل ذلك قد مهَّد لبزوغ فكرة النظام الدولي على النحو الذي استقرت عليه...

إن المشكلات التي تَحْدُث نتيجة منازعات الدول الحديثة؛ قد أدت إلى تقنين العلاقات الدولية، ففي بداية الانبعاث الأوروبي الحديث؛ حصل تنازع بين دول أوروبا التي انطلقت في البحار بحثًا عن المال والتوابل، إسبانيا والبرتغال وهولندا وإنجلترا وقد اضطرت هذه الدول إلى الاتفاق على نظام دولي يعترف بسيادة الدول فتبقى آمنة وغير مهددة بالغزو مهما كانت صغيرة. كما تم الاتفاق على حرية البحار. يقول مؤلفا كتاب (عصر الملاحة البحرية) جيمس فولو، ودورثي فولو: «استمدت الجمهورية الهولندية جزءً كبيرًا من شخصيتها ومكانتها القومية؛ من السيطرة على البحر أكثر من أية دولة أخرى في أوروبا. كوَّنوا ما أُطلق عليه (الإستقراطية التجارية) وقد تخصصوا في بناء السفن الخفيفة والزهيدة الثمن، فقد نجحوا في منافسة جميع الدول» لقد تعارضت مصالح الدول، وتعاملت أولا بالمواجهات الحربية، ومثلما قال الأدميرال هوراشيو نيلسون: «إضعاف العدو وإبادته هما أسمى الغايات التي تصبو إليها الدولة» ولم يحصل الاتفاق على النظام الدولي وحرية الملاحة في المياه الدولية، إلا حين تعارضت مصالح ومطامع الدول، وتحقَّق توازن القوى؛ فقد كانت إسبانيا والبرتغال هي الأسبق والأقوى إلى الانطلاق في البحار والمحيطات. وكانت ترى أن من حقها أن تحتكر الملاحة وأن تستولي على أي سفن للدول الأخرى، ونتيجة لَهذا التنازع تمكنت شركة الهند الشرقية الهولندية أن تستولي على سفينة برتغالية، وكانت البرتغال آنذاك تحت السلطة الإسبانية. وتكاثر الجدل حول هذه السفينة المصادَرَة وحمولتها، فكلَّفتْ الشركةُ الهولندية المحامي غروتيوس بإعداد مرافعة فأعد كتابه (الحرب والسِّلْم) وكتاب (حرية البحار) لقد كان هذا النزاع

مفتاحًا لإرساء النظام الدولي وإعطائه مشروعية قانونية، يُحتكم إليها، وبسبب ذلك اكتسب غروتيوس أُبُوَّة القانون الدولي...

يقول جيرهارد فان غلان في كتابه (القانون بين الأمم): «غروتيوس؛ يَعترِف به الجميع أبًا للقانون الدولي. نشأ اهتمامه بالموضوع من قضية مهمة غير عادية؛ فخلال الحرب ضد إسبانيا؛ أَسَر أسطولٌ من شركة الهند الشرقية الهولندية باخرةً برتغالية في سنة1601 وجلبت الباخرة بحمولتها إلى هولندا وبيعتْ كغنيمة حرب حين كانت البرتغال تحت السيطرة الإسبانية واعترض بعض حملة الأسهم في الشركة، وطلبت الشركة من غروتيوس رأيه في هذه الاعتراضات. وقام المحامي الشاب بمهمته هذه بكتابة مقال بعنوان (تعليق على قانون الغنائم والأسلاب) طُبع في سنة 1609 بعنوان (حرية البحار) وجاء دراسةً مشرقةً لمبدأ حرية البحار. وكتب أهم مؤلفاته؛ ثلاثة كتب في قانون الحرب والسلام في سنة 1625 في فرنسا. وهذا الكتاب هو أول معالجة منتظمة للقانون الدولي الوضعي. إن أجزاء الكتاب المتعلقة بالسلام حفلت بقواعد مفصَّلة؛ تمثل مأثرة فريدة في نوعها في القانون كما تمثل فكرةً جديدة وحازمة في معالجة الموضوع» هكذا ظهرت فكرة النظام الدولي. يقول أستاذ التاريخ رمزي موير مؤلف كتاب (القومية والدولية): «لم يكن القرنان السادس عشر والسابع عشر، مجرد عصرٍ شهد أحداثًا عظيمة، وتغيُّرات كبيرة، في أحوال الحياة الإنسانية، ولكنهما كانا عصرا تفكيرٍ سياسي عظيم النشاط؛ كانت تتبلور خلاله شيئًا فشيئًا، أفكارٌ جديدة عن الدولة، والحكومة، وعن علاقات الأفراد بالدولة، والدول بعضها ببعض. ومن المستحيل تكوين فكرةٍ صحيحة عن تطور المجتمع الإنساني دون دراسة حركة الأفكار هذه. إن العقل الإنساني القلق غير القانع الذي يبحث دائمًا عن تفسيرات لحقائق الحياة ويضع دائمًا الخطط لإصلاحها؛ هو أهمُّ العناصر في التقدم الإنساني» وقد كان غروتيوس من أبرز المنظرين الذين أرسوا النظام الدولي، ودعوا إلى السلام، وأكدوا سيادة الدول...

معظم من يتناولون القانون الدولي، يؤكدون ريادة غروتيوس، فقد صنع توجُّهًا عامًّا لدى المفكرين ولدى الساسة، ففي (قاموس بنغوين للعلاقات

الدولية) يقول المؤلفان غراهام إيفانز وجيفري نوينهام: «رؤية غروتيوس للمجتمع الدولي. إن افتراض غروتيوس المركزي؛ هو افتراضُ التضامن، أو التضامن الكامن للدول فيما يتصل بتنفيذ القانون الدولي. ويسعى المبدأ لإقامة نظام عالمي من خلال تقييد حقوق الدول في خوض الحرب لأغراض سياسية، ويُعَزِّز الفكرة التي مفادها أنه لا يمكن استخدام القوة بشكلٍ مشروعٍ إلا بغية تعزيز أغراض وأهداف المجتمع الدولي ككل، فإن الاستخدام الخاص للعنف محرم بشكل صارم. وكانت القواعد التي استحدثها غروتيوس مناصرة للحزب العادل. لذا فهي موضوعة من أجل دعم وتشجيع مفهوم لتضامن الجماعة الدولية» ويضيف المؤلفان: «يُعتبر مبدأ الأمن الجماعي ذروة الحركة الغروتية الجديدة في الفكر الدولي للقرن العشرين، حيث أن الفكرة هي أنه باستثناء الدفاع عن النفس؛ فإن الاستخدام المشروع للقوة يسند إلى المجتمع الدولي ذاته. لا إلى فرادى أعضائه» وبهذا ضمنت الدول الصغيرة حقها السيادي، كما ضمنت أن تَحترم الدول الأخرى حدودها، وعدم التدخل في أمورها الداخلية...

إن الحضارة المعاصرة بما توافر فيها من مؤسسات دولية ومحلية وما توافر من قوانين وأنظمة وأساليب ومنظمات وأفكار ومعارف وأدوات ووسائل؛ إن هذه كلها؛ متقدمة جدا عن تفكير الإنسان المعاصر، إن الإيجابيات التي توافرت هي من إبداع الأفراد الاستثنائيين الخارقين، وهي بالنسبة للعموم تمثل القشرة الحضارية التي اكتسبها الإنسان المعاصر من إخضاعه للقوانين والمؤسسات ولكنها ليست أكثر من قشرة رقيقة تنكشف عند أول خلاف، إن التقدم الذي تحقق هو تقدم أفكار، وعلوم، ومناهج، وقوانين، ونُظُم، ومؤسسات، وأساليب؛ بواسطة أفراد خارقين. وليس تقدم أفراد ولا تقدم مجتمعات. لذلك تعود إلى الإنسان همجيته عند أية منازعات كما حصل في رواندا، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الدول. فما أكثر أسباب الصراع بين الدول المتجاورة، نزاعات على الحدود، ونزاعات على موارد المياه، ونزاعات على الثروات المخزنة في باطن الأرض كالبترول، أو مناجم الذهب، وأشدها تأثيرًا ما يتعلق بمصادر المياه؛ كالخلافات على امتداد نهر النيل، أو نهري دجلة

والفرات. إن حياة بعض الأمم قائمة على استمرار تدفق الأنهار بالمستوى الكافي وكل نهر ينبع من بلدان أخرى، وتكون هذه الدول راغبة في تخزين أكبر كمية من المياه وتوليد الطاقة، فتقيم سدودًا ضخمة تؤثر على كميات مياه النهر وهذا يؤثر على بلدان أخرى. لكن تبقى النزاعات تحت بصر وتدخُّل المنظمات الدولية...

لابد من التأكيد المتكرر بأن النقائص؛ هي الأصل في التفكير، والسلوك، والأوضاع البشرية. أما المزايا كالمعارف، والمهارات، والعدل، والتعاون، والتعاطف، والبصيرة، والحكمة، والفضائل الأخلاقية؛ فهي خصالٌ مكتسبة، وليست طبيعية. إن إدراك أولوية وأصالة النقائص البشرية؛ تستوجب من كل إنسان، أن يكون دائم العناية؛ لاكتساب المزايا لذاته، وتقليص النقائص الطبيعية. ولكن لا يوجد في نقائص الإنسان، ما هو أبشع من استساغته لاستعباد البشر، وتتضاعف البشاعة حين يمارسها بنفسه، وليس فقط لم يستنكرها؛ فمهما تكاثفت الهمجية فإن أشد الفظاعات هو؛ استعباد البشر؛ فهذه من القبائح البشرية الفظيعة؛ فهي الأشد إيغالًا في الهمجية والقُبْح والبشاعة والقسوة والتوحش؛ فلا يوجد في السلوك البشري؛ أفظع ولا أشنع ولا أقبح ولا أقسى من استعباد البشر، وتحويلهم إلى بضاعة تُعرض للبيع في الأسواق، مع المعاملة الوحشية للأرقاء، كانت الحروب العدوانية هي السبب الأول لاسترقاق البشر، حيث أن الدولة الأقوى، أو القبائل الهمجية، تهاجم الأمم المستقرة فتسلب الأموال، وتدمر المدن، وتستعبد البشر. يقول الدكتور أحمد إبراهيم حسن في كتابه (تاريخ النظم القانونية والاجتماعية): «لقد لعبت طبقة الأرقاء، دورًا كبيرًا في البنيان الاجتماعي، والاقتصادي للحضارات القديمة، فطبقة الأرقاء كانت تشكل الطبقة الدنيا للمجتمعات القديمة، ويقع على عاتقها العبء الأكبر من الواجبات الاجتماعية، دون أن تتمتع بأية حقوق. ويرجع الانحدار الاجتماعي لطبقة الأرقاء إلى أصل نشأة نظام الرق ذاته؛ فالرقيق في الأصل هو أسير حرب مهزوم استبقاه المنتصر كخادم له، يباع ويُشترى، بدلًا من قتله» إن من طبيعة الإنسان أنه يأنف من قمع إرادته، لكن تخيَّل مجتمعًا متحضرًا تجتاحه إحدى

القبائل الهمجية، فتقتل وتسبي وتمتهن كرامة البشر والأفظع أن تحيلهم إلى عبيد يباعون ويُشترون كالبهائم ويصبحون عرضة لأقسى المعاملات...

يوضح مؤرخ الحضارة الفيلسوف ويل ديورانت في كتابه الفخم (قصة الحضارة) بأن استعباد المهزومين يُعَدُّ مرحلة متقدمة، فقبل ظهور فكرة الرق، كان المنتصرون يقتلون المهزومين، وفي بعض الأحيان كانوا يأكلونهم كذبائح. ومن هذا الدرك السحيق لمستوى الحضارات القديمة؛ تتضح عظمة ما انتهت إليه الحضارة المعاصرة من رقي عظيم. لقد تعارف العالم القديم، على استعباد الناس، فلم يكن ذلك محل استنكار، لقد اعتادوا على ذلك، فبات جزءًا من نمط الحياة البشرية، ولم يقتصر الاستعباد على الحرب، وإنما كان البشر المتوحشون، يتصيَّدون الأولاد، من البنين والبنات، ويخطفونهم ثم يذهبون بهم إلى بلاد غير بلادهم، ويبيعونهم كما تباع البهائم. والغريب أنه في الحضارة الغربية وحدها؛ ظهر مفكرون ومصلحون وكُتَّاب على امتداد القرون؛ هاجموا نظام الرق، وواصلوا المطالبة بإلغائه. لم أجد في التاريخ العربي والإسلامي القديم أي مفكر انبرى لنقد نظام الرق أو المطالبة بإلغائه. بينما في التاريخ الغربي يتكرر ظهور مفكرين ومصلحين وكتَّاب؛ ينتقدون نظام الرق بقوة، ويطالبون بإلغائه، ويحشدون الرأي العام ضد نظام الرق. فمنذ العصر الإغريقي ظهر فلاسفة خصوصا السفسطائيين استنكروا استرقاق البشر. بل إن الأمريكي الأبيض جون براون لم يكتف بالنقد المكتوب ولا بالخُطب النارية المحرضة، وإنما استنهض العبيد للثورة وقادهم بنفسه في مهاجمة المدافعين عن الرق، وتم القبض عليه وحُكم بإعدامه باعتبار خروجه على النظام خيانة عظمى. وكان لطائفة الكويكرز الدينية في أمريكا موقفٌ مضادٌّ لنظام الرق، ففي عام 1833 تم تأسيسِ (الجمعية الأمريكية المناهضة للعبودية) يقول ناصر عبود التميمي في كتابه (الاسترقاق): «فبعد تلك القرون من استرقاق بني آدم؛ ظهرت عدة صيحات إنسانية، تَردَّد صداها في كل مكان؛ صيحات من ذوي البشرة البيضاء، سُمِّيَتْ تلك الدعوات (الحركة الإلغائية) بداية الجدل حول رفض العُبودية، بدأت داخل أروقة المدرسة اللاهوتية، ثم أخذت تنتشر في بعض الجامعات الإسبانية

منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي» ويضيف: «لم تكن الحناجر المنددة بالعبودية تقتصر على بلد دون سواه، بل ظهرت في أغلب البلدان الأوروبية. إضافة إلى الأمريكتين؛ ففي عام 1673 هاجم روبرت باكستر عملية الاتجار بالبشر. وفي عام 1688 نُشِرتْ رواية، استطاع مؤلفها أن يصف الحالة المزرية للأرقاء المجلوبين من القارة الأفريقية، إلى جزر الهند الغربية، بصورة مؤثرة» إن بشاعة استعباد البشر أقضت مضجع أصحاب الحس الإنساني الرفيع ودفعتهم إلى التكاتف في سبيل قضية إنسانية ملحَّة...

ويضيف: «استطاع الكتَّاب والمفكرون دغدغة مشاعر الكثير من الأحرار، وضمهم إلى المعسكر المناوئ للنظام العبودي» وفي عام 1793ألغت الثورةُ الفرنسية نظامَ الرق في فرنسا، يضيف التميمي: «تُعَدُّ الدانمارك مَن لها قصب السبق على بقية دول العالم في إصدار مرسوم ملكي في إبطال تجارة الرقيق وذلك بتاريخ 1792 وفي بريطانيا شن مناوئو الاستعباد أمثال وليم ويلبرفورس حملةً كبرى، وقدَّموا الكثير من العرائض، وجمعوا الكثير من التواقيع ورفعوها إلى البرلمان من أجل إلغاء الرق والعبودية، وتنامت الأصوات المطالبة بتحرير الرقيق، أصبحت من الموضوعات الرئيسية التي شغلت الرأي العام البريطاني مما جعل البرلمان يصدر قانونًا يلغي فيه تجارة الرقيق في بريطانيا وذلك عام 1807 وشرَّع البرلمان البريطاني عام 1811 قانونًا يتم بمقتضاه معاقبة كل من يتداول مهنة تجارة الرقيق. كما طلب البرلمان من الملك مخاطبة الدول الأوروبية ومناقشة تحريم بيع البشر. وفي عام 1815 عُقد مؤتمر باريس الذي ضم ثماني دول كبرى: بريطانيا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا والنمسا والسويد وبروسيا والدانمارك وخرج المؤتمر بعدة توصيات منها تشكيل لجنة خاصة مهمتها متابعة إيقاف تجارة الأرقاء» لم يكن إلغاء الرق سوى جانب واحد من جوانب التأثير الإيجابي للمفكرين والمصلحين والكتاب، وقد بدأ استنكار ظاهرة الرق من الفلاسفة السوفسطائيين في القرن الخامس قبل الميلاد وتابع استنكار استعباد البشر الفلاسفة الرواقيون لكن البشرية واصلت استعباد المهزومين، ولكن في الحضارة المعاصرة كانت المعارضة للرق قوية ومتواصلة فقد كان

لحشدهم للرأي العام ضد هذا العار البشري الفظيع، تأثير حاسم؛ أنهى العبودية إلى الأبد. إن الفلاسفة والمفكرين والكتاب والمصلحين والجمعيات الإصلاحية كانت خلف كل التطورات النوعية التي تحسنت بها الأوضاع البشرية، كما أن تعارض مصالح الدول قد اضطرها إلى التصالح على قواعد تنظم العلاقات لتحاشي الحرب...

أما في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فلم يكن التحرير سهلاً فقد تطلَّب اندلاع حربٍ أهلية حصدت ملايين القتلى من الطرفين، ودفع قائد التحرير الرئيس ابراهام لنكولن حياته ثمنًا لهذا النصر. يقول نصر عبود التميمي في كتابه (الاسترقاق): «يُعَدُّ استقلال أمريكا عن بريطانيا؛ نقطة تحول لصالح دعاة الحركة الإلغائية. وبعد إعلان الاستقلال أُقِرَّ قانون الرق في الدستور الأمريكي إلا أنه في بعض الولايات سادت فكرةُ إلغاء نظام العبودية من الدساتير الخاصة بها والتي عُدَّتْ باكورة إلغاء الرق من الدستور الأمريكي بشكلٍ نهائي. وأخذت بالفعل تتسابق الولايات الشمالية بتلك التعديلات. لكن الولايات الجنوبية التي تعتمد اعتمادًا كليًّا على الرقيق في اقتصادها؛ بقيت حريصة على عدم الدخول بجدال مع شقيقاتها الشمالية. وبعد أن أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية عام 1807 منع استيراد العبيد من أفريقيا؛ لم تستطع الولايات الجنوبية كبح غائلتها في مهاجمة دعاة التحرير، والمطالبين بالعدالة الاجتماعية. أخذت دعوات الإلغاء في شتى أنحاء أمريكا باطرادٍ مستمر وعلى مستوى كبار الساسة والمفكرين والمثقفين حتى ازداد عدد الهيئات والمنظمات المناوئة للاسترقاق عن ألفي جمعية. ولم يكتف دعاة التحرير في أمريكا بإلقاء الخطب والبيانات وسن القوانين بل ساعدوا العبيد من خلال فتح ممرات آمنة لتهريب الزنوج إلى الشمال أو كندا. وعُرِفَتْ هذه الحركة باسم (الطريق الحديدي السري) وتعد الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1861 من أكبر الخطوات التي أفرزتها الحركة الإلغائية» وهكذا نرى أن إلغاء الرق الذي هو أبشع نقيصة إنسانية؛ كان أحد منجزات الحضارة المعاصرة؛ وذلك بتأثير المفكرين والمثقفين والمصلحين، وبفضل الاستنارة التي أشاعها التنوير، حيث أن التنوير أكد على

كرامة الإنسان واحترام فرديته وانتقد الظلم وأبرز بشاعة استعباد البشر. لقد تم تحرير العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية، بحرب أهلية طاحنة لكن نشأت مشكلة أخرى؛ فالناس لم يغيروا رؤيتهم عن العبيد، بل بقوا يعتبرونهم كائنات أدنى، حيث استمر العزل العنصري بشكل عدواني وبشع. إن التخلي عما هو معتاد ليس سهلا فبقي البيض يعاملون السود معاملة تفيض بالاحتقار والتهميش وإشعارهم بالوضاعة وبالدونية. إن تغيير التصورات المتوارثة؛ يمثل اقتلاع الفرد من ذاته، فالعقل البشري ما هو إلا مجموعة أنماط ذهنية مستقرة. ومتى استقر النمط الذهني، فإنه يكون اقتلاعه بالغ الصعوبة. وهذه من الحقائق المهمة عن طبيعة البشر التي يجب أن يعيها الجميع...

من المهم جدا أن يتعرف جيل الحضارة المعاصرة، على خطوات التغيير التي خاضتها البشرية لتصل إلى المستوى الحضاري الحالي ورغم أن الأوضاع البشرية ما تزال سيئة. إلا أن المكتسبات الحديثة، بالغة العظمة إذا قيست بما كانت عليه الحضارات القديمة. ومن المهم أن يطلع الجيل الحالي على الكتب التي تقص قصص الحروب الوحشية التي خاضتها البشرية، خلال التاريخ الهمجي الطويل كما أنه من المهم أن يطلعوا على كفاح المفكرين الذين كافحوا بصدق وإخلاص لحمل البشر على التوقف عن استعباد البشر مثل كتاب (مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة) لأحمد فؤاد بلبع. وكتاب (العبودية في العصر الحديث) تأليف باتريسيا ديلبيانو. وكتاب (الرق في بلاد المغرب والأندلس) تأليف عبدالإله بنمليح. وكتاب (ثورة الزنج) للدكتور أحمد علبى. وكتاب (الرق والرقيق) للدكتورة فاطمة الشامي. وكتاب (الإخوة السود) تأليف ليزا تتسنر. وكتاب (تجارة العبيد في أفريقيا) لعايدة العزب. وكتاب (شهادات كبرى في الإنسانية) لرولان كولين. وكتاب (الاسترقاق) لناصر عبود التميمي. وكتاب (روافد الاسترقاق) للدكتور خالد حسن. وكتاب (أثر السود في الحضارة الإسلامية) للدكتور رشيد الخيون. وكتاب (الاتجار بالبشر) للدكتورة سوزي ناشد. ومنها المؤلفات التي تتحدث عن العبد الروماني سبارتاكوس ومنها كتاب (سبارتاكوس) تأليف هوارد فاست. وكتاب (سبارتاكوس: السلاح والإنسان)

لآلدو سكيافونه وكتاب (لون البشرة: وأثره في العلاقات الإنسانية) تأليف سيمونز. وبانتصار دعاة التحرير انتهى الرق في الولايات المتحدة الأمريكية؛ لتبدأ معضلة أخرى هي معضلة العزل العنصري ولهذه المعضلة قصة أخرى طويلة ومريرة...

من الممارسات البشعة، في الحضارات القديمة خصي العبيد، وهي متفرعة عن الاسترقاق؛ لقد شاع خصاء العبيد الذين يخدمون داخل البيوت؛ يقول في المعجم الوسيط: «خصاه خصْيًا وخِصاءً: سلَّ خصيته ونَزَعَها؛ فهو مخصيٌّ، وخَصِيٌّ» فمن أجل أن يحتاطوا لعفاف نسائهم؛ كانوا يَخْصون العبيد فيفقدون كل علامات الرجولة، حيث يتساقط شعر الوجه ويرق الصوت ويصبح المخصي أقرب إلى الأنوثة. إنه عدوان فظيع كان يمارَس في كل العالم على نطاق واسع. يقول سليمان فياض: «من أغرب الظواهر، في قصة الجنس البشري عامةً؛ ظاهرة الخصي للرجال، ولم تكن هذه الظاهرة مقصورة على شعبٍ دون شعب، فقد أسهمت في صنعها، ودفعتْ بها كل الشعوب من أقدم الأزمنة إلى القرن العشرين» ويضيف: «الخصي هو من استُلَّتْ خصيتاه. ومثله المجبوب، وهو من قُطِع منه عضوه التناسلي، وفي الحالتين فهو غير قادر على مباشرة الجنس. لكنه بالتأكيد خافق القلب أبدًا بالحب، فللجنس مركزه العصبي بين مراكز المخ. وللخصاء والخصيان تاريخٌ عرفه الجنس البشري في الشرق والغرب منذ أقدم الأزمنة. وكلمة خصي في اليونانية معناها، أمين المضجع، وعلى وجه الخصوص فهو الحاجب للحريم في الشرق. وفي العادة جرى استخدام الخصيان بصفتهم خدمًا في البيوت الثرية والقصور الملكية. وهذا الدور للخصيان كان قديمًا جدا» هذا نموذج من تعسف البشر وحرمان غيرهم من حقهم الطبيعي بالبتر القاطع. وقريبٌ من هذا التعسف، نظام الجواري الذي كان سائدًا حيث يكون لدى أصَحاب السلطة والقادرين مئات الجواري للمتعة...

إن الحضارة المعاصرة، لم تكتف بتحريم الرق في بلادها، وإنما فرضت على جميع الدول تحرير جميع الأرقاء. ومن المعروف أن الغرب كان له دور بشع في الاسترقاق، لكن من أهم عوامل التقدم الحضاري؛ هو قابلية التغيُّر

الإيجابي، فالتخلف هو الأصل وكذلك كل النقائص البشرية، فالمزايا لابد من اكتسابها بالوعي والجهد. إن النقائص تكون راسخة في النفوس وتغذيها الثقافة السائدة. إن المجتمعات التي ازدهرت؛ لا يولد الناس فيها أذكى من الناس الذين يولدون في مجتمعات متخلفة؛ وإنما الفارق يكمن في القابلية الثقافية للتغيُّر الإيجابي. وعلى سبيل المثال فإنه بعد تحرير العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية؛ استمرت المعاملة الجائرة للسود، وهي من النقائص الأخلاقية الشنيعة؛ خصوصًا وأن العزل العنصري، لم يكن مجرد سلوك سخيف، بل كان سلوكًا مقننًا؛ ينفذه رجال الشرطة، وتلتزم به المحاكم، وكانت ممارسةُ العنصرية سلوكًا مستساغًا، بل إنه سلوكٌ يقرره القانون. وفجأة انفجر السود؛ ففي شهر ديسمبر عام 1955 طلب سائق حافلة عامة من المرأة السوداء روزا باركس إخلاء مقعدها لراكب أبيض كما كان يقتضيه قانون الفصل العنصري؛ لكنها رفضت أن تقوم من مقعدها، فهددها السائق بأنها ترتكب مخالفة قانونية، غير أنها أصرت على الرفض وبقيت في مقعدها، وأخذوها إلى المحكمة؛ فحكم القاضي بإدانتها والحكم عليها بغرامة...

كتبت عالمة النفس سوزان كين في كتابها (الهدوء) تحكي بداية قصة حركة الحقوق المدنية في أمريكا. إنها معضلة الفصل العنصري فتقول: «يقوم السائق بتوجيه أمرٍ لها بإعطاء مكانها لراكبٍ أبيض. تنطق المرأة بكلمة واحدة؛ تُشعل واحدةً من أهم احتجاجات القرن العشرين، بشأن الحقوق المدنية، كلمة واحدة؛ تساعد أمريكا على إيجاد ذاتها الأفضل» هذا الكلام تكتبه امرأة بيضاء حيث بعد إلغاء قانون الفصل العنصري؛ صار الأمريكيون البيض يخجلون أنهم كانوا يمارسون الفصل العنصري بهذا الشكل السافر. تضيف سوزان كين: «الكلمة هي (لا) يهدد السائق بإلقاء القبض عليها، ترد روزا باركس: تستطيع فِعْل ذلك. يَصِلُ رجلُ الشرطة ويسأل باركس: لماذا ترفض إخلاء المقعد، تُجيب لماذا تقومون جميعكم بمضايقتنا؟! يجيب الشرطي: لا أعرف. ولكن القانون هو القانون، وأنت رهن الاعتقال» من هذا الموقف اندلعت حركةُ احتجاجات صاخبة، قادها مارتن لوثر كينج، الذي مُنح بعدها جائزة نوبل

للسلام. لم يكن كل البيض مؤيدين للعزل العنصري بل يوجد مفكرون غربيون طالبوا منذ عصور مبكرة بإلغاء الرق، وتحقيق العدالة بالمساواة، والتوقف عن العزل العنصري. وكان المغني الأبيض غاي كاروان قد غَنَّى نشيد حركة الحقوق المدنية التي قادها مارتن لوثر كينج، وبعد إلغاء الرق، جاء إلغاء العزل العنصري، من المهم أن يتعرف الجيل الحالي على خطوات التحول الحضاري، حيث حققت الحضارة المعاصرة تقدُّمًا هائلًا ورغم ذلك فإنها ما تزال معاقة فكرًا وأخلاقا. لكن الناس لن يُقَدِّروا ما تحقق فعلا ويكون لهم إسهامٌ في التغيير نحو الأفضل حتى يتعرفوا على الأحوال في الحضارات القديمة؛ فقابلية التغيُّر الإيجابي؛ هي معيار التحضر. لقد تغيَّرت أمريكا وبدلا من الاستعباد، والعزل العنصري، يتم انتخاب أوباما الأسود رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، ثم يعاد انتخابه مرة أخرى؛ هكذا تتأكد حقيقة أن معيار التحضُّر هو القابلية للتغيُّر الإيجابي...

البشر لا يتراجعون بسهولة عن أخطائهم، لذلك نجد أن الغرب لا يتخلى عن نقيصة، إلا حين يصطدم بمعضلة ضاغطة موقظة؛ فقد قاد المفكران الفرنسيان، ارنست رينان، والمفكر جوزيف آرثر دي غوبينو وآخرون حملةَ دعاية تَدَّعي تميُّز الجنس الآري، وكان لهما الكثير من التأثير لكن مواجهة أوروبا للمشكلات من داخلها؛ تعيدها إلى الرشد، إن ظهور النازية؛ وإمعانها في التمييز العنصري؛ قد قلب الرأي العام الغربي ضد الأفكار العنصرية؛ فأمراض الحضارة المعاصرة، هي السبب في المزيد من العافية الحضارية؛ حيث لم يعد أحد يتقبل دعاوى التمييز العنصري. ليس هذا فقط بل لقد بالغوا حتى في نفي التمايز الثقافي، مع أن هذا التمايز حقيقة صارخة، فلا يمكن التسوية بين ثقافة بابوا غينِيا الجديدة الذين ما يزالون يمشون عراةً، ولم يتجاوزوا مرحلة العصر الحجري، فلا يمكن التسوية بينها وبين الثقافة الفرنسية، أو الثقافة الانجلو سكسون أو غيرهما من الثقافات المتطورة، فهذا التميُّز مكتسب وليس بيولوجيا. ولو أُخذ مواليد من بابوا غينيا ووضعوا لدى أسر أمريكية، لنشأوا على الثقافة الأمريكية وتشربوا اللغة الإنجليزية واللهجة الأمريكية؛ فالإنسان بما ينضاف إلى

قابلياته، حيث يتشكل عقل المولود بما تنقله حواسه إلى دماغه الذي يملك آلية فرز وتنميط ومعالجة...

لا نهاية للمكتسبات التي أضافتها الحضارة المعاصرة للإنسانية؛ فمن التحرر من العزل العنصري، إلى تحرير المضطربين نفسيًّا من أصفادهم. إن بعض المجالات تتبدل الأحوال تبدُّلا نوعيًّا إيجابيًّا بتأثير أحد الرواد. إن مرونة العقل البشري؛ تهيئه للاضطرابات كما تجعله قابلا بأن يتأجَّج بالعبقرية. لذا يقول شكسبير: «شيءٌ ما في الجنون؛ يمكنه أن يقودنا نحو نوعٍ من الفهم للعبقرية» ويقول جبران خليل جبران: «بين الجنون والعبقرية خيطٌ أرفع من نسيج العنكبوت» ولهذا قالوا: «خذوا الحكمة من أفواه المجانين» فأغلب المضطربين؛ يبقون بذكائهم المتوقد؛ إنهم لا يَفقدون شيئًا من ذكائهم المتأجج. لكنه فَرْط الانتباه المصحوب بخوف؛ إن الاندلاع المفْرط لنشاط الدماغ؛ يتجاوز قدرتهم على ضبطه. فمعضلتهم ناشئة عن إفراطهم في الانتباه، بينما أن الأصل أن الإنسان كائن تلقائي؛ ويكون منتظمًا تلقائيًّا في السائد؛ لذلك فإن الانتباه المفْرط، يُخرج التفكير عن النط التلقائي، فلا يتمكن الفرد من السيطرة عليه. إن ظاهرة الاضطرابات النفسية والعقلية، ظاهرة واسعة الانتشار في الماضي والحاضر. وقد كان المضطربون يعامَلون في أوروبا وغيرها معاملةً قاسية بل بشعة. وغير إنسانية حيث كانوا يتوهمون أنهم قد تلبَّستهم الشياطين أو الجن لذلك فإنه بدلا من مساعدتهم لتجاوز اضطرابهم يحصل العكس فتتفاقم حالتهم؛ حيث يتم تقييدهم في الأصفاد، ويُعزلون عن الأسوياء. ونجد قصصًا مروعة في كتاب (تاريخ الجنون) تأليف كلود كيتيل. وكتاب (الجنون في غياهب السجون) تأليف تيري كوبرز. وكتاب (صورة المجنون في المتخيل العربي) للدكتور حسين العبيدي. وكتاب (خطاب الجنون) للدكتور مراد المتيوي. وكتاب (الحمق والجنون في التراث العربي) تأليف أحمد خصخوصي. وكتاب (خطاب الجنون في الثقافة العربية) تأليف محمد حيان السمان. وأشهر وأوسع الدراسات حول الجنون في الثقافة الغربية؛ هي أعمال الفيلسوف ميشيل فوكو. لكن الذي يهمني هو إبراز دور الطبيب الرائد فيليب بينيل الطبيب الفرنسي الذي يُعَدُّ مؤسس طب

النفس الحديث، لقد بدَّل النظرة إلى المضطربين نفسيًّا، وأعلن أنهم ليسوا أشرارًا كما كان التصور السائد عنهم. وليسوا مسكونين بالشياطين والجان، وإنما هم مرضى يستحقون العناية. وقال: «إن الأمراض العقلية هي في المقام الأول ثمرة التعرض المفْرط لضغوط الحياتين الاجتماعية والنفسية» ودعا إلى معاملتهم معاملة إنسانية. يقول جون كارل فلوجل في كتابه (الإنسان والأخلاق والمجتمع): «لقد كان ضعاف العقول في الماضي يعاملون على أساسٍ خُلُقي (على اعتبارهم أشرارًا) ولكن النظرة إليهم انقلبت منذ حرر فيليب بينل مرضاه من الأغلال، فتزايد الاعتراف بوجوب معاملة المجنون على أساس أنه مريض، لا على أساس أنه شرير- وبأن علاجه إنما يكون بالعلم الطبي لا بالإدانة» وهذا نموذجٌ من تأثير العلم الموضوعي على أساليب التعامل مع كل الظواهر الطبيعية والإنسانية...

بل إن الرؤية الموضوعية التي نتجت عن الفكر الفلسفي، وعن العلوم الموضوعية، قد شملت كل جوانب الحياة؛ فبات يُنظر إلى السجناء برؤية واقعية للخطأ؛ فالخطأ عنصر طبيعي تلقائي الحضور في التفكير والسلوك، فالذي يخطئ لا يفقد بذلك حقه بالاعتبار، وإنما يحاسب على خطئه، لكنه لا يفقد اعتباره؛ فليس منا من هو دون خطيئة، ومن هذه الرؤية الموضوعية للإنسان، تم إدخال تحسينات جوهرية على السجون، فهي مكان للإصلاح، وليست مكانًا للعقوبات القاسية والتعامل الوحشي...

من التغيرات النوعية التي حققتها الحضارة المعاصرة، ما استمدته من الحضارة الإغريقية والرومانية؛ بإقامة وترسيخ واعتماد دولة القانون، وهذا تغيُّر نوعي عظيم. وقد كتب أفلاطون عن دولة القانون: «لا تتركوا أية مدينة حيثما كانتِ؛ تَخْضَع لسادةٍ من البشر. بل للقوانين. ذلك هو مذهبي. واعلموا أن الخضوع للبشر شرٌّ على كلٍّ من الحاكم والمحكومين جميعًا وعلى أحفادهم وجميع ذراريهم» ويقول هيراقليطس: «ينبغي أن يحارب الناس من أجل قوانين المدينة، كما لو كانوا حوائطها» ويقول جورج سباين في الجزء الأول من كتابه (تطور الفكر السياسي): «المثَل الأعلى إنما أُسِّس على اعتقادٍ راسخٍ بوجودِ

فارقٍ حاسمٍ؛ بين الخضوع لسلطان القانون، والخضوع لإرادةِ مخلوقٍ من بني البشر، حتى لو كان هذا المخلوق؛ قد تَفرَّد بالحكمة والخير. ظل القانون في دولة المدينة؛ هو بالذات العنصر الذي شُيِّدَتْ عليه أسمى القيم المعنوية. وينبغي التسليم بأن هذا الاعتقاد قد انتقل من الإغريق إلى المثل المعنوية العليا في معظم الحكومات الأوروبية» يستهِلُّ فريد مان وهارشر كتابهما (فلسفة القانون) بالقول: «هل بإمكان البشر، وتحت إشراف العقل؛ إرساء وتحديد آليات مجتمع عادل، يسمح بالتعايش السلمي، وصيانة هذا التعايش بين أفراده؟! هذا السؤال هو ما يُشَكِّل في الآن ذاته فلسفة القانون ورهانها، وإذا اقتفينا خطى بول ريكور؛ فبالإمكان أن نَعتبر أن فلسفة القانون في علاقتها بالسلم تشبه فلسفة السياسة في علاقتها بالحرب» ويضيف المؤلفان: «لم يكن موضوع الفلسفة القانونية دائمًا مسألة القانون فقط وإنما أيضا مسألة القانون العادل» ويقول هنري باتيفول في كتابه (فلسفة القانون): «إن القانون هو نظامٌ مفروضٌ، خلافًا للأخلاق، ووجوده يقتضي فَرْضه عند الضرورة بالقوة، إذًا فالتهديد باللجوء إلى القوة هو من خصائص القاعدة الحقوقية. هيجل تجاوز المبدأ الثنائي؛ مؤكدًا عمليًا تفوق إرادة الدولة. إن الدولة لا تتفوق على القانون، وإنما تُعَبِّر عنه» وفي كتاب (في الحداثة والقانون) يقول المؤلفان علي المزغني وسليم اللغماني: «الحداثة جوهرها القانون. القانون مستقل عن النظم السلوكية والقيمية؛ فالقانون نظرة إلى الحياة، وفلسفة للاجتماع. وحقيقة القانون أنه المرجع، والحد الفاصل، وملجأ الضعيف؛ يضع الحدود، يقرر ما هو جائز مباح، وما هو محجوبٌ ممنوع، ينير السبيل، ويحسم الأمور» إن حياة الناس في المجتمع الحديث، تحكمها القوانين، يتحقق بها الأمن الوظيفي، والأمن التقاعدي، كما تحمي الناس من التعسف والارتجال، فكل العلاقات باتت محكومة بأنظمة: نظام للموظفين، ونظام للعمال، ونظام للتقاعد، ونظام للمرور ونظام للتصدير ونظام للاستيراد، ونظام للأحوال المدنية ونظام للسجون، وأنظمة متنوعة ومتعددة تحمي المواطن وتنظم العلاقات وتحدد الإجراءات. وكل هذا من المكتسبات التي انفردت بها الحضارة المعاصرة...

من المكتسبات التي انفردت بها الحضارة المعاصرة، إخضاع مسائل الصحة والمرض للعلوم الطبية. إن من أبرز نتائج العلوم الحديثة؛ القضاء على الأوبئة الفتاكة؛ كالجدري، والجذام، وشلل الأطفال، والحصباء، والملاريا، والطاعون. يقول فيليب كين في كتاب (عمالقة العلم): «قُدِّر عدد الأوروبيين الذي قضى عليهم وباء الجدري ما بين عامي 1700 و1800 بحوالي ستين مليون إنسان وهو عدد يساوي ضعف سكان لندن، ونيويورك، وطوكيو، وشنغهاي، وموسكو. ولكن هذا الوباء المخيف هو الآن من الندرة إلى درجة أن الأكثرية العظمى من الأطباء، لم يشاهدوا أية حالة منه إطلاقًا؛ فقد تم القضاء على هذا الوباء الذي كان مخيفًا فيما مضى، بفضل مبدأ التلقيح الذي قدَّمه الدكتور إدوار جينر» وهذا وصفٌ لحالة وبائية واحدة بينما أن وباء الجدري كان يتكرر فيهلك الملايين، ومن يُشفى منه فإنه غالبًا يفقد بصره فيعيش أعمى. يقول العالم مارك برنتس في كتابه (موجز التاريخ الطبيعي للحضارة): «أحدثت نظرية جرثومية عند روبرت كوخ ثورةً في الطب الحديث» وهي ثورة طبية سبقتها وأعقبتها ثورات طبية متنوعة، فالحضارة المعاصرة باستخدامها للعلم؛ اختلفت عن كل الحضارات القديمة وحققت للإنسانية مكاسب لا حصر لها. أما في العصور القديمة فإنه لانعدام الرعاية الصحية كان معظم الأطفال يموتون في طفولتهم وبعضهم يموتون أثناء الولادة، كما أن الكثير من النساء يختطفهن الموت من تعسر الولادة، وفقدان العناية الطبية، إن الإحصائيات تكشف عن فارق هائل بين حالة الطفولة في العصر الحاضر وتساقطهم صرعى بسبب سوء التغذية والحصباء والجدري وما لا حصر له من أسباب الوفاة، وكذلك الشأن بالنسبة للنساء، فالولادة كانت في الزمن السابق من أكبر أسباب الوفاة للأمهات وللأطفال، أما الآن فقد زالت مخاطر الولادة سواء بالنسبة للأمهات أو للأطفال. وهذه إحدى نتائج اعتماد الطب على العلم، وتطور المؤسسات الطبية، والعناية الصحية، إنها إحدى المكتسبات التي جاءت بها الحضارة المعاصرة...

في الجزء الثاني والعشرين من (قصة الحضارة) يكتب مؤرخ الحضارة ويل ديورانت عن الموت الأسود الذي اجتاح أوروبا والعالم فيقول: «الطاعون

العظيم دهم إنجلترا، وفرنسا، إن وباء الطاعون حدَثٌ مألوف في تاريخ العصور الوسطى؛ فقد أزعج أوروبا اثنتين وثلاثين سنة من القرن الرابع عشر، وإحدى وأربعين سنة من القرن الخامس عشر، وثلاثين سنة من القرن السادس عشر» ويضيف: «تعاونت الطبيعة وجهل الإنسان، هذان وهما عاملان ثابتان، مع الحرب والمجاعة من ناحية أخرى» ويضيف: «كان الموت الأسود شر النوازل ولعله أفدح ملمَّة طبيعية تعرض لها الإنسان في عصور التاريخ، مات ربع سكان العالم المتحضر، الأطباء والقساوسة واجهوا المحنة برجولة، وضحى آلاف من الأطباء ورجال الدين بحياتهم» ويضيف: «وكان للوباء آثاره على جميع نواحي الحياة وطبيعي أن يموت الفقراء بنسبة أكبر من الأغنياء، فأدى ذلك إلى نقص في العمالة» وفي كتاب (الموت الأسود) يقول المؤلف روبرت جوتفريد: «أسفر الطاعون عن تداعيات اجتماعية واقتصادية هائلة؛ بينها الافتقار إلى الأيدي العاملة» ويقول: «كانت الجائحة قد استشرت في البلاد طولا وعرضًا، بحيث أضحى المزيد من الكنائس بدون رعاة ولا قساوسة ينهضون على خدمة رعاياهم» ويضيف: «بلغ من ماتوا من أهل القاهرة ثلث عدد سكانها، وهو عدد هائل. ومن القاهرة انتشر الموت الأسود في أنحاء الشرق الأوسط» ويضيف: «انطلاقًا من الدلتا تحرك الموت الأسود على طول مجرى النيل» ويقول: «إلى جانب ذلك الشقاء العام، كانت هناك سلسلة من الأمراض المعوية؛ التيفوئيد والزحار والخناق» ويضيف: «تتسم الجائحة الطاعونية الأولى، بارتباطها بحوض البحر الأبيض المتوسط وبكونها في أساسها جائحة دُمَّلية، وخلفت آثارًا لا تمحي على القارة الأوروبية، كانت الطواعين تتوالى بين حينٍ وآخر فأبقت مستويات الكثافة السكانية أقل مما كانت عليه قُبيل الطاعون» ويقول: «فيمكننا أن نفهم الموت الأسود، والجائحة الطاعونية الثانية في سياقها الوبائي، باعتبارهما جزءًا من أزمة إيكولوجية امتدت ثلاثمائة عام» ويقول: «الموت الأسود هو سلسلة من الطواعين الدمَّلية، والرئوية، والتعفنية التي اجتاحت العالم الغربي بين سنتي 1347 و1351 فأفنت ما بين ربع سكانه إلى نصفهم، وكانت السبب في متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية» ويضيف:

«استبدَّ بالناس روعٌ وفزعٌ وحيرة، فصار الأب يفر من ابنه، والزوجة من زوجها والأخ من أخيه، ولم يعد لمن يهلك منهم من يواريه التراب، كان الجميع قد شملهم الرعب من وباء يتعذر تفسيره، ولا يتوافر له علاج» هكذا في الحضارات القديمة؛ كانت الأوبئة تفتك بالأمم حتى تكاد تفنيها...

في كتاب (موجز التاريخ الطبيعي للحضارة) لمارك برتنس يذكر: «المجاعات المتكررة والمدمرة» وفي موضع آخر يقول: «قيمة الحياة تتدنى كثيرًا في أوقات المجاعات، وكان التخلص من الأطفال، حاضرًا لدى جميع الناس؛ فالمجاعة تتسبب في العنف والصراع مما يؤدي إلى انخفاض قيمة الأرواح، وكان الأطفال دائمًا هم أكثر من يتعرض للاستغناء» ويضيف: «حدثت المجاعات ونقص الغذاء بشكل متكرر» ومن جانب آخر يذكر التأثير الإيجابي العظيم لاكتشاف البنسلين فيقول: «ظل مرض الزهري وباءً طوال عصر النهضة وحتى القرن العشرين» ويضيف: «عندما اكتُشِف البنسلين في أوائل القرن العشرين؛ تغيَّر مشهد الأمراض التي تصيب الإنسان؛ حيث وضع حدًّا للأوبئة البكتيرية مثل مرض الزهري» ومما يدخل في مجال التطور الهائل في مجال الطب، وكذلك التحسن الكبير في التغذية، والعناية الصحية، ارتفاع متوسط الأعمار بفارق كبير جدا. كان الناس يموتون في أعمار قصيرة لكن الحضارة المعاصرة غيرت مستوى التغذية، كما وفرت العناية الصحية، وقضت على الأوبئة، وعالجت تلوث المياه بالكلور حيث كان تلوث المياه، من أشد مصادر انتشار الأوبئة، والأمراض الأكثر فتكًا؛ فارتفع معدل الأعمار ارتفاعًا كبيرًا ونتج عن ذلك كثرة المسنين، والزيادة المفرطة في النمو السكاني...

يقول مؤرخ الحضارة الفيلسوف ويل ديورانت في الجزء 35 من (قصة الحضارة): «كانت الحياة في إنجلترا كما في غيرها من الأقطار؛ تبدأ بنسبة عالية من وفيات الأطفال، يموت 59% من مجموع الأطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا سن الخامسة، ويموت 64% قبل العاشرة» لم يكن ذلك في زمن سحيق بل في القرن الثامن عشر. يضيف ديورانت: «في لندن، كانت المراحيض خارجية، توضع في الحديقة أو الحوش، ولم يُتح للندن نظام عام للمجاري إلا

عام 1860 وكان شطر كبير من السكان، يُحشرون في أحياء فقيرة مزدحمة تلوثها القمامة والفضلات، فتولد عشرات الأمراض، وفي حيين من أحياء لندن، كان واحدٌ من كل اثنين من السكان، يعيش عيش الكفاف، معتمدًا على الإحسان أو السرقة في الحصول على الطعام، أما الأطفال فيجرون حفاةً قذرين شعثًا في الشوارع لا تسترهم غير أسمالٍ. أما الحانات، فكانت بؤرة اللصوص والنشالين وقطاع الطرق والقتلة المحترفين، وكان كثير من المجرمين ينتظمون في عصابات» هذه صورة عن لندن في عهد لم يكن بالبعيد. ولا شك أن أحوال المدن والقرى في مختلف بلدان العالم لم تكن في وضع أفضل فالحياة كانت بائسة...

كان الناس يكدحون طول يومهم، ويواصلون العمل خلال كل الأيام، وكان يتم تشغيل الأطفال دون شفقة، الكل يكدح طول يومه. كان الرجال يستهلكون صحتهم وأعمارهم بالكد المتواصل المضني طول الوقت، فإذا شاخوا وصاروا عاجزين عن الكد لم يَلقَوا سوى الإهمال، فلا معاشات تقاعدية، ولا أية ضمانات؛ كانت الحياة كفاح لا يهدأ يعقبه إهمالٌ لا يكترث. أما في الحضارة المعاصرة، فإن العمل لا يتجاوز ساعات محددة في الأربع وعشرين ساعة، وللعاملين عطلة أسبوعية، وعطلة سنوية، مدفوعة الأجر، ثم يُعفى من العمل بعد عمر الستين، براتب تقاعدي. كما تم تحريم تشغيل الأطفال. وباتت العلاقة بين العاملين وأرباب العمل محكومة بقوانين، ولم تَعُدْ تخضع للنزوات المفاجئة. وعمومًا فإنه يصعب استقصاء كل التغيرات النوعية الإيجابية التي اكتسبها الإنسان. ومن المؤكد أن التغيرات الإيجابية النوعية التي حققتها الحضارة المعاصرة، لم تأت دفعة واحدة، وإنما تحققت في أحيان كثيرة، بسبب النزاعات الشرسة بين الدول الغربية، وكذلك كان للحرب الباردة نتائج إيجابية لعموم الناس حيث تتعدل الأوضاع، تحاشيًا للنقد الحاد الذي كان معسكر الاتحاد السوفييتي يبحث عن الثغرات في النظام الغربي فيوجه له النقد الحاد؛ وكانت النزاعات بين الدول تؤدي إلى تبني قوانين تلطف المواجهات؛ فالتدافع فيما بينهم على المكاسب يؤدي إلى حروب مهلكة، تنتهي بالاتفاق على

قانون يَفُضُّ النزاع، ويكون أساسًا لتغيُّرٍ نوعي إيجابي للإنسانية كلها. بل أحيانًا يتحقق التغيُّر النوعي الإيجابي بحربٍ أهلية كما حصل في الولايات المتحدة الأمريكية، بين دعاة تحرير الإنسان، وتحريم الرق، وبين الذين أصروا على استمرارهم في استعباد البشر، وبيعهم في الأسواق كما تباع البهائم. تخيَّل أنك ذاهبٌ إلى السوق، لتشهد البشر المعروضين للبيع؛ فتجد أُمًّا تباع لأحد المشترين، بينما أطفالها يباعون لمشترين آخرين. لقد كان هذا مشهدًا عاديًّا جدا في كل الحضارات القديمة، وحتى في أوروبا، كان القوي يستعبد الضعيف، بل داخل الشعب الإغريقي الذي يشار إليه بأنه المرجعية التاريخية للحضارة الغربية، كان طرفٌ إغريقي قوي قد يستعبد أفراد طرفٍ إغريقي ضعيف. إن التوحش هو الأصل في التعامل البشري، وكانت النزاعات المدمرة بين الأطراف الأوروبية؛ تنتهي بحل يصبح قانونًا دوليًّا...

باعتماد الإنسان على العلوم الموضوعية؛ تنوعت مصادر الرزق، وتفتحت أبوابٌ جديدة لا حصر لها للعمل والكسب والإنتاج. وكلما تقدمت العلوم أكثر، زادت فرص الحياة اتساعًا وتنوعًا، بتقدم العلوم والتقنيات وتسخير طاقات الأشياء؛ تغيرت مصادر الثروة، وتنوعت أبواب الرزق. أما خلال كل القرون الماضية، فقد كانت الأمم تعتمد على ما تنتجه الأرض، فالإنسان يبحث عن شيء جاهز يجده في الطبيعة فيأكله فكان يصيد الحيوانات البرية أو يستخرج السمك من البحر أو يربي الحيوانات التي استأنسها ثم صار يزرع الأرض ويعيش من غلتها ونمت نشاطات حرفية وتجارية مرتبطة بما تنتجه الأرض ولم يتجاوز ذلك كثيراً إلا في استخراج الذهب والفضة أو المعادن الأخرى التي يحيلها إلى أدوات يستعين بها في البحث عن مصدر للغذاء أو صد العدوان ولم تتحول المعرفة إلى مصدر للثروة وبابا للرزق إلا بعد الثورة الصناعية وتسخير طاقة البخار، لقد تحوَّلت المعرفة ذاتها إلى ثروة عظيمة متجددة منذ حصول الثورة الصناعية. كان اكتشاف الطاقة البخارية هو البداية الكبرى للتحول الجذري في استثمار الطاقة المخبوءة بالأشياء. كان الاكتشاف الأعظم؛ هو اكتشاف طاقة العلم، وطاقة المعرفة، وطاقة العقل والذكاء ومهارات الفكر والعمل؛ إنها أعظم

الاكتشافات التي غيَّرت مسار التاريخ البشري وآذنت بتحول الإنسان من الاعتماد على ما تنتجه الأرض إلى الاعتماد على ما ينتجه الإنسان؛ ابتكارًا ومهارات...

كانت بداية اليقظة لأهمية طاقة المعرفة، واكتشاف مناجم العلوم التي لا تنفد حينما قال فرانسيس بيكون مقولته الشهيرة: «إن العلم وحده هو الذي يؤلف قدرة الإنسان فهو يستطيع بقدر ما يعرف وليس في وسع أية قوة أن تفصم سلسلة القوى الطبيعية وما من سبيل للتغلب على الطبيعة إلا بإطاعتها» هذه المقولة كانت المؤشِّر الصريح على التحول إلى استثمار المعرفة والذكاء والمهارة بدلاً من الاقتصار على استثمار الأرض فصارت الثروات الطبيعية مكملة للثروة البشرية التي لم يفطن الإنسان إلى أهميتها البالغة إلا بعد قرون من الانصياع البيئي للظروف الجغرافية المناخية...

المعروف أن الفلسفة الإنجليزية، هي فلسفة تجريبية، فتركيزها على التعرف على طبيعة الأشياء وتسخيرها، يأتي متَّسقًا. لكن حتى ديكارت الذي كان فيلسوفاً عقلانيًا لم يتردد في أن يعلن بوضوح بأنه قد حان أوان استثمار المعرفة بوصفها الثروة الجديدة المتجددة، لاكتشاف طاقات الأشياء وتسخيرها وبذلك بات الإنسان يتعلم أكثر لتنفتح له مجالات الكسب والإنتاج فالمعرفة هي مصدر القوة، والمهارة هي مصدر الإتقان وفي ذلك يقول ديكارت: «ما كدت أحصل على بعض المبادئ العامة في الفيزياء وأخذت باختبارها في مختلف الصعوبات الجزئية وألاحظ مدى ما يمكن أن تقود إليه ومبلغ اختلافها عن المبادئ التي استخدمها الباحثون إلى الآن: حتى اعتقدت أن ليس في وسعي أن أخفيها بدون اقتراف خطيئة كبرى ضد القانون الذي يوجب علينا جهد طاقتنا أن نوفر الخير العام للناس كافة ذلك أنها أبانت لي أن من الممكن الوصول إلى معلومات قد تكون جليلة النفع في الحياة وأن في مكنتنا أن نستعيض عن هذه الفلسفة التأملية التي تعلَّم في المدارس بفلسفة عملية نعرف بها القوة وتأثير النار والماء والهواء والكواكب والسموات وسائر الأجسام الأخرى التي تكتنفنا بمثل الوضوح الذي نعرف به مختلف مهن صناعنا اليدويين وفي وسعنا أن نستخدمها في جميع ما تصلح له وبهذا تجعلنا

سادة الطبيعة ومالكيها» وهكذا حصل التحول العظيم وحصل تغيُّر جذري في ثروات الأمم فصار استثمار الذكاء الإنساني بما يتمخض عنه من ابتكارات ومهارات: هو أهم الثروات الإنسانية لأنه ثروة متجددة غير قابلة للنضوب لكن ذلك لا يتحقق إلا إذا كان الالتزام المهني توجُّهاً عاماً في المجتمع أما إذا كان المجتمع غير منتج فإن كل مولود يضيف عبئاً جديداً يضاف إلى أعباء التنمية فالإنسان إما أن يكون ثروة غالية أو يكون عبئاً باهظا...

إن حضارة العصر تقوم على مهارات الفكر والعمل فالسباق في العالم الآن هو سباق في مجالات المعارف والمهارات والإنتاج إنه ميدانٌ مفتوح يقول الدكتور زكي نجيب محمود في مقال له بعنوان: (حوافز التقدم): «الشرط الأول والأساسي للتقدم والنجاح هو العمل الجاد والهمة العازمة التي لا تترك حاملها ليستريح على جنبه إلا أن يرى حياته مليئة بالعمل المنتج الذي لا ينفك يزداد إنتاجاً عاماً بعد عام كأنما في رأسه نحلة تطن وتلسع حتى تحول بينه وبين الاسترخاء البليد ومن لم تصبه هذه الحالة المؤرقة الهلوع على النماء المستمر والارتقاء المتصل قد ينظر إلى غيره ممن أصيب بها فيظن به الهوس هذه الرغبة الحارقة عند الإنسان في أن يعمل وأن يظل عمله يزداد فتزداد ثماره كثرة في الكم وتجويداً في الكيف: هي شرط التقدم الحضاري عند الفرد والجماعة» فالتقدم ليس حظًّا من الحظوظ العشوائية ولكنه نتاج الجهد الكثيف المنظَّم الموصول أو كما قال الدكتور حسن حنفي: «ثمرة عمل ونتيجة جهاد وحصيلة مسار طويل التقى فيه الحماس بالمعرفة العميقة الواسعة والخبرة الطويلة الشاملة» جاء في كتاب (المواقف الأخلاقية) أن: «الأفعال وحدها هي الجديرة بالعناية ولها وحدها وزن في التاريخ وفي جميع الأحوال تنفرد بأنها هي التي تستطيع أن تحدث في وجود الآخرين نتائج صالحة أو طالحة» أما مؤلف كتاب: (فليعم الرخاء) فيؤكد أنه: «مما لا يحتمل الشك أن العمل الإنساني هو أهم حلقة في سلسلة الحلقات التي يتألف منها الإنتاج الاقتصادي فإذا قلَّ ذلك العمل قلّتْ تبعاً له بقية العوامل وانخفض الإنتاج» إن غياب الإحساس بهذه التغيرات النوعية بين الحضارة المعاصرة والحضارات القديمة قد جعل المجتمعات

المتخلفة تكتفي من حضارة العصر باستعارة الشكليات والماديات وتقتصر على استهلاك الثمار اليانعة التي انتجتها هذه الحضارة دون أن تتعرَّف على الأشجار التي انتجتْ هذه الثمار ومن غير التعرُّف على المنابع الفكرية والثقافية والنفسية التي تدفَقَّتْ منها هذه الخوارق الإنسانية الحديثة في الفكر والعلم والأدب والفن والذوق والمهارة والآليات والتقنيات والنُّظُم السياسية والاجتماعية والإدارية وغير ذلك مما تزخر به الحضارة الحديثة وتختلف به اختلافات جذرية عن الحضارات القديمة...

لذلك لا بد أن نتأمل طويلا، ونفكِّر عميقاً، وننظر بإمعان؛ في حقيقة أن الإنسانية بقيتْ آلاف السنين رغم تعدُّد الحضارات تُراوح مكانـها دون أن تُحقِّق أية تطورات نوعية ثم جاءت الحضارة المعاصرة، ورغم كل الشطط والعدوان وامتصاص خيرات أوطان الآخرين الذي مارسته في المراحل الأولى؛ فإنها في النهاية حققت للإنسانية مكتسبات عظيمة، لم أتناول منها سوى المعالم الأساسية. لقد صارت الحياة البشرية مع الحضارة المعاصرة تتطور بسرعة مدهشة في كل المجالات بعد أن منحتْ الأفراد حرية التفكير والتعبير والإبداع ونـمَّتْ قابلياتـهم العظيمة وأطلقتْ مواهبهم الكامنة وانتقلتْ بـهم من مستوى الامتثال الأعمى إلى مستويات التفرُّد المبدع والمبادرات الخلاقة كما انتقلَتْ بالأفراد في المجتمعات المزدهرة من مستوى التماثل والتكرار والتماهي مع السائد إلى مستويات التنوُّع والإبداع والاقتحام والمغامرة وإلى كل ما يحقق التميُّز والتفرُّد للإنسان فرداً ومجتمعا وبذلك ارتقت الإنسانية أفراداً وجماعات وشعوباً وأمماً من مستوى الاستكانة للطبيعة إلى مستوى تسخير هذه الطبيعة وتفجير طاقاتـها والتحكُّم بـهذه الطاقات فصارت الإنسانية تملك من المعارف والمهارات ومن القدرات والإمكانات ومن الأدوات والوسائل ما لم يكن يخطر على بال أحد في الحضارات القديمة وكأن الإنسان صار خلقا آخر وأثبتت الحضارةُ المعاصرةُ بذلك أن الإنسان لا يبدع وينتج وينطلق ويرتقي إحساسه بالمسؤولية ويتطوَّر أداؤه وتتعاظم مهاراته إلا إذا امتلك زمام ذاته واستعاد فرديته وتحرر من الخوف وزالت عنه الحواجز النفسية والثقافية والاجتماعية والسياسية وتمكَّن من التفكير

الحر والتعبير الصريح والمبادرة الجريئة دون أن يخشى على نفسه أو سمعته أو مصدر رزقه...؟!!

في الحضارات القديمة غابت فرص التفرُّد وانكمشت مقومات الإبداع واختفتْ حوافز المبادرة وبقيتْ الحضارات القديمة كلُّها باستثناء الحضارة اليونانية تتحرك تحت سقف واحد لا تتعداه وتسير ضمن مسارات ثابتة لا تتجاوزها لقد ظلت البشرية آلاف السنين وهي تعيش ظروفاً متشابهة كانت القيادة الحضارية تنتقل من أمة إلى أخرى ومن شعب إلى آخر ومن أسرة حاكمة إلى أسرة أخرى داخل الحضارة الواحدة لكن ذلك التنقُّل للقيادة الحضارية بين مختلف الأمم والشعوب والدول رغم استمراره آلاف السنين لم يكن يترتب عليه أية تحولات نوعية في طبيعة الحياة الإنسانية، ولا في تحقيق الأمن، ولا في قيمة الإنسان، ولا في الاهتمام بتعليمه، وتدريبه، ولا في بناء قدراته ولا في حمايته من الأمراض والأوبئة، ولا في تنوع واتساع مجالات العمل، ولا في الضمان الاجتماعي، ولا في العناية بالصحة العامة، ولا في وسائل الراحة والترفيه ولا في مقومات الحياة ولا في مختلف الخدمات التي باتت متوافرة ولا في التقنيات ولا في مستوى العيش ولا في طرائق التفكير ولا في ذخيرة المعرفة ولا في طُرُق اكتساب العلم ولا في وسائل وأدوات هذا الاكتساب...؟؟!!

ثم حصل التأسيس الاستثنائي الباهر للتغيُّر النوعي ببزوغ الحضارة اليونانية التي بلغت تمام نضجها في القرن الخامس قبل الميلاد لكن تلك الحضارة الاستثنائية المدهشة لم يُتح لها أن تستمر طويلاً فقد هاجمها الفرس أولاً ثم الاسبارطيون ثانيا ثم استولى عليها المقدونيون ثالثاً ثم احتلَّها الرومان رابعاً ومع استمرار وجود الذخائر اليونانية الفكرية والعلمية والأدبية إلا أن طاقاتها الاستثنائية بقيتْ مجمَّدة عشرة قرون بل أكثر حتى أعاد الأوربيون إحياءها في العصر الحديث وانتقلوا بها إلى مستويات أعلى وأرحب وبهذا الإحياء والإضافة والإبداع حققت الحضارة الحديثة والمعاصرة انجازات غير معهودة لم تعرفها الإنسانية من قبل بل لم تُفكِّر بها ولم تخطر على بال أحد منها..

إن الناس في الحضارات القديمة لم يكونوا يفكرون بالاعتراف بفردية الإنسان ولا بحقوقه في التفكير والتعبير والاختيار ولا بالقابليات الإبداعية العظيمة التي ينطوي عليها الإنسان ولا بإمكانية اكتشاف قوانين الكون ولا إمكانية تسخير الطاقات المذخورة في الأشياء وإنما كانوا ينظرون إلى الأوضاع الاجتماعية والسياسية وكأنـها قدرٌ لا مفرَّ منه كما كانوا ينظرون إلى الكون برهبة وعجز ويعتبرون مكنونات الأشياء أسراراً مغلقة محجوبة عن البشر ومحالٌ على الناس اكتشافها فليس على الإنسان سوى الاستسلام لوجوده الرتيب والقبول بما هو عليه من جهل وفقر واستسلام وعجز فهو قد كان في نظر نفسه كائنٌ يتلقى ولا يبدع ويستجيب ولا يتساءل وليس من شأنه أن يكتشف أو يغيِّر أو يخترع أو يحتج لذلك فإن هذه الإنجازات المذهلة التي تعيشها الدنيا في هذا العصر ليست امتداداً لمنجزات الحضارات القديمة وليست استكمالاً لأعمال بدأتـها تلك الحضارات بل إن المنجزات الهائلة للحضارة المعاصرة هي فقط امتدادٌ لمنجزات العقل اليوناني وهي في تأسيسها أيام الإغريق وفي استئناف إحيائها في العصر الحديث تمثِّل طفرةً نوعية غير مسبوقة. وكل هذه الإنجازات المدهشة في مجالات الفكر والعلم والفعل قد تحققت بفعل التغيُّر النوعي في الثقافة الأوربية الذي أسَّسه وأبدعه اليونانيون ونمَّاه الأوربيون وقد نتج عن هذه الطفرة الثقافية طفرات نوعية في كافة الحقول وبكل المجالات وعلى كل المستويات وقد اضطررت في هذا التعريف المختصر؛ أن أكتفي بإبراز العناوين الرئيسية لهذه التغيرات النوعية التي أحدثتْ في الأوضاع البشرية تغييرات جذرية أما التعمق والتوسع فإن كل عامل يحتاج إلى كتاب كامل ليفيه شيئاً من حقه ويوضح دوره في التغيُّر الحضاري الشامل الذي تعيشه الإنسانية...

إن الحضارة المعاصرة تمثل تبدُّلات نوعية في الرؤى والتفكير والقيم والمناهج والمؤسسات والاهتمامات والأساليب والعلاقات داخل كل مجتمع، والعلاقات بين الدول، والوسائل والأدوات وفي الأمان الفردي والأمن الجماعي. وهذه كلها وغيرها كثير؛ قد أدَّتْ إلى تبدلات جذرية في الحياة البشرية لكن المجتمعات المنغلقة رغم استفادتـها المادية القصوى من هذه

التغيُّرات ورغم أنـها لا تستطيع أن تتحرك أو تعمل أو تمارس حياتـها إلا بمنجزات هذه الحضارة الاستثنائية الباهرة ورغم أنها قد أخذت بالكثير من شكلياتـها كنُظُم التعليم ونُظُم الطب والاستشفاء ووسائل النقل وأدوات الاتصال ونُظُم الإدارة ونُظُم التدريب وتخطيط المدن وتشييد الطرق وإنشاء الموانئ وبناء المطارات ووسائل الترويح وأساليب التسلية وطُرُز التشييد وأنماط البناء وأساليب الدعاية ووسائل الإعلام وغير ذلك من الماديات والشكليات فإنـها رغم كل ذلك بقيت مأسورة بقيم وتصورات ومفاهيم وأساليب ومعايير وعادات وتقاليد ما قبل الحضارة المعاصرة وبقي اتصالها بـهذه الحضارة اتصالاً استهلاكيا وسطحيا وشكليا ما زال غريبا وبعيداً كل البعد عن التأثير على البنية الذهنية المتكوِّنة تاريخيا خلال القرون الماضية لذلك فإن المجتمعات المتخلفة لم تدرك التغيرات الثقافية النوعية الحاسمة التي كانت وراء هذه الإنجازات المدهشة فتوهمَّت أن السر الحضاري الجديد يكمن في تعميم التعليم وفي استعارة هذه الشكليات والماديات واعتقدَتْ أنـها بـهذا الاستيراد الأبله لمنجزات المجتمعات المزدهرة قد دخَلَتْ في ملحمة الازدهار العقلي الذي حقَّق هذه الإنجازات وأنـها بـهذه المظاهر المجلوبة قد باتت تشارك عملياً بـهذه الحضارة الاستثنائية التي غيَّرت حياة البشر تغييراً جذريا...

إن الناس في المجتمعات المتخلفة يتوهمون أن التعليم يقدِّم كل منجزات الحضارة المعاصرة ولم يدركوا بعد بأن العلوم والتقنيات والإبداعات المعاصرة جاءت نتيجة للتبدُّل الثقافي وليست سبباً له فَنَهْضَةُ الفكر تؤسس لنهضة العلم وليس العكس فالعلوم هي إحدى ثمرات فِكْر المراجعة والنقد والتساؤل وإعادة النظر والتحديق من جديد في كل ما كان سائداً مما استقرَّ وهيمن دون مراجعة ولا تحليل ولا تمحيص أما العلم الذي استوردته هذه المجتمعات المتخلفة فقد ظل معزولاً عن بيئته ومقطوعاً عن جذوره ومنفصلاً عن منابعه الفكرية فهو يشبه الأغصان الجافة المقطوعة من شجرة باسقة تنبض بالحياة وتُشع بالاخضرار وتَعِدُ بالمزيد من الإثمار والإيناع لذلك بقي العلم وبقيتْ روحه في المجتمعات المتخلفة خارج البنية الذهنية للمعلمين والدارسين معاً لأن الأفراد يصاغون

بالثقافة السابقة للتعليم والمصاحبة له والمستمرة بعده فالتعليم محكومٌ بالنسق الثقافي السائد وليس بالعلوم الطارئة لذلك ينبغي أن يدرك الناس هذه الحقيقة وأن يتفهموا التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة البشرية وبذلك يمكنهم فهم عصرهم وبناء القدرات الفكرية والعلمية والعملية التي تتيح لهم الدخول في هذه الملحمة الباهرة بدلاً من الاكتفاء باستخدام منجزاتـها واستهلاك ما يستوردونه منها...

إن هذه الإنجازات الحضارية العظيمة والمتنوعة والمذهلة التي استفادت منها كل مجتمعات الأرض حتى أشد المجتمعات تخلُّفا لم تتحقق للغرب بسهولة وإنما سبقتها تغيرات نوعية في الثقافة الغربية كما أن المجتمعات التي ازدهرت لاحقاً في الشرق لم تزدهر حتى قلَّدتْ الغرب واستعارت منه مفاتيح ومقومات هذه الحضارة الاستثنائية...

وإذا نحن أجرينا مقارنة بين الحضارات القديمة والحضارة المعاصرة فسوف نجد أنفسنا أمام اختلافات نوعية كثيرة قد لا يفطن لها أكثر الناس فالتغير النوعي الأول الذي تميَّـزتْ بـه الحضارة المعاصرة هو تأكيد النـزعة الفردية أما الحضارات القديمة فقد كانت لا تـهتم بالإنسان بل تحرص على طمس فرديته وتسعى إلى تماثل الأفراد ليكونوا نُسَخًا مكررة يهتفون للسائد ويتعصَّبون للمألوف ويقاومون التغيير وكانت تلك الحضارات ومثلها في الوقت الحاضر المجتمعات المتخلِّفة ذات الثقافات المغلقة والرؤية الأحادية حيث ما زالت تُسَخِّر الكثير من الاهتمامات والطاقات والتنشئة والقوة من أجل تعميق هذا التماثل وبرمجة الناس على الاعتزاز به وتخويفهم مما يخالفه وغَرْس الكره للمخالفين..

كان الفرد في الحضارات القديمة وكذا حالياً في المجتمعات المتخلفة لا يحسُّ بفرديته ولا يشعر بوجوده المستقبل ولا يخطر على باله أن يراجع أي شيء مما هو سائد ولا أن يتساءل حوله ولا أن يبدي فيه أي ارتياب وإنما هو ليس أكثر من خلية في جسم العشيرة أو القبيلة أو الدولة يتحرك مع القطيع دون أن يكون له أي حق في التفكير المستقبل بل دون أية مهارة أو قدرة على هذا

التفكير العقلاني الذاتي لأنه اعتاد على الاستجابة التلقائية واختطفته تشريطات الطاعة العمياء كما اعتاد على الوثوق البليد بالثقافة الموروثة السائدة التي تجترها الأجيال من غير أية مراجعة ودون أي تغيير إلا نحو الأسوأ فيغتبط بما وجد عليه قومه وذاته ويستميت في الدفاع عنه والعداوة لمن يخالفه أو لمن يتشكَّك فيه أو يتساءل حوله...

أما الحضارة الغربية المعاصرة فهي بعكس ذلك تماماً إنـها تسعى لتوسيع دوائر التنوع فالأفراد لا يُراد أن يكونوا متماثلين وإنما يراد أن يصيروا متنوعي الأفكار والاهتمامات والاتجاهات والمهارات والقدرات والتساؤلات بل والتنوع في الاحتياجات الحافزة وبـهذا التنوع الخصب والمنتج أصبحت الطاقة البشرية أعظم الثروات وأَدْوَمها فهي الثروة الوحيدة المتجدِّدة التي لا تنضب فإذا تدفَّقَتْ الفاعليات الفردية المتنوعة فإن أية زيادة سكانية تصبح مصادر جديدة للعلم والإبداع والابتكار والاختراع والاكتشاف والمهارة والإنتاج كما تصير منابع متجدِّدة للقوة والازدهار والثراء أما إذا بقِيَتْ الشخصية الفردية مطموسة فإنـها تبقى خائفة وخانعة وغير مبدعة ولا منتجة وفي الغالب ليس لديـها إحساسٌ بالمسؤولية كما هو ملموسٌ في المجتمعات المتخلفة لذلك فإن أية زيادة سكانية تصير عبئاً إضافياً يخنق التنمية ويُعَطِّل حركة المجتمع لأن الناس في هذه البيئات المتخلفة يأخذون ولا يُعطون ويستهلكون ولا ينتجون ويثرثرون ولا يعملون وإذا عملوا جاء انتاجهم ضحلاً وركيكا بل ويحقدون على الجادين المبدعين وينشغلون بقلب حسنات المنتجين إلى سيئات، إنهم عبءٌ على التنمية وليسوا من بُناتـها...

إننا لن نستطيع أن نعيش عصرنا ونشارك في حركته الباهرة حتى نتعرَّف على التغيرات النوعية التي تميَّزت بـها الحضارة المعاصرة لذلك حاولت خلال سنوات أن أقارن بين هذه الحضارة النابضة بالحيوية والنماء والإبداع وبالمبادئ الإنسانية وبين الحضارات القديمة التي ظلَّتْ تكرر ذاتـها وتجتر عاداتـها وتقدِّس تقاليدها وتطمس فردية أفرادها فخرجتُ من هذه المقارنة بإدراك الكثير من التغيرات النوعية التي تميَّزت بـها الحضارة الحالية...

إننا نحن العرب نتحدث كثيراً عن التنمية الشاملة وعن التنمية المستدامة لكننا مازلنا نتوارث ونتبرمج بثقافة سابقة لظهور مفهوم التنمية فلو فَحَصْنا تصوراتنا عن أنفسنا وعن ثقافتنا وتصوراتنا عن ثقافات الآخرين وعن العتاد الثقافي الذي نكرسه في واقعنا وفي عقول أجيالنا لوَجَدْنا أننا عمليًا نواصل السير الحثيث في اتجاه مضاد كليا للتنمية...

إن التنمية مفهومٌ طارئ حديث فهي تتطلب مقومات تختلف نوعيًا عن مكوِّنات الثقافات القديمة فلا بد أن نغيِّر تصوراتنا عن أنفسنا وعن ثقافتنا وعن الثقافة المطلوبة لتحقيق التنمية الشاملة المستدامة...

إننا في العالم العربي نُعَوِّل في التنمية على التعليم بمدارسه المنتشرة وجامعاته الكثيرة ومؤسساته الضخمة وتكاليفه الباهظة والزمن الطويل الذي يستغرقه من أعمار الدارسين ولكننا ننسى أن التعليم لا يُعطي نتاجاً مغايراً للسائد وإنما هو تكريسٌ لهذا السائد أيًّا كان اتجاهه لقد أظهرتْ تجارب الشعوب بأن التعليم محكومٌ بالثقافة المهيمنة وليس حاكمًا لها...

إن التعليم في المجتمعات المتخلفة يكرس التخلف ويعمق أسبابه ويزكي البيئة الحاضنة له إن التعليم محكومٌ بالأوضاع القائمة فإذا جاء ضمن ثقافة حرة ومنفتحة ونامية فإنه يُمدُّ المجتمع بالطاقات الإنتاجية والإبداعية التي تدفعه للمزيد من التقدم والازدهار فكل تقدم هو تمهيدٌ لتقدم أعظم أما إذا جاء التعليم ضمن ثقافة مغلقة ومتخلفة ومرعوبة من الأفكار المغايرة فإنه يكرس الانغلاق ويرسخ التخلف ويوصد العقول ويشحن العواطف بالرفض العنيد الأعمى لمقومات التقدم الطارئة...

إننا نتوهَّم أن تعميم التعليم ونشر المدارس والإكثار من الجامعات وإغداق الإنفاق عليه وتوفير فرص التعليم للجميع يؤدي تلقائيًا إلى تهيئة المجتمعات لتحقيق التقدم والازدهار لكننا نغفل عن أن التعليم محكومٌ بالثقافة السائدة وليس بالعلوم الطارئة ونتجاهل بأن المجتمعات محكومة بثقافاتها التلقائية المتوارثة وليست محكومة بطلاءات مجلوبة من خارجها...

إن المجتمعات تتناسل ثقافيًا بشكل تلقائي وترفض ما يغاير تصوراتها وقيمها ومألوفاتها فالأطفال يتبرمجون تلقائيًا بالثقافة السائدة قبل أن يلتحقوا بالتعليم فتنغلق قابلياتهم عن قبول مالا ينسجم انسجاماً كاملاً مع البرمجة التلقائية لذلك ينبغي أن يدرك رجال التربية والتعليم والمسؤولون عن التنمية هذه الحقيقة الأساسية وأن يتفهموا التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة البشرية...

إن من أهم التغيرات النوعية التي طرأتْ على الحياة الإنسانية أن الثروة البشرية صارت هي الثروة الحقيقية المتجددة لكن الكثافة السكانية في العالم العربي مازالت عبئاً على الأوطان لأنها لم تكتسب من المعارف والمهارات والعادات والاهتمامات وأخلاقيات العمل ما يرتقي بها لتصبح طاقة إنتاجية غزيرة وطاقة إبداعية خلاقة. إن التعليم ليس منفصلاً عن البيئة فهو لا يسير في اتجاه مغاير للاتجاه الثقافي العام كما أنه ليس محايداً ويقدم حقائق العلم وحدها وإنما هو محكوم بالتوجُّه الثقافي السائد فكل نتائجه محكومة بهذا التوجُّه العام...

ولكن إبراز التغيرات النوعية الإيجابية التي حققتها الحضارة المعاصرة للإنسان أينما كان؛ لا ينفي ما حاولتُ إبرازه في الفصل السابق، من أن الحضارة المعاصرة ما تزال هشة، وأنها قابلة للتدهور، وأنها معاقة؛ فكرًا وأحلاقًا. بسبب تركيزها على بناء القوة، ومتطلبات البقاء. كما أود التأكيد أيضا بأن التطورات العظيمة التي تحققت في المجتمعات المتقدمة؛ هي تطورات علوم، وأفكار، وتقنيات، وقوانين، ونُظُم، ومؤسسات، ومناهج، وأساليب، أومضَتْ بها عقولُ القلة المبدعة. أما المجتمعات والأفراد فلا يختلفون كثيرًا عن غيرهم في المجتمعات المتخلفة، لذلك فإن الحضارة ما تزال هشة ومعاقة...

نقاط للتذكُّر عن التغيرات النوعية في الحضارة المعاصرة:

إن الحضارة المعاصرة هي نتاج طفرة ثقافية استثنائية كبرى غير مسبوقة في الثقافات غير الأوربية فقد جاءت هذه الحضارة وهي تحمل تغيرات نوعية في كل المجالات الإنسانية وهي تغيرات يتواصل نموها وامتدادها بمستويات متدفقة مذهلة لكن مجتمعنا العربي المنغلق رغم استخدامه المفْرط لمنجزات هذه الطفرة النوعية ورغم أنه لا يستطيع أن يتحرك أو يعمل أو يمارس حياته إلا بـها ورغم أنه قد أخذ بالكثير من شكلياتـها كنُظُم التعليم ونُظُم الإدارة وشكليات أخرى كثيرة فإنه بقي تأثيرها عليه سطحيا لأن المجتمع لم يدرك التغيرات الثقافية النوعية الحاسمة التي كانت وراء هذه الإنجازات لقد أخذ الثمرة الجاهزة وتجاهل الشجرة التي أنتجت هذه الثمار اليانعة...

إن الحضارة المعاصرة ليست امتداداً للحضارات القديمة بل هي نتاج الفكر الفلسفي، والعلوم الموضوعية المشتقة من الفكر الفلسفي الذي أشرق في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد وبلغ ذروة إشراقه في القرن الخامس قبل الميلاد. ومن هنا فإن الإسهام في هذه الحضارة الفريدة الاستثنائية يتطلب إحداث تغيرات نوعية كثيرة منها:

1 - الانتقال من علاقات الإخضاع، إلى علاقات الإقناع...

2 - الانتقال من تعامل النزوة إلى التعامل المنضبط في دولة القانون والنظم والمؤسسات والتحرر من ميوعة وجور النزوات الفردية إلى صلابة وعدالة القانون...

3 - الانتقال من توهُّم امتلاك الحقيقة المطلقة إلى إدراك أن المعرفة البشرية نسبية وأنها نامية وأن منبعها الأساسي هو إدراك استحالة الاكتمال...

4 - الانتقال من فكرة التراجع إلى فكرة التقدم فالعصر الذهبي هو آت في المستقبل بإبداعات الأحياء والأجيال اللاحقة وليس نتاج الأسلاف في الماضي...

5 - الانتقال من ثقافة التبرمُج والتطبُّع التلقائي والغبطة به والوثوق المطلق بإملاءاته التلقائية الصارمة والاستمرار عليه والاستماتة في الدفاع عنه، إلى ثقافة الانفتاح على الأفكار الخلاقة المغايرة والتشبُّع بثقافة الاحتمال والترجيح والتحليل والنقد والمراجعة والتصحيح فالعلم في جوهره ليس إضافة معلومات بل هو تصحيح تصورات...

6 - الانتقال من ثقافة العقل المنفعل إلى ثقافة العقل الفاعل فالعقل فاعلية نقدية أما من دون التفاعل الخلاق فإنه ليس عقلاً بل يبقى مجرد وعاء يمتلئ بالتعصب المتفجِّر وبالوهم الخانق...

7 - الانتقال من ثقافة التبرير والانحياز المطلق إلى ثقافة التناول الموضوعي والاستعداد لقبول النتائج مهما كانت صادمة وشديدة المرارة...

8 - الانتقال من ثقافة تجريم خطأ الاجتهاد إلى اعتباره عنصراً أصيلاً في التجربة البشرية...

9 - الانتقال من المعارف المجزَّأة والتعامل مع العلم كمسائل مبعثرة إلى ثقافة المعارف المترابطة المتكاملة التي تتشكل بها رؤى جامعة فالحياة شبكة من العلاقات ولا بد أن تكون المعرفة أيضا شبكة متكاملة تضيء الوجود إجمالاً وتفصيلًا...

10 - الانتقال من تمجيد الامتثال والتماثل وادعاء الإجماع إلى تمجيد التنوع والاختلاف وإثراء الحياة بالمبادرات والتنوعات والتخلي عن ادعاءات الإجماع لأنه محال في أي مجتمع يتاح فيه التعبير الحر فدعوى الاجماع التام هي إحدى خرافات الماضي كما تدل على ذلك وقائع الحياة في كل العالم خصوصاً في المجتمعات ذات التعدد الحزبي التي كشفت استحالة الإجماع...

11 - الانتقال من تمجيد الثبات والدوران في ذات المكان إلى تمجيد التغيُّر الدائم والتطور المنتظم والصعود المستمر؛ فالأصالة هي إبداع الجديد وليست في الانغماس الأبله في القديم...

12 - الانتقال من ثقافة الإخفاء والتكتُّم والسِّريَّة إلى ثقافة العلانية والشفافية والصراحة والوضوح...

13 - الانتقال من تبادل الاحتقار بين الناس إلى تبادل الاعتبار والاعتراف...

14 - الانتقال من ثقافة الإلـزام إلى ثقافة الالتـزام...

15 - الانتقال من علاقات القوة والنـزوة إلى علاقات المسؤولية والقانون...

16 - الانتقال من ثقافة التركيز على الواجبات إلى ثقافة إبراز الحقوق، مقرونة بالواجبات...

17 - الانتقال من ثقافة المُحال إلى ثقافة الإمكان...

18 - الانتقال من ثقافة توهم الاكتفاء والكمال وجاهزية كل الإجابات القاطعة إلى ثقافة الأسئلة الملحة والإجابات الاحتمالية حول كل الأوضاع والأشياء والأشخاص والأفكار والأعمال والممارسات...

19 - الانتقال من الثقافة التلقائية إلى ثقافة الاستقصاء والتمحيص...

20 - الانتقال من ثقافة الرؤية الحدية إلى ثقافة التعددية...

21 - الانتقال من الذاتية العمياء، إلى الموضوعية المنفتحة على كل الآفاق، ومختلف الاحتمالات...

22 - الانتقال من التعلق بالأشخاص إلى التعلق بالأفكار والمبادئ والتركيز على نتائج الأعمال...

23 - الانتقال من التمحور حول الأشخاص، إلى التمحور حول المبادئ العظيمة، والمُثُل العليا، والقيم الكبرى: الحقيقة الموضوعية، والوطن، والتنمية، والمصلحة العامة، والإنسان الفرد...

24 - الانتقال من التمحور حول العشيرة والجماعة إلى التمحور حول الأفراد والأوطان ككل لأنه باسم المصلحة الجماعية يتم تذويب الأفراد وطمس فردياتهم وتحويلهم إلى إمَّعات...

25 - الانتقال من ثقافة المشافهة المائعة إلى ثقافة الكتاب الموثقة...

26 - الانتقال من ثقافة القبول التلقائي أو الرفض التلقائي إلى ثقافة التحقُّق وتعليق الحكم حتى تكتمل حيثياته...

27 - الانتقال من ثقافة الترديد والاجترار إلى ثقافة الإبداع والاستجابة له...

28 - الانتقال من الاستسلام لفيضان اللاوعي إلى ثقافة التوقف والقطيعة والاستئناف برؤى واعية فاعلة...

لقد تَوَصَّلْتُ بعد استغراق طويل في البحث والدراسة والمقارنة والتأمل إلى نتائج هي بالنسبة لي كانت حاسمة منها مايلي:

- أن الحضارة المعاصرة ليست امتداداً للحضارات القديمة بل تختلف عنها نوعيًّا لقد كانت في الأصل ثورة على الثقافات التلقائية وإلحاحاً على الفحص والتحليل والتحقُّق لقد جاءت كثمرة لتوقف العقل الناقد أمام ذاته وراحت تفحص محتويات العقل إنها ثورة العقل الناقد ضد العقل الراكد...

- أن الأصل في الثقافات أنها كيانات متمايزة مغلقة رافضة تلقائيًّا للتغيُّر حتى يتم انفتاحها ولكنها لا يمكن أن تنفتح إلا بتوفر الحريات وصراع الأفكار وتنافس الاتجاهات وحينذاك يتحقق الاعتراف بقيمة الإنسان الفرد وترتفع عنه الوصاية الحادة ويتم إدراك نسبية الحقيقة والاقتناع باستحالة الإجماع ويُحكم على الأمور بمعيار التغليب والترجيح ويحصل الاعتياد على التعايش بين المختلفين وتُضْبَط العلاقات بالقانون ويتحقق مبدأ المساواة والمواطَنة...

- أن الأصل في الثقافات المختلفة أنها تصوغ العقول بقوالب متباينة وتحمل أسباباً عميقة وكثيرة لسوء الفهم المتبادَل وبذلك يكون التنافر تلقائيًّا بين أهل الثقافات المختلفة فما أفصح عنه هنتنجتون في كتابه (صراع الحضارات) يتفق مع الحقيقة إنه لم يكن أكثر من وصف موضوعي للواقع وهو وصفٌ يشهد له التاريخ ويؤكده الواقع أما المعارضات الحادَّة الصاخبة التي قامت ضده فهي ذات منابع عاطفية متسرعة تتجاهل الحقائق الصارخة على مستوى التاريخ والواقع كما تتجاهل مكتشفات

الانثروبولوجيا الثقافية وكذلك تتجاهل الكشوف المذهلة لعلوم الأعصاب التي كشفتْ طبيعة الدماغ وكيفيات التبرمج التلقائي...

- أن كل ثقافة مغلقة تحوي بداخلها جهازاً مناعيًّا للرفض التلقائي والمقاومة الشرسة لأي فكر مغاير إنه جهازٌ تلقائيُّ التشغيل يُشْبه جهاز المناعة في الإنسان...
- أثبت التاريخ والعلم والواقع بأن الإنسان كائنٌ ثقافي يتشكَّل عقله بقوالب الثقافة التي ينشأ فيها وبذلك لم يَعُدْ يُنظر إلى العقل باعتباره جوهراً واحداً ناجزاً فتغيَّر مفهوم العقل وتنوعت تجلياته بتنوع الثقافات...
- أن الإنسان كائنٌ تلقائيٌّ فقابلياته ترفُض القَسْر سواء في الاستقبال والتعلُّم أو في الإفضاء والأداء ومن هنا جاء إخفاق التعلُّم القسري أو الاضطراري وهو الغالب على جموع الدارسين والخريجين...
- أن الإنسان يصاغ بما يتبرمج به وليس بما يولد به فهو بما ينضاف إليه وهنا تسقط دعاوى العرقية والتمييز العرقي وكذلك تسقط خرافة العقل السليم في الجسم السليم فالمعارف المضافة والمهارات المكتسبة هي التي تميز فرداً عن آخر...
- أن عقول الأطفال تتشكَّل تلقائيًّا بما هو سائد في البيئة التي ينشؤون فيها فالطفل يولد بقابليات مفتوحة فارغة متعطشة لاستقبال المؤثرات وتحوي جهازاً لمعالجة ونَمْذَجَة المعلومات التي تنقلها الحواس قبل تكوين الوعي...
- أن قابليات الإنسان يكوِّنها ويحتلها ويتحكم بها الأسبق...
- أن العقل يحتله الأسبق إليه ليس فقط في فترة الطفولة المبكرة بل على امتداد أيام العُمْر فالمعلومة الأسبق إذا استقرت تحول دون استساغة معلومة لاحقة مغايرة...
- أن الإنسان يبقى مغتبطاً بالمحتل الأسبق ويستميت في الدفاع عنه فمنه يستمد هُويته لأن ذاته معجونةٌ به فلا يرى إلا من خلاله فذات الفرد وعقله وعواطفه وتصوراته واهتماماته وقيمه وعاداته الذهنية والسلوكية هي امتدادٌ

لهذا المحتل وجزءٌ منه إن البرمجة الثقافية التلقائية تجري من الفرد جريان الدم وتسري فيه سريان الحياة فهو جزء منها وليس منفصلاً عنها بل لا يمكن أن يفيق من هيمنتها إلا بعملية فَصْل وبتْر من أجل تكوين ثقافي جديد...

- أن الأسبق إلى العقل له سيطرة قوية حتى في مجال العلوم فالنظريات الجديدة تواجَه بمقاومة شديدة وأحياناً يطويها الزمن قروناً من غير أن ينتبه لها أحد كما حصل لنظرية أرستارخوس التي بقيتْ مطمورة ثمانية عشر قرناً حتى جاء كوبرنيكوس وأعاد الاكتشاف ثم عاد الباحثون إلى التاريخ ووجدوا ما كان مطموراً...
- أن الجهل البنيوي في الإنسان ليس حالة استثنائية نادرة كما يعتقد الكثيرون بل إن معظم محتويات الأذهان من التصورات التلقائية غير الممحصة والمواقف والرؤى هي من الجهل البنيوي بل إنه أكثر من ذلك فهو ليس جهلاً محايدًا وإنما هو الذات الفردية نفسها فهذا الجهل البنيوي هو مصدر فخر الفرد ولُبُّ هُويته ومتعلَّق انتمائه لذلك فهو يعيش مغتبطا به ويموت دفاعاً عنه كما هو شان كل المبرمَجين بنفس الثقافة...
- أن حياة الإنسان تعتمد على الفيضان التلقائي لمخزون اللاوعي أما الوعي فهو قصير المدى وبطيء الاستجابة ومتعثر الحركة وضحل المحتوى إنه كما يرى ادموند هوسرل وعيٌ بشيء معيَّن فَحَرَكَتُهُ تستهدف شيئًا بذاته فإذا انشغل المرء بشيء معيَّن غَفَلَ عن غيره فلولا التدفق التلقائي من اللاوعي لكانت الحياة كليلة وعسيرة ولكانت المعارف والمهارات غير ممكنة...
- أن سطحية الوعي وضيقه وتلقائيته وتعثُّر حركته وضحالة محتواه يقتضي أن ندرك أنَّ التحقُّق ليس طبيعةً أصيلة في الإنسان فالأحكام المسبقة الفجَّة هي الأصل لكن الناس يغفلون عن هذه الحقيقة غفلة مطْبقة لذلك فإن أهم إنجاز في فلسفة ادموند هوسرل هو قوله بضرورة أن يعتاد الناس تعليق الحُكم حتى يتم الاستقصاء والتحقُّق لإخضاع أيِّ موضوع أمام الوعي للتحقق ولكبح الوعي التلقائي ذاته عن تسرُّعه وسذاجته التلقائية...
- أن الحياة الإنسانية على المستوى الفردي والاجتماعي هي سلسلة من

العادات الذهنية والسلوكية فليس المهم ما يقال بل المهم ما تجري ممارسته كأسلوب حياة وطريقة تفكير فلا تأثير لأية مبادئ أو معارف أو تعاليم إلا حين تتحول إلى عادات راسخة تلقائية الاستجابة...

* أن المجتمعات تتناسل ثقافيًا جيلاً بعد جيل بصرامة هي أشد من صرامة التناسل البيولوجي فإذا لم تتعرض لهزات ثقافية مزلزلة فإنها تبقى مرتَهنة بنمط التفكير الموروث ومنظومة التصورات والقيم والاهتمامات والعادات الذهنية والسلوكية مهما طال الزمن مهما كَثُر فيها المتعلمون تعليمًا اضطراريًا...

* أن الإفاقة من هيمنة التشكُّل الأسبق لا تحصل تلقائيًا وإنما تتطلب حصول صدمة ثقافية قوية مزلزلة تكسر تلقائية الانتظام البليد وتَدْفَع اضطراراً إلى البحث والتحقق وعلى سبيل المثال فإنه تم العثور في غينيا الجديدة على قبائل ما زالت تعيش في العصر الحجري وهذا شاهدٌ واحد من شواهد كثيرة تؤكد أن الانتظام في أي وضع هو الأصل وأن التخلف أصيلٌ في الحياة البشرية وأن الحضارة هشَّة وطارئة وغير راسخة إنها نتاج التفاعل بين مكونات متصادمة فبمقدار ثراء التفاعل يكون التقدم فإذا افتقرت البيئة إليه ظلت متخلفة مهما طال الزمن بل تزداد تقهقرًا...

* أن استنزاف الجهود لتوعية الأفراد بمقومات النمو لا يُحقق نتيجة عامة وإنما تبقى النتائج محصورة بالاستنارة الفردية وهي غير مؤثرة في مسيرة المجتمع ككل لأن أوضاع المجتمعات مرهونة بالاتجاه العام ومدفوعة بالتيار الغالب أما النبض الفردي المبعثر فلا يؤثر مهما بلغ من الكثرة والاستنارة إلا إذا هو تحوَّل إلى تيار فاعل ومؤثِّر يتغيَّر به اتجاه حركة المجتمع...

* أن الحرية وصراع الأفكار وتنافس الاتجاهات وعدم الوصاية على عقول الناس هي شروطٌ أساسية للانفتاح الثقافي والتهيؤ لمسيرة الازدهار فالتغير نحو الأفضل لا يمكن حصوله تلقائيًا بل إنه لا يحصل إلا بالديالكتيك وبفاعلية العقل النقدي وبالكسر المتكرر للانتظام البليد فالأصل في أوضاع المجتمعات هو الانتظام التلقائي الساذج على أي وضع مهما بلغ من السوء...

* أن الاستبداد السياسي والانغلاق الثقافي والتحالف بينهما يحول دون إشراق البيئة مهما طال الزمن بل إنه ينمي عوامل التخلف فكل شيء نموه من جنسه إنه يمنع انفتاح العقول ويستبقي الناس في حالة انتظام تلقائي بليد ويظل الناس مغتبطين بتصوراتهم غير الممحصة من غير إحساس بفداحة ما هم فيه من جهل بنيوي...

* أن الانغلاق الثقافي هو الأصل فتحرير الثقافة منه وترويض جهازها المناعي بقبول أفكار مغايرة يتطلب جهوداً استثنائية قوية مزلزلة خارقة أما العودة إلى الانغلاق فيحصل تلقائيًا إذا فَتَرَتْ فاعلية العقل النقدي إن التشكيل الأسبق يشبه مجرى النهر الأصيل أما تجاوُزه فهو يشبه مجرى بديل بعد إقامة سد لكن انكسار السد يؤدي إلى عودة النهر إلى مجراه الأول...

* أن نهضة الفكر شرطٌ أساسي لجدوى التعليم وتحقيق الفاعلية المنتظرة منه فالمجتمعات الأوربية في البداية لم تتطور بواسطة التعليم بل تغيَّرتْ فيها التصورات أولاً ثم جاء التعليم ليوسع ويعمق التصورات الخلاقة الجديدة فالتعليم هو من ثمار التغيير وليس سبباً له...

* أن تحقيق التقدم بالغ الصعوبة أما العودة إلى التخلف بعد تحقيق الازدهار فهو انحدارٌ تلقائي فأي خلل في المركبة العامة يؤدي إلى التدهور السريع فالازدهار سريع العطب لأن الحضارة بالغة الهشاشة فإقلاع الطائرة يتطلب طاقة هائلة أما سقوطها فلا يتطلب سوى انطفاء هذه الطاقة...

* أن فاعلية التراكم ليست فقط باتجاه التقدم كما تُوهم بذلك الكثير من الدراسات بل إن عوامل التقهقر تتراكم أيضا بشكل أشد إن كل شيء نموه من جنسه فحركة التقدم تواصل ابتكار وإضافة المزيد من عوامل الازدهار وبالمقابل فإن المجتمعات ذات السياسات المتحجرة والثقافات المنغلقة تواصل إقامة المزيد من الحواجز النفسية والمزيد من السدود والمتاريس الثقافية ومعوقات التنمية فالتراكم يخدم الاتجاه السائد فإذا كان اتجاها نحو التقدم والانفتاح كان تراكما حافزاً للإبداع والإنتاج ومُثْريًا للحضارة أما إذا كان اتجاها نحو مقاومة التغيير وسد الأبواب وإغلاق النوافذ فإن

التراكم يفاقم حالة التخلف ويؤدي إلى المزيد من التقهقر وهنا يظهر خطأ الذي لا يذكرون للتراكم سوى وجهه المضيء ويغفلون عن وجهه المظلم مع أنه الوجه الأكثر حضوراً بإعاقة مسيرة الحضارة إن تراكم عوامل الإعاقة تُحبط محاولات الانعتاق من الانغلاق وتحول دون الإفلات من قبضة التخلف...

- وعموماً فإنه يتحدد اتجاه أي ثقافة بالموقف من الحقيقة والإنسان والسلطة، فإذا كانت الثقافة تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة فإنها تتوهم الكمال وتدعي الاكتفاء فتستغني عن استمطار سحائب المعرفة وتسد النوافذ وتغلق الأبواب عن الأفكار والتصورات المغايرة، فتصاب بالجدب والامحال ويسيطر عليها قانون الانتروبيا فتنمو الجوانب الرديئة وتنكمش الجوانب الجيدة...

وإذا كانت لا تحترم فردية الإنسان وتركز على أهمية المجتمع فإنها تُذيب الفرد وتطمس قابلياته وتوصد فيه منافذ المبادرة والإبداع فتنكمش شخصية الفرد وتضيق سبل الحياة ويتدنى الإنتاج ويسود الركود ويرفض الناس الأفكار المغايرة مهما كانت ضرورية وخلاقة...

- وإذا كانت الثقافة تقدس السلطة وتجعلها القيمة المحورية فإنها تستبقي المجتمع تابعاً وخاضعاً بل تبقيه خانعاً فيسود الركود وتستمر الأوضاع الكئيبة منتظمة وتختفي إمكانات النمو وتمتلئ قابليات الناس بالأوهام والتصورات العمياء وهكذا فإن مسيرة أي مجتمع مرتهنة بموقف ثقافته من الحقيقة ومن السلطة ومن الإنسان الفرد (وهنا تأتي قضية المرأة)...

- أنه ليس للتنمية الحقيقية الشاملة والمستدامة من طريق سوى طريق المجتمع المفتوح؛ فقد تساقطتْ النُّظُم الشمولية واحدٌ بعد آخر فلقد انهار الإتحاد السوفييتي وانهارت كل النُّظُم المغلقة التابعة له ولم تبدأ الصين في التنمية الحقيقية حتى كَسَرَتْ الأطواق الايديولوجية التي كانت تكبلها ومازالت حركتها التنموية محكومة بمقدار ما تحقق من انفتاح ولا يعني هذا توقُّف التاريخ ولكنه يعني أن مسار المجتمع لابد أن يكون مفتوحًا على النحو الذي يشرحه الفيلسوف كارل بوبر في كتابه (المجتمع المفتوح)

وكتاب (بحثًا عن عالم أفضل) إن الانفتاح هو المسار الصحيح وأنه لابديل عن هذا المسار وهذا هو ما عناه فوكو ياما في كتابه (نهاية التاريخ) وليس ما تَوَهَّمه البعض من أنه يزعم أن حركة التاريخ سوف تتوقف...

- أنه لا يوجد في الحياة البشرية نظامٌ كامل ولا اتجاهٌ لاعِوَجَ فيه وإنما الأحكام تُبْنى على التغليب والترجيح فحتى مسار المجتمع المفتوح؛ يكون مليئًا بالعوائق والمشاكل فهو بعيدٌ عن الكمال لكن التجارب الإنسانية قد أثبتت بأنه المسار الوحيد الذي يملك آليات للمراجعة والتدارك والتصحيح وقابلية التطور إلى مالا نهاية فالإنسانية سوف تواصل التحسين المستمر ضمن المسار المفتوح...
- وأكرر التذكير بأن كل ما ورد في هذا الفصل عن المكتسبات التي حققتها الحضارة المعاصرة للإنسان في كل مكان، لا تعني نفي الإعاقة عنها فلديَّ اقتناعٌ عميقٌ بأن الحضارة ما تزال هشة، وأن مزاياها؛ قد فاضت بها عقولُ قلةٍ من الأفراد الخارقين، وأن المجتمعات والأفراد في المجتمعات المزدهرة؛ لم يتطبَّعوا بالمزايا التي تجسدها القوانين، والنظم، والمؤسسات، والمناهج، والأساليب. وإنما هم مجرد رُكَّاب في مركبة الازدهار ومتى اختلَّتْ المركبة اختلَّ المجتمع...

الفصل الرابع

اختلافٌ نوعيٌّ بين:
المعرفة النظرية والأداء العملي

اختلافٌ نوعيٌّ بين:
المعرفة النظرية والأداء العملي

رغم أن الهدف الأساسي من تعميم التعليم في كل العالم؛ هو إعداد الدارسين للخدمة في الأعمال التخصصية المختلفة؛ فإنهم يتخرجون من دون مهارات عملية؛ باستثناء التخصصات التي يكون التدريب العملي جزءًا أساسيًّا من المنهج كالطب والطيران. لذلك لم يتحقق من تعميم التعليم في العالم تحصيلُ المعرفةِ النظرية، ولا الارتباطُ الوجداني، بالعلم، كما لم يتحقق اكتسابُ مهاراتِ الأداء العملي، وإنما استُهْلِكَتْ الأعمار والأموال والطاقات، أما النتائج فهي نتائج كارثية. إن تعميم التعليم في كل العالم هو أضخم مشروع عالمي في الحضارة المعاصرة؛ فالأمم تختلف في تاريخها، وفي اتجاهاتها، وفي أنظمتها، وفي عدد سكانها، وفي إمكاناتها، وفي لغاتها، وفي أديانها، وفي أنساقها الثقافية المتوارثة، لكنها كلها أجمعتْ على تعميم التعليم، مهما حَمَّلها ذلك من تكاليف؛ ورغم كل هذا الاحتشاد العالمي والمحلي الذي يحاط به التعليم؛ ضخامةً في الإنفاق، وكثافةً في الجهد، وتنوُّعًا في الاهتمام، وإلحاحًا على جودة النتائج، واحتفالات صاخبة للتخرج؛ رغم كل ذلك وما هو أكثر من ذلك؛ حيث أن كل الأُسر في كل العالم، تعيش يوميًا في حالة طوارئ من أجل دفْعِ أولادهم للمذاكرة وحل الواجبات التعليمية؛ ورغم كل هذا الاستنفار الإنساني العام؛ فإن النتائج تكاد تكون كارثية؛ لأن الإنسان كائنٌ تلقائي؛ وقابلياته لا يمكن إرغامها؛ فلا تستجيب قابلياته للاستقبال، والتفاعل، والتأثُّر، إلا إذا توفرت الرغبة الذاتية، لذلك يؤكد افلاطون في (الجمهورية): أن «المعرفة حين تُكتسب بالإكراه؛ لا يمكن أن تبقى عالقة في الذهن» بل إن

الفيلسوف الألماني المبدع جوته يؤكد بأن الابتهاج بالعلم، شرطٌ لتحصيله. ونفس الشيء بالنسبة للعمل. فيقول: «لا يأخذ المرء في معرفة شيء؛ إلا إذا كان يحبه؛ والمعرفة ستكون من الإحاطة والعمق؛ بقدر ما يكون الحب، بل والانفعال نفسه؛ أعظم قوة وأحفل حياة» وقد اكتشفت علومُ الدماغ؛ ارتباط التعلُّم؛ إقبالا أو إعراضًا؛ بدائرة المتعة في الدماغ. إننا بهذا أمام قانونٍ طبيعي أساسيٍّ من قوانين النفس البشرية، فإهمال هذا القانون أدى إلى ضياع الجهود وغياب النتائج الإيجابية المستهدَفة من كل هذا الاستنفار الكثيف العام والخاص. إن استجابة الدماغ؛ جَذْبًا أو نفيًا؛ مرتبطة بدائرة اللذة والألم إن الذاكرة تلتقط ما يجلب المتعة، وتنفي وتستبعد ما يجلب الضيق والنفور؛ فالإلزام في حد ذاته منَفِّر...

إن دفْعَ النفس للتعلُّم ضد هواها؛ يكون مرهقًا، فقابليات الإنسان لا تستجيب إكراهًا إلا بصعوبة، ولأن المعلومات أُقْحِمَتْ على الذاكرة بالإكراه، فإنها لا تثبت بل تتخلص منها الذاكرة بسرعة. لذلك فإن المطْلَب الأول من تعميم التعليم؛ هو خلق الشغف بالمعرفة كشرطٍ أساسي للتعلم المُجْدي. وقد يتطلَّب الأمرُ أن يصل التعلُّق الذاتي بالمعرفة إلى درجة الشغف العميق المتجدد، الذي يدفع إلى الاهتمام التلقائي القوي المستغرق. ولكن العالم كله لم يهتد إلى طريقةٍ تثير الشغف الذاتي التلقائي في عموم الدارسين؛ لأن العلم مضادٌّ للطبيعة البشرية، ولأن العقلَ جهازٌ عمليٌّ؛ فإن المعلومات المنفصلة عن حركة الحياة لا تلائمه؛ فبقي التعلُّم في نطاق الاضطرار. فلم يكن التعلُّم عند عموم الدارسين، بدافعٍ ذاتي تلقائي وإنما كان تعلُّمًا اضطراريًّا من أجل الشهادة الدراسية، والوظيفة، والوجاهة الاجتماعية، ولأن مواصلة التعلُّم لم تكن عن شغفٍ ذاتي تلقائي بالمعرفة، فإن الدارسين لم يكتسبوا علاقةً حميمةً مع التعلُّم ولا مع العلم بشكل عام؛ وإنما ظل التعلُّم نوعًا من المكابدة المتجددة، والمعاناة الدائمة، فصارت العلاقة مع التعلُّم ومع العلم بشكلٍ عام؛ علاقة كراهيةٍ ونفور، ولم تكن علاقة حُبٍّ وانجذاب، وظلت الصلة بالعلم صلة واجبٍ محتَّم، وليست صلة مَطْلَبٍ ذاتي محبَّب. وهذه أسوأ نتيجة يمكن تصورها لأي مجهودٍ فرديٍّ أو

جماعي. لذلك يندر أن يهتم الناس بتكوين مكتبات خاصة في البيوت؛ كمطلب أساسي من أجل المعرفة والفهم وتوسيع الإدراك...

إن النتائج الكارثية لتعميم التعليم في كل العالم؛ تصيب أرفع الأساتذة بالحيرة؛ فالجهود كثيفة ومكلفة ومتنوعة ودائمة؛ بينما أن النتائج هزيلة وبائسة. وعلى سبيل المثال يقول العالم الأمريكي البروفيسور كرستوفر كلاوسن: «إن تقييم الجامعات هو أمرٌ بالغ الصعوبة؛ إننا لا نملك سوى أقل الأفكار عما نريده منها» إنه يتحدث بمرارة من مَوقِعه كعالمٍ وأستاذٍ جامعي ومتابع للنتائج الضحلة التي تُسفر عنها مجهودات التعليم الضخمة. وغيره كثيرون يتساءلون بحسرة عن مصْدر الخلل. إن حركة التعليم الخرساء تُحيِّر الكثيرين. إن كلاوسن نفسه يؤكد الاختلاف النوعي بين المعرفة النظرية والأداء العملي. ويرى أن بإمكان الأشخاص بشيء بسيط من المران والتدريب أن يقوموا بأدق الأعمال من دون حاجة إلى تعليم جامعي؛ فهو نفسه يؤكد: «أن أغلب الوظائف التي يشغلها خريجو الجامعات الآن حتى في صناعة الكومبيوتر؛ يمكن أداؤها بفاعلية من قبل أشخاص لم يحصلوا إلا على القليل من التعليم الجامعي أو لا شيء مطلقًا» إن المكتبة العالمية متخمة بالكتب التي تصف معاناة الدارسين مثل كتاب (تعليم بلا دموع) و(التلميذ المهان) وما لا حصر له من العناوين المماثلة. ولكن نظرية التلقائية تجيب على هذا الإشكال العالمي المزمن؛ فالإنسان كائن تلقائي؛ فلا تستجيب قابلياته إلا لما يتفق مع رغبة الفرد، إن قابليات الإنسان لا يمكن إرغامها. وطبيعة الإنسان أنه يعتمد على التلقائية والبداهة؛ إن تكوين الإنسان يناسبه التفاعل مع المادة أما العلم كأفكار وحقائق ونظريات؛ فهي لا تناسب طبيعته؛ فالعلم غير طبيعي؛ إنه طفرةٌ معرفية تحصل لقلة من الأفراد؛ فإذا أريد تلقين هذه الطفرات المعرفية؛ لعموم الدارسين فإن ذلك يتطلب من الدارس الانفصال عن طبيعته التلقائية، وتركيز انتباهه، وإلزام ذاته بالاحتشاد للمهمة المعرفية، وهذا يمثل نقلة نوعية تختلف عن طبيعة الإنسان التلقائية؛ إن العلم غير طبيعي، بل مضادٌّ لطبيعة الإنسان. أما العمل والتقنية والتعامل مع الأشياء فهو يلائم طبيعة الإنسان؛ لذلك تمكَّن الإنسان من صناعة الأدوات قبل أن

يصبح قادرًا على التنظير بزمنٍ طويل. لذلك يقول المؤلف العلمي الأمريكي ليون سبراج دو كامب في كتابه (التقنيون القدامى): «الحضارة مدينة بوجودها للتقنيين؛ إن قصة الحضارة هي قصة التقنية؛ هذا الكفاح الطويل والشاق لجعْلِ قوى الطبيعة تعمل من أجل صالح الإنسان» لقد استطاع الإنسان أن يتفاعل مع المادة وأن يُسَخِّرها لخدمته قبل أن يكتسب معارف نظرية. لأن التعامل مع المادة يلائم طبيعته. أما المعرفة النظرية؛ فهي مضادة لطبيعة الإنسان؛ فلابد من تطويع طباعه؛ بقوة الاهتمام والتركيز والمران لتلائم طباعُه التعاملَ مع المعارف المجردة، إن مفتاح الحل ينحصر بخلق الشغف بالمعرفة أوَّلا كشرط أساسي لنجاعة العملية التعليمية، وخلق الشغف يتطلب عدم البدء بإعطاء معلومات والإلزام بحفظها بل بطرح تساؤلات وإشكالات وترك الدارسين يبحثون بأنفسهم وفيما بينهم عن الإجابات وبذلك تنقدح شرارة الاهتمام التلقائي وتستمر في التنامي...

إن التعلُّم لابد أن يكون نابعًا من شعورٍ عميقٍ بالحاجة إلى المعرفة، وشغفٍ بها، وتفاعلٍ بين الفكر والفعل، كما أنه يجب تدريب الدارسين على الربط والمقارنة بين المواد المختلفة لكن هذا الهدف الأساسي مستبعَد في التعليم العام، فتأتي المواد متباعدة ومتنافرة ومنفصلا بعضها عن بعض؛ فتبقى معلومات جزئية؛ وكما تقول كوشايير في كتابها (الذاكرة والنجاح): «إن التعليم المجزأ كالذي يعرفه الأطفال في المدرسة؛ لا يُشَجِّع على التحقيق في حادثةٍ ما، بمقارنة المعلومات، ولا تداعي الأفكار من مادة إلى مادة. يضاف إلى ذلك أنه يجعل الدراسة قاسية؛ لأن الإنسان لا ينوي الدراسة، إلا لتقديم الامتحان. إن التعليم التقليدي يُفَضِّل دائمًا التفسير المجرد والمرمَّز الذي يترك مناطق من دماغنا بورًا بأكملها بلا زراعة ولا عناية» إن الدارس يواجه عُسْرًا في مادة أو أكثرَ من المواد التي لا تتفق مع ميوله بينما يكابد من المواد التي لا يحس نحوها بانجذاب بل قد تشتد المكابدة فيشعر بالنفور...

إن تاريخ العلوم، وتاريخ الاختراع، وتاريخ الثورة الصناعية في بريطانيا ثم في العالم، وتاريخ الحضارة عمومًا؛ يُقَدِّم شواهد متضافرة مقنعة بأن

الاكتشافات في البر والبحر وفي العلم والاختراع؛ لم تكن من نتائج التعليم النظامي، وإنما أسفر عنها الاهتمام التلقائي القوي المستغرق؛ وأن جموع الخريجين لا يتفوقون إلا في المجالات التي تستحوذ على اهتمامهم الذاتي التلقائي؛ بل إن من يتوفر لديه الاهتمام التلقائي القوي المستغرق؛ ليس بحاجة إلى الدراسة الرتيبة التي يضطر إليها من يفتقرون إلى الدافع التلقائي: اقليدس وستارخوس وأرشميدس وهير وجوتنبيرج وكولومبس ودافنشي ومكيافيلي وكوبرنيكوس وجاليليو ونيوكامن وليفنهوك وباستور ونيوتن ورتشارد آركرايت وجيمس وات وديكارت وكانط وروسو وسان سيمون وكونت وآينشتاين وفراداي ومندل وبافلوف وأديسون والأخوان رايت وفورد ووالت ديزني وكلاشينكوف وبيل جيتس وستيف جوبز. إن البشرية مدينة بتقدمها الحضاري لذوي الشغف التلقائي العميق؛ الذين يندفعون في المجالات التي استحوذت عليهم باهتمامٍ تلقائي قوي مستغرق...

إن الهدف من هذا الفصل هو التذكير بالاختلاف النوعي بين المعرفة النظرية والأداء العملي. فلا سبيل لإتقان الأداء في أي مجال إلا بتوافر الرغبة، وحب المجال، وتكرار الفعل تكرارًا منتظمًا إلى أن تتكوَّن مهارة الأداء في نفس المجال. وكما يقول ابن خلدون: «والملَكات التي هي قوى العقل؛ تتكوَّن بفضل التجربة، ولا تحصل إلا بتكرار الأفعال: فالفعل يقع أولا، وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتتكوَّن حالاً. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة. ثم يزيد التكرار فتكون مَلَكَة، أي صفة راسخة» في رسالة الدكتوراه للكاتب الجزائري عبدالله شريط عن (الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون) يقول شريط: «إن ابن خلدون قد ركَّز على عالم الفعل، والإيجابية، وعارض به عالم التجريد والتأمُّل الميتافيزيقي بكل أشكاله. وسَمَّى عالَم الإنسان؛ عالَم الأفعال المنظَّمة، لأنه ربط بين الأسباب والمسببات. وهذا الربط يقود في النهاية إلى الفعل، وبذلك سيطرت أفعال البشر على عالَم الحوادث بما فيه؛ فكان في طاعته وتسخيره» ويؤكد ابن خلدون بأن: «خاصية الإنسان هي العلوم والصنائع» ويؤكد شريط أن ابن خلدون قد أدرك الفاعلية الحاسمة لتطبُّع الفرد بما تمتصه قابلياته

من البيئة الاجتماعية والطبيعية فيقول: «أضخم دليل يأتي به ابن خلدون على أن العقل لا يتكَوَّن تكوينًا حقيقيًا ولا يؤدي وظيفته كأداة تدرك وتميز الخطأ من الصواب؛ إلا بفضل ما يحصل عليه من المجتمع» ويضيف شريط: «إن ثورة ابن خلدون على التجريدات والنظريات؛ تجعلنا أمام وضعية جديدة في مشكلة الفكر وموقفه من الكون؛ وهي أن الفكر إذا تُرك لإمكاناته الخاصة؛ يصبح هزيلا مهما خادع نفسه، بأنه غني ثري، وإن ثروته الحقيقية لا تكمن في العقل ذاته بل في المحيط الذي يعيش فيه» ويضيف: «وقيمة العقل هي في معرفة هذا المحيط، إن العقل ليس إلا وسيلة وأداة» إن ابن خلدون لا يهتم بالمعرفة النظرية إلا بمقدار اعتمادها على الواقع المادي وتفاعلها معه والانفعال به، والمران على العمل بتكرار الفعل تكرارًا يجعله يشبه الغريزة فتنساب منه المهارة تلقائيًا...

يقول البروفيسور نيال فرجسون في كتابه (الحضارة): «التفكير التجريبي والملاحظة الدائبة؛ كانا مصدرًا للتقدم التقني الذي ما كانت الثورة الصناعية لتحْدُث لولاه» ويضيف: «نيوكامن صاحب محل متواضع لبيع الحديد، وقد ابتكر المحرك البخاري» ثم يوضح أن: «ثلاثة من أهم الابتكارات في العالم: المحرك البخاري لجيمس وات، وتحديد خط الطول بواسطة كرونوميتر لجون هاريسون، والحاجز المائي الذي ابتكره ريتشارد آركرايت» والمغزى المهم من ذلك؛ أن هؤلاء الثلاثة المبتكرين لم ينالوا تعليمًا ولكنهم بالاهتمام التلقائي، والعمل بعناية، والممارسة بفطنة، وبالتفاعل اليقظ مع المواد؛ تفتَّحت طاقاتهم الإبداعية. وهذا يؤكد أن الإنسان بالعمل الجاد ليس فقط يمكن أن يكتسب مهارة الأداء دون معارف نظرية، وإنما يمكن أن يرتقي إلى مستوى الابتكار والاختراع بينما حفظ معلومات نظرية منفصلة عن الممارسة، لا تُكسِب علمًا ولا تبني مهارة عِملية. وهنا تبرز معضلة التعليم المزمنة وضحالة نتائج تعميمه، وطول مدته. ليس فقط بأن الخريجين يلتحقون بالعمل من دون مهارات عملية لكنهم أيضا رغم طول سنوات الدراسة؛ فإنهم لم يرتبطوا بالعلم وجدانيا؛ وهذا إخفاقٌ أساسي للتعليم. إن التعليم لم يزد عن معلومات متنافرة عن موضوعات شديدة الاختلاف؛ فمادة الرياضيات تَعْقُبها مادة التاريخ؛ ثم مادة الكيميا؛ إنها

معلومات لا يوجد بينها روابط جامعة؛ لذلك لا تتقبلها الذاكرة إلا وهي مرغمة على حفظها؛ لتلفظها بعد الفراغ من الامتحانات. لقد بقي التعليم في نطاق المعلومات المتنافرة التي تُحفظ للامتحانات ثم تُنسى ففي كل العالم تنتظم الأجيال منذ أن يبلغوا السادسة من العمر ويبقون منتظمين في التعليم حتى الخامسة والعشرين وبعضهم يواصلون الدراسات العليا، فالتعليم يستهلك أعمار الأجيال في كل الأمم لكن النتائج تأتي ضحلة ووقتية. ومثلما يؤكد المفكر الدكتور حسن حنفي في كتابه (أمريكا: الأسطورة والحقيقة): «المعلومات لا تُعطي علمًا؛ فالكم لا يعطي كيفًا؛ إنما العلم ما ينبع عن النفس بعد قراءة المعلومات. لذلك سقط التعليم الجامعيُّ؛ لأنه خلَط بين الإثنين؛ تَصَوَّر أن العلم هي المعلومات التي يحفظها الطالب في الكتاب المقرر. لذلك يُفَرِّق المفكرون بين المعلومات، والعلم، والحكمة. وقد تحصل المعلوماتُ ولا يَحدُث العلمُ، ولكنه لا يتحول إلى حكمة» لقد بات معروفًا الفرق بين المعلومات والمعرفة؛ فالمعلومات مواد تُبنى بها المعرفة؛ على النحو الذي يشرحه عميد كلية العلوم في جامعة سانت ماري. الدكتور كيت دفيلن في كتابه (كيف تتحول المعلومات إلى معرفة) إن العلم الحقيقي المؤثِّر يُحدِث تغييرًا في بنية العقل أما المعلومات ذاتها؛ فلا تؤثر فيه؛ يجب التأمل بعمق شديد بطبيعة الإنسان؛ وإدراك أن الإنسان كائن تلقائي...

إن إدراك أن الإنسان كائن تلقائي، وأن العلم مضادٌّ لطبيعته التلقائية تترتب عليه نتائج فاصلة. ومثلما يؤكد عالم الأعصاب مايكل ترايمبل في كتابه (الروح في الدماغ): «العلم انفصالٌ عن حدسنا التلقائي. لقد تطوَّر العلم على يد عدد صغير من الأشخاص؛ فالعلم غير طبيعي بالنسبة للعقل البشري» لذلك فإن مئات الملايين في مختلف بلدان العالم، يجتازون كل مراحل التعليم دون أن يؤثر العلم في وجدانهم، ومن غير أن يُحْدِث تغييرًا في عقولهم. إنهم يصبحون متهيئين للأعمال المهنية، لكن علاقتهم بالعلم تبقى علاقة الغريب، وليست علاقة الحبيب. إن السبب لهذه السلبية؛ هو أن التعلُّم اضطرارًا مضادٌّ لطبيعة الإنسان التلقائية، فالدارسون يفتقدون الشغف الذاتي التلقائي بالمعرفة، وبهذا

تكون علاقتهم بالتعلم علاقة اضطرار ومكابدة وليست علاقة انجذاب واستمتاع. وكما يؤكد فيلسوف العلم كارل بوبر في كتابه (منطق الكشف العلمي): «بأن التعطش الفكري، وحب المعرفة؛ هما الدافعان الأقوى للبحث» وفي كتاب (الذاكرة والنجاح) لماري. جوزيه كوشايير تنبه إلى أن: «الصدأ الفكري والبدني؛ ينتابنا ما أنْ نفقد الرغبة في التعلُّم. وعلى العكس؛ إن الإبقاء على حب الاطلاع على كل شيء؛ هو أفضل ترياقٍ ضد الضجر؛ لضمان أكبر قدرٍ من الانتباه؛ لأن الذاكرة تابعة رأسًا للانتباه الفعَّال، الذي يتجذَّر في مجموعة الانفعالات. وقبل أن تطلق ذاكرتك للعمل؛ يجب أن تُهيء مكانًا لها في العقل والقلب» إن قابليات الإنسان ليست خاضعة لإرادته. وإنما مفتاحها الرغبة والمتعة والولع. إن الإنسان كائنٌ تلقائي؛ فلا يستطيع أن يرغم ذاته؛ بأن تحب ما يكره، أو ينجذب لما ينفر منه، أو يرغب فيما تعافه نفسه. ولكن التعليم القسري وما يتمخَّض عنه من تعلُّمٍ اضطراري؛ يتجاهل هذه الحقيقة الأساسية؛ وهو ما يجعل التعليم التقليدي؛ ينتهي بنتائج هزيلة قياسًا بالمدة الطويلة التي يستغرقها من حياة الدارسين على امتداد الأجيال. إنه ضياع في الأعمار والأموال وتبديد للطاقات وانسدادٌ للقابليات وتفويتٌ للفرص...

إن الاندماج الوجداني والعقلي بأجواء التعلُّم يقوم على التعطش التلقائي للمعرفة ذاتها وليس كوسيلة لهدف آخر. إن هذا التعطش للمعرفة ذاتها؛ غير متوفر لدى معظم الدارسين في كل العالم؛ فالمعوَّل كله على الطبيعة الإنسانية وأشواقها، وما تحب وما تكره، وما تنجذب إليه، وما تنفر منه. فالمهم في الحياة هو الرغبة العميقة المتجددة، والشعور العميق بقيمة المعرفة، والشوق الملح لمعرفة الحقيقة. ومتى اتَّقدت الرغبة فإن قدرات الإنسان تتفتح للعلم والعمل. فهذا الخواء ناتجٌ عن غياب الشغف. إن الكل يشكو من هذه النتائج الكارثية لأضخم مشروعٍ إنساني على المستوى العالمي، وعلى المستويات المحلية. لكن لا أحد يصل إلى حل؛ فالأكثرية يتخرجون من دون أن تتكوَّن بينهم وبين المعرفة علاقة حميمة. ولكن بالمقابل؛ فإن الإنسان خلال مراحل التاريخ، وما زال يتعلم من العمل من دون معرفةٍ نظرية؛ وعلى الضد من ذلك؛

فإن المعرفة النظرية الوصفية المفصولة عن جيشان الواقع؛ لا تُكْسِب علمًا، ولا تُكَوِّن مهارة عملية. ولأن أغلب الملتحقين بالتعليم لم يندفعوا للتعلُّم بدافع الشغف بالمعرفة ذاتها، وإنما يتم إلحاقهم من أهلهم، ثم يواصلون الانتظام اضطرارًا في مراحل التعليم حتى النهاية من أجل نيل شهاداتٍ تَفتح لهم أبواب الدخول للعمل، فيتخرجون من دون أن يُكَوِّنوا علاقة حميمة مع العلم ومن غير أن يكتسبوا مهارات عملية، لذلك تتكرر شكوى الخريجين كما يتكرر تأكيد عُقْم التعلُّم اضطرارًا من المفكرين والمهتمين...

رغم أن الأكثرية ممن تمتلئ بهم المدارس والمعاهد والجامعات في مختلف المجتمعات لا يستهدفون من مواصلة الانتظام في التعليم، سوى أن يحصلوا على شهادة تعليمية تتيح لهم العمل في المجال الذي تخصصوا فيه. فالهدف هو التأهُّل للعمل والحصول على مصدر للرزق إلا أن معظم الخريجين من مختلف الجامعات يلتحقون بالعمل؛ دون أية مهارات عملية، باستثناء بعض التخصصات التي يكون الجانب العملي جزءًا أساسيًّا من المنهج الدراسي كالأطباء والطيارين وأطباء الأسنان. لكن هذه الحقيقة الجوهرية تغيب عن أذهان العموم؛ حيث يخلط الكثيرون بين المعرفة النظرية، والأداء العملي، مع أنهما حقلان مختلفان أشد الاختلاف، ولكن باتحادهما يرتقي الأداء، ويتطور العلم؛ مثلما أن التزاوج بين ذكر وأنثى يتكوَّن به مخلوقٌ جديد من نفس النوع يأخذ صفاته منهما معًا...

لابد أن يكون واضحًا للجميع وجود خلل جوهري أدى إلى أن يتخرج الطلاب من الجامعات في مختلف التخصصات، وأن يلتحقوا بالعمل وهم لا يملكون أية مهارات عملية، باستثناء التخصصات التي يكون التدريب العملي أثناء الدراسة هو جزء أساسي من المنهج الدراسي. أما بقية التخصصات؛ فإنهم لا يتعلمون المهارات المهنية، إلا بعد التحاقهم بالعمل. وأحيانا بعد التحاقهم بالعمل لا يريدون الاعتراف بأنهم من دون مهارات عملية، فيتظاهرون بأنهم يجيدون الأداء، فيظلون من دون مهارات عملية. إن تحصيل معرفة نظرية في أي مجال؛ لا يعني أن الشخص قد اكتسب أيضا مهارة عملية في ذات المجال،

وإنما اكتساب مهارة العمل وإتقان الأداء يتطلب ممارسة كافية تتكوَّن بها المهارة العملية وقد يتطلب تدريبًا ومرانًا قبل أن يبدأ الممارسة العملية. إن تجارب الحياة في مختلف المجالات تُبين أنه متاحٌ للإنسان أن يكتسب أي مهارة عملية في المجال الذي يمارسه برغبة دون أي تأهيل نظري مسبق، وربما أن هذه الحقيقة هي من أوضح الحقائق، فالأصل في العقل البشري أنه طاقة عملية. يقول وليم جيمس في كتابه (عالم متعدد): «إن وظيفة العقل الأساسية والرئيسية؛ أنْ يُرشدنا للسلوك العملي والتعامُل مع خبراتنا، وأنشطتنا العملية» ويضيف جيمس: «برغسون أكد أن وظيفة العقل؛ هي وظيفة عملية، وليست نظرية. وبدايةً أوَدُّ الاختلاف مع برغسون، وأنسب لعقلنا وظيفةً نظرية. على أنه يوجد فرقٌ بين المعرفة النظرية، والمعرفة التأمُّلية العميقة التي يصل إليها الفلاسفة. لا تَلمس المعرفةُ النظرية إلا السطح الخارجي للواقع، وتستخرج من الأشياء المحاطة بالزمان والمكان؛ مجموعةً من التصورات يقتصر دورها على تصوير الواقع الخارجي، واستنتاج التصورات، لكنها لا تستطيع اختراق البُعْد الباطني الصلب للواقع» يضيف وليم جيمس: «قَلَبَ برغسون المذهب الافلاطوني رأسًا على عقب؛ فاعْتَبَر المعرفةَ العقلية؛ ليست إلا معرفة سطحية؛ أصبح المجال العملي هو مجال تفوقها» ويضيف وليم جيمس: «دعوة برغسون واعتباره المعرفة الحسية؛ قادرة على مدنا بمعرفة كاملة للواقع» إن قدرة الإنسان غير المتعلم على اكتساب أدق المهارات العملية كقيادة قطار بالغ الضخامة أو إتقان أعمال الميكانيكا، أو أعمال البناء، أو أعمال النجارة الدقيقة، أو غير ذلك من النشاط العملي؛ من دون أي معارف نظرية؛ تشهد لتأكيدات برغسون؛ فالإنسان بطبيعته مهيأ للتعامل بنجاح مع الواقع فهذا هو السلوك الطبيعي، أما المعرفة النظرية المِحضة فهي مضادة للطبيعة التلقائية للإنسان؛ لذلك يواجه صعوبة قد تكون شديدة أحيانًا في استيعابها والتعامل معها ما لم تكن مصحوبة بالعمل الذي يكشف طبيعتها. إلى درجة أن عالمًا فائزًا بجائزة نوبل في الفيزياء وله شهرة عالمية هو رتشارد فاينمان يؤكد: «ما لا يمكنني تخليقه؛ لا يمكنني فهمه» ويقول العالم المبدع وليم شوكلي: «إنك لا تستطيع أن تَفهم شيئًا إلا إذا رأيته بأشكالٍ

متباينة» إن مثل الأقوال التي تأتي من علماء بارزين تؤكد أن الفهم يتطلب معالجةَ الشيء معالجةً ماديةً مباشرة. وتتكرر مثل هذه التأكيدات من كبار العلماء والمبدعين...

إن فنون الأداء تختلف نوعيًّا عن المعارف النظرية. إن كل مهنة عملية تستوجب التدريب والمران والممارسة؛ إنه بذلك كله تتكوَّن مهارة الأداء. ولكنها تبقى ذات مستويات شديدة التفاوت، باختلاف الأفراد بل تختلف مهارات الأداء لدى ذوي التخصص الواحد؛ فهذا جراحٌ فائقٌ يتحدث عنه الجميع، بينما زميله في الدراسة وفي المهنة لا تكاد تثق بأن يُجري لك أبسط العمليات؛ إنه ليس فارقًا في المعلومات، ولكنه فارقٌ في طريقة استخدام المعلومات كما أنه فارق في تعبئة القابليات بمهارات الأداء يقول جيروم برونر في كتابه (ثقافة التربية وعلم النفس الثقافي): «إن لغز تطبيق المعرفة النظرية على المشكلات العملية؛ ما فتئ يشغل ذوي التفكير العميق» ويضيف: «وحتى مع التقدم العلمي؛ ليست مشكلات الأطباء، أسهل حاليًّا مما كانت في زمن عشب الخربق والكي؛ فمشكلات كيف؟ ولمن؟ ومتى؟ ما تزال تَعْظُم وتتسع» ويوضح أنه ينبغي الانتباه الشديد إلى أن المعرفة النظرية في حد ذاتها ليست ذات دلالة مهمة في مجالات الأداء؛ فالأداء فنٌّ فرديٌّ. لذلك يتفاوت الأفراد في مهارات الأداء بقدر اختلافهم. فيقول: «إن التحدي يكمن دائمًا في مَوضَعةِ المعرفة في السياق الذي يعيشه» إن الاختلاف النوعي بين حقل المعرفة النظرية، وحقل الأداء العملي؛ حقيقة معروفة؛ يؤكد المدرِّب العالمي جوش كاوفمان أن: «الخبرات الأكثر إشباعًا في الحياة؛ تتطلب مستوى من المهارة. والمهارة تحتاج إلى وقتٍ ومجهودٍ من أجل إتقانها» ويقول: «إن الأساليب الحديثة للتعلُّم، والحصول على الدرجات العلمية؛ ليس لها أية علاقة باكتساب المهارة» ليس هذا فقط بل إنه يؤكد من متابعة من يقوم بتدريبهم: «إن التعليم يعوق اكتساب المهارة» وينبه بأن الإنسان لا يندفع للعمل إلا إذا كان يستمتع به، ولكن المتعة لا تأتي إلا إذا كان يجيد الأداء؛ فالشعور بالعجز محبطٌ ومُنَفِّر. إنها حلقة مفرغة لابد من بذل جهدٍ استثنائي للتغلب عليها. وكما يقول كاوفمان: «الكثير من الأشياء، لا تصبح

ممتعة إلى أنْ تصبح جيدًا فيها. كل مهارة لها حاجز؛ أُسَميه حاجز الإحباط» وينفي كاوفمان عن علم وممارسة وتجربة وخبرة طويلة في تدريب الآخرين؛ أية علاقة بين المعرفة النظرية واكتساب مهارات الأداء. فيقول: «فالتعليم الأكاديمي، والحصول على درجة علمية؛ يتداخل بنسبة صِفْر تقريبًا مع عملية اكتساب المعرفة» بل يؤكد: «إن الدرجة العلمية يمكن أن تضر وتعوق اكتساب المهارة» وينبه إلى أن الدارس الذي يغرق في المقررات الجامعية: «سيء الحظ فهو قد حفظ الكثير من الأشياء بشكل مؤقت» لكن هذه الحقيقية الأساسية، تكاد تغيب أمام التأثير المضلل لاحتفالات التخرج الصاخبة التي تُوهِم بأن الأعمال موعودة بخريجين بارعين أو خارقين...

أمامنا مثال نموذجي يوضح الاختلاف النوعي بين المعارف النظرية والمهارات العملية. إن عالم الأحياء قد يملك من المعلومات والمعارف عن تكوين جسم الإنسان، ربما أعمق وأوسع مما يتلقاه الطبيب، لكن عالم الأحياء لا يحق له أن يمارس الطب لمجرد امتلائه بالمعلومات النظرية عن جسم الإنسان، وأعضائه، ووظائف الأعضاء، وغير ذلك من المعارف النظرية المتعلقة بالإنسان، وبالأحياء عمومًا؛ لأن عالم الأحياء يملك المعارف النظرية لكنه لا يملك مهارات العمل في الطب، ولم يتلق أي تدريب في المجال الطبي. وينطبق ذلك على كل المهن العملية؛ ولافتراق مهارة الأداء؛ عن المعلومات النظرية؛ فإن طبيب الباطنية؛ لا يمكن أن ينوب عن جراح القلب؛ رغم اشتراكهما في المعارف الطبية. ففصَل بينهما الفارق في مهارة الأداء العملي. فلا يكون الشخص طيارًا بمجرد القراءة عن عملية الطيران وإنما لابد أن يتلقى معلومات نظرية، يصاحبها تدريبٌ عملي دقيق متكرر على الأداء. إن اللاعب الماهر لا يملكِ معلومات لا يملكها الآخرون، وإنما يملك مرانًا كافيًا يؤدي لتعبئة قابلياته بمهارة الأداء، بحيث تنساب بل تتدفق المهارة تلقائيًا من دون أن يتدخَّل الوعي. بل إن تعبئة القابليات بالمران تُمَكِّن صاحبَ المهارة الفائقة أن يمشي مسافة طويلة على حبلٍ ممدودٍ فوق هاوية. إنه لا يملك معارف أو معلومات غير متاحة للآخرين لكنه المران وتعبئة القابليات إلى درجة التشبُّع...

إن الأصل أن المهارة العملية بعد تكوينها؛ أنها تصبح تلقائية الانسياب أو عفوية التدفُّق. ليس هذا فقط بل لقد ثبت أنه بعد تعبئة قابليات الفرد بالمهارة، يرتبك الأداء، إذا تدخَّل الوعي. لأن الأصل أن يكون انسيابها تلقائيًّا؛ ومثلما يقول عالم الفيزياء الحاصل على جائزة نوبل روجر بنروز في كتابه (العقل والحاسوب وقوانين الفيزياء): «يوجد تجربة مألوفة؛ وهي أن المرء إذا فكَّر في أفعاله عند قيامه بمهارة متأصِّلة لديه جيدًا؛ فقد يفقد عندئذ سهولة ضبط حركاته؛ إذْ يبدو أن التفكير في هذه الأفعال، يَدفع إلى تدخُّل مراقبة المخ من جديد؛ فتضيع سلامة فعل المخيخ ودقتها» ويقول أستاذ علم النفس إنجوس جيلاتي في كتابه (الذهن والمخ): «التفكير الواعي في المهارة التي تم اكتسابها؛ يمكن أن يؤدي إلى إحداث خلل في هذه المهارة» وهذه الحقيقة تتضافر التأكيدات لها في الكثير من الكتب التي تتناول العقل والدماغ والتعود والمهارة...

وقد لمس عالم الفيزياء الأمريكي لويس وولبرت اللبس الحاصل في أذهان الناس عن الخلط بين المعرفة النظرية، والأداء العملي، واكتشف أن الناس يتوهمون أن مهارة الأداء؛ تأتي ضمنًا وبشكل تلقائي مع المعرفة النظرية، لقد أدرك أن هذا الخلط بين مجالين مختلفين نوعيًّا يَنتج عنه عُقمٌ في الأداء، وتعطيل لمسيرة تكوين الكفايات العملية؛ فألَّف كتابه (طبيعة العلم، غير طبيعية) ولأنه قد عالج بدقة ووضوح مشكلة عامة وأبرز حقائق ملموسة، يَنتج عن الجهل بها خلطٌ والتباس واضطراب يعطل ظهور الكفايات التي لا تتكون إلا بالاهتمام التلقائي القوي المستغرق. فسوف أطيل الاقتباس منه. فقد كان يستهدف من الكتاب، تنوير الناس بأن العلم انفصالٌ عن البداهة، وأنه يوجد فرق نوعي بين المعرفة التلقائية لشؤون الحياة، مقابل المعرفة النظرية العلمية؛ فالفرد قد يكتسب حكمةً ناضجة في أمور الحياة، دون أن يكون لديه معارف نظرية، إنما يتعلم تلقائيًّا من مدرسة الحياة الأكثر إنضاجًا، كما أنه أراد أن يوضح الفرق النوعي بين المعرفة النظرية والأداء العملي. لقد كان همه إزالة هذا اللبس الشائع فيقول: «في تأكيدنا على أن العلم بطبيعته غير بديهي؛ لابد من التمييز بين العلم

والتكنولوجيا؛ خصوصًا مع انتشار الخلط بينهما» لابد هنا من الانتباه لحقيقتين: الأولى أن الأداء العملي، يختلف عن المعرفة النظرية. أما الحقيقة الثانية التي يجب الانتباه لها وإدراكها؛ فهي أن الناس غالبًا يخلطون بينهما. وينتج عن هذا اللبس أن نتوَهَّم بأن من يملك معرفةً نظريةً في مجالٍ؛ يكون ماهرًا في الأداء في المجال نفسه. وهذا مغاير للواقع؛ فالمعرفة النظرية تختلف اختلافًا نوعيًا عن مهارة الأداء. حتى داخل المجال الواحد لابد من اكتساب مهارة الأداء الدقيق فالأطباء يتخرجون من كليات الطب؛ لكنهم بالتخصص الذي يتحدد بالممارسة أكثر مما يتحدد باختلاف المعرفة؛ فطبيب العيون، لا يملك مهارة طبيب القلب، وطبيب الأمراض الباطنية، لا يملك مهارة الجراح، بل داخل تخصص الجراحة مثلاً تتعدد مجالات التخصص، حسب الخبرة والممارسة رغم أن الكل ضمن مجال واحد هو الطب...

إن وضوح الفارق النوعي بين المعرفة النظرية، مقابل الأداء العملي؛ في غاية الأهمية؛ ويجب أن يكون هذا الوضوح مشاعًا بين الطلاب، ولدى عموم الناس، فالخريج الذي يلتحق بالعمل دون مهارة عملية يجب أن لا يخجل من ذلك، وأن يبذل جهده لاكتساب مهارات الأداء، والمؤسسات التي توظف الخريجين يجب أن تتعامل معهم بأنهم من دون مهارات عملية؛ فتهيء لهم سبل اكتساب المهارة بدقة وعناية، إن هذا الوضوح مطلوبٌ للجميع. أما بدون هذا الوضوح فإن المكابرة قد تدفع الخريج المفتقر للمهارة إلى إخفاء عوزه إلى المهارة العملية، فيظل يعاني ويعرضه ذلك للفشل الوظيفي. إن مهارة الأداء هي الهدف من التعليم كله. لكن التعليم لا يُقَدِّمها للدارسين فتبقى مهمة أساسية مؤجَّلة...

قبل ظهور العلوم مارس الناس خلال آماد طويلة، حياتهم بنجاح في الزراعة، والبناء، والتجارة، وتعاملوا بنجاح في السلم والحرب، وبنوا السفن، وابتكروا العجلة، وهي أساسية لكل وسائل النقل الحديثة، وشيدوا القصور، وأقاموا الاهرامات، وبنوا الأسوار والحاميات والقلاع، وتعاملوا بنجاح مع المعادن، واخترعوا البنادق، والمدافع، وعالجوا المواد المتفجرة، وعبَّدوا

الطرق، وشقوا مسارات في الجبال للانتقال، وابتكروا من الأدوات والوسائل ما يفوق الحصر. واكتشفوا كيفية استخدام النار وهي من أهم وسائل الحضارة بل ابتكروا اللغة ثم ابتكروا الكتابة كما ابتكروا الأعداد ثم طورها للرياضيات؛ كل ذلك دون أي تدخُّل للعلم. بل قبلِ ظهور العلم. وهذا يؤكد بأن العقل جهازٌ عمليٌّ وأنه بالتفاعل مع الواقع تتفتح قدرات الإنسان العملية. أما المعرفة النظرية؛ فهي مضادة لطبيعته التلقائية. يقول عالم الفيزياء لويس وولبرت في كتابه سالف الذكر: «فالتكنولوجيا أقدم بكثير من العلم، ومعظم ما حققته البشرية في مجالات الزراعة، وبناء الكاتدرائيات العظيمة، واختراع الآلات البخارية؛ لم تكن تعتمد إطلاقًا على العلم، بل إن أسلوب التفكير التكنولوجي؛ يختلف أساسًا عن أسلوب التفكير العلمي» ويضيف: «مخنا وبالتالي سلوكنا؛ قد تحدَّد للتعامل مع البيئة المحيطة بنا؛ فنحن نجيد أساليب معينة في التفكيرِ مثل المقدرة على ابتكار تكنولوجيا للتحكم في البيئة، أما المقدرة العلمية فلا حاجة عاجلة لها في أغلب مراحل التطور البشري. إن التكنولوجيا لم تكن تعتمد في الماضي على العلم» إن هذا العالم ينبه إلى أن الكثير من أنواع الأداء الرفيع لا يتطلب علمًا نظريًا. إن الناس بعد انتشار التعليم، باتوا يستهينون بالحكمة العملية التي تُنضجها تجارب الحياة؛ فيستخفون بالخبرة الحية التي تصنع الأفذاذ، ويغفلون عن حقيقة أن الرجال العصاميين الأفذاذ الذين لم يتلقوا تعليمًا قد قادوا عمليات التغيير الكبرى في أمريكا وفي العالم؛ بل إن أفرادًا من الأميين خلال التاريخ قادوا عمليات صعبة لإنشاء دول شاسعة مستقرة، بل أسسوا امبراطوريات، وهم أميون. وحتى في الحضارة الصناعية قاد أفرادٌ عصاميون عمليات تصنيع ضخمة. لكن الناس قد ذهلوا عن حقيقةٍ؛ أن شخصًا لم يتلق أي تعليم مثل هنري فورد قد أحدث تغييرات جذرية ليس في أمريكا وحدها وإنما في العالم كله ومثل ذلك يقال عن توماس إديسون، والأخوان رايت، وروكفلر، وإدوين درايك، وأندرو كارينجي، وجون مورغان، وإنجفار كامبراد، وأرسطو أوناسيس، وسليمان الراجحي. وقبل ذلك أحدث رتشارد آركرايت وجيمس وات الثورة الصناعية. بل إن العصاميين تفوقوا حتى في الجمع بين الإبداع النظري

والاختراع وبدون أن يتلقوا تعليمًا ويأتي في طليعة هؤلاء دافنشي، وكوبرنيكوس، وجاليليو، وميشيل فراداي، وجيمس وات، وداروين، وأمبير، وباستور، وليفنهوك، ومندل، وروبرت هوك، ولافوازييه، وجورج أوم، وجيمس جول، ووليم هارفي، ونوفاليس، وفولتا، وهمفري دافي، وجوزيف هنري، وهنري جورج، ووالت ديزني. إن الإبداع لا يرتبط بتلقي معلومات مدرسية بل هو لا يكون إلا نتاج الاهتمام التلقائي القوي المستغرق...

يلفت الأنظار وولبرت إلى أن الناس يتعلمون بالممارسة ويتقنون أعمالا دقيقة بشرط أن تتوفر الرغبة؛ فبدون الانسجام الوجداني مع المجال؛ يسود الكلال، أما مع الرغبة فتتفتح القدرات يقول وولبرت: «على الرغم من جهل أغلب الناس بعلم الطبيعة؛ فإنهم قادرون على أداء أعمال معقدة جدا» إن الناس يمارسون شؤون حياتهم اليومية بنجاح من دون أية معارف نظرية ومعظم ما يفعله الناس في حياتهم العادية يتم تلقائيًا فيقول: «إن التفكير البديهي اليومي يهتم بالنفعية، أما العلم فيهتم بالفهم المجرد» ويضيف: «بل إن أحد أهم الأدلة على البُعْد بين التفهم البديهي والعلم؛ هي أن العلم بأكمله لا قيمة له لأغلب المشاكل اليومية للناس. ويستطيع المرء أن يعيش معيشة مريحة دون أن يعرف أي شيء عن قوانين نيوتن، أو مادة الدنا، أو العلوم الأخرى» ويضيف: «إن الإدراك البديهي يتجه بالإنسان إلى تحديد هدف، وتعديل أعمالنا لنصل إلى تحقيقه؛ فنحن نبني قراراتنا بناء على ذاكرتنا، وهي ذاكرة تتجه إلى التعميم، وإلى التأكيد» ويضيف: «إن العلم يُنتج أفكارًا، بينما التكنولوجيا تُنتج أشياء تُستعمَل، إن الفنون العملية أقدم بكثير من العلم» ويقول: «لقد قدمت التكنولوجيا بدون الاستعانة بالعلم؛ صناعات للإنسان البدائي مثل الزراعة والتعامِل مع المعادن، وانتصارات الصين في المجالات الهندسية، وكاتدرائيات عصر النهضة، وحتى الحضارة التجارية، ولم يكن للعلم تأثير على التكنولوجيا حتى القرن التاسع عشر. ولقد لعبت التكنولوجيا دورًا خطيرًا مكَّن الإنسانية من التطور من خلال قدرته على صناعة الأدوات المختلفة، والتحكم في البيئة، وهو دورٌ لم يلعبه العلم» ويضيف: «بدايةً صناعةُ الأدوات؛ هي حلٌّ للمشاكل؛ فإن

الحرف المتعلقة بالزراعة، واستئناس الحيوانات، وصناعة المعادن، وصناعة الصبغيات، والزجاج، كانت موجودة منذ آلاف السنين قبل وجود ما نُطلق عليه اسم العلم» «وعلى خلاف العلم؛ فإن الإدراك البديهي يتميز بطبيعته؛ فهو يتم بطريقة تلقائية، لا نشعر بها، ومع ذلك تسمح لنا بسد احتياجات الحياة اليومية، وهي تؤدي وظيفتها بنجاح. ولكنها مع ذلك لا تنفع في ممارسة الأداء العلمي الصحيح إذْ هي تختلف عن التفكير العلمي الذي يتطلب الدقة الحادة، والموضوعية الصارمة» ويضيف: «إن الإدراك البديهي، شيء معقد، يعكس كمية ضخمة من المعلومات، ويعطينا عددًا ضخمًا من القواعد العامة للتعامل مع المشاكل اليومية للحياة. ونظرًا لأننا نمارسه يوميًا؛ فإننا لا نلتفت إليه ولا نفكر فيه» ويضيف: «ولأن العلم له طبيعة غير طبيعية؛ فإنه كان تاريخيًّا نادرٌ جدا. وعلى عكس العلم، فإن كثيرًا من السلوك البشري يجمع بين فكر العقل غير الواعي والتدريب» إن أكثر التفكير والسلوك يتم تلقائيًّا ينساب من اللاوعي ولا يتم استدعاء الوعي إلا عند الاصطدام بما ليس معتادًا أما ما تم التعود عليه فإنه يفيض تلقائيًا دون انتباه أو تفكير..

إن هذا العالم لم يرد أن يكتفي ببيان الافتراق النوعي بين الإدراك البديهي، والتفكير العلمي، وإنما أراد أيضا أن يوضح طبيعة العلم ليكون الفرق واضحًا فيقول: «وفي مقارنتنا بين العلم والإدراك البديهي، فإننا سنواجَه بمحاولة التعريف بما هو العلم» ويضيف: «قد يكون علم الفيزياء، هو أفضل الطرق لإيضاح معنى العلم؛ فهذا العلم يحاول أن يقدم تفسيرًا للطبيعة: العالَم الذي نعيش فيه، فهو يحاول أن يجد تفسيرًا للظواهر المختلفة: تفسيرًا لحركة الأجسام، تفسيرًا لطبيعة الضوء، تفسيرًا لطبيعة الصوت، شرحًا للحرارة والكهرباء، فهْمًا لتكوين المواد. يضع العلم لذلك نظريات محكمة لتفسير الظواهر المختلفة، وتضع هذه النظريات نفسها تحت مجهر الاختبار للإثبات، وتتعرض لمحاولات النفي، كما لابد أن تخضع هذه النظريات والظواهر للفحص بمراقبين مستقلين؛ لأن المعرفة العلمية هي معرفة عامة» ويضيف: «العلم نجاحه يعتمد دائمًا على مدى توافق نظرياته مع الحقيقة. وتضم شروط

النظرية الجديدة الجيدة - إلى جانب تفسير الظواهر والتنبؤ بظواهر جديدة- شرط البساطة والأناقة. كما أن النظريات الجيدة لابد أن تطرح أسئلة جديدة» ويضيف: «وتمثل الدراسات الفيزيائيَة للحركة أحد أوضح الأمثلة على اختلاف العلم عن الإدراك البديهي؛ فلأغلب الناس غير المدربين على قوانين الطبيعة، فكرة غامضة يستعملونها في التنبؤ بخط سير جسمٍ ما. فإذا سألنا مثلا مجموعة من الطلبة عن مكان سقوط قنبلة أُسقِطَتْ من طائرة؛ فإن إجاباتهم تكون خاطئة، وينتج هذا الارتباك عن الجهل بأن القنبلة ستستمر في حركتها إلى الأمام وبدون تأثير للحركة إلى أسفل الناتجة عن الجاذبية» إن الإدراك البديهي يسهِّل للناس ممارسة حياتهم في كل الأمور الكثيرة التي لا تتطلب تدخُّل العلم لكنه لا يصمد أمام القضايا التي تتطلب التحقق العلمي. لقد ظلت الإنسانية كلها دهورًا متطاولة وهي تعتقد أن الأرض هي مركز الكون وأنها مسطحة. لكن هذا التصور الخاطئ الذي أمْلَتْه البديهة لم يؤثر على حياة الناس...

ويقول وولبرت: «وبشكلٍ عام فإن الطريقة التي تعمل بها الطبيعة؛ لا علاقة لها بممارساتنا اليومية. فحتى حقيقة أن الأرض تدور حول الشمس» تتعارض مع البداهة. ويضيف وولبرت: «ويتشابه الأمر في علم الاقتصاد فيقول جيمس ميد الحاصل على نوبل في الاقتصاد؛ إنه يود أن يُكتب على قبره عبارة تقول: لقد حاول أن يتفهَّم علم الاقتصاد طوال حياته ولكن الأفكار البديهية ظلت تعترض طريقه. بل حتى أرسطو كان يتفهَّم حقيقة أن العلم هو طريقة غير طبيعية في التفكير» ويقول: «نظرية القوة؛ تفترض النظرية، أنه بتحريك جسمٍ ما، فإن الجسم يكتسب قوة تدفعه للحركة، إن استمرار الفكرة لمدة ثلاثمائة عام بعد أن نفاها نيوتن؛ تدل على صعوبة هضم الأفكار المضادة للبديهة» ويقول: «كانتِ صناعة المعادن أساسًا عملية مبنية على الإدراك البديهي. قد يظن البعض أن العلم قد لعب دورًا هامًّا عندما تقدمت التكنولوجيا، وأنتجت ابتكارات أكثر تعقيدًا مثل التلسكوب والبوصلة والآلات البخارية ولكن الحقيقة أن العلم لم يلعب أي دور في تقدم التكنولوجيا قبل القرن التاسع عشر. كان مبتكرو النظارات والتلسكوب مجهولين. يتضح الخلط بين العلم والتكنولوجيا؛ فقد

كانت الاختراعات الثلاثة التي غيَّرت وجه الحياة وهي المطبعة والبارود والبوصلة المغناطيسية؛ لم يكن لها أي أساسٍ علمي» ويوضح أنه لا علاقة للعلم: «بكل الاختراعات الثلاثة التي حددها فرانسيس بيكون أساسًا لتطور أوروبا؛ المطبعة والبارود والبوصلة» إنها مخترعات خرجت من أيدي الحرفيين ولم يكن للعلم النظري أي إسهام فيها. ويقول: «في العصور القديمة كانت أخلاقيات الصُّنَّاع مماثلة للأخلاقيات النقابية: فالتعلُّم بالممارسة المهنية، والغرباء يُستَبعدون، والسرية أساسية. وتختلف كذلك بين العلم والتكنولوجيا، العوامل التي تحدد النجاح: فالنجاح في التكنولوجيا يتوقف على الاحتياجات والرغبات، أما في العلم فالنجاح يعتمد على مطابقته للحقيقة» العلم في كل الحضارات القديمة، لم يكن من الاهتمامات العامة لأي مجتمع وإنما كان اهتمامًا فرديًّا من أجل الفهم وليس من أجل خدمة الحياة؛ فلم يكن العمل يؤدَّى وفق نظريات علمية، وإنما يعتمد على الخبرات المتوارثة وعلى التجربة والخطأ، ولم يكن العلم بمضمونه الجديد الكاشف، قد ظهر وإنما كانت كل أمة مشغولة بترسيخ وتوارُث نسقها الثقافي؛ فظلت البشرية قروناً متطاولة وهي تمارس نمطاً رتيباً متماثلاً من الحياة لكن بمغامرة كولومبس تغيرت رؤية الإنسان لنفسه كما تبدلت رؤيته عن العالم، لقد تواترت التغيرات؛ اختراع المطبعة، ثم مغامرة كولومبس ثم تفتحت أبواب التطلع إلى عالم جديد؛ ثم حصلت فورة الثورة الصناعية واستيقظ العلم من سباته وصار عليه أن يدخل مجال العمل وأن لا يظل معارف فردية من أجل الفهم وإنما بات يستكشف ويجرب، وأعلن فرانسيس بيكون أن المعرفة قوة، وأن طاقات الطبيعة المذخورة تنتظر الاكتشاف...

لقد ظل المشتغلون بالعلم خلال كل العصور وهم بعيدون عن المجالات العملية التي تستخرج من المادة الخام طاقاتها الهائلة المخبوءة فإذا العمليون والمكتشفون والمخترعون يستنفرون بمخترعاتهم وإنجازاتهم العملية الفضول العلمي وإذا العلوم تدخل ميادين العمل فتمنحها قدرات عظيمة كانت محرومة منها خلال كل القرون التي سبقت الثورة الصناعية فقد كان العلم والعمل قبل ذلك يسيران في اتجاهين مختلفين ثم حصل بينهما التقارب ثم الالتقاء والامتزاج

حيث لم يعد تطوير التقنيات قائماً على مبدأ جرِّب وكرِّر المحاولات حتى تبلغ ذروة النجاح وإنما أصبحت ذروة النجاح في العلم والعمل حصيلة الأثر التفاعلي بينهما. لكن لا علم إلا بالتلاحم مع الواقع؛ ففي البدء كان العمل هو الأصل فالنجاحات العملية هي التي أيقظت الذكاء الإنساني وهي التي حفزته إلى التعرف على طبيعة القوانين التي تحكم الطبيعة من أجل تسخيرها لاحتياجات الحياة الإنسانية...

إن من يقرأ حياة دافنشي أو جاليليو أو فاراداي أو غيرهم من موقظي الحس العلمي وحس الاختراع يجد أنهم كانوا من المهتمين بالتجربة المباشرة فكانوا بالدرجة الأولى من العمليين ولم يكونوا من مرددي أقوال السابقين؛ لذلك يرى عالم الرياضيات الشهير الفيلسوف ألفريد وايتهد بأن الأهمية البالغة لأفكار مؤسس العلم الحديث فرانسيس بيكون: (أنه ثار ضد المعرفة بالواسطة» لذلك يثور وايتهد على ذلك: «التقابل الفاحش بين الذهن والجسم وبين الفكر والعمل» لأنه يرى أن: «هناك تأثيراً متبادلاً بين النشاط الذهني والنشاط الجسمي الخلَّاب ولليدين في هذا التأثير المتبادل أهمية خاصة. وعدم استعمال اليد في العمل هو من أسباب الانحلال الذهني» ويؤكد وايتهد رغم أنه متخصص في مجال من أشد العلوم تجريداً بأنه لا حياة للذهن إلا بمواجهة الواقع واستخلاص المعرفة منه: «فالمعرفة المباشرة هي الأساس الأعظم للحياة الذهنية أما التعليم بالكتب فيقدِّم المعلومات بالواسطة غالباً لا مباشرة ولهذا لا يمكن أن يرقى إلى أهمية الممارسة المباشرة» ويؤكد هذا العالم الفيلسوف بأن علينا: «أن نرى الحوادث المباشرة أما الكتب فتقدِّم لنا معلومات مأخوذة من أفكار مستقاة من معلومات مارسها الآخرون فأعظم ميزة لتعليم علمي يجب أن تكون إقامة التفكير على الملاحظة المباشرة» إن هذا الذي يجعل العمل ينبوع العلم ليس من رجال العمل بمعناه المألوف فهو عالم رياضيات وفيلسوف ومؤلفاته ذات صبغة تجريدية موغلة كما أنه من ناحية أخرى فيلسوف منتج للأفكار في أرفع تجلياتها التجريدية لكنه مع ذلك أو بسبب ذلك يدرك أن بلوغ الوضوح التجريدي لا يمكن أن يأتي من فراغ وإنما ينبثق من العمل فنحن لا نكتسب

المعرفة المجردة إلا إذا عايشنا الوقائع المادية فتكشَّفت لنا من خلالها مضموناتها التجريدية لأن تثقيف الذهن كما يرى وايتهِد: «ما هو إلا الطريقة التي يعمل بها الذهن عندما يستثار للنشاط فالعمل والربط بين الأحداث برابط السبب والنتيجة ضروريان والتعليم الذي يفصل الحياة الذهنية أو الذوقية عن هذين الأساسين لا بد أن يؤدي إلى انحلال الحضارة فالثقافة أساساً يجب أن تكون للعمل» أما كنيث بولدنج فإنه في كتابه (مغزى القرن العشرين ونقاط التحول العظمى) يلفت النظر إلى حقيقة تاريخية هامة وهي أن كل تقدم في المعرفة النظرية كان مسبوقاً بنجاحات عملية أو ظهور اختراعات: «إن الزراعة مهدت الطريق أمام تنمية الكتابة والحضارة» فالكتابة ذاتها وهي الفتح الأكبر من فتوحات التطور الحضاري للإنسانية هي من المخترعات وليست من العلوم وكذلك التحول من عهد التنقل والقنص إلى عهد الزراعة والاستقرار وإنشاء المستوطنات هو من قبيل الإنجازات العملية التي سبقت العلم النظري فما من علوم نظرية إلا كانت مسبوقة بنجاحات عملية أو مخترعات تقنية...

حتى حركة التنوير لم تُركز على الفلسفة والفكر والعلم؛ وإنما أظهرت موسوعة التنوير التي قادها ديدرو اهتمامًا شديدًا بالمخترعات والأعمال الحِرَفية لا يقل عن اهتمامها بالفكر المحض ولذلك كان اسم الموسوعة (قاموس عقلاني للعلوم والصناعات والحِرَف) أما جوناثان إزرايل في كتابه الحافل عن (التنوير) فقد وصَفَ فكر ديدرو وعمله الموسوعي بأنه: «مشروع التنوير الأكثر ابتكارًا وتأثيرًا» كما وصَف الموسوعة بأنها قد: «شكَّلت إطارًا جديدًا للمعرفة والفهم؛ متحررًا من الأكاديميات، وحلقات المتعلمين المغلقة، يُعَدُّ رصيدًا عامًّا ومُلْكًا مُيَسَّرًا، من حيث المبدأ للجميع. لقد أريد منها أن تكون تلخيصًا لكل المعرفة القائمة، وتنظيمًا لما نعرفه؛ بما يجعل المعرفة البشرية ميسَّرة» لقد كان ديدرو يستهدف من الموسوعة أن يجعل الفلسفة اهتمامًا شعبيًّا عامًّا وأن يؤكد العلاقة بين الفكر والعمل؛ فقد كان تأثير الثورة الصناعية قويًّا وقد صرح ديدرو بأن الموسوعة قد وُضِعَتْ: «من أجل تغيير طريقة التفكير العامة» وقد كتب فولتير عن ديدرو يقول: «كل شيء يقع في دائرة نشاط عبقريته؛ فهو ينتقل من أعالي

الميتافيزيقا إلى نول الحايك، ومن هناك يذهب إلى المسرح» ويقول الفيلسوف مات ريدلي في كتابه (تطور كل شيء): «في الموسوعة، اعتقد ديدرو وزملاؤه بأن التاريخ أعطى الكثير من الفضل لقادة الناس والقليل للغاية للأحداث والظروف. لقد أرادوا كسر ذلك العود الشامخ. لقد ابتغوا تذكير قرائهم بأن التاريخ هو عملية يقودها الآلاف من البشر العاديين» وهذا ناشئ عن الوهم الذي كان سائدًا في عصر التنوير من أنه متى أتيحت المعرفة للعموم فإن الكل سيصبحون عقلانيين لكن التاريخ أثبت بطلان هذا التصور...

ثم قامت في فرنسا حركة معادية للتنوير وتطالب بالتركيز المطلق على العمل وعلى الصناعة وتعلن أولوية الممارسة العملية على التنظير ويتقدم هؤلاء سان سيمون الذي صار له أتباع يُنسَبون إليه ويَحمِلون اسمه فقد أصدر العديد من الكتب منها كتابه (النظام الصناعي) لقد شدته الثورة الصناعية، ورأى توجيه المجتمع بأكمله للعمل في الصناعة، أو في مجالات تخدم الصناعة، والعناية بالإنتاج بمختلف قطاعاته. وقد نادى بأن: «كل إنسان عليه أن يعمل» وبأن مهمة العلم تيسير وتطوير العمل، وأن كل ما يجب التعويل عليه هو الممارسة وليس التنظير فهو يركز على الأداء وليس على المعلومات. ويقول: «التعليم واللغة والتشريع؛ ليست سوى شيءٍ مجردٍ؛ الشيءُ الكاملُ هو الإنسان المتحرك، الإنسان الجسدي والمرئي، الذي يناضل ويعمل، اتركوا جانبًا نظرية المؤسسات وآلياتها، وحاولوا أن تروا الأشخاص في ورشاتهم وحقولهم ومكاتبهم» وكتب سان سيمون يقول: «لنفترض أن فرنسا، قد فَقَدَتْ في شكلٍ مفاجئ، ثلاثة آلاف هم الأفضل في العلوم والفنون والأعمال والحرف. وبما أن هؤلاء؛ هم الفرنسيون الأكثر إنتاجًا ويوفرون الأشغال الأكثر مَنَعَة للأمة جاعلينها من بين الأمم المنتجة؛ فإن الأمة إذْ تفقدهم ستصبح جسدًا لا روح فيه. وهي على الفور ستسقط في وضعٍ متدنٍ بين الأمم التي تعاملها اليوم معاملة الند للند. لنفترض أن فرنسا قد احتفظت بكل العباقرة في العلم والفن والأعمال والحرف لكنها فقدت في اليوم نفسه ثلاثة آلاف من الوجهاء؛ فلن تسبب للفرنسيين من الشجن إلا ذلك الشجن العاطفي. وذلك لأن الآثار السيئة المترتبة على الأمة ستكون صفرًا»

ثم يقول: «إن ازدهار فرنسا لن تقوم له قائمة إلا بفعل تقدم العلوم والفنون والحِرَف» إن فلسفة سان سيمون قد انتشرت في العالم وكانت لها أصداء ثم خبت بظهور فلسفات أخرى مثل الفلسفة الوضعية لكونت وكان في الأصل تلميذا لسان سيمون وعمل سكرتيرًا له كما ظهرت فلسفة شارل فورييه، وروبرت أوين وكارل ماركس وآخرين. وكلهم استهدفوا إحداث تغييرات جوهرية على الأوضاع الاجتماعية والإنسانية...

إن التاريخ الإنساني بدأ بالعمل وظل معتمدا على الممارسة والخبرة الموروثة والمباشرة خلال أطول مدة عاشها على هذه الأرض، ومكتفيًا بها. أما القفز الخارق إلى مستوى التجريد والتنظير فقد جاء متأخرًا وما يزال الفكر المجرد غير مستوطن للعقل البشري لأن العقل طاقة عملية، فطاقته لا تتفتح إلا بالتعامل المباشر مع الأشياء. أما الاختراق التجريدي فهو ليس أكثر من ومضات فردية خارقة. إن الأدوات التي اخترعها الإنسان قد نشأت عن العمل. إن الزراعة والكتابة من التطورات التكنولوجية الهائلة وكلاهما سابق للعلم بمعناه النظري الحديث كما أن اختراع المطبعة يعتبر إحدى نقاط التحول العظمى في الحياة البشرية وهو عمل تكنولوجي بحت اخترعه رجل أمي مما يؤكد أن المخترعات هي التي فتحت الآفاق للعلم. يقول بولدنج: «وهناك اختراع آخر ظهر في مرحلة ما قبل العلم وأرسى الأساس لنهضة العلم شأنه في ذلك شأن الطباعة وهذا الاختراع هو آلية الساعة إذ شهد القرن الخامس عشر الميلادي في أوربا بعض التقدم الملحوظ في الهندسة الميكانيكية وخاصة في تنمية ميكانيكيات آلية الساعة ذات الإبداع الكبير والتصميمات المعقدة ومما لا شك فيه أن هذه النجاحات قد حوَّلت عقول الناس جيلا بعد جيل» وحين نمعن الدراسة في تاريخ الثورة الصناعية التي حدثت في إنجلترا خلال الفترة مابين (1770م ـ 1830م) نجد أن التحولات لم تحصل في البداية على أيدي العلماء وإنما كما يقول المؤرخ الأمريكي كارلتون هيز جاءت على أيدي المخترعين: «فإن المكائن التي اعتمد عليها العلم في نموه كانت من عمل رجال مغمورين» ثم يقول: «لم يشهد العالم من قبل مثلاً لهذا المشهد الذي مثلته إنجلترا بعد أربعة أجيال من الاختراع

والدأب. مشهد وسائل المواصلات وقد أصبحت سريعة بما يفوق أكثر الأحلام بُعداً عن الحقيقة ومشهد المصانع وقد ازدحمت بالآلات البارعة ومشهد الصناعات وقد جُلبت موادها الأولية من أحد نصفي الكرة الأرضية بينما بُعثت بضائعها المصنوعة إلى النصف الآخر. ومشهد المدن الضخمة. ومشهد سكانٍ أصبح رنين جرس المصنع يتحكم فيهم» ولا يتردد فيشر بأن يؤكد بأن: «ذلك لم يكن راجعاً إلى مستوى عال من الثقافة العامة وإنما يعود إلى وجود الجو الملائم للاختراع في الصناعة على وجه الخصوص والمبادرة باستغلال نتائجه» ويقول فيشر: «لم يكن من الممكن إحداث هذه التغييرات بدون الاختراعات فإن حفنة صغيرة من الجديرين أقل عدداً مما تحتاج إليه مباراة لكرة القدم نجحت في أن تغيِّر ببراعتها حياة البلاد فما أن ثارت في الإنجليز روح التطلع والبحث حتى أصبح لا مفر من أن توجَّه نحو أهم أمر كان يشغل الشعب الإنجليزي في ذلك الوقت وهو السعي في طلب المال عن طريق الصناعة والتجارة» إن قصة الحضارة البشرية هي قصة الاختراع والاتباع وليس الاختراع مقتصراً على ابتكار آلات وأدوات جديدة. ولكن الاختراع قد يكون في مجال العلاقات الإنسانية وفي المؤسسات الاجتماعية والأنماط السلوكية فالاختراع والاتباع عموماً هما مصدر التحوُّلات في الحياة البشرية؛ لذلك فإن حياة المبتكرين قد نالت في المجتمعات المزدهرة الاهتمام الذي تستحقه بما يوازي أثرها في تأسيس العلم وتوسيع دائرة المعرفة البشرية وفي تنمية وسائل الحياة الإنسانية وفي تقدم الحضارة بشكل عام.....

المهم أن يكون واضحًا الفارق النوعي بين المعرفة النظرية، والأداء العملي الذي هو من فنون الأداء؛ فالمعرفة يشترك فيها كل من يتلقاها فهي عامة ومتاحة لِكل راغب. أما الأداء في أي مجال؛ فهو فنٌّ فرديٌّ سواء كان الأداء في مجال الجراحة أم في مجال الفن المعماري، أم في مجال الرسم أم في مجال الفن الروائي أم في مجال الخطابة أم في مجال الأداء المسرحي، أم في مجال المقال الصحفي، أو في أي مجال من مجالات الأعمال الوظيفية. إن من أوضح الأمثلة على اختلاف الأداء، عن المعرفة النظرية؛ اختلاف الناس في الأداء

اللغوي؛ منطوقًا ومكتوبًا إن الملايين تجمعهم لغة واحدة ولكن الأداء اللغوي عند كل واحد منهم يختلف عن الأداء عند كل الآخرين؛ سواء في الحديث العادي، أم في التحدث أمام جَمْعٍ كخطابة، أو محاضرة، أم في الكتابة، وسواء كان نثرًا أم شعرًا. إن بعض الناس يشد السامعين بحديثة، ويأسرهم، ويستثير انتباههم. وبعضهم حين يتحدثون يصيبون السامعين بالضجر والنفور. إن الشاعر المبدع يستخدم نفس اللغة التي يستخدمها العيي المتلعثم. يقول الناقد ميخائيل نعيمة: «إن لمفردات اللغة التي نصوغ منها منثوراتنا ومنظوماتنا، صفات عجيبة وميزات غريبة؛ فلكل كلمة معنى، أو روح، ولكل كلمة رنة، ولكل كلمة صبغة أو لون. والمُجيد من الكتَّاب والشعراء؛ مَن إذا شاء الإفصاح عن عاطفة أو فكر؛ جَمَعَ بين مفردات يتولد من ارتباط معانيها، معنًى جلي، ومن اندماج ألوانها؛ صورة واضحة جميلة، ومن تآلفِ رنَّانٍ، لحنٌ رقيقٌ شجيٌّ» لذلك يقال الإنسان هو الأسلوب لأنه بأسلوبه الخاص المتفرد يتميز عن غيره إلى درجة أنه لو حذَفَ اسمه من النص لبقي أسلوبه مشيرًا إليه ناطقًا بوجوده. تقرأ نصًا للعقاد فتعرف أنه له، حتى لو كان لا يحمل اسمه. وتقرأ نصًا لطه حسين فتعرف أنه له حتى لو كان مُغْفَلًا من اسمه...

وتختلف قدرات الناس في استخدام اللغة المشتركة، ولبيان هذه الفروق الفردية في الأداء اللغوي؛ نشأ علم البلاغة وعلم الأسلوب وغيرهما من العلوم التي تميز شخصًا عن آخر في الأداء. لذلك نشأت فنون الأداء. في دراسة للدكتور عيد بلبع عن (نشأة البلاغة العربية) يقول: «البلاغة كانت دائمًا معنية بالنجاعة والاقتدار، وبالحسن والأحسن، وبالجيد والأجود، وما إلى هذا من معايير النسبية، ونسبية المعايير» ويضيف: «لقد جاء السؤال عن الكيف طاغيًا مسيطرًا على العقل العربي في قراءته الاستعادية الشارحة أحيانًا؛ وسؤال الكيف هنا نعني به رصد الكيفية التي توزَّع بها الدرس البلاغي في المعارف والعلوم العربية الأولى» ويضيف: «إن البلاغة معرفة تكاملية بالضرورة تتسم بالقدرة والطواعية في آن على مستوى ظهورها الأول وتَشَكُّلِها في العلوم والمعارف، وعلى مستوى امتدادها حديثًا في جدلية وجودها المتفاعل مع العلوم والمعارف

اللغوية وغير اللغوية» وهكذا نشأ علم البلاغة لتمييز مهارات استخدام اللغة...

الفن الروائي فنٌّ مركَّب وشديد التعقيد ولا يجيده سوى عدد قليل جدا من ملايين المتعلمين، إن من يملك المعارف، لكنه لا يملك القدرة الفنية في هذا الفن سوف يجد نفسه عاجزًا عن الدخول الناجع في هذا الفن الرفيع. لذلك ينبه الناقد الدكتور رشاد رشدي: «إذا كنتَ فيلسوفًا أو مفكرًا فليس معنى هذا أنك تستطيع أن تكون فنانًا إذا حاولتَ؛ لأن الفنان يولد ولا يُصنع. وهذه هي مشكلة الفنان الذي لا يمارس العمل الفني فينصرف بطاقته الفنية إلى حياته وحياة من حوله يصنعها ويعيد صُنعها من جديد إلى أن تتحطم بين يديه لأن الفنان لابد أن يَصنع. ولكنها أيضا مشكلة غير الفنان الذي يحاول أن يمارس الفن فهو قد يوهم نفسه ويوهم غيره بأنه يستطيع أن يَصنع ما يفيد الناس ويفيد الحياة ولكنه في الحقيقة عاجزٌ عن الخلق» ويوضح العالم المبدع أمبرتو إيكو أن كثيرين من الأساتذة الجامعيين والباحثين، يطمحون إلى أن يبدعوا في الفن الروائي، لكنهم بعد المحاولة يجدون ذلك غير ممكن؛ فالفن إبداعٌ فردي لا يتاح إلى لمن يملكون حساسية خاصة تُمَكِّنهم من النجاح في المحاولة فيقول إيكو: «الكثير من الباحثين؛ أحسوا بالرغبة في سرد حكايات وتأسَّفوا لكونهم عاجزين عن القيام بذلك. وهذا يفسِّر أن أدراج الأساتذة الجامعيين مليئة بالروايات الرديئة التي لن ينشروها» فالفن مجالٌ مغايرٌ تمامًا لمجال المعلومات والمعارف النظرية. إن المتخصصين في مجال واحد كالطب، أو الفن المعماري؛ يختلفون في جودة الأداء اختلافات نوعية، فهذا طبيب جرَّاحٌ؛ تتحدث عنه الدنيا لمهاراته الفائقة، بينما أن زملاءه يزحفون زحفًا يتسم بالكلال. وذاك معماري يكتسب سمعة عالمية، ولكن آخرين كثيرين من نفس التخصص لا يتجاوزون مستوى النسخ والتقليد والِنقل، لأنهم حفظوا معلومات لكنهم لا يملكون موهبة الفن. وهذه النتائج تؤكد ضآلة دور التعليم الجمعي؛ فأغلب الباهرين في مجال الفنون علَّموا أنفسهم، أو اكتسبوا الفن بالتدريب والممارسة والموهبة أمثال دافنشي ورامبرانت ورفائيل ومايكل أنجلو وبتهوفن وريتشارد فاغنر وموزارت وتشايكوفسكي وأمثالهم...

إن عدم وضوح الفرق النوعي بين حقول الكم وحقول الكيف تنتج عنه اختلاطاتٌ معرفية وإملاقٌ مهني وخواءٌ أخلاقي واختلالاتٌ في التصور وجورٌ في الأحكام وفجاجة في الآراء واضطراب في القيم. إن الكم لا صورة له ولا شكل وإنما هو أكوامٌ أو أشتاتٌ من المواد أو الأفراد أو الأشياء أو الألفاظ أو المعلومات التي لا يجمعها رابط وليست أجزاء عضوية من كل. أما الكيف فهو نسيجٌ أو شكلٌ أو بناء أو تجسيدٌ أو صورةٌ مصنوعة قائمة بذاتها وقد ترابطت أجزاؤها وتكاملت جوانبها وتحدَّدت وظائف كل جزء منها وتَحقَّق فيها الشكلُ ولوحظ فيها الجمال واستهدفت غاية. إن مفردات اللغة على سبيل المثال هي مادَّة أو هي كمٌّ من الألفاظ لا يربطها نظام ولا تجمعها وشيجة أما القصيدة الجيدة فهي صورة زاهية جاءت على كيفية منتظمة وهيئة جميلة فالشاعر يلتقط المفردات المشاعة لكل الناس بل تنساب إليه الألفاظ انسيابًا تلقائيًا؛ فينفرد بصياغتها في شكل جميل معبِّر وبذلك فإن الشاعر يستخدم ألفاظ القاموس التي هي من الكم ويحيلها إلى قصيدة التي هي من الكيف. والكم ليس لديه قابلية ذاتية ليتحول إلى كيف وإنما الكيف عملٌ فردي لا يمكن تعليمه. ألفاظ اللغة يملكها جميع الناس لكن قلة منهم تستطيع أن تبني من كوم المفردات اللغوية نصًّا نثريًّا أو شعريًّا يخلب الألباب. إنها عملية شديدة التعقيد . . .

إن الشاعر أو الروائي أو القاص أو الكاتب لا يملك مفردات ليست متاحة للناس الآخرين ولكنه يستخدم نفس المفردات المشاعة غير أنه بهذه الألفاظ المتاحة للجميع يستطيع تشييد نص آسر يجد فيه القادرون على التذوق لذَّة غامرة. إن لذة النص ليست آتية من المفردات اللغوية ولكنها قد جاءت من عملية التشييد التي أقامت من أشتات المفردات بناء متماسكاً يتسم بالروعة والجمال وتمثل الألفاظ مادته فقط لكنها منظمة بطريقة خاصة موحية ومؤثرة أعطتها هذه المزية الجمالية والبنائية الآسرة. إن الروائي أو الشاعر أو القاص أو الكاتب يأخذ الألفاظ التي هي مجرد مادة فارغة فيحيلها إلى نص مليء بالحيوية والإشراق والجمال والمعنى وهو بذلك يحيل الكم إلى كيف . . .

يقال دائماً بأن الكاتب الفلاني أنيق العبارة جميل الأسلوب لكن هذه

الأناقة وهذا الجمال ليستا من الكلمات ذاتها وإنما من الطريقة التي بُنِيَتْ بها ومن الأسلوب الذي صيغت به فلو أنك أخذت نصاً نثريًا جميلاً ثم قدَّمت وأخَّرت في ترتيب الكلمات فإن الأسلوب يضطرب والبناء يختل والجمال يختفي. ولو أننا أخذنا أي نص بهيجٍ مُشِعٍّ ثم فكَّكْناه إلى مفردات لغوية وسلَّمنا هذه المفردات إلى آلاف أو ملايين الأشخاص لما استطاع إلا أصاحب الموهبة والخبرة والمران الارتقاء بهذه المفردات من حقل الكم إلى حقل الكيف؛ فالموهوب وحده هو الذي يستطيع أن يصوغ من هذه المفردات قطعة أدبية مبهجة. وليست القدرة على الارتقاء بالكم إلى كيف مقصورة على المتعلمين بل إن الملايين من حاملي أرفع الشهادات الدراسية في الكثير من المجالات لا يملكون القدرة الابداعية وإنما هم يرددون بعض ما لُقنوه أي أن معظم المتعلمين لا يستطيعون تحويل الكم إلى كيف فهذه القدرة الاستثنائية ليست مرتبطة بالتعليم ولا بمجاله ولا بمستواه. إن الإنسان الأمي الموهوب يكون مبدعاً في المجالات التي لا تحتاج إلى علم وليس أدل على ذلك من القصائد النبطية الرائعة التي تأخذ بمجامع القلوب حين يرويها راوٍ موهوب مثل محمد بن علي الشَّرهان. أو سلطان العازمي . . .

وليس الشعر وحده هو المجال الوحيد الذي يُبدع فيه الأميون الموهوبون فالقص أيضا مجالٌ لظهور المواهب الثرية وعلى سبيل المثال فإن حدثاً واحداً يشهده مئات الناس من المتعلمين والأميين فيروي كلٌّ واحد منهم قصة المشهد فلا يجد المستمع في رواياتهم أية لذة ولكن واحداً منهم فقط قد يكون أمياً ينفرد بعرض المشهد عرضاً مبهجاً يجعلك فوراً تدرك الفرق بين الموهوب والمحروم من الموهبة كما تدرك الفرق النوعي بين الكم والكيف. إنه إنسانٌ أمي ولكنه يملك موهبة الحديث المتقن فيأسرك حديثه وتجد لذة في الاستماع إليه مما يجعل الناس يتحلقون حوله كلما شرع يقص حتى لو كرر عرض القصة نفسها عشرات المرات وهذا هو الفن الذي لا يمكن تعليمه لأنه خاصية فردية...

إن المعلومات كمٌّ أما فن استخدامها فهو كيف فالفرق بين المعرفة ومهارة الاستخدام هو مثل الفرق بين المادة والصورة ومثل الفرق بين المفردات اللغوية

والقصيدة أو الرواية أو المقالة أو القصة والفجوة بين حيازة المادة وتحويلها إلى كيفية هي فجوة عميقة واسعة فهما ينتميان إلى حقلين مختلفين. وكذلك الانتقال من تحصيل المعلومات إلى إتقان المهارات هو انتقالٌ من حقل الكم إلى حقل الكيف لذلك فهو انتقالٌ شاق ويتطلب الكثير من الإخلاص والصبر والمثابرة وقبل ذلك لا بد من القابلية السخية. إن الفرق بين المعرفة وفن استخدامها هو مثل الفرق بين المادة والشكل فمادة واحدة مثل الجص يمكن أن تَخلق منها تُحفة فنية. ويمكن أن تتصلَّب المادة بين يديك دون أن تستطيع تحويلها إلى شكل متميز أو صورة نافعة أو تحفة جميلة. الفنان التشكيلي ليس امتلاكه للألوان ولا تحصيله للمعلومات عن هذا الفن هو الذي مكَّنه من إبداع صورة فنية رائعة تباع بالملايين وإنما الأدوات والمواد والمعلومات هي أشياء كمية تتطلب قدرة خاصة للارتقاء بها من مستوى الكم إلى مستوى الكيف . . .

إن الإبداع ليس محصورًا بالمادة بل إن القدرة على تنظيم شتات بشري وتكوين كيانٍ عظيم متماسك من هذا الشتات يُعتبَر إبداعا؛ إن الناس الذين كانوا يسكنون أمريكا الشمالية في نهاية القرن الثامن عشر كانوا كماً أما تحويل هذا الكم المبعثر بقارة كاملة إلى كيف فهو العمل الباهر الذي أنجزه الرجال المؤسسون لأمريكا، فقد كانت أمريكا وقت الاستقلال عن بريطانيا قابلة لألف شكل وكان بالإمكان أن تتحول كل ولاية إلى دولة مستقلة وان تضم أمريكا الشمالية خمسين أو أكثر من الدويلات الضعيفة المتناحرة لكن الصورة التي رسمها لأمريكا الرجال المؤسسون كانت صورة أخرى مغايرة فلم يحاول كل واحد من هؤلاء القادة أن ينفرد بولاية لتكوين دولة مستقلة وإنما كانت في أذهانهم صورة عملاقة لدولة عظمى تتكوَّن من قارة كاملة وهكذا كان فوَرَّثوا للأجيال التي أعقبتهم هذا الكيان البشري الجبار المذهل . . .

وفي المجال الإبداعي الكثرة من الناس لا تصنع القدرة فلو اجتمع ملايين الناس لما استطاعوا مجتمعين أن يتوصلوا إلى نظرية النسبية التي توصل إليها آينشتاين بمفرده فالكم مهما بلغ لا يتحول إلى كيف. اقرأ نصاً روائياً عظيماً مثل (الحرب والسلام) لتولستوي أو (البحث عن الزمن

الضائع) لبروست أو البؤساء لهوجو أو نصاً فلسفياً مثل (أفول الغرب) لاشبنجلر أو (نقد العقل المحض) لكانْتْ أو غيرها من روائع المبدعين وسوف تجد أنك أمام أعمال بنائية باهرة شديدة التركيب ولا يمكن أن ينجزها سوى أفراد موهوبين تشغل عقولهم قضايا كبرى ولو اجتمع ملايين الناس للتعاون في إنجاز عمل عقلي باهر لما استطاعوا. كان عالم الفيزياء الفرنسي بيير دوهَم وهو أيضا أحد فلاسفة العلم يسخر من الذين يحاولون إعادة الكيف إلى الكم وكان يقول: «اجمع في مؤتمر كبير من شئت من المهندسين الرديئين فإنك لن تظفر منهم مجتمعين بما يساوي ارخميدس أو لاجرانج وإذن فالكم لا يمكن أن يتحول بأية حال من أحوال الجَمْعِ إلى كيف. إن للكيف شدة ليست ناتجة عن جَمْعٍ أو كثرة عددية» الجمع إذا أُهمل ينحل والمنظَّم إذا تُرك ينفرط والبناء ينهدم والمعافى يُمرض والحي يموت وعوامل الانحلال هي الفاعل الدائم أما العكس فلا يمكن أن يكون فالأشياء المبعثرة لا يمكن أن تجمع ذاتها وتنتظم والفوضى لا يمكن أن تتحول ذاتياً إلى نظام وإنما العكس يحصل كل لحظة في كل شيء وفق ظاهرة الانتروبيا . . .

كان الناس في الجاهلية يحذقون اللغة الفصحى بالتلقي التلقائي المباشر وليس بالتعليم المنظَّم. إنهم يحذقونها حذقاً يفوق حذق الدارسين عشرات الأضعاف رغم أن اللغة العربية ذات قواعد صارمة وتركيبات دقيقة وفوارق خفيَّة. ورغم ذلك فإن الناس في الجاهلية خصوصًا الأعراب؛ كانوا لا يخطئون في النحو ويجيدون الفصاحة أما الذين جاءوا بعدهم فيدرسون الكثير من علوم اللغة ولكن اللحن يلازمهم والعي لا يبرح ألسنتهم لأن التعليم الشكلي لا يخلق الملكات وإنما هو شيء ملصق بالذاكرة ولا يندمج في النفوس ما لم يتحول إلى سلوك اجتماعي تلقائي. فالفارق الشاسع في المهارة اللغوية بين عرب الجاهلية وبين العرب في العصور المتأخِّرة ليس ناشئاً عن فوارق بيولوجية وراثية ولكنه ناشئ عن فرق الوسط الاجتماعي فقد كان الجميع في الجاهلية يمارسون الفصاحة بشكل عفوي فكانت المهارة اللغوية سليقة تلقائية تصاحبهم منذ الولادة وتترسخ فيهم مع ترسُّخ معاني الكلمات فيصيرون ماهرين بالتلقي والممارسة

ويستمرون في تلقيها وفي ممارستها بدون جهد ولا عناء فالفصاحة تتدفق من أفواههم كما يتدفق الماء الزلال من النبع الفوَّار...

ومقابل الفصاحة التلقائية التي كان يكتسبها الناشئون العرب بالتنشئة والتشرُّب التلقائي والممارسة نجد أن الأجانب الذين يتعلمون اللغة العربية بواسطة الكتب يواجهون صعوبة شديدة ليس في أن يكونوا فصحاء أو بلغاء ولكن حتى في التحدث البسيط رغم أن الواحد منهم يختزن في ذاكرته رصيداً ضخماً من المفردات والألفاظ والتراكيب اللغوية لا يتوفر مثله لدى معظم العرب. إنهم يستطيعون أن يقرأوا أعقد المؤلفات المكتوبة باللغة العربية لكنهم لا يستطيعون التحدث إلا بصعوبة شديدة. قابلت يابانياً حصل على الدكتوراه في الفلسفة من إحدى الجامعات المصرية تحت إشراف الدكتور حسن حنفي وموضوع دراسته من الموضوعات الإنسانية الدقيقة التي تحتاج إلى إلمام واسع ودقيق باللغة العربية ومع ذلك لا يتحدث بالعربية إلا بمشقة ظاهرة وعُسْر بالغ ليس عن نقص في رصيده من المفردات العربية وفهم التراكيب اللغوية ولكن بسبب غياب مهارة التحدث التي لا وسيلة إليها سوى الممارسة الطويلة والمران المتصل. إنه يستطيع بسهولة أن يفهم ما تقول مهما كان الموضوع دقيقاً ومهما طال الحديث ومهما تشعَّب إلا أنه لا يستطيع الرد إلا بعناءٍ مرهقٍ ولكنه يستطيع بسهولة أن يرد عليك كتابة بمنتهى الفصاحة لأنه يعرف قواعد اللغة ويملك ذخيرة كبيرة جدا من الألفاظ بمستوى لا يملكه إلا المثقفون من العرب. والشاهد الآخر كاتب أجنبي له شهرة عالمية قابلته في إحدى المناسبات يجيد عدداً من اللغات من بينها اللغة العربية قراءة وكتابة ويفهم ما يسمعه باللغة العربية مهما دقَّ الموضوع لكنه لا يستطيع التعبير بها عما يريد إلا بمشقة كبيرة إلى حد أنه يحتاج إلى مترجم أو يجيب كتابة لا

حديثاً. وما ينطبق على هاتين الحالتين ينطبق على كل من تعلَّم لغة أجنبية عن طريق الكتب دون ممارسة منتظمة فهو يبقى رغم رصيده اللغوي الضخم عاجزاً عن سلاسة الحديث لأن التحدث من المهارات وهي لا تُكتسب إلا بالممارسة المنتظمة الدائمة. لست بهذا أكتب عن اللغة ولكنني أريد أن تتضح

الكيفية التي تُكتسب بها المهارات في شتى جوانب الحياة ومن أهمها مهارة التفكير والمهارات المهنية فما من شيء يجيده الإنسان إلا إذا أقبل عليه برغبة ومارسه بانتظام ومثابرة...

وقد أكد على ذلك المدرب الشهير جوش كاوفمان حيث يقول: «في المدرسة تعلمت اللغة الأسبانية، وحفظت آلاف المفردات، وتصريفات الأفعال، وقواعد النحو؛ تعلمت كل هذه الأشياء بدرجة جيدة بما يكفي لاجتياز الاختبارات بتفوق. ورغم هذا لم تكن لهذه الاختبارات أية علاقة بقدرتي على ممارسة مهارة الحديث بالإسبانية، وفَهْم شخص يتحدث هذه اللغة» ومقابل هذا الإملاق من المهارة بعد التعلم من الكتب فإنه يؤكد أن فترة قصيرة: «في حوارات مع أشخاص يتحدثون الإسبانية؛ كانت ستأتي بنتائج أفضل من الأعوام الأربعة التي قضيتها في المدرسة» ثم يؤكد عن تجربة وعلم وخبرة فيقول: «فإذا أردتَ أن تكسب مهارة جديدة يجب أن تمارسها» إنه يؤكد بأن النجاح في التعليم بتفوق ليس اكتسابًا لمهارة الأداء. إن كاوفمان يقارن بين تعلُّم اللغة الأجنبية اكتسابًا بالمعايشة، وتعلم اللغة الأجنبية عن طريق الكتب؛ ليُظهر الفرق النوعي بين التعلم بالممارسة الجياشة، مقابل التعلم اضطرارًا بحفظ المقر الدراسي. لقد جرب بنفسه تعلُّم لغة أجنبية عن طريق الاجتهاد بالحفظ وحصل على نتائج ممتازة في الامتحانات. لكنه للمفارقة كان لا يستطيع أن يعبر بهذه اللغة عن أبسط الأمور بل لقد نسي القواعد والكلمات التي أرغم نفسه على حفظها. وهذه هي النتيجة التي تنتهي إليها كل المقررات الجامعية التي يدرسها الطلاب اضطرارًا بعيدًا عن أجواء الممارسة. ويقارن نتيجة دراسته العقيمة بنتيجة شخص آخر تعلم اللغة الأجنبية عن طريق الممارسة فأتقنها حديثًا وكتابة واستخدامًا في مختلف الأغراض مع أنه لم يكن يهتم بالقواعد التي ينشغل بها الدارسونَ ثم ينسونها بعد انتهاء الدراسة...

كل صاحب رؤية؛ يعبر عن رؤيته بالفن الذي يجيده؛ فقد يعبر عن رؤيته بمسرحية، وقد يعبر عن رؤيته برواية، وقد يعبر عنها بقصيدة، وقد يعبر عنها بلوحة فنية تبقى تطاول الزمن، وقد يعبر عنها برسم كريكاتوري يُكثِّف المعنى

فيعبِّر بمنتهى الإيجاز، وقد يعبر عنها بمقالة. يقول الفيلسوف الناقد كولنجوود في كتابه (مبادئ الفن): «الفنان يُنجز رواية، أو قصيدة، أو لوحة فنية، أو مقطوعة موسيقية؛ ما أسميناه الخَلْق. ولكي يتم خلق العمل الفني؛ يجب توفُّر انفعالات معينة، كما ينبغي أن تتوافر لديه السبل الضرورية للتعبير عن هذه الانفعالات» ويقول إرنست عومبرتش في كتابه (قصة الفن): «إنه لشيء ساحر أن نراقب الفنان وهو يجاهد؛ كي يُنجِز التوازن الصحيح. ولكن لو سألناه؛ لماذا فَعَلَ هذا وغيَّر ذاك؛ لربما عجز عن الإجابة؛ فهو لا يعمل وفق قواعد ثابتة. بل يتحسس طريقه لا غير» ويضيف: «إن بعض النقاد قد حاولوا أن يصوغوا قوانين للفن. ولكن الفنانين استطاعوا أن يَخْرموها وينجزوا نوعًا جديدًا من التوافق لم يخطر على بال أحدٍ من قبل» وللناقد الدكتور عبد المحسن طه بدر كتابٌ عن (الرؤية والأداة) يتناول فيه أدب نجيب محفوظ. وفيه يقول: «إن الأدب تعبيرٌ بالكلمة عن رؤية الأديب لواقعه، إن الأديب بعمله الأدبي يعيد تشكيل الواقع، ويختار منه ما يتلاءم مع رغبته في الكشف عن هذه الرؤية، وإن هذه الرؤية تكشف عن إدراك الأديب لعلاقات الواقع، كما تتضمن تخيُّله للصورة التي ينبغي أن تسود هذه العلاقات في المستقبل، إن رؤية الأديب كلما كانت أكثر عمقًا وحساسية وذكاءً؛ كانت أقدر على كشف القُوى التي تعوق حركة الواقع، وتقهر إنسانية الإنسان، كما أنها تصبح أقدر على تخيُّل طبيعة المستقبل الذي يحقق للإنسان إنسانيته» ويقول كلود روَى في كتابه (دفاعًا عن الأدب): «ثمة دائمًا عملية التعلم، يذوقها في تفاعله مع الكلمات. وهذا سحر علم البيان. والشاعر الحقيقي هو الذي يؤمن بالكلمات، ويحس أنه خسر كل شيء إذا خسر كلمةً فاتته، فالكلمات تتنفس على أنامله، وتكون نشوته عظيمة حين الكلمة المواتية تأتيه في حينها تُتَوِّج انتظاره» ويضيف: «لكن ثمة تطورًا نوعيًّا في المواهب والمنابع الإنسانية التي يُعبَّر عنها» أما الروائية البريطانية شارلوت برونتي فقد كانت حبيسة عالمها المكاني الضيق، لكنها فنانة مبدعة، وكانت تتمنى أن يكون عالمها أوسع وأغنى فكتبت تقول: «كان يلهبني اشتهاء أن أملك طاقة رؤية تتخطى حدود ضيعتي، وكنت أشتهي امتلاك تجربة عملية أكثر مما لدي، وتواصُلاً اكثر مع

أصدقائي، ومعرفةً أكثر لتنوع الأمزجة، ما كنت أقطفها لو بقيت في ضيعتي» لكنها بإبداعها الروائي الفذ؛ لم تبق حبيسة مكان محدود، وزمانٍ قصير ولكن عمرها قد امتد بامتداد انتشار إبداعها في مختلف اللغات فصارت ملء السمع والبصر برؤيتها الخارقة، وفنها الرفيع، رغم ضيق المكان، ومحدودية الزمان؛ إنه الإبداع الذي يخترق الآفاق، ويبدد الصمت، ويُروي الظمأ، ويُلهِب العواطف، ويملأ النفوس بمتعة الفن وعذوبة الإبداع وثراء الرؤية...

كان البحث عن الكسب المادي؛ مُدانًا بالكاثوليكية؛ فالإنسان مطلوبٌ منه أن يحصر اهتمامه بالخلاص الأخروي؛ لذلك لم يكن للعمل قيمة مقدَّرة. ولكن بعد الانشقاق البروتستانتي، وانتشار مذهب جون كالفن، انقلب الوضع تمامًا فصار العمل مقدَّسًا، وصار جمع المال والادخار من الأعمال التي تجلب الحسنات الأخروية والخير الدنيوي للأفراد والمجتمعات؛ وهذا تغيُّر جوهري في الرؤية، وفي الحوافز، وفي الآمال، والأعمال. وقد قدَّم الرئد في علم الاجتماع ماكس فيبر هذه الظاهرة، الدينية الجديدة، ردًّا على الفلسفة الماركسية؛ لقد أصبح العمل مقدَّسًا، وبات الربح ممدوحًا بدلا من أن يكون مدانًا. إن هذا التحول في المُثُل أحدث أثارًا عميقة في الأوضاع الفردية والنجاح الاقتصادي والتطور الاجتماعي. وهكذا يكون تأثير المثُل حاسمًا. يؤكد جون هرمان راندال في كتابه (تكوين العقل الحديث) بأن الـمُثل العليا الأخلاقية كانت بالغة القوة فاستجاشت الطاقة البشرية وراحت هذه الـمُثل تستحث الناس وتزرع فيهم الثقة بالنفس وتغريهم بالجهد الشاق من أجل العمل والابتكار: «هي مَثلٌ أعلى جديد في التاريخ الأوربي ومازالت حتى اليوم من أكثر الـمُثل العليا انتشاراً بين الناس وتعود قوتها إلى الطريقة المدهشة التي تمكنت بفضلها من تحقيق الانسجام والسمو لمقاصد المجتمع الصناعي وأهدافه» ويقول راندال: «كان المثل الأعلى رجلاً يعيَش في غير ارعواء وقد عارضه مذهب التطهر بمثل أعلى لرجل نظَّم حياته على أساس عقلي ووقفها من أجل تحقيق غاية جدية فهدفه سام يتطلع لأن يخدم بأفضل ما تمكِّنه به قواه وهو من أجل ذلك بحاجة إلى حس ثابت بالمسؤولية وانضباط دقيق لا يترك مجالاً لأية قوى أن تضيع سدى. لذلك فهو

عوضاً عن أن يبذر قواه في آلاف المساعي يفضل أن يحصرها كلها لتحقيق الهدف الذي يشعر في نفسه بأنه مدعو إليه وهو كالجندي يحتم عليه شعوره بالواجب أن يبذل قصارى الجهد وأن يبتعد في رجاحة عما يتعارض مع ذلك الواجب وهو لا يتناول واجبه بروح الهواية أو الغواية بل بجدية الرجل المحترف ـ بكل ما في هذا الوصف من معان دقيقة تسيطر على حياته إرادة لا تُقهر» ثم يقول: «كان من الطبيعي أن ينسجم هذا المزاج انسجاما فائقا مع المثل العليا للطبقة المتوسطة وكان للضبط الأخلاقي الذي فرضه مذهب التطهر رد فعل قوي على الصناعة فقد اعتبرت الحياة الدينية حياة منظمة في أساسها توجب إخضاع الأهواء لرقابة عقلية لذلك فإن مذهب التطهر قطع ما بين الناس وبين التبذير ولذائذ الدنيا وندد بشدة بضروب الاستمتاع التي تتلف المال والنشاط فلا يجوز إضاعة الوقت والمواهب بل على العكس يقضي واجب المسيحي الأول أن يستثمر قواه وممتلكاته أحسن استثمار ممكن حيثما كان عمله أما الكسل فخطيئة أكيدة حتى ليشك بإمكان حظوة الكسول بالنعمة الإلهية ولا يجوز أن يظل أي إنسان عاطلاً عن العمل حتى الرجل الثري عليه أن يجد ما يشغل نفسه به في خدمة الصالح العام ولا ريب في أن تشديد فرقة المتطهرين على هذه الاتجاهات قد أدى إلى تنمية روح الصناعة والمشاريع التي تميزت بها الرأسمالية الحديثة كما أن إلحاحهم على ضرورة الاعتدال في المأكل وتقوية الروابط المنزلية شجع التوفير وأدى إلى تجميع رأس المال وعلاوة على ذلك فإن الإصرار على الاستفادة من الوقت بكل دقة والسيطرة على الذات ساعدا تكوين العادات المنتظمة التي تعتمد عليها الصناعة الحديثة ولقد وجدت الفضائل التجارية كالاستقامة والدقة والمثابرة عضداً في أخلاق المتطهرين وإن ما كان يميز الحركة من تشديد على المسؤولية الشخصية قد خلق بين الناس استقلالاً في معالجة قضايا الأعمال وأنمى بالتالي قوة المبادرة الفردية» ويواصل راندال القول: «وهكذا كانت النتيجة الأخلاقية للإصلاح الديني ظهور نوع من المثل الأعلى وجه قوى الناس صوب الصناعة وخدم الطبقة المتوسطة وكانت مظاهر هذا المثل الأعلى حركة التطهر في إنجلترا والحركة الجانسنية التي انتشرت في

بور رويال في فرنسا وبتأثير مذهب لوثر وبتشديده على قدسية الحرفة وهو تشديد فاقه فيه مذهب كالفن نشطت تلك الصفات الضرورية للنجاح الدنيوي ولقد نادى المذهبان بضرورة التقيد بتنفيذ الواجب اليومي وحده» في ذلك الوقت كتب ريتشارد باكستر وهو أحد رجال الدين في إنجلترا التي كانت معقل الثورة الصناعية: «لك أن تعمل جاهداً في هذا الأمر بما يوصلك إلى أكبر قسط من النجاح والربح المشروع لأنك ملزم بأن تنمي جميع مواهبك فإذا أظهر الله لك طريقا تستطيع به أن تؤدي ربحاً مشروعاً أكثر ورفضت ذلك الطريق واخترت الطريق التي تؤدي إلى ربح أقل تكون قد ابتعدت عن غاية قصدت لها ورفضت أن تكون خادما لله» في المجلد الأول من كتاب (تكوين العقل الحديث) وصفٌ رائعٌ عن حالة الاندفاع التي انتابت المجتمعات الأوربية للكدح والعمل والإنجاز: «ونجد هذا الاتحاد بين روح التطهر وروح الطبقات التجارية أعمق في نفوس سكان أوربا الشمالية منه في المذاهب البروتستانتية الدينية. لكن المتطهرين صوروا العمل أمراً قدسه الله. الجهد والكد الدائبين وتأكيدهم خطيئة الإغراق في تبذير الثروات قد اجتمعا معاً فجعلا من جمع الثروة واجباً مقدسا فالعمل والتوفير أديا معاً إلى بناء الرأسمالية الحديثة. من أجل خدمة الحياة الصالحة وقد ظل هذا المبدأ حياً بين من أورثوه من مبادئهم حتى يومنا الحديث فالشعار كان ومازال هو: «يجب أن يَستحوذ على كامل نفسك سعيُك الحثيثُ المشروعُ في عملك» هذه الحقيقة التاريخية التي أكَّدها جون هرمان راندال في كتابه (تكوين العقل الحديث) هي التي تدور عليها فلسفة ماكس فيبر الاجتماعية وهي الفلسفة التي نالت اهتماماً عالمياً بوصفها الفلسفة المناهضة للفلسفة الماركسية...

إن تعبئة قابليات الإنسان تأتي بالمدهش؛ مشهدٌ رائعٌ لقد قطع شخصٌ مسافةً طَويلة ماشيًا على حبل مشدود بين قمتين جبليتين بينهما هاوية عميقة جدا وممتدة لمسافة طويلة لكنه اجتاز المسافة فوق الحبل بجسارة وثبات. والدلالة المهمة ليست محصورة في المشهد بل في دلالته العامة في كل المجالات المعرفية والعملية والتفكير والسلوك فلا يمكن اكتساب مثل هذه المهارات العالية

ولا ما هو دونها من مهارات الأداء بأية معلومات وإنما مصدرها الحقيقي هو المران الطويل والممارسة الشغوفة حتى يتشبع بها الفرد وتمتلئ منها قابلياته جسمًا وعقلاً؛ فهي فيضانٌ تلقائي ينساب أو يتدفق من القابليات المكتظة بعد التعبئة الكثيفة المنتظمة فالأداء المتقن في الطب والهندسة والمحاماة والإدارة والخطابة والكتابة وفي كل المهن وجميع أنواع الأداء مصدره الحقيقي هو الممارسة والرغبة والمران والمتعة والتشبُّع والاعتياد فالمهارات لابد أن تنساب أو تتدفَّق تلقائيًا حسب درجة الاهتمام التلقائي والاكتظاظ والتعبئة...

إن الأداء الرياضي بمختلف أنواعه هو الأوضح في تأكيد الفروق الفردية وفي إبراز الفرق النوعي بين المعرفة النظرية والأداء العملي فهذا التفاوت الهائل بين مهارات اللاعبين وغيرهم وبين أفراد اللاعبين أنفسهم ليس ناتجًا عن تفاوت في المعلومات النظرية وإنما هو ناتجٌ عن التفاوت في القابليات وفي الرغبة وفي درجة الاهتمام وفي كثافة المران وانتظامه وطول مدته إن ندرة التفوق هي التي جعلت الأندية تتنافس على اللاعب المتميز وتدفع الملايين لإغرائه ليس لأنه يملك معلومات عن المجال لا يملكها الآخرون وإنما لأنه يملك في الأداء قدرات لا يملكها غيره...

الملايين من الشباب يتمنون أن يكونوا بشهرة مارادونا أو بيليه أو زيدان أو سواريز أو هيريرا أو كافاني أو فالكاو أو فان بيرسي أو دينيس رودمان أو غيرهم من النجوم العالميين إن ملايين الشباب يتلهفون على نيل الشهرة والثراء والأهمية التي نالها الشاب ليونيل ميسي. فكل المتميزين من ذوي المهارات الفائقة لم يكتسبوا هذا التميز الباهر والأداء الفائق بمعلومات ليست متوفرة لغيرهم وإنما اكتسبوها بالشغف والاندفاع والمران وبرمجة الذات بكثافة وعناية وانتظام...

إن مهارات الأداء لا تتكوَّن إلا بالممارسة فالمهارات العملية ليست من محتوى المعلومات إن الإنسان في تفكيره وأدائه وسلوكه ليس إلا سلسلة من العادات الذهنية والسلوكية ولكن العادات لا تتكوَّن إلا بتكرار الفعل وانتظامه

إلى درجة أن أي توقف عن المران المنتظم والممارسة الجياشة يؤدي إلى ضعف أو فقدان المهارة وكما يقول باجانيني: «إذا انقطعتُ عن التمرُّن على العزف ثلاثة أيام متتالية تبيَّن قصوري للجمهور فإذا انقطعتُ يومين تبيَّن للناقد الحساس أما إذا انقطت يومًا واحدًا فلن يكتشف قصوري سواي» فهو بسبب توقف يوم واحد عن التمرينات يُلاحظ هو نفسه النقص في أدائه وهذا يؤكد أن الممارسة بشغف واهتمام هي مصدر المهارة وأن أي توقف عن هذه الممارسة الشغوفة يؤدي تلقائيًا إلى تقلص المهارة. فكيف يكون مستوى الشخص إذا كان لم يمارس أصلاً وإنما اضطر إلى حفظ بعض القواعد والأمثلة والنصوص التي مكَّنته من النجاح لكنها لا تحمل أية مهارة عملية؟!...

يُعَلِّق المبدع الكبير يحي حقي على قول باجانيني موافقًا عليه ومؤكدًا له ومكررًا التأكيد على أن توقُّف المران يومًا واحدًا يؤثِّر على مستوى الأداء ويبعده عن الكمال أما الانقطاع الطويل فيؤدي إلى تبخر المهارة بالنسيان فإذا عاد للمجال فإنه يحتاج إلى إعادة المران حتى يسترجع المهارة المندثرة إلى درجة أن الطيار الذي ينقطع عن الممارسة بإجازة طويلة لا يُقلع وحده بعد العودة إلا حين يستعيد مهارته...

إن طاقات الإنسان تتوقد بالرغبة العميقة والاهتمام التلقائي وكما يقول وليم كوبر: «يبدأ البحث عندما يحدث أمرٌ يُشعل خيال المرء. شيءٌ ما يجهله الإنسان وتصبح مسألة التعرف عليه واكتناهه جَذَّابة. ويصبح جزئيًا ذلك الشيء نفسه مُهمًا وأخَّاذًا بحدِّ ذاته. وبصورة جزئية أيضا يرتبط الأمر بإثارة داخلية تحث المرء على معرفة ذلك الشيء. ثمة شرارة وتحفيز يجعل عملية التعرف فائقة الإثارة إلى حد يصعب مقاومته. هناك التماعٌ وكحال الحب يعرف الإنسان أنه وقع في أسره» هكذا ينشأ الاهتمام ويتكون الارتباط وتلتهب الرغبة وتنساب أو تتدفق الطاقة الإبداعية أو الإنشائية...

حَضارَة مُعاقَة

(إمكانات هائلة تدار بحكمة هزيلة واستغراق في صِراعات البَقاء)

هذا كتابٌ استثنائيٌ فريد، إنه رغم صغر حجمه فإنه زاخرٌ بالحقائق والأفكار والرؤى والقضايا لقد تناول الكتاب قصة الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض قبل أكثر من مليوني سنة، وكيف أنه أمضى كل ذلك الزمن السرمدي، شريدًا تائهًا عاجزًا، ثم ابتكر اللغة وبدأ بابتكار أدوات كليلة من الحجر والشجر، ومنذ زمن ليس بالبعيد ابتكر الزراعة وبدأ في الاستقرار وكانت الأقوام الرُّحّل تجتاح المستقرين فتقتل وتسلب وتستعبد. كانت بدايات الإنسان موغلة في الضعف والكلال والعجز والشقاء؛ ولم تكن توحي بأن هذا المخلوق البائس سوف يغزو الفضاء ويحط على القمر ويجوب آفاق الكون ويتعرف على كل شيء ولكنه رغم كل ما أنتجه من أفكار مضيئة، وما حققه من علوم دقيقة، وما أبدعه من آداب وفنون وتقنيات؛ إلا أنه رغم ذلك ما زال محكومًا بسوابق التاريخ إنه لم يستطع أن يتحرر من الأنساق الثقافية التي تنساب تلقائيًا من كل جيل سابق إلى كل جيل لاحق، وبهذه الحتمية الثقافية بقي الإنسان أسيرًا لماضيه القديم سواء من خلال ما تختزنه الجينات أو ما تتطبّع به أدمغة الأجيال...

ورغم أن تعميم التعليم هو أضخم مشروع إنساني فكل الدول عممت التعليم إلا أن النتائج جاءت كارثية، فبقيت كل الأمم تعيد إنتاج ذاتها وبقي العلم لإنتاج القوة وبناء قدرات التمكين كما أنه ركز اهتمامه في الجوانب الاقتصادية. وحتى على مستوى الأفراد فإن الإنسان المعاصر يتعلم للوظيفة وليس حبًا في المعرفة ولا إخلاصًا للحقيقة ولا تنمية للوعي ولا بناء للأخلاق وإنما من أجل الوظيفة والوجاهة، لقد استغرق في متطلبات البقاء فلم يتجاوز الاحتياجات البدائية؛ وبذلك بقيت الحضارة المعاصرة حضارة معاقة: فكرًا وأخلاقًا ولكن رغم هذه الإعاقة فإنها قد قدّمت للإنسان الفرد وللمرأة وللإنسانية أجمع مكتسبات عظيمة، ويكفي أن نتذكر أنه في كل الحضارات القديمة كانت الدول القوية تفترس الدول الأقل قوة فتسلب الأموال وتستعبد الرجال والنساء. وهذا مثال واحد على التغيرات النوعية التي طرأت على الحضارة الإنسانية إنها مكتسبات هائلة رغم أن الحضارة ما زالت معاقة لكنها قياسًا بالحضارات القديمة تمثل وثبة هائلة لصالح الإنسان ...

ابن النديم للنشر والتوزيع
51 شارع نهار بلعيد فويدر ـ وهران
هاتف: 03 76 20 661 213 +
فاكس: 88 97 25 41 213 +
ص.ب: 357 السانيا زرياني محمد
وهران ـ الجمهورية الجزائرية
email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
الإمارات العربية المتحدة ـ مركز الأعمال – مدينة الشارقة
للنشر – المنطقة الحرة – خلوي: 28 28 69 3 961 +
email: rw.culture@yahoo.com
توزيع: دار الروافد الثقافية – الحمراء ـ شارع ليون ـ
برج ليون، ط6 - بيروت ـ لبنان ـ ص.ب.113/6058
هاتف: 37 04 74 1 961 +

9786144661536